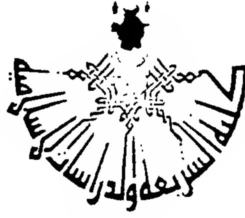
بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالى
جامعة أم القرى
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية



الرقم :
التاريخ : ١٥ / ٩ / ١٤٢٣
المرفقات :

إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات

الاسم (رباعي): حمزة بن محمد بن علي آل ياسين عسيري كلية الشريعة والدراسات الاسلامية
الأطروحة المقدمة لنيل درجة الماجستير. في تخصص الدراسات الإسلامية
عنوان الأطروحة: كتاب
التبيان في أقسام القرآن للإمام ابن القيم رحمه الله
دراسة وتحقيق

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين
و بناء على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الأطروحة المذكورة أعلاه والتي تمت مناقشتها بتاريخ
٦ / ٩ / ١٤٢٣هـ بعد إجراء التعديلات المطلوبة وحيث قد تم عمل اللازم فإن اللجنة
توصي بإجازتها في صيغتها المرفقة للدرجة العلمية المذكورة أعلاه . والله الموفق

أعضاء اللجنة

المشرف	المناقش	المناقش
د. أمين محمد عطية باشا	د/ جلال الدين إسماعيل عجوة	د/ عبد الله مرسان اللحيدي

مدير مركز الدراسات الإسلامية
الاسم د/أحمد بن ابراهيم الحبيب

يوضع هذا النموذج أمام الصفحة المقابله لصفحة عنوان الأطروحه في كل نسخة من الرسالة

مكة المكرمة ص . ب : ٣٧١٥
هاتف مباشر : ٥٢٨٠٧٠٧ . فاكس : تحويلة (٦)
سنترال : ٥٢٧٠٠٠٠

Makkah Al Mukarramah P.O.B : 3715
Tel No : 5280707. Fax : 6
Tel No : 5270000

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
مركز الدراسات الإسلامية





التبيان في أقسام القرآن للإمام ابن القيم

دراسة وتحقيق

بحث مقدم لنيل درجة الماجستير

إعداد الطالب

حمزة بن محمد علي آل ياسين عسيري

إشراف فضيلة الأستاذ الدكتور

أمين بن محمد باشا

العام الدراسي

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين . وبعد :

عنوان البحث : **كتاب التبيان في أيمان القرآن** للإمام أبن القيم رحمه الله ، دراسة وتحقيق .

وقد قسمت هذا البحث إلى مقدمة وقسمين أحدهما للدراسة وآخر للتحقيق.

أولا: المقدمة.

وتشتمل على أسباب اختيار الموضوع، وخطة البحث، وبيان المنهج الذي سرت عليه في تحقيق هذا الكتاب.

ثانيا: القسم الأول: الدراسة وجعلتها في مقدمة وبابين:

- أما المقدمة : فذكرت فيها العصر الذي عاش فيه المؤلف من الناحية السياسية والاجتماعية والعلمية، لأن ذلك يعطي صورة واضحة عن سيرة هذا الإمام والعوامل المؤثرة في تكوينه العلمي.

الباب الأول : في ترجمة المؤلف وقد قسمتها إلى فصلين:

- الفصل الأول: في سيرته الشخصية .
- الفصل الثاني : في سيرته العلمية .
- الباب الثاني: في دراسة الكتاب.
- وجعلت هذا الباب في فصلين :
- الفصل الأول : التعريف بالكتاب.
- الفصل الثاني: دراسة النسخ الخطية للكتاب.
- ثالثاً :القسم الثاني: التحقيق :

حيث تحصل لدي تسع نسخ ، اخترت منها أربعا ، واتخذت إحداها أصلاً وقارنت بين النسخ ، وأثبت الفروق ، ثم قمت بعزو الآيات ، وتخريج الأحاديث ، وتوثيق النصوص ، والتعليق على بعض المسائل الواردة في الكتاب .

- الخاتمة : وفيها ذكرت أهم نتائج البحث ، ولخصت أهم ما ورد في الكتاب .

ذيلت البحث بفهارس فنية : الآيات ، والأحاديث ، والآثار ، والشعر ، والكتب والفرق والبلدان الواردة في النص المحقق ، والأعلام ، والمراجع والمصادر ، ثم فهرس الموضوعات .

وأخيراً أسأل الله تعالى أن يرزقني الإخلاص في جميع أعمالي ، وأن يوفقني للسداد في القول والعمل ، والله ولي التوفيق .

والحمد لله رب العالمين .

الباحث	المشرف	عميد الكلية
حمزة بن محمد عسيري	أ.د . أمين محمد عطية باشا	د . عابد بن محمد السفياني

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره . ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا . من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾[١] . ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾[٢] .

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا . يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾[٣] أما بعد :

فإن من أوجب الواجبات على من سلك طريق العلم الشرعي: العناية بكتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم دراسة وحفظاً وتعليماً وعملاً جمعا بين العلم والعمل، لأنهم مؤتمنون على ذلك كله، وقد جعلت الأمة ذلك أمانة في أعناق أهل العلم، وهم مسئولون أمام الله تعالى عنهم قال تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾[٤] .

وإن مما أؤتمنوا عليه هذا التراث العلمي الكبير، المتمثل في تلك المؤلفات الكثيرة النافعة في شتى مجالات العلوم المطبوعة منها والمخطوطة،وإن كان كثير من ذلك التراث لا يزال مخطوطاً، أو في حكم المخطوط حيث خرج عارياً عن التحقيق والتدقيق، فكان لزاماً على طلبة العلم الاهتمام بهذا التراث وإخراجه إخراجاً علميا يليق بمكانة مؤلفيها ، وقوة تأليفها ، حتى لا يتصدى لإخراجها أدعياء العلم أو أعداء الأمة الذين نشطوا في فترة من الفترات لهذا العمل.

(1) سورة آل عمران (١٠٢) .

(2) سورة النساء (١) .

(3) سورة الأحزاب الآيات (٧٠-٧١) .

(4) سورة آل عمران (١٨٧) .

ولما كان لزاماً على طلاّب الدراسات العليا لاستكمال متطلبات دراستهم أن يقدِّم الواحد منهم بحثاً علمياً سواء كان موضوعاً مختاراً أو مخطوطاً قيّماً يقوم بدراسته وتحقيقه، أحببت أن أضرب بسهم معهم، وأبحث لي عن كتاب قيم يستحق العناية والتحقيق، فجعلت أقلب فهارس المخطوطات، وقصدت بعض المكتبات في بلادنا المباركة، فظفرت بكتاب قيّم، للإمام ابن القيّم ألا وهو كتاب :

التبيان في أقسام القرآن

فأحببت أن أقوم بدارسة وتحقيق هذا الكتاب والعناية به تحقيقا وتعليقا، وإخراجه للناس مؤثقاً قدر الاستطاعة مع العلم بأن هذا الكتاب قد سبق له أن طبع عدة طبعات من أمثلها التي قام بإخراجها الشيخ محمد حامد الفقي عليه رحمة الله الذي كان له جهد مشكور في إخراج كتب علماء السلف أمثال شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم وغيرهما من علماء أهل السنة والجماعة، لكن الكتاب لا يزال بحاجة إلى مزيد من الخدمة، من إخراج للنص على أقرب صورة تركه عليها المؤلف، ودراسة لمؤلفه وتخريج لأحاديثه وآثاره وإلى توثيق نصوصه وترجمة أعلامه، والتعليق عليه بحسب ما يحتاجه المقام ولا أدعي أني سأقوم بأفضل مما عمل وفعل الشيخ الفقي عليه رحمة الله

فهو بسبق حائز تفضيلا   مستوجبا ثنائى الجميلا

أسباب اختيار الموضوع

إن الدافع الذي دفعني إلى اختيار هذا الكتاب — بعد توفيق الله تعالى ومنه وكرمه عدة أسباب منها:

أولاً : تعلق هذا الكتاب بأشرف العلوم وأعظم الكتب ، وهو علم (علوم القرآن) المتعلق بكتاب الله هذا الكتاب الذي (**لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد**) وشرف العلم — كما يقال بشرف المعلوم.

ثانياً: أن مؤلف هذا الكتاب هو الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى، وهو من في علمه وفضله، بل وتبحره في علوم القرآن الكريم وغيره من علوم الشريعة ، وكلامه الكثير في ثنايا كتبه حول آيات كثيرة من كتاب الله تعالى.

ثالثاً : سبق الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى إلى الحديث عن هذا الموضوع فلا اعلم ـــ حسب معلوماتي القاصرة ـــ أحدا قد سبق الإمام ابن القيم في كتابه هذا الموضوع بهذه الصورة وإفراده لها كتاباً مستقلا.

رابعاً : إبداع الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه أخذ بلبي وسحرني وجعلني معلقا به فلا أكاد أمل من قراءته، والاستمتاع بكتابه، والانتفاع بمعلوماته.

خامساً: المشاركة في إثراء المكتبة القرآنية بإخراج هذا الكتاب والعناية به وإعطائه حقه الذي يستحقه ، والمكانة التي تليق به، مع علمي بضعف علمي، وقلة بضاعتي ، ولكن حسبي أن أجتهد وأتوكل على الله راجيا منه التوفيق والسداد.

سادساً : البحث في هذا المجال هو استكمال لمسيرتي العلمية فإنني متخصص في القرآن وعلومه منذ الدراسة النظامية في مدارس تحفيظ القرآن الكريم ثم الدراسة في كلية القرآن الكريم بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية.

خطة البحث

قسمت هذا البحث إلى مقدمة وقسمين أحدهما للدراسة وآخر للتحقيق.

أولا: المقدمة.

وتشتمل على أسباب اختيار الموضوع، وخطة البحث، وبيان المنهج الذي سرت عليه في تحقيق هذا الكتاب.

ثانيا: القسم الأول: الدراسة وجعلتها في مقدمة وبابين:

❖ أما المقدمة : فذكرت فيها العصر الذي عاش فيه المؤلف من الناحية السياسية والاجتماعية والعلمية، لأن ذلك يعطي صورة واضحة عن سيرة هذا الإمام والعوامل المؤثرة في تكوينه العلمي.

الباب الأول : في ترجمة المؤلف وقد قسمتها إلى فصلين:

الفصل الأول: في سيرته الشخصية

ويتناول هذا الفصل المباحث التالية:

المبحث الأول / اسمه ونسبه.
المبحث الثاني / ولادته.
المبحث الثالث / أسرته.
المبحث الرابع / نشأته.
المبحث الخامس / أوصافه الخلقية والخلقية.
المبحث السادس / أبناؤه
المبحث السابع / وفاته

الفصل الثاني : في سيرته العلمية

المبحث الأول / دراساته وطلبه للعلم.
المبحث الثاني / رحلاته في طلب العلم
المبحث الثالث / مشايخه
المبحث الرابع / ثقافته وعلمه.
المبحث الخامس / عقيدته ومذهبه
المبحث السادس/مكانته وثناء العلماء عليه.
المبحث السابع / مصنفاته.

الباب الثاني: في دراسة الكتاب.

وجعلت هذا الباب في فصلين

الفصل الأول : التعريف بالكتاب.

ويشتمل على المباحث التالية:

المبحث الأول / اسم الكتاب وموضوعه.

المبحث الثاني / توثيق نسبة الكتاب إلى المؤلف.

المبحث الثالث / منهج المؤلف في كتابه.

المبحث الرابع / أهمية الكتاب.

المبحث الخامس / المصادر التي أعتمد عليها المؤلف في كتابه.

الفصل الثاني: دراسة النسخ الخطية للكتاب.

ويتضمن هذا الفصل دراسة للنسخ الخطية من حيث:

- المصدر.
- عدد الأوراق.
- تاريخ النسخ.
- اسم الناسخ.
- مكانة النسخة وقيمتها.

القسم الثاني: التحقيق :

وقفت على إحدى عشرة نسخة خطية منها نسخ موجودة في بلادنا وأخرى خارج البلاد ، وقد حصلت منهاعلى تسع نسخ خطية ،واثنتان لم أستطع الحصول عليها رغم محاولاتي للحصول عليها . ولكن لم أتمكن من ذلك .

وقد اتبعت في تحقيقها المنهج التالي :

١) فحص النسخ التي تحصلت عليها والتمييز بينها . حيث اخترت منها أربع نسخ خطية واطرحت الباقي، وذلك لجودة النسخ المختارة ولقدمها .

٢) اعتماد نسخة من تلك النسخ لتكون أصلاً ، ثم مقارنة النسخ الأخرى بها وإثبات الفروق بينها .

٣) نسخ المخطوط وفقا لقواعد الإملاء الحديثة.

٤) عزو الآيات إلى مواضعها في القرآن الكريم بذكر اسم السورة ورقم الآية.

٥) تخريج الأحاديث والآثار من كتب السنة المعتمدة، مع بيان الحكم عليها إن أمكن، وما لم أجده فيها تتبعته في مظانه من كتب التفسير وعلوم القرآن وغيرهما.

٦) التعريف بالأعلام ، والفرق والطوائف الواردة في النص.

٧) شرح الألفاظ المبهمة والغريبة.

٨) توثيق المسائل وأقوال العلماء الواردة في هذا الكتاب من مصادرها إن أمكن ذلك .

٩) التعليق على المسائل التي رأيت أنها بحاجة إلى مزيد إيضاح وبيان.

١٠) عمل فهارس تفصيلية تخدم الكتاب وتعين على الوصول إلى المراد، من فهارس للآيات والأحاديث والآثار والقوافي والأعلام والأماكن والفرق الواردة في الكتاب، وإعداد فهرس آخر للمراجع والموضوعات.

وأحسب أني قد بذلت بحمد الله جهدي في خدمة الكتاب تصحيحاً وتوثيقاً وتحقيقاً حسب طاقتي ومعرفتي بعد توفيق الله تعالى وعونه .

ولا يسعني في الختام إلاأن أشكر الله العلي القدير الذي وفقني لهذا العمل وأعانني على إتمامه ، امتثالاً لقوله تعالى : ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾[1] فلله الحمد والشكر كما أسبغ علي نعمه ظاهرة وباطنة ، وأثني بالشكر لمن قرن الله سبحانه بهما الأمر بعبادته ، ولمن كانا سبباً في وجودي بعد الله ، ولمن سهرا وتعبا علي وربياني ، ووجهاني إلى طريق الخير والبر والصلاح ، فاللهم اغفر لوالدي وارحمهما كما ربياني صغيراً ووفقني لبرهما في حياتهما وبعد مماتهما ، واجعلني قرة عين لهما ، وألبسهما تاج الكرامة يوم القيامة إنك على كل شيء قدير .

وأثلث بالشكر الجزيل والامتنان والتقدير لصاحب الفضيلة الأستاذ الدكتور / عبدالباسط بن إبراهيم بلبول ، المشرف على هذه الرسالة الذي منحني من علمه وفضله ، وأكرمني بوقته وجزيل إحسانه ودماثة خلقه ولا أجد في هذا المقام خيراً من أن أقول له : جزاك الله خيراً على ما قدمت في سبيل العلم وخدمته ، وأسأل الله أن يجعل ذلك في موازين أعمالك يوم تلقى ربك.

وأربع بالشكر أيضاً لفضيلة الأستاذ الدكتور أمين محمد عطية باشا الذي قبل الاشراف على هذه الرسالة فله مني الدعاء بأن يطيل الله في عمره ويحسن له في عمله ونيته ، وأن يفيد به العلم وأهله .

كما أشكر أيضاً صاحبي الفضيلة الشيخ الدكتور جلال الدين عجوة ، والشيخ الدكتور عبدالله بن سعاف اللحياني اللذين تفضلا بقبول مناقشة هذه الرسالة وتقويمها حيث تكبدا مشاق

---

(1) سورة إبراهيم (٧)

قراءة هذا البحث فأسأل الله تعالى أن يجعل ذلك في ميزان حسناهما ، ويجزيهما خير الجزاء على مايقدمانه للعلم وأهله .

كما لا يفوتني في هذا المقام أن أتقدم بالشكر الجزيل لهذه الجامعة المباركة التي هي معقل من معاقل العلم والمعرفة أسأل الله تعالى أن يبارك فيهاويعين القائمين عليها .

كما أتقدم بالشكر الجزيل لكلية الشريعة والدراسات الإسلامية ممثلة في مركز الدراسات الإسلامية الذي أتيحت لنا فيه هذه الفرصة الطيبة لإكمال الدراسة العالية ، كما أشكر القائمين عليه فضيلة الشيخ الدكتور / ستر الجعيد المدير السابق له ، وفضيلة الشيخ الدكتور / أحمد الحبيب مديره الآن .

والشكر أيضاً موصول لكل من قدم لي مساعدة وعوناً في هذا البحث بمشورة أو رأي أو إعارة كتاب أو مساعدة في المقارنة بين نسخ البحث ، وأخص من هؤلاء أخي ورفيق دربي الأخ الكريم الأستاذ / مشعل الحارثي والأخ الفاضل الكريم الشيخ / عادل النفيعي أسأل الله تعالى أن يبارك لهما في عمرهما وعلمهما وأهلهما وولدهما ، كما أشكر أخي وشقيقي الأستاذ / عبدالله عسيري على ما بذل معي من جهد وتعاون أسأل الله له التوفيق في الدارين .

وبعد: فهذا جهد المقل في هذا البحث المبارك الذي اسأل الله تعالى أن يوفقني به إلى خدمة العلم والعلماء ، وأن يجعله عملاً صالحاً يقربني إليه ، فما كان فيه من صواب فمن الله وما كان فيه من خطأ وزلل فمني ومن الشيطان، والله ورسوله منه بريئان . وأتمثل هنا قول صاحب هذا الكتاب عليه رحمة الله في أحد كتبه : أن كل من كتب فـ :" قد نصب نفسه هدفاً لسهام الراشقين ، وغرضاً لألسنة الطاعنين ، فلقارئه غنمه وعلى مؤلفه غرمه ، وهذه بضاعته تعرض عليك ، ومولیته تهدى إليك ، فإن صادفت كفؤاً كريماً لها لن تُعدم منه إمساكاً بمعروف أو تسريحاً بإحسان ، وإن صادفت غيره فالله المستعان وعليه التكلان " . وأقول ــ أيضاً ــ كما قال : " وقد رضي من مهرها بدعوة خالصة إن وافقت قبولاً واستحساناً ،وبِرَد جميل إن كان حظها استحقاراً واستهجاناً ، والمنصف يهب خطأ المخطئ لإصابته ، وسيئاته لحسناته ، فهذه سنة الله في عباده جزاءاً وثواباً ، ومن ذا الذي يكون قوله كله سديداً ، وعمله كله صواباً ؟ ، وهل ذلك إلا للمعصوم الذي لا ينطق عن الهوى ، ونطقه وحي يوحى ، فما صح عنه فهو

نقل مصَّدق عن قائل معصوم ، وما جاء عن غيره فثبوت الأمرين منه معدوم ، فإن صح النقل لم يكن القائل معصوماً ، وإن لم يصح لم يكن وصوله إليه معلوماً "[١] .

وهو المسؤول سبحانه أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم ، مدنياً من رضاه والفوز بجنات النعيم ، والله متولي سريرة العبد وكسبه ، وهو سبحانه عند لسان كل قائل وقلبه : { **وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون** }.

ورحم الله القائل :

إن تجد عيباً فسدَّ الخللا *** جلَّ من لاعيب فيه وعلا

وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

---

[١] روضة المحبين ص (٤١-٤٢) .

القسم الأول : الدراسة

المقدمة

قبل البدء في ترجمة هذا الإمام الهمام ابن قيم الجوزية رحمه الله ، لا بد أن نلقي نظرة علي عصر هذا الإمام من ثلاث نواحٍ ، من الناحية السياسية ، والناحية العلمية والاجتماعية ، فإن لكل منها تأثيراً في حياة ابن قيم الجوزية رحمه الله في علمه ، وفكره ، وسلوكه .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلي الله عليه وسلم يقول : ((.... **السكينة في أهل الغنم ، والفخر والخيلاء في الفدارين**[1]**أهل الوبر قبل مطلع الشمس**)) رواه مسلم[2]وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلي الله عليه وسلم : ((**من بدا جفا ومن اتبع الصيد غفل** ...)) رواه أحمد [3]فكما رأينا في الحديثين السابقين أن العوامل الخارجية لها تأثير في حياة الإنسان فرعاة الغنم اكتسبوا السكينة بسبب رعيهم ومجاورهم للغنم ، ورعاة الإبل اكتسبوا الجفاء بسبب رعيهم ومجاورهم للإبل التي تمتاز بالغلظة والشدة ، وكذلك من عاش في القرى والمدن ، وذلك كما يقول علماء الاجتماع ، الإنسان مدني بطبعه ، وكما قيل الإنسان ابن بيئته . فتبين مما سبق أن الإنسان يتأثر بما يدور حوله ، وفيما يلي عرض موجز للحالة السياسية والاجتماعية والعلمية في عصر الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله .

---

[1] الفدارين : جمع فدار ، من الفدير ، وهو الصوت الشديد فهم الذين تعلوا أصواقم في إبلهم وخيلهم وحروثهم ونحو ذلك .

[2] أخرجه مسلم في صحيحه .

[3] أخرجه أحمد في مسنده (٢/٣٧١و٤٤٠) وصححه الألباني في السلسلة ج٣ . برقم ١٢٧٢

أولاً : من الناحية السياسية

لقد أصيبت الأمة الإسلامية بأحداث غيرت مجرى التاريخ وأيقظتها من سباتها العميق . بدأ بالحروب الصليبية ثم هجمات التتار المغولية .

١- الحروب الصليبية (٤٩٠-٦٩٠)

هي الحملات المسلحة التي شنتها أوروبا النصرانية ضد الأمة الإسلامية وعلى الرغم من أنها انتهت قبل ولادة الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله بسنة إلا أنها تركت وراءها آثارا في بلاد المسلمين وفي المسلمين أنفسهم فلابد أن نلمح عنها بإيجاز .

أسبابها : وتنقسم إلى قسمين : قسم متعلق بالمسلمين ، وقسم متعلق بالنصارى .

الأسباب المتعلقة بالمسلمين :

١-ضعف الدولة الإسلامية وتفككها ، وكثرة الصراع علي السلطة فمثلا كانت مصر تئن من مأساة الحكم الفاطمي الشيعي وتناقضاته وكثرة الفتن الداخلية والخارجية فبعد أن انتصر عليهم السلاجقة والسنيين وأخذوا الشام منهم ، لم يبق معهم إلا مصر[1] فكاتبوا الإفرنج ليستولوا على الشام فتآمر (المزدقاني) وهو شيعي إسماعيلي مع الصليبيين سنة ٥٢٣هـ على أن يسلم لهم دمشق ويسلموا له مدينة صور ونظمت الخطة علي أن يقوم الإسماعيليون بمنع المقاومة ، وتسليم دمشق ، لكن كشف الله أمره فقتله صاحب دمشق ، وعلق رأسه علي باب القلعة [٢].

أما بغداد فكانت الخلافة العباسية في حالة ضعف وتدهور شديد ، فقد كثرت الفتن الداخلية ، والخارجون علي السلطان .

٢- كثرة الفرق المنحرفة عن الإسلام ومنهج أهل السنة والجماعة كالباطنية الإسماعيلية والقرامطة وغيرهم من المعطلة الذين كانت لهم اليد الطولى في تخريب وزعزعة الجبهة الداخلية للدولة الإسلامية ، والتعاون مع الأعداء كما سبق .

---

(1) الكامل ، لابن الأثير ٩٤/١٠ . انظر تاريخ الخلفاء ، للسيوطي ص (١٤٧).

(2) خطط الشام (٤/٢) .

٣- حالة الترف واللهو التي كانت تعيشها الخلافة العباسية [١]

الأسباب المتعلقة بالنصارى :

١- الحقد الدفين الذي ترعرع في قلوب النصارى طيلة خمسة قرون ، حين هزموا شر هزيمة وسقطت مملكتهم في معركة اليرموك سنة ١٣هـ .

٢- حب التوسع والإستعمار والطمع في الشرق الغني ، فقد كانت أوروبا حينذاك تعيش في جوع وفقر وتخلف في شتى المجالات [٢].

٣- الدافع الديني ، فقد نظمت هذه الحرب باشراف الكنيسة الرومانية والبابوية لإنقاذ الأراضي المقدسة وقبر المسيح كما زعموا ، وقد اتخذت الصليب شعارا لها ، ولذا سميت((الحروب الصليبية [٣])).

وعموما فإن العداوة بيننا وبين أهل الكتاب لن تنتهي حتى يأتي وعد الله يقول الله عز وجل (**ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم**) الآية[٤]

بدء الحملات الصليبية :

انطلقت الكتائب الصليبية بقيادة بطرس الناسك مخترقة أوروبا الوسطي تقتل وتسلب حتى وصلت إلى القسطنطينية سنة ٤٨٩هـ فنقلهم الإمبراطور البيزنطي علي المراكب إلى الضفة الشرقية للبسفور ، وعندما علم السلطان السلجوقي بتروِلهم في آسيا الصغرى حتى هب لقتالهم قرب مدينة نيقية عاصمته وهزمهم هزيمة منكرة [٥].

ثم بدأت الحملات الصليبية تتجمع في القسطنطينية ، وكانت الحملات الأولى من فرنسا وإيطاليا ، ثم انطلقوا جميعا ودخلوا نيقية بعد حصار دام خمسين يوما [٦].

---

[١] البداية والنهاية ، لابن كثير ١٣/٢٠٠ .

[٢] الإسلام والحضارة العربية ١/٢٩٤

[٣] الإسلام والحضارة العربية ١/٢٩٢

[٤] سورة البقرة الآية (

[٥] الحروب الصليبية ، محمد العمروسي ص ٤٧

[٦] المرجع السابق ص ٤٨

قال ابن كثير رحمه الله : ((ثم دخلت سنة إحدى وتسعين وأربعمائة وفيها دخل ملك الأفرنج مدينة إنطاكية بعد حصار شديد ، بمواطأة بعض المستحفظين علي بعض الأبراج ، ثم صار الإفرنج إلى معرة النعمان وأخذوها بعد حصار [1])) .

ويقول رحمه الله : ((وفي سنة اثنين وتسعين وأربعمائة أخذت الإفرنج لعنهم الله بيت المقدس شرفه الله وكانوا نحو ألف ألف مقاتل وقتلوا في وسطه نحو ستين ألف قتيل من المسلمين وجاسوا خلال الديار ويتبروا ما علوا تتبيراً [2])) .

وقد امتدت مملكتهم من شمال بيروت إلى جنوب عسقلان وشملت كل فلسطين وشرقي الأردن إلى خليج العقبة [3]ولكنهم ولله الحمد لم يهنئوا حتى قيض الله للمسلمين حكاما أقوياء أمثال عماد الدين زنكي الذي استرد الرها سنة ٥٣٩هـ .

ثم بدأ صلاح الدين الأيوبي يجهز لدخول بيت المقدس أكبر معاقل الصليبيين وبدأت بينه وبينهم مناوشات حتى جاءت وقعة حطين سنة ٥٨٣هـ التي هزم فيها الصليبيون شر هزيمة فقتل منهم عشرة آلاف ، واسر ملك بيت المقدس ثم حاصرها مباشرة ودخلها في رجب من نفس العام سنة ٥٨٣هـ[4]

وفي العشر الأخيرة من القرن السابع الهجري حين كان سلطان المسلمين في مصر ، وأمراؤهم في ديار الشام يطهرون البلاد من فلول الفرنجة وبقايا الحروب الصليبية . صادف ((فتح عكا في سنة تسعين وستمائة)) قبل مولد الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله بسنة ((حيث جاء البريد من القاهرة إلى دمشق لتجهيز آلات الحصار لعكا ، ونودي في دمشق : الغزاة في سبيل الله إلى عكا . وخرج العامة والمتطوعة يجرون في العجل ، حتى الفقهاء والمدرسين والصلحاء ... وركب السلطان الأشرف من الديار المصرية بعساكره قاصدا عكا ، فتوافت الجيوش هناك

---

[1] البداية والنهاية ، لابن كثير ١٢/١١٥
[2] المرجع السابق ١٢/١٦٩،١٦٨
[3] راجع الحروب الصليبية ، محمد العمروسي ص ٥٦-٥٨
[4] البداية والنهاية لابن كثير ١٢/٣٣٢ ، الحروب الصليبية ص ٨٦

ونصبت عليها المجانيق من كل ناحية ، واجتهدوا غاية الاجتهاد في محاربتها والتضييق علي أهلها ، ثم زحف يوم الجمعة ودقت الكوسات عند طلوع الشمس ... ونصبت السناجق الإسلامية فولت الفرنج هاربين في مراكب التجار ...))[1] وهكذا استعاد المسلمون مدينة صور بعد بقائها في يد الفرنجة مائة واثنين وسبعين سنة ، وبعد سقوط عكا ((أرسل السلطان إلى صور فهدم أسوارها وعفا آثارها وقد كان لها في يد الفرنج من سنة ثمان عشرة وخمسمائة))[2]، ((وأرسل السلطان الأشرف أمير الشام ونائب السلطنة فيها إلى صيدا ، لأنه كان قد مد بها إلى برج عصي ففتحه ... وبعثه إلى بيروت ليفتحها ... ففتحها في أقرب وقت ، وسلمت عثيلة ، وانطرطوس ، وجبيل ، و لم يبق بالسواحل معقل للفرنج إلا بأيدي المسلمين))[3].

هذه صورة موجزة على عجالة تبين فيها الصراع بين المسلمين والصليبيين في فترة من فترات التاريخ ، كانت بلا شك ذات تأثير علي المسلمين ودولتهم ولكنها زرعت في نفوسهم حب هذا الدين العظيم والاستبسال في الذود عن حياضه ومعرفة النصارى الصليبيين وعقائدهم المحرفة عن كثب .

٢- هجمات التتار المغولية :-

جاء التتار من شمال الصين وهم قوم ينتسبون إلى منغوليا ، وهي هضبة تمتد في أواسط آسيا جنوب سيبريا وشمال التبت ، وغرب منشوريا ، وشرق باكستان بين جبال التاي غرباً ، وجبال خنجان شرقاً[4].

وقد بدأت هجماتهم عندما فكر جنكيز خان بتوسيع إمبراطوريته فتطلع إلى العالم الإسلامي لما رأي الضعف السياسي ، والفرقة التي يعيشها المسلمون ، بالإضافة لما تحويه البلاد الإسلامية من خيرات وحضارة .

---

[1] البداية والنهاية ، لابن كثير ١٣/٣٣٩-٣٤٠
[2] المرجع السابق . ١٣/٣٤٠
[3] المرجع السابق . ١٣/٣٤٠
[4] المغول في التاريخ ، فؤاد عبد المعطي الصياد ، حسن ٣٠- ٣١

وكان استيلاء التتار على البلاد الإسلامية قد تم على مرحلتين :

الأولى : كانت بقيادة جنكيز خان مؤسس الدولة المغولية .

أما المرحلة الثانية : فتمت على يد هولاكو حفيد جنكيز خان حيث أرسل إلى الخليفة المستعصم آخر خلفاء بني العباس يطلب منه المساعدة في مهاجمة الإسماعيلية في إيران لكنه رفض طلبه.

وبعد ما قضى على الإسماعيلية ، أرسل إلى الخليفة المستعصم رسالة ، يهدده فيها ويأمره بتسليم بغداد ، فلم يكترث الخليفة للأمر ، فقرر هولاكو الزحف إلى بغداد[١]وقد أشار عليه بذلك وهون له الأمر : وزير الخليفة المستعصم ابن العلقمي الرافضي ، لأجل حادثة نهب الكرخ وتخريب مشهد الإمام موسى الكاظم على يد أبي بكر ابن الخليفة المستعصم ، وما تبع ذلك من إهانة للشيعة ، فتأثر الوزير الشيعي الرافضي فأرسل أخاه ومملوكه إلى هولاكو وسهل عليه المهمة[٢]، يقول عنه ابن كثير رحمه الله (المشؤوم على نفسه وعلى أهل بغداد ، فإنه لم يكن وزير صدق ، فإنه الذي أعان على المسلمين في قضية هولاكو وجنوده قبحه الله وإياهم[٣])).

فحاصر هولاكو بغداد حتى سقطت في يده سنة ٦٥٦هـ ، وخرج الخليفة المستعصم بالعلماء وأعيان البلد والقضاة فسلم نفسه وعاصمته للمغول بلا قيد أو شرط بعد أن وعده هولاكو بالأمان فغدر به وقتله ومن معه وخلقاً كثير من أهل السنة في بغداد واستبقى السحرة والشيعة والنصارى ، وأحرق المكتبات وخرب المدارس والمساجد[٤].

قال ابن كثير رحمه الله : ((وقد اختلف الناس في كمية من قتل ببغداد من المسلمين في هذه الموقعة فقيل ثمانمائة ألف ، وقيل ألف ألف وثمانمائة ألف ، وقيل بلغت القتلى ألفي ألف نفس وقتل أكابر الدولة واحداً واحداً ، وقتل الخطباء والأئمة وحملة القرآن[٥])).

---

[١] العبر في خبر من غبر ، للذهبي ، ٥/٢٢٥- ٢٢٦

[٢] المرجع السابق . ٥/ ٢٢٥

[٣] البداية والنهاية ، لأبن كثير ، ١٣، ١٦٤

[٤] العبر في خبر من غبر، للذهبي ٥/ ٢٢٥

[٥] البداية والنهاية ، لأبن كثير ١٣/ ٢٠٣

وبعد سقوط بغداد توجه هولاكو إلى الشام فسقطت حلب في يده سنة ٦٥٧هـ ثم سقطت دمشق ثم استمر زحف الجيش المغولي نحو مصر والتقى جيش السلطان قطز بقيادته مع الجيش المغولي بقيادة ((كيتوبوقا)) في ((عين جالوت)) قرب الناصرة بفلسطين سنة ٦٥٨هـ وقد نصر الله السلطان قطز المملوكي ووقع القائد المغولي في الأسر ، وأمر السلطان قطز بقطع رأسه ، وذبح كل مغولي كان بأرض المعركة ، ولحقت الفارين من المغول فرقة من الفرسان بقيادة الظاهر بيبرس فتابع فلولهم حتى تطهرت منهم كل أراضي الشام[١] .

وقال ابن كثير أيضاً : ((وفي الثاني من صفر سنة سبعمائة عندما همّ التتار بدخول دمشق وهمّ سكانها بالفرار ، جمع ابن تيمية رحمه الله الجموع وحضهم على القتال ونهى عن الفرار وسافر إلى السلطان الناصر بمصر يستحثه على الدفاع عن الشام وقوّى ابن تيمية رحمه الله عزيمة الأمراء ، وما زال بهم حتى خرج بجنده إلى الشام وسبقهم ابن تيمية رحمه الله إلى دمشق التي استولى عليها الذعر، وناداهم والي المدينة بالخروج للفرار ، ولكن أوقفهم ابن تيمية رحمه الله ونظم صفوفهم وطمأنهم بالنصر ، ولكن التتار أجلوا هجومهم على دمشق لما علموا بتنظيم الجيوش الإسلامية حتى جاؤوا بجموعهم سنة ٧٠٢هـ وعاد الخوف إلى دمشق ، فوقف ابن تيمية رحمه الله يحث الناس ويدربهم ويجمع صفوفهم حتى ابتدأت موقعة ((شقحب)) في يوم السبت الأول من رمضان وتقدم ابن تيمية رحمه الله الجند بنفسه تحت لواء السلطان مع جيوش دمشق ومصر وكان يقول ويحلف بالله الذي لا إله إلا هو أنكم منصورون عليهم ، فيقول له الأمراء : قل إن شاء الله ، فيقول : إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً وأفتى الناس بالفطر مدة قتالهم وأفطر هو أيضاً وقاتلوا قتالاً عظيماً حتى نصرهم الله يوم الاثنين الرابع من رمضان في مرج الصفر "[٢] .

---

[١] النجوم الزاهرة ، لأبن تغري بردي ٧/ ٧٧ ، تاريخ الدولة المغولية ص ١٤٩- ١٥٠

[٢] البداية والنهاية لأبن كثير ١٤/٢٤-٢٧ (بتصرف)

هذه هي الحالة السياسية وهذا هو الجو الذي كان له تأثير في ابن قيم الجوزية رحمه الله تجلى في شخصيته ومؤلفاته وسلوكه إذ ترك عنده عدة آثار :

الأول : جمع كلمة المسلمين على الكتاب والسنة.

الثاني : لجؤوه إلى الله ، واهتمامه بإصلاح القلوب.

الثالث : منابذة أهل الكتاب وأهل البدع ، وبيان عورهم وباطلهم والرد عليهم.

الرابع : إعجابه وحبه لشيخ الإسلام ابن تيمية ورحمه الله الذي لازمه سائر حياته وهذا من وفائه رحمه الله.

ثانياً / من الناحية الاجتماعية :

يمكن تقسيم المجتمع في عصر الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله إلى ثلاث طبقات :

الطبقة الأولى : طبقة ولاة الأمر وتنقسم هذه إلى قسمين من الحكام ، والعلماء والطبقة الثانية : التجار الذين يديرون دفة الاقتصاد.

والطبقة الثالثة : العامة الذين لا حول لهم ولا قوة إلا بالله وحده.

أولاً : ولاة الأمر:

١) الحكام : وهم طبقة من المماليك بدأت سيادتهم على الشام بعد معركة عين جالوت وكان لهم اهتمام كبير في الترف والزينة والمراسم[١].

غير أن المدة التي كانت في حياة الإمام ابن قيم الجوزية تميزت بنوع من الاستقرار النسبي ، إذ كان معظمها في حكم الناصر بن محمد بن قلاوون (٦٨٤هـ – ٧٤١هـ) وهو من أشهر سلاطين المماليك وأكثرهم قوة وأطولهم حكماً[٢] .

٢) العلماء : فقد كان لهم كلمتهم وسلطانهم عند العامة وقد شاركوا الأمة في أحداثها السياسية ، فشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله مثلاً شارك بنفسه في قتال التتار كما سبق في موقعة شقحب وغيرها .

((أما سلطان العلماء العز بن عبد السلام فمواقفه كثيرة مع الملك الصالح إسماعيل في الشام ، وقد اعترض عليه عندما هادن الصليبيين ، و سمح لهم بدخول دمشق[٣])) .

وكذا كان لتلميذه الإمام ابن دقيق العيد موقف مع السلطان قطز عندما اعترض على جمع الأموال من الناس للحرب[٤] .

وكذلك النووي رحمه الله قال عنه ابن كثير رحمه الله ((وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر للملوك وغيرهم[٥])).

---

[١] حسن المحاضرة ، للسيوطي ، ٦٧/٢

[٢] شذرات الذهب ، لأبن العماد ، ٦/ ١٣٤ ((بتصرف)).

[٣] طبقات الشافعية ، للسبكي ، ٨/ ٢١٠

[٤] المرجع السابق ٨/ ٢١١

[٥] البداية والنهاية ، لأبن كثير ١٣/ ٢٧٩

ولما كانت للعلماء مكانة عظمى عند العامة كان السلاطين يهابونهم ويجلونهم ويسمعون منهم الرأي والمشورة.

ثانياً : التجار :

وقد كانوا فكانوا يتمتعون بحرية تامة ومكانة عالية ، وقد ساعدهم في ذلك التسهيلات التي منحت لهم من قبل السلاطين ، لأن السلاطين يحتاجون إلى تحريك النشاط التجاري لأنه عون لهم في سد حاجاتهم في الأسلحة والحروب فكانت مصر والشام أنشط المراكز التجارية.

ثالثاً : العامة :

فقد كانوا هم ميدان الصراع ومسرح الأحداث ، فقد ظهرت بينهم كثير من البدع والفتن ، وانتشر البغاء وعرف ما يسمى ((بضمان الغواني)) وهو مال تدفعه البغايا وتنزل البغي اسمها عند امرأة تسمى الضامنة فلا يقدر أكبر من في مصر أن يمنعها من البغاء إلى أن أبطل ذلك الناصر محمد[١]، وانتشرت ملابس غير ساترة للنساء بسبب الاستعمار واختلاطهم بالإفرنج[٢] وظهر الطرب والأغاني ، وظهرت الحشيشة وبعض العادات المخالفة للشرع.

وقد كان لهذا كله أثر في ابن قيم الجوزية رحمه الله في علمه وسلوكه وحياته ، وقد ظهرت في الأمور التالية :

الأول : التحرر الفكري ، وسلامة المنهج وسلوكه ،وبعده عن الخرافات والبدع.

الثاني : محاربته للمعاصي كالأغاني وغيرها وهذا ظاهر في كتابه ((إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان)).

الثالث : الحيوية والمشاعر الفياضة بأحاسيس مجتمعه.

---

[١] بدائع الزهور ، لابن إياس ، ٢/ ١٥٠ ، ١/ ١٦٥

[٢] هذا كان في زمانهم ، فماذا نقول نحن في زماننا ؟ ! . . إلى الله المشتكى .

ثالثاً / من الناحية العلمية :

لقد شهد العهد المملوكي أزدهاراً واضحاً في الناحية العلمية ، فقد وجد السلاطين المماليك أنه لا بد لهم من الاستعانة بالعلماء لدعم حكمهم ، وإضفاء صفة شرعية على كيانهم وتصرفاتهم ، وتنظيم صلتهم بالعامة على أساس أحكام الشريعة الإسلامية، ، و إستمالة قلوب الرعية على أساس العقيدة الإسلامية.

كما أن العلماء قد هبوا لإحياء العلوم بعد أن فقدت الأمة الإسلامية كثيراً من علمائها ، وكتبهم يوم سقوط بغداد بأيدي التتار ، ومما شجع العلماء لإحياء العلم ونشره دعم السلاطين المماليك لهم ، ولذا ظهرت ثورة علمية قوية نجد آثارها إلى يومنا هذا .

وقد ظهرت هذه الثورة العلمية في عدة أمور منها :

أ/ المساجد والمدارس :

انتشرت المساجد والتي تعتبر أول دور العلم وكان من أشهرها :

١- الجامع الأزهر ، وقد تم بناؤه سنة ٣٦١هـ واستمر داراً للتعليم زمن الفاطميين والأيوبيين ، والمماليك[١].

٢- جامع ابن طولون ، وقد تم بناؤه سنة ٣٦٦هـ بمصر.

٣- جامع الحاكم ، وقد تم بناؤه سنة ٣٩٣هـ بمصر.

٤- جامع عمرو بن العاص ، وقد تم بناؤه في عهد عمرو بن العاص ، وأعيد إعماره في عهد الناصر محمد بن قلاوون[٢] .

ومن اشهر المدارس في مصر:

١- المدرسة الصلاحية ، ويقال لها الناصرية ، أسسها السلطان الناصر صلاح الدين بن أيوب سنة ٥٧٢هـ .

٢- المدرسة الكاملية ، وأسست سنة ٦٣١هـ ، وتنسب للملك الكامل ، وقد وقفها على المشتغلين بالحديث ، ومن بعدهم على الفقهاء الشافعية ، وممن وليها ابن دقيق العيد ، والبدر بن جماعة[١] .

---

[١] ابن قم الجوزية ، لعبد العظيم شرف الدين . ص ٣٧

[٢] الخطط المقريزية ، للمقريزي ، ٤/ ٢١، ٤/ ١٩٣

٣- المدرسة المنصورية ، وتنسب إلى الملك المنصور قلاوون[٢] .

٤- المدرسة الناصرية ، تنسب لعادل زين كبتغا وقد تم بناؤها سنة ٧٠٣هـ[٣]

ومن أشهر المدارس في الشام :

١- المدرسة الظاهرية ، وتنسب إلى الظاهر بيبرس ، وقد تم بناؤها سنة ٦٦٢هـ[٤] .

٢- المدرسة الضيائية المحمدية ، وقد بناها الفقيه ضياء الدين محمد بن عبد الواحد المقدسي الحنبلي المتوفى سنة ٦٤٣هـ وتقع بسفح جبل قاسيون .

٣- المدرسة الصدرية ، وقد أنشأها أسعد بن عثمان بن أسعد بن المنجا التنوخي صدر الدين الدمشقي ، المتوفى سنة ٦٥٧هـ أوقفها على الحنابلة[٥] .

٤- المدرسة البدرية ، وقد بناها الأمير بدر الدين حسن بن الداية المعروف بلؤلؤ .

٥- المدرسة الجوزية ، وقد أنشأها الإمام يوسف عبد الرحمن بن على بن محمد بن على ابن عبيد الله الجوزي القرشي ، البغدادي ، ابن الإمام المشهور ابن الجوزي رحمه الله وقد أوقفها على الحنابلة.

وهناك الكثير من المدارس التي ساهمت في نشر العلم وإخراج العلماء الإفذاذ ولكن يكفي ما ذكر في هذه العجالة ، ومن أراد المزيد فعليه بمراجعة كتابي ((الدارس في تاريخ المدارس)) للشيخ محي الدين أبي المفاخر عبد القادر بن محمد النعيمي المتوفى سنة ٩٢٧هـ . وكتاب ((منادمة الأطلال ومسامرة الخيال)) للشيخ عبد القادر بدران المتوفى سنة ١٣٤٦هـ وهذه الكثرة في المساجد والمدارس دلالة واضحة على الثورة العلمية التي كانت في عصر الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله .

---

(١) ابن قيم الجوزية ، لعبد العظيم شرف . ص ٤٠

(٢) الخطط المقريزية للمقريزي . ٤/ ٢١٨/ ٢١٩

(٣) المرجع السابق . ٤/ ٢٢٢

(٤) الخطط المقرزية للمقريزي ، ٤/ ٢١٨، ٢١٩

(٥) البداية والنهاية . لأبن كثير ، ١٣، ٢٠٥

ب/ الشخصيات العلمية :

وفي هذا العصر ظهرت موسوعات علمية كبيرة ، بيدي علماء موسوعيين أفذاذ خلفوا أمهات المؤلفات الإسلامية ، ومن هؤلاء :

١- شيخ الإسلام ابن تيمية ، المتوفى سنة ٧٢٨هـ رحمه الله .

٢- الإمام شمس الدين محمد بن كثير القرشي الدمشقي ، المتوفى سنة ٧٤٨هـ رحمه الله .

٣- الإمام أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٤هـ رحمه الله .

٤- الشيخ صلاح الدين خليل أيبك الصفدي ، المتوفى سنة ٧٦٤هـ . رحمه الله .

٥- الإمام القاسم بن محمد البرازلي ، المتوفى سنة ٧٣٩هـ رحمه الله .

٦- الإمام الجمال المرداوي يوسف بن محمد بن عبد الله المرداوي المتوفى ٧٦٩هـ رحمه الله .

٧- الإمام ابن قاضي الجبل أحمد بن الحسين بن عبد الله ، المتوفى سنة ٧٧١هـ رحمه الله .

٨- الإمام اللغوي محمد بن كرم بن على أبو الفضل جمال الدين ابن منظور ، المتوفى سنة ٧١١هـ .

٩- الإمام محمد بن أحمد بن عبد الهادي بن قدامة الجماعيلي ، المتوفى سنة ٧٤٤هـ رحمه الله .

١٠- الإمام النحوي أبو محمد عبد الله بن هشام الأنصاري ، المتوفى سنة ٧٦١هـ .

١١- الإمام الفقيه الأصولي تقي الدين محمد بن على بن دقيق العيد ، المتوفى سنة ٧٠٢هـ رحمه الله .

١٢- الإمام المحدث المزي يوسف جمال الدين بن زكي الدين بن عبد الرحمن القضاعي ثم الكلبي الدمشقي ، المتوفى سنة ٧٤٢هـ رحمه الله .

أما النساء فقد كان لهن نصيبهن في تلك الثورة العلمية فمنهن :

١- المسندة الحافظة ست العرب بنت محمد بن الفخر بن على البخاري المتوفاة سنة ٧٦٧هـ.

٢- الحافظة زينب بنت إسماعيل بن الجناز.

٣- الشيخة الصالحة أم زينب فاطمة بنت عباس بن أبي الفتح البغدادية ، المتوفاة سنة ٧١٤هـ رحمها الله .

٤- المسندة المحدثة فاطمة بنت جوهر البطائحي ، المتوفاة سنة ٧١١هـ رحمها الله وهي من شيوخ الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله كما سيأتي بإذن الله .

وما سبق هم بعض الشخصيات العلمية التي أسهمت في نشر العلم ، وما ذكر ما هو إلا شيء يسير ، ويكفى من القلادة ما أحاط بالعنق ، ولكن فيه دلالة واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار أن ذلك العصر كان ذهبياً لما اشتمل عليه من هؤلاء الأعلام الأفذاذ.

وقد كان لهذه الثورة العلمية عدة آثار على الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله منها :

الأول : الاعتماد على أدلة الكتاب وصحيح السنة النبوية .

الثاني : السعة ، والشمول العلمي .

الثالث : الاهتمام بالتنظيم والتبويب في مصنفاته.

الرابع : حسن الترتيب ، وسهولة السياق .

الخامس : طول النفس ، والاستطراد في عرض المسائل.

الباب الأول : ترجمة المؤلف

وقد قسمتها إلى فصلين

الفصل الأول :

سيرته الشخصية

المبحث الأول : اسمه ونسبه :

هو أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز بن مكى[١] زين الدين الزرعي ثم الدمشقي الحنبلي الشهير بابن قيم الجوزية رحمه الله[٢] .

وقد اتفق المترجون على هذه التسمية ، والنسبة ، ماعدا ، الجد الثاني ((سعد)) والجد الثالث ، ((حريز)) .

وقد اختلف في جده الثاني ((سعد)) فهو عند السيوطي[٣] ((سعيد)) ، وعند الألوسي[٤] ((أسعد)) ولكن الصحيح أنه ((سعد)) لاتفاق جميع من ترجم له على ذلك من المتقدمين ،والمتأخرين المحققين.

أما جده الثالث ((حريز)) بمهملتين ثم الياء والزاي المعجمة[٥] ، وجاء في البعض ((جرير)) كاسم الشاعر المشهور[٦] ، وجاء ((جريز)) بالجيم المعجمة ثم الراء المهملة ثم الياء والزاي المعجمة[٧] .

---

(١) الدرر الكامنة ، لأبن حجر ، ٤٣٤/٢.

(٢) انظر ذيل طبقات الحنابلة ، ٤٤٧/٢ ، شذرات الذهب ، ١٦٨/٦ ، الوافي بالوفيات ، ٢/٧٠، طبقات المفسرين ، ٢/٩٠، معجم المؤلفين ، ٩/ ١٠٦ الدرر الكامنة ، ٤/ ٢١ ، بغية الوعاة ، ١/ ٦٢ .

(٣) بغية الوعاة ١/ ٦٢

(٤) جلاء العينين ، ص ٣٠

(٥) الوافي بالوفيات ٢/٢٧٠ ، شذرات الذهب ، ٦/ ١٦٨

(٦) البدر الطالع ٢/ ١٤٢

(٧) ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٤٤٧ .

وعلى كل حال فإن الترجيح غير وارد لعدم المرجح المناسب ،ولكن مال إلى القـــول ب ((حريز)) بمهملتين ثم الياء والزاي المعجمة ، بعض المعاصرين[١] ومنهم الشيخ بكر أبو زيد حفظه الله في كتابه عن ابن القيم .

الزرعي : بضم الزاي المعجمة المشـــدد ، نسبه إلى زرع بـــضـــم الزاي ، وتســـمى الآن ((إزرع)) قرية بحوران .

ابن قيم الجوزية ، وقيم الجوزية هو أبوه أبوبكر بن أيوب بن سعد الزرعي الحنبلي ، يقول عنه ابن كثير رحمه الله : ((كان رجلاً صالحاً متعبداً قليل التكلف ، وكان فاضلاً ، وقد سمع شيئاً من دلائل النبوة عن الرشيد العامري ، توفي فجأة ليلة الأحد التاسع عشر من ذي الحجـــة ســـنة ٧٢٣هـــ بالمدرسة الجوزية ، وكانت جنازته حافلة ، وأثنى عليه الناس رحمه الله ، وهـــو والـــد العلامة شمس الدين ابن قيم الجوزية صاحب المصنفات الكثيرة النافعة الكافية[٢])).

وقد اشتهر والده بهذا اللقب لأنه كان قيماً علىالمدرسة الجوزية ((أي ناظراً)) عليها وقد تقدم الحديث عنها في مدراس الشام.

---

[١] بن قيم الجوزية ، لبكر أبوزيد ، ص ٨

[٢] البداية والنهاية ، ١٤/ ١١٤

المبحث الثاني : ولادته :

اتفقت كتبَ التاريخ والتراجم على أن تاريخ ولادة ابن قيم الجوزية رحمه الله سنة إحدى وتسعين وستمائة ، وقد حدد اليوم السابع من شهر صفر كل من الصفدي تلميذه[١] ، وابن تغري بردي[٢] ، والداوودي[٣] ، والسيوطي[٤] .

أما محل ولادته هل هو في (أزرع) أم في (دمشق) ؟ .

لم يذكر أحد ممن ترجم للإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله ذلك ،ولكن جرت عادة المؤرخين والمترجمين أنهم ينسبون الشخص المترجم له إلى محل ولادته ، ومسقط رأسه ، ثم إلى محل انتقالـه واستقراره .

وقد ذكر العلامة بكر بن عبد لله أبوزيد حفظه الله في كتابه[٥] (ابن قيم الجوزية حياتـه وآثاره) أن المراغي ذكر أنه ولد بدمشق في كتابه ((طبقات الأصوليين)) والله أعلم بالصواب.

---

[١] الوافي بالوفيات ، ٢/ ٢٧٠

[٢] المنهل الصافي ، ٣/ ٢٦١

[٣] طبقات المفسرين ، ٢/ ٩١

[٤] بغية الوعاة ، ١/ ٦٢

[٥] ابن قيم الجوزية ، لبكر أبوزيد ، ص ١٠

المبحث الثالث : أسرته :

الناظر في حال هذه الأسرة يرى أنها خدمت العلم وطلابه بأصولها وفروعها ، وحواشيها ، فقد نالت من العلم حظاً عظيماً بفضل الله ، كما أنها أسرة بر وصلاح وتقوى ، كما مر معنا قريباً قول ابن كثير رحمه الله في والده ((كان رجلاً صالحاً متعبداً قليل التكلف ، وكان فاضلاً[١])) وكانت له اليد الطولى في علم الفرائض ، وقد أخذها عنه ابنه شمس الدين رحمهما الله[٢] أما حواشيه ، فأخوة زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي بكر ولد سنة ٦٣٩هـ وقد شارك أخاه في أكثر شيوخه ، ومن تلامذته الحافظ ابن رجب ، توفي سنة ٧٦٩هـ .

وأبن أخيه عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عبد الرحمن . كان من الأفاضل وقد اقتنى أكثر مكتبة عمه شمس الدين ، توفي سنة ٧٩٩هـ .

أما فروعه الذين اشتهروا بالعلم فهم شرف الدين عبد الله الذي أمَّ الناس بالقرآن الكريم وهو ابن تسع سنين ، وبرهان الدين إبراهيم العلامة النحوي الفقيه ، وسيأتي ذكرهم في المبحث السادس بإذن الله تعالى .

في هذا الجو العلمي الرائع نشأ ابن قيم الجوزية رحمه الله في ربوع العلم تعلماً وتعليماً وقدوة ، فأخرج هذا الإمام الفذ المتقن المتفنن ﴿ **وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ** ﴾ ، وقد استفاد منه الخلق في حياته وبعد مماته إلى يومنا هذا و﴿ **ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ** ﴾ .

---

[١] البداية والنهاية ١٤/ ١١٤

[٢] المنهل الصافي ، لأبن تعزي بردي ، ٣/ ٦١

المبحث الرابع : نشأته :

نشأ ابن قيم الجوزية رحمه الله في بيئة خير وبر وصلاح ، وفي جو علمي كما تقدم معنا ، فقد كان أبوه رجلاً صالحاً ، فاضلاً عالماً ، بالإضافة إلى أنه كان قيماً على المدرسة الجوزية ، وأخوه كان عالماً فاضلاً كذلك ، ودمشق حينذاك كانت تزخر بالعلماء الجبال الأفذاذ ، والحركة العلمية في أوجها لا سيما في دمشق حاضرة العلم والعلماء .

هذا إلى ما وهبه الله جل وعلا من ذكاء مفرط وذهن وقاد ، واستعداد فطري للعلم والتعلم.

كل هذه الأسباب بعد توفيق الله سبحانه وتعالى أسهمت في تكوين ابن قيم الجوزية ورحمه الله علمياً في سن مبكرة ، يدل على ذلك حضوره لمجالس العلماء قبل سن السادسة من عمره تقريباً ، فيقول في كتابه المعطار (زاد المعاد) ((وهذه كانت حال شيخنا ورسوخه في علم التعبير ، وسمعت عليه عدة أجزاء و لم يتفق لي قراءة هذا العلم عليه لصغر السن وأخترام المنية له والله أعلم)) [١].

فنشأ منذ نعومة أظافره محباً للعلماء ومجالسهم ، كما كان شغوفاً باقتناء كتب العلم وكان لديه مكتبة عامرة ، ومن قرأ في شيء من كتبه علم كثرة كتبه ، وسعة اطلاعه[٢] .

يقول عنه الحافظ ابن حجر رحمه لله : ((وكان مغرى بجمع الكتب فحصل منها ما لا يحصى حتى كان اولاده يبيعون منها بعد موته دهراً طويلاً سوى ما اصطفوه لأنفسهم[٣])) .

---

[١] زاد المعاد ، ٣/ ٦١٦

[٢] انظر البداية والنهاية ١٤/ ٢٠٢ ، ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٤٤٨.

[٣] الدرر الكامنة ٤/ ٢٢

ويقول عنه ابن كثير رحمه الله : ((واقتنى من الكتب ما لا يتهيأ لغيره تحصيل عشر معشاره من كتب السلف والخلف[١])).

ويقول ابن العماد رحمه الله أن ابن أخيه عماد الدين إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي بكر ... قد اقتني جملة منها فيقول : ((كان من الأفاضل واقتنى كتباً نفسيه وهي كتب عمه الشيخ شمس الدين ابن القيم ، وكان لا يبخل بإعارتها[٢])).

كما كان رحمه الله ذا عبادة وزهد وورع ، وشغف بالذكر ، والاستغفار ، وكان يطيل الصلاة ويمد ركوعها وسجودها ، وكان إذا صلى الصبح جلس مكانه يذكر الله حتى يتعالى النهار ويقول : هذه غدوتي لو لم أقعدها سقطت قواي ((كشيخه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله)) ، وكان رحمه الله قد جمع إلى العلم الجهاد فكان من الذين لا يخافون في الله لومة لائم ، قائماً بالمعروف والنهي عن المنكر متحملا في سبيل ذلك ما يلقاه من أذى .

فقد أنكر شد الرحيل لزيارة قبر إبراهيم الخليل عليه السلام فسجن وأوذي[٣] .

---

[١] البداية والنهاية ١٤/ ٢٠٢

[٢] شذرات الذهب ٦/ ٣٥٨

[٣] ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٤٤٨

المبحث الخامس : أوصافه الخلقية والخلقية :

أطبق جميع من ترجم للإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله على وصفه بحسن الخلق وطيب السريرة ، ولطف المعشر ، وحسن السمت ، والصلاح ، والعلم وكثرة التعبد حتى أنه مع خصومه في معرض الرد عليهم تجده لطيفاً هادئً ، ذا حجة مقنعة قوية في ادب وهدوء كما سبق .

يقول ابن كثير رحمه الله : (كان حسن القراءة والخلق ، كثير التودد ، لا يحسد أحداً ، ولا يؤذيه ولا يستعيبه ، ولا يحقد على أحد ، وبالجملة كان قليل النظير في مجموعه وأموره وأحواله والغالب عليه الخير والأخلاق الفاضلة .. ولا أعرف في هذا العالم في زماننا أكثر عبادة منه ، وكانت له طريقة في الصلاة يطيلها جداً ، ويمد ركوعها وسجودها ، ويلومه كثير من أصحابه في بعض الأحيان ، فلا يرجع و لا يترع عن ذلك رحمه الله[1])).

ويقول ابن رجب رحمه الله : ((وكان رحمه الله تعالى ذا عبادة وتهجد ،وطول صلاة إلى الغاية القصوى ، وتأله ولهج بالذكر ، وشغف بالمحبة والإنابة والاستغفار والافتقار إلى الله والانكسار له ، والاطراح بين يديه على عتبة عبوديته ، ولم أشاهد مثله في ذلك ، ولا رأيت أوسع منه علماً ، ولا أعرف بمعاني القرآن والسنة وحقائق الإيمان منه ، وليس هو المعصوم ولكن لم أر في معناه مثله ، وقد امتحن وأوذي وحبس مع الشيخ تقي الدين في المرة الأخيرة بالقلعة منفرداً عنه ، ولم يفرج عنه إلا بعد موت الشيخ ، وكان في مدة حبسه مشتغلاً بتلاوة القرآن بالتدبر والتفكير ، ففتح عليه من ذلك خير كثير ، وحصل له جانب عظيم من الأذواق ، والمواجيد الصحيحة وتسلط بسبب ذلك على الكلام في علوم أهل المعارف ، والدخول في غوامضهم وتصانيفه ممتلئة بذلك .

وحج مرات كثيرة ، وجاور بمكة وكان أهل مكة يذكرون عنه من شدة العبادة ، وكثرة الطواف أمراً يتعجب منه[2])).

---

(١) البداية والنهاية ١٤/ ٢٠٢

(٢) ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٤٤٨

شهادتان دالتان على طيب نفسه ، وكرم أخلاقه ، من رجلين تتلمذا على يديه موثـوق بعلمها، وهذا هو الأثر الحقيق للعلم وثمرته التي يحصدها أهله وإلا فما فائدة هذا العلم إن لم يكن هأثر على صاحبه في قربه وتقربه من الله .

ومما يدل على تواضعه وحسن خلقه ، ما ذكر عنه العلامة الصفدي في قصيدته الميميـة[1] وهي :

بُـنـي أبي بكـر كـثير ذنوبـه ... فليس على من نـال مـن عرضـه إثم
بُـنـي أبي بكـر جهـول بنفسـه ... جهـول بـأمر الله أنى لـه العلـم
بُـنـي أبي بكـر غـدا متصـدراً ... يعلـم وهـو لـيس لـه علـم
بُـنـي أبي بكـر غـدا متمنيـاً ... وصال المعـالى والـذنوب لـه هـم
بُـنـي أبي بكـر يـروم ترقيـاً ... إلى جنة المـأوي ولـيس لـه عـزم
بُني أبي بكر يـرى العـزم في الـذي ... يزول ويفـنى والـذي تركـه الغـنم
بُني أبي بكـر لقـد خـاب سـعيه ... إذا لم يكن في الصـالحات لـه سـهم
بُـنـي أبي بكـر وأمثالـه غـدى ... بفتـواهم هـذى الخليقـة تـأتم
وليس لهم في العلم بـاع ولا التقـى ... ولا الزهد والدنيا لـديهم هـي الهـم
فوا لله لـو أن الصـحابة شـاهدوا ... أفاضلهم قالوا هـم الصـم والـبكم

ويقول رحمه الله في كتابه إعلام الموقعين بعد قوله تعالى (**ألم تر كيف ضـرب الله مـثلاً كلمةً طيبةً**) فهذه بعض ما تضمنه هذا المثل بالعظيم الجليل من الأسرار والحكم ولعلها قطرة من بحر بسحب أذهاننا الواقفة ، وقلوبنا المخطئة وعلومنا القاصرة وأعمالنـا الـتي توجـب التوبـة والاستغفار[2] .

فهذه سمة العلماء العاملين حيث يعترف بتقصيره وقله علمه مع فضله وسعة علمه وصلاحه وتقواه نحسبه كذلك.

---

(١) انظر الوافي بالوفيات ٢/ ٢٧١ ، نقلاً عن : ابن قيم الجوزية حياته وآثاره ، لبكر أبوزيد ص ٢٦ - ٢٧ .
(٢) إعلام الموقعين ١/ ١٧٥

المبحث السادس : أبناؤه :

سبق وأن عرفنا حال أسرة ابن قيم الجوزية رحمه الله ، وصلتها بالعلم والعلماء الوثيقة ، مما كان له أثر على أبنائه الذين كانوا في جو علمي بديع.

وهـــل ينبــت الخَطِّـــي إلا وشــيجه وتغـــرس إلا في منابتـــها النخـــل

وممن اشتهروا بالعلم من أبناء ابن قيم الجوزية رحمه الله :

١- عبد الله : شرف الدين أو جمال الدين عبد الله بن الإمام شمس الـدين محمـد ، وكانت ولادته سنة ٧٢٣هـ ووفاته سنة ٧٥٦هـ وكان مفرط الذكاء والحفظ ، حفظ سورة الأعراف في يومين وصلى بالقرآن سنة ٧٣١هـ أي وهو في التاسعة من عمره تقريباً . قال عنه ابن كثير رحمه الله (الشيخ الشاب الفاضل المحصل جمال الدين عبد الله بن العلامة شمس الدين ابن قيم الجوزيـة الحنبلـي ، كانت لديه علوم جيدة وذهنه حاضر خارق أفتى ودرس ، وأعاد ، وناظر وحج مرات عديدة [1] وقد تولى التدريس بالمدرسة الصدرية بعد وفاة والده . وقال أيضاً : ((ومن العجائب والغرائب التي لم يتفق مثلها ،ولم يقع من نحو مائتي سنة أو أكثر ،أنه أبطل الوقيد بجامع في ليلة النصف من شعبان ، فلم يزد في وقيده قنديل واحد على عادة لياليه في سائر السنة ولله الحمد والمنة[2])).

٢- إبراهيم : العلامة النحوي الفقيه المتقن برهان الدين إبراهيم بن شمس الدين وكانت ولادته سنة ٧١٦ هـ ووفاته سنة ٧٦٧هـ أخذ عن والده ، وغيره وقد أفتى ودرّس بالمدرسة الصدرية واشتهر صيته ، وكان على طريقة أبيه ، وله في النحو اليد الطولى ، فشرح الفية بن مالك وسماه (إرشاد السالك إلى حل إلفية ابن مالك). وتولى الخطابة بجامع خليخان بالقروانة ، وكان مثرياً ترك مالاً جزيلاً يقارب مائة ألف درهم رحمه الله[3] .

---

[1] البداية والنهاية ١٤/ ٢٥٣

[2] البداية والنهاية ١٤/ ٢٤٧.

[3] المرجع السابق ١٤/ ٢٦٩ .

وله رسالة باسم (اختيارات شيخ الإسلام ابن تيمية) . قسم فيها اختياراتـــه إلى أربعـــة أقسام وذكر في كل قسم جملة وافرة مختصرة من اختياراته فرحم الله الجميع .

المبحث السابع : وفاته :

لقد بذل وقدَّم هذا الإمام الهمام طيلة عقود حياته ، فقد كان معلماً عاملاً ، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر ، لا يمل و لا يكل ، سائراً في طريقه إلى الله على ضوء الكتاب والسنة ، ومنهج السلف الصالح ، ولكن لكل سفينة مرسى ولكل حي وفاة وهذه سنة الله تعالى في خليقته .

لقد اتفقت مصادر الترجمة لهذا الإمام على أن وفاته كانت ليلة الخميس الثالث عشر من رجب سنة إحدى وخمسين وسبعمائة للهجرة قال ابن كثير رحمه الله : - ((وفي ليلة الخميس ثالث عشر رجب وقت آذان العشاء توفى صاحبنا الشيخ العلامة الإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي إمام الجوزية وابن قيمها وصلى عليه بعد صلاة الظهر من الغد بالجامع الأموي ودفن عند والدته بمقابر الباب الصغير رحمه الله[١])).

وقال ابن رجب رحمه الله : ((توفى رحمه الله وقت العشاء الآخر ليلة الخميس ثالث عشر من سنة إحدى وخمسين وسبعمائة ، وصُلِّيَ عليه من الغد بالجامع عقيب الظهر ثم بجامع جراح ودفن بمقبرة الباب الصغير (سفح قاسيون) وشيعه خلق كثير ورئيت له منامات كثيرة حسنة رضي الله عنه ، وكان قد رأى قبل موته بمدة الشيخ تقي الدين رحمه الله في النوم وسأله عن مترلته فأشار إلى علوها فوق بعض الأكابر ، ثم قال له ابن تيمية : وأنت كدت تلحق بنا ، ولكن أنت الآن في طبقة ابن خزيمة رحمه الله[٢])).

---

[١] البداية والنهاية / ١٤/ ٢٤٦

[٢] ذيل طبقات الحنابلة : ٢/ ٤٥٠- ٤٥١

الفصل الثاني
في سيرته العلمية

المبحث الأول : دراسته وطلبه للعلم :

المتأمل في كتب التاريخ والتراجم يلمس الجدية ، والنفس الأبية التي لا ترضي بالدون .

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجساد

فقد تلقى وأشرب العلم وهو في سن مبكرة ، وبحث وحفظ وقرأ ، واختلط العلم بدمه ، وقد تلقى عن الشيوخ الحنابلة وغيرهم .

يقول رحمه الله عن شيخه الشهاب العابر (وسمعت عليه عدة أجزاء ولم يتفق لي قراءة هذا العلم عليه لصغر السن ، واخترام المنية له رحمه الله[1]) وقد توفى شيخه العابر سنة ٦٩٧هـ فيكون قد بدأ السماع وطلب العلم وهو في السابعة من عمره ومن شيوخه أبو الفتح البعلبكي المتوفى سنة ٧٠٩هـ .

وقد قرأ عليه عدداً من الكتب في النحو من بينها ألفية ابن مالك . والألفية ونحوها من المطولات في العربية لا يدرسها إلا من تمكن في علم العربية ، وأصبح من المنتهين فيه ، أو المقاربين ، وهذا يدل على أنه تمكن في علم النحو وغيره من العربية في سن التاسعة عشرة من عمره.

وهكذا شب هذا الإمام رحمه الله في هذا الرخاء العلمي ، حتى بلغ اشده في عاصمة بلاد الشام دمشق منجم العلم والعلماء.

---

[1] زاد المعاد : ٣/ ٦١٦

المبحث الثاني : رحلاته في طلب العلم :

عاش ابن قيم الجوزية رحمه الله في كنف والده ، وبدء في التتلمذ عليه لأنه حينـذاك رأس علماء الحنابلة فهو قيم المدرسة الجوزية ،وكانت دمشق تزخر بالعلماء الأفذاذ الذين تضرب لهم أكباد الإبل من جميع أنحاء المعمورة .

كما أن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله نزل دمشق ،وهو البحر المتلاطم قد ملىء علماً وحكمة وكفى به فلا عطر بعد عروس .

فلا غرابة حينئذ إذ لم يشتهر بالرحلة في طلب العلم فيكف يرحل وعنده النبع المتدفق من العلم والعلماء بدمشق.

ومع هذا نلمس في مصنفاته أنه ارتحل في طلب العلم ، وهذا أمر معهود معروف في حال العلماء لتلقي العلوم والإكثار من الشيوخ والسماع والتحري وابن قيم الجوزية رحمه الله من العلماء الكبار فلابد أنه قد ارتحل فقد ذكر المقريزي في كتابه (السلوك لمعرفة دول الملوك) في ترجمته : (وقدم القاهرة غير مرة[١]) وقد زار تبوك وألف بها رسالته المشهورة ((الرسالة التبوكية)). ثامن محرم سنة ٧٣٣هـ ، وزار بيت المقدس بفلسطين يقول في كتابه بدائع الفوائد[٢] عند ذكره لبيت من الشعر يمكن أن ينظم من نفس كلماته أربعون ألفاً وثلاثمائة وعشرون بيتاً ثم قال : ومثله لي قلته في القدس ثم ذكر البيت :

محب صبور غريب فقير   وحيد ضعيف كتوم خمول

ويقول في كتابه هداية الحيارى [٣] ((وجرت لي مناظرة بمصر مع أكبر من يشير إليه اليهود بالعلم والرئاسة)).

وحج وجاور بمكة قال ابن رجب رحمه الله ((وحج مرات كثيرة ، وجاور بمكة ،وكان أهل مكة يذكرون عنه من شدة العبادة وكثرة الطواف أمراً يتعجب منه[٤])). وقد يكون قد رحل إلى طرابلس فله كتاب سماه ((المسائل الطرابلسية)).

والله أعلم بالصواب

---

(١) السلوك ، ٢/ ٨٤٣

(٢) بدائع الفوائد ٣/ ٢٤٥ . ويقصد ابن القيم بذلك أنه يساوي هذا العدد لقيمته وقوته وراجع البدائع لمعرفة مراده .

(٣) هداية الحيارى ص ٣٨٤

(٤) ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٤٤٩

المبحث الثالث : شيوخه وتلاميذه :

أولاً/ شيوخه :

عاش ابن قيم الجوزية رحمه الله في فترة ذهبية ، وثورة علمية كثر فيها العلماء الأفذاذ والتآليف فنهل من وافر وعذب علمهم ، فتكونت هذه الشخصية العجيبة التي ملئت علماً وفهماً ، وهذا ذكر شيوخه مرتباً لهم على حروف المعجم وهم :

١- قيم الجوزية : والده أبو بكر ابن أيوب . ذكره في شيوخه الصفدي[١] ، وابن تغري بردي[٢] والشوكاني[٣] .

٢- ابن عبد الدائم : أبو بكر أحمد بن عبد الدائم بن نعمة المقدسي المتوفى سنة ٧١٨هـ : ذكره في شيوخه ابن رجب[٤] والصفدي[٥] وابن تغري[٦] بردي والذهبي[٧] وابن العماد[٨] وغيرهم .

٣- شيخ الإسلام ابن تيمية : أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام النميري المتوفى ٧٢٨هـ وقد لازمه أكثر من خمس عشرة سنة ، وأخذ عنه علوم كثيرة ، وتأثر به[٩] .

٤- الشهاب العابر : أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن عبد المنعم بن نعمة النابلسي الحنبلي المتوفى سنة ٦٩٧هـ[١٠]

٥- ابن الشيرازي : أبو نصر محمد بن عماد الدين الشيرازي ، وقال ابن العماد مسند الوقت شمس الدين أبو نصر محمد بن محمد الشيرازي الدمشقي المتوفى سنة ٧٢٣هـ[١١] .

---

(١) الوافي بالوفيات ٢/ ٢٧٠
(٢) المنهل الصافي ٣/ ٦١
(٣) البدر الطالع ٢/ ١٤٣
(٤) ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٤٤٨
(٥) الوافي بالوفيات ٢/ ٢٧٠
(٦) المنهل الصافي ٣/ ٦١
(٧) العبر ٥/ ٩٨
(٨) شذرات الذهب ٦/ ٤٨
(٩) الوافي بالوفيات ٢/ ٢٧١ ، البداية والنهاية ١٤/ ١١٧
(١٠) ذيل طبقات الحنابلة ٢/٤٤٨ ، الوافي بالوفيات ٢/ ٢٧٠ ، المنهل الصافي ٣/٦١ ، شذرات الذهب ٦/١٦٧
(١١) الوافي بالوفيات ٢/ ٢٧١ طبقات المفسرين ٢/ ٩٠ ، بغية الوعاة ١/ ٦٢ ، شذرات الذهب ٦/ ٦٢ .

٦- المجد الحراني : إسماعيل مجد الدين بن محمد الفراء الحراني شيخ الحنابلة بدمشق المتـــوفى ســـنة ٧٢٩هــ[١] وليس هو ابن تيمية الجد صاحب المحرر))

٧- ابن مكتوم : إسماعيل الملقب بصدر الدين والمكنى بأبي الفداء بن يوسف بن مكتوم القيســـي الدمشقي الشافعي المتوفى سنة ٧١٦هــ[٢] .

٨- الكحال : أيوب زين الدين بن نعمة النابلسي ثم الدمشقي الكحال المتوفى سنة ٧٣٠هــ[٣]

٩- البهاء ابن عساكر : القسم بن المظفر بن النجم محمود بن تاج الأمنـــاء عســـاكر المتـــوفى سنة ٧٢٣هــ[٤]

١٠- الحاكم : سليمان تقي الدين أبو الفضل بن حمزة بن أحمد بن قدامة المقدســـي الحنبلـــي مسند الشام وكبير قضاتها سمع من نحو مائة شيخ وأجازه أكثر من ســـبعمائة شـــيخ تـــوفى سنة ٧١٥هــ[٥] .

١١- شرف الدين ابن تيمية : عبد الله أبو محمد بن عبد الحليم بن تيمية النميري أخـــو شـــيخ الإسلام ابن تيمية رحم الله الجميع توفى سنة ٧٢٧هــ[٦] .

١٢- الوداع : علاء الدين على بن المظفر بن إبراهيم بن عمر بن زيد الكندي ، ويعرف بكاتب ابن وداعة المقرئ المحدث توفى سنة ٧١٦هــ[٧] .

١٣- المطعم : عيسى بن عبد الرحمن بن معالى بن أحمد ، أبو محمد المقدسي ثم الصالحي ، المطعم في الأشجار ثم السمسار في العقار مسند الوقت . توفى سنة ٧١٩هــ[٨] .

١٤- بنت جوهر : فاطمة أم محمد بنت الشيخ إبراهيم بن محمود بن جوهر البطائحي البعلـــي المسندة المحدثة توفيت سنة ٧١١هــ[٩] .

---

[١] الوافي بالوفيات ٢/ ٢٧٠ ، المنهل الصافي ٣/ ٦١ ، الدر الكامنة ٤/ ٢١

[٢] الوافي بالوفيات ٢/ ٢٧٠ ، المنهل الصافي ٣/ ٦١ ، الدرر الكامنة ١/ ٤١٠

[٣] الوافي بالوفيات ٢/ ٢٧٠

[٤] شذرات الذهب ٦/ ٦١

[٥] ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٤٤٨ ، طبقات المفسرين ٢/ ٩١ ، الوافي بالوفيات ٢/ ٢٧٠ ، الدرر الكامنة ٤/ ٢١ .

[٦] الوافي بالوفيات ٢/ ٢٧٠ ، المنهل الصافي ٣/ ٦١

[٧] شذرات الذهب ٦/ ٣٩ .

[٨] ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٤٤٨ ،الوافي بالوفيات ٢/ ٢٧٠ ، المنهل الصافي ٣/ ٩١ .

[٩] ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٤٤٨ طبقات المفسرين ٢/ ٩١ .

١٥- مجد الدين التونسي : أبو بكر بن محمد بن قاسم التونسي الشافعي . شيخ النحاة والباحثين كان ديناً حيناً ذكياً ، توفي عن اثنتين وثمانين سنة[١] .

١٦- البدر ابن جماعة: محمد القاضي بدر الدين بن إبراهيم بن جماعة الكناني الحموي الشافعي الإمام المشهور صاحب التصانيف توفي سنة ٧٣٣هـ[٢] .

١٧- ابو الفتح البعلبكي : محمد شمس الدين أبو عبد الله بن أبي الفتح البعلبكي الحنبلي الفقيه اللغوي النحوي المتوفى سنة ٧٠٩هـ[٣] .

١٨- الصفي الهندي محمد صفي الدين بن عبد الرحيم بن محمد الأموري الشافعي الفقيه الأصولي . توفي سنة ٧١٥هـ[٤] .

١٩- الزملكاني : محمد أبو المعالي كمال الدين بن على بن عبد الواحد الأنصاري الشافعي ابن خطيب زملكا ، ولي قضاء حلب ، وكان متفنناً في علوم شتى توفي سنة ٧٢٧هـ[٥] .

٢٠- ابن مفلح : محمد شمس الدين أبو عبد الله بن مفلح بن محمد بن مفرج المقدسي الحنبلي قال عنه ابن قيم الجوزية رحمه الله ((ما تحت قبة الفلك أعلم بمذهب الإمام أحمد من ابن مفلح)). توفي سنة ٧٦٣هـ[٦] .

٢١- المزي : يوسف جمال الدين بن زكي الدين عبد الرحيم القضاعي ثم الكلبي الدمشقي الشافعي إمام المحدثين وخاتمة الحفاظ توفي سنة ٧٤٢هـ[٧] .

٢٢- ابن الفراء : مجد الدين إسماعيل بن محمد بن إسماعيل الحراني الحنبلي شيخ الحنابلة بدمشق توفي سنة ٧٢٩هـ[٨] .

٢٣- أبو العباس أحمد بن إبراهيم الواسطي . ذكره ابن القيم رحمه الله في كتابة شفاء العليل[٩]

---

(١) شذارت الذهب ٦/ ٤٧ ،الوافي بالوفيات ٢/ ٢٧٠ ، الدرر الكامنة ٤/ ٢٢ بغية الوعاة ١/ ٦٢

(٢) البداية والنهاية ١٤/ ٢٦٦ ، شذارت الذهب ٦/ ١٠٥ ، الدرر الكامنة ٣/ ٣٦٧ الوافي بالوفيات ٢/ ٧٢ .

(٣) الوافي الوفيات ٢/ ٢٧٠

(٤) الوافي بالوفيات ٢/ ٢٧٠ ، المنهل الصافي ٣/ ٦١ ، طبقات المفسرين ٢/ ٩١ ، البدر الطالع ٢/ ١٤٣

(٥) ابن القيم وموقفه من التفكير الإسلامي لعوض الله حجازي ، ص ٤٣ .

(٦) البداية والنهاية ١٤/ ٢٩٤، الدرر الكامنة ٥/ ٣٠ .

(٧) البداية والنهاية ١٤/ ١٩١ ، شذرات الذهب ٦/ ١٣٦

(٨) الدرر الكامنة ١/ ٤٠٣

(٩) شفاء العليل ص ١٦ .

ثانياً / تلاميذه :

كان من الطبيعي بعد أن نهل من العلم في سن مبكرة، وتنوعت مشاربه، ورسخت قدمه في العلم، أن يقصده طلاب العلم، ويضربوا له أكباد الإبل، وقد حصل ذلك بقول ابن رجب رحمه الله:"واخذ عنه العلم خلق كثير من حياة شيخه إلى أن مات و انتفعوا به، وكان الفضلاء يعظمونه، ويتتلمذون له، كابن عبدالهادي وغيره"[(١)].

وقد تخرج من تحت يديه طلاب متميزون، بل أئمة في العلم، أنتجوا أمهات الكتب التي أصبحت مراجع لأهل العلم من بعدهم، وسنذكر أشهر تلاميذه وهم:

١) البرهان ابن قيم الجوزيه: ابنه برهان الدين إبراهيم ، وتقدم ذكره.

٢) ابن كثير: إسماعيل عماد الدين أبو الفداء بن عمر بن كثير القرشي الشافعي. الإمام الحافظ المشهور المتوفى سنة ٧٧٤هـ[(٢)]

٣) ابن رجب : عبدالرحمن زين العابدين أبو الفرج بن أحمد بن عبدالرحمن. الملقب برجب الحنبلي. المتوفي سنة ٧٩٥هـ . صاحب التصانيف النافعة[(٣)].

٤) شرف الدين ابن قيم الجوزية: ابنه عبدالله، وقد تقدم ذكره.

٥) السبكي: علي بن عبدالكافي بن علي بن تمام السبكي تقي الدين أبو الحسن. المتوفى سنة ٧٥٦هـ[(٤)].

٦) الذهبي: محمد بن أحمد بن عثمان بن قليماز الذهبي التركماني الشافعي. الإمام الحافظ صاحب التصانيف الكثيرة النافعة. المتوفى سنة ٧٤٨هـ[(٥)].

٧) ابن عبدالهادي : محمد شمس الدين أبو عبدالله بن أحمد بن عبدالهادي بن قدامة المقدسي ثم الصالحي الحنبلي. الحافظ الناقد. المتوفى سنة ٧٤٤هـ[(٦)].

---

(1) ذيل طبقات الحنابلة ٤٤٩/٢

(2) الدرر الكامنة ٣٧٣/١، شذرات الذهب ٣٣٩/٦

(3) الدرر الكامنة ٤٢٨/٢، شذرات الذهب ٣٣٩/٦

(4) الدرر الكامنة ١٣٤/٢

(5) شذرات الذهب ١٥٣/٦

(6) البداية والنهاية ٢١٠/١٤

٨) النابلسي: محمد شمس الدين أبو عبدالله بن عبدالقادر بن محي الدين عثمان النابلسي. الحنبلي المعروف بالجنّة. المتوفى سنة ٧٩٧هـ[١].

٩) الغزي: محمد بن محمد بن الخضر الغزي الشافعي، ينتهي نسبه إلى الزبير بن العوام رضي الله عنه. توفي سنة ٨٠٨هـ[٢].

١٠) الفيروز آبادي: محمد بن يعقوب بن محمد محي الدين أبو الطاهر الفيروز آبادي. الشافعي صاحب القاموس. توفي سنة ٨١٧هـ[٣].

١١) المقري : محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر القرشي المقرّي التلمساني. المتوفى سنة ٧٥٩هـ[٤].

١٢) الصفدي: صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبدالله. أبو الصفا الصفدي الشافعي. المتوفى سنة ٧٦٤هـ[٥].

١٣) القونوي: علاء الدين علي بن إسماعيل بن يوسف القونوي الشافعي. فريد عصره توفي سنة ٧٢٩هـ[٦].

---

(1) شذرات الذهب ٣٤٩/٦

(2) شذرات الذهب ٧٩/٧ ، البدر الطالع ٢٥٤/٢

(3) البدر الطالع ٢٨٠/٢

(4) نفح الطيب ٢٥٤/٥

(5) الوافي بالوفيات ٢٧٢/٢

(6) الدرر الكامنة ٢٧/٣-٢٨ ، شذرات الذهب ٩٠/٦، بغية الوعاة ١٤٩/٢

المبحث الرابع : ثقافته وعلمه

استقر شيخ الإسلام ابن تيميه رحمه الله في دمشق سنة ٧١٢هـ[١]. قادما من مصر، فالتقى به الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله وصحبه، ولازمه، ملازمة الظل وكان حينئذ في ريعان شبابه وعنفوانه، وعمره إحدى وعشرون سنة تقريباً، وظل ملازماً لشيخه وفياً له طيلة حياته، حتى توفي شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله سنة ٧٢٨هـ. فيكون قد لازم شيخه ستة عشر سنة ينهل من ذلك المورد العذب الزلال، فأثر ذلك في شخصية ابن قيم الجوزية رحمه الله وفي فكره، وعلمه، وتآليفه، فكان موسوعيا مشاركا في شتى العلوم، لم يترك علما نافعا إلا وشارك فيه بالبحث والتحقيق وتوسع فيه.

"قال القاضي برهان الدين الزرعي ما تحت أديم السماء أوسع علماً منه. وكتب بخطه ما لا يوصف كثرة. وصنف تصانيف كثيرة في أنواع العلوم، وكان شديد المحبة للعلم وكتابته، ومطالعته، وتصنيفه، واقتناء كتبه[٢]"

"وكان عارفا بالتفسير لا يجارى فيه، وبأصول الدين وإليه فيه المنتهى، وبالحديث ومعانيه وفقهه ودقائق الاستنباط منه، وتفقه في الفقه الحنبلي وبرع وافتى وبالعربية، وله فيها اليد الطولى، وبعلم الكلام وغير ذلك.. وعلما بعلم السلوك وكلام أهل التصوف، وإشاراتهم. ودقائهم، له في كل فن من هذه الفنون اليد الطولى[٣]".

ويقول ابن كثير رحمه: "سمع الحديث وأشتغل بالعلم، وبرع في علوم متعددة، لا سيما علم التفسير والحديث والأصلين"[٤] ويقول تلميذه الحافظ الذهبي: "عني بالحديث ومتونه ورجاله، وكان يشتغل بالفقه ويجيد تقريره، وفي النحو ويدريه، وفي الأصلين"[٥]

---

[1] البداية والنهاية ٦٧/١٤

[2] شذرات الذهب ١٦٨/٥ -١٦٩

[3] ذيل طبقات الحنابلة ٤٤٨/٢

[4] البداية والنهاية ٢٤٦/١٤

[5] انظر ابن القيم حياته وآثاره ، بكر بن عبدالله أبوزيد . ص ٣٠

ويقول تلميذه الصفدي: " أشتغل كثيرا، وناصر وأجتهد، وأكبّ على الطلب وصنف، وصار من الأئمة الكبار، في علم التفسير والحديث والأصول، فقها وكلاما والفروع والعربية، و لم يخلف الشيخ العلامة تقي الدين ابن تيمية مثله"(١).

ويقول ابن ناصر الدين الدمشقي: وكان ذا فنون من العلوم وخاصة التفسير والأصول من المنطوق والمفهوم"(٢) .

تولي التدريس بالمدرسة الصدرية، والأمامة بالجوزية(٣).

ومما يدل على غزارة علمه وقوة حفظه أنه ألف كتبا في أسفاره: ككتاب مفتاح دار السعادة، وكتاب روضة المحبين، وكتاب زاد المعاد، وكتاب تهذيب سنن أبي داود(٤).

ولقد أمتاز أسلوبه في التأليف بالسلاسة و العذوبة وحسن السياق بحيث تشنف الآذان قراءة كلامه وتميل إليه القلوب.

يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله : " وكل تصانيفه مرغوب فيها بين الطوائف"(٥) .

ولقد استفاد أهل العلم من بعده من كتبه التي تميزت بالسعة والغزارة العلمية لأنه رحمه الله تميز بالاستطراد وبسط الكلام، فأصبح بعضهم يخرج رسائل مستقلة وهي من مباحث أحد كتبه رحمه الله.

وكان ماهرا في النظم يدل على ذلك كتاب "الكافية الشافية" المسماة بنونية ابن القيم رحمه الله، وقد جاء شعره في سهولة وعذوبة ودقة في التصوير، وكذلك امتاز نثره، ومن يقرأ كتاب "روضة المحبين" يرى تمكنه جليا.

أما الخط فقد كان متقناً له رحمه الله يقول ابن كثير " وكتب بخطه الحسن شيئاً كثيراً"(٦).

---

(1) الوافي بالوفيات ٢/٢٧١
(2) الردّ الوافر ص ٣٥ -٣٦
(3) البداية والنهاية ١٤/٢٠٢
(4) أنظر ابن القيم، لبكر أبو زيد ص ٣٦
(5) الدر الكامنة ٤/٢٢
(6) البداية والنهاية ١٤/٢٤٦

المبحث الخامس : عقيدته ومذهبه:

١. عقيدته : كان الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله وقع في بداية طلبه للعلم في تأويل بعض الصفات، ولم يتحرر سلفياً إلا بعد لقائه وملازمته لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وهذا ما يظهر من خلال أبيات في "الكافية والشافية"

حيث يقول رحمه الله[1]:

يا قوم والله العظيم نصيحة ... من مشفق وأخ لكم معوان
جربت هذا كله ووقعت في ... تلك الشباك وكنت ذا طيران
حتى أتاح لي الإله بفضله ... من ليس تجزيه يدي ولساني
فتى أتى من أرض حران فيها ... أهلا بمن قد جاء من حران
فالله يجزيه الذي هو أهله ... من جنة المأوى من الرضوان
أخذت يداه يدي وسار فلم يرم ... حتى أراني مطلع الإيمان

ويقول رحمه الله في موضع آخر:

يا طالب الحق المبين ومؤثراً ... علم اليقين وحجة الإيمان
أسمع مقالة ناصح خبر الذي ... عند الورى قد شبّ حتى الآن
ما زال مذ عقدت يداه إزاره ... قد شدّ مئزره إلى الرحمن
وتخل الفترات للعزمات أمر ... ملازم لطبيعة الإنسان
وتولد النقصان من فتراته ... أو ليس سائرنا بني النقصان
طاف المذاهب يبتغي نوراً ... ليهديه وينجيه من النيران
وكأنه قد طاف يبغي ظلمة ... الليل البهيم ومذهب الحيران

---

[1] النونية ٢/٦٨ –٧٤ مع شرح ابن عيسى.

والليـــــل لا يـــــزداد إلا قـــــوة   والصبح مقهوراً بذا الســـلطان

فأصبح رحمة الله بعد اتصاله بشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله سلفياً، مقررا لمنهج أهـــل السنة والجماعة، منابذاً لأهل البدع والأهواء. ولا أدل على صفاء عقيدته وكونها على منهج أهل السنة والجماعة من تلك المؤلفات العظيمة التي سطرها براعة فيبيان منهج أهل السنة والجماعـــة والرد على أهل الأهواء والبدع من مثل : الصواعق المرسلة ، واجتماع الجيـــوش الإســـلامية ، وهداية الحيارى ، وقصديته النووية الشهيرة ، وما سطره في ثنايا كتبه مما يدل دلالـــة أكيـــدة لا يتطرق إليها شك واحتمال أنه كان على منهج أهل السنة والجماعة .

٢. مذهبه: وصف ابن قيم الجوزية رحمه الله كل من ترجم له بأنه حنبلي وهذه النسبة لها حظ من الصحة، فإن ابن قيم الجوزية رحمه الله، قد فتح عينيه وتفقه في بداية طلبه للعلم على المذهب الحنبلي، فأبوه كان قيما للمدرسة الجوزية التي كانت وقفـــا علىالحنابلـــة، كمـــا أن قريته"إزرع" كانت قرية الحنابلة، والمذهب الحنبلي سائد فيها، كل ذلك سبق ذكره، ولـــذلك جميع من ترجم له، وصف بأنه حنبلي، ولكن بعد اتصاله بشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله على وجه الخصوص وبغيره من العلماء الكبار، وبعد أن رسخت قدمه في العلم، اصبح مجتهدا، وإنما حظه من الوصف بالحنبلي إلا تبعا لما أيده الدليل وليس التقليد، وقد أتخذ طريقا وسطا فلم يجفو عن اتباع الأئمة الأربعة كمصطفي الظاهرية، ومن نحا نحوهم، ولم يغلو في تقليد المذهب كمـــا يفعله متعصبة المذاهب . بل تراه يحكي أقوال أصحاب المذاهب الأربعة ويستأنس بهم، ويـــورد المذهب الحنبلي وقد يخالفه إن كان ليس معه الدليل كما رجح كثيرا مـــن المســـائل المخالفـــة للمذهب.

٣. يقول رحمه الله في كتابه المعطار" إعلام الموقعين" : وكثيرا ما ترد المسألة نعتقد فيها خلاف المذهب فلا يسعنا أن نفتي بخلاف ما نعتقده، فنحكى المذهب الراجح ومرجحه، ونقول هذا هو الصواب، وهو أولى أن يؤخذ به وبالله التوفيق[1]" .

---

[1] إعلام الموقعين ١٧٧/٤

المبحث السادس : مكانته وثناء العلماء عليه

لقد برع الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله في شتى العلوم، وفاق أقرانه، وحصّل ما لم يحصله غيره، وذلك بفضل الله أولاً ثم بجده واجتهاده، وجلده في طلب العلم ولقد قدّر له أهل العلم هذا الفضل، فأثنوا عليه ثناءً عطراً، حتى أن كل من ترجم له أثنى عليه حتى من خالفه .

فهذا ابن كثير رحمه الله يقول: " الشيخ الإمام العلامة"[١]

وصفه الصفدي رحمه الله بقوله : "وأكبّ على الطلب وصنف وصار من الأئمة الكبار"[٢]

ويقدم له ابن رجب رحمه الله بقوله : "الفقيه الأصولي المفسر النحوي العارف شمس الدين أبو عبدالله بن قيم الجوزية. شيخنا"[٣].

ويقول ابن العماد رحمه الله فيه : " الفقيه الحنبلي بل المجتهد المطلق، المفسر النحوي الأصولي المتكلم"[٤]

ويقول الحافظ ابن حجر رحمه الله : " وكان جريء الجنان، واسع العلم ، عارفا بالخلاف ومذاهب السلف"[٥].

ويقول فيه السخاوي رحمه الله: "العلامة الحجة المتقدم في سعة العلم ومعرفة الخلاف، وقوة الجنان، ورئيس أصحاب ابن تيمية الإمام، بل هو حسنة من حسناته والمجمع عليه بين المخالف والموافق، وصاحب التصانيف السائرة، والمحاسن الجمّة وانتفع به الأئمة "[٦] .

ويقول فيه الشيخ مرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي: " هو العلامة شمس الدين الحنبلي، أحد المحققين، علم المصنفين، نادرة المفسرين ، ابن قيم الجوزية وتلميذ ابن تيمية، له التصانيف الأنيقة.. فكان ذا فنون في العلوم، صاحب إدراك لسرائر المنطوق والمفهوم، وبرع في علم الحديث بحيث انتهت إليه فيه الرئاسة"[٧]

---

(1) البداية والنهاية ٢٤٦/١٤

(2) الوافي بالوفيات ٢٧٠/٢

(3) ذيل طبقات الحنابلة ٤٤٧/٢

(4) شذرات الذهب ١٦٨/٦

(5) الدرر الكامنة ٢١/٤

(6) الضوء اللامع ٢٠٤/١١

(7) أنظر الشهادة الذكية

ويقول فيه الشوكاني رحمه الله : " العلامة الكبير المجتهد المطلق المصنف المشهور بـــرع في جميع العلوم وفاق الأقران واشتهر في الآفاق، وتبحر في معرفة مذاهب السلف"[1]

ولقد استحق ابن قيم الجوزية رحمه الله هذا الثناء من هؤلاء الأئمة الكبار رحم الله الجميع.

(1) البدر الطالع ١٤٣/٢

المبحث السابع / مصنفاته :

ترك الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله تركة عظيمة من المؤلفات الكبار والصغار، فقد عرف بقلمه السيال، وأسلوبه الرائع، وخطة الجميل وقد اهتم المترجمون له بسرد كتبه، والبحث عنـــها. وهي كالتالي مرتبة على حروف المعجم كما ذكرها العلامة بكر بن عبدالله أبوزيد حفظه الله : [١]

١. الاجتهاد والتقليد: ذكره ابن القيم في "مفتاح دار السعادة" عند تفسير قوله تعـــالى " **وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث**"[٢]

٢. اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية: ذكره في كتابه " الفوائد" عند تفســير قوله تعالى " **الله نور السماوات والأرض**"[٣] . طبع قديماً عام ١٣١٤هـــ بالهند .

٣.أحكام أهل الذمة : طبع للمرة الأولى في مجلدين بتحقيق / صبحي الصالح سنة ١٣٨١هـــ .

٤.أسماء مؤلفات ابن تيمية : رسالة مطبوعة بتحقيق / صلاح الدين المنجد [٤].

٥.أصول التفسير : ذكره في "جلاء الأفهام"[٥]

٦. الإعلام باتساع طرق الأحكام: ذكره في "إغاثة اللهفان"[٦]

٧.إعلام الموقعين عن ربّ العالمين: طبع سنة ١٣٧٤هـــ بمصر بتحقيـــق / محمـــد محـــي الـــدين عبدالحميد.

٨.إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان: طبع سنة ١٣٧٥هـــ بمصر بتحقيق / محمد حامد الفقي.

٩.إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان: رسالة مطبوعة بتحقيق / محمد جمال الدين القاسمي.

١٠.إقتضاء الذكر بحصول الخير ودفع الشرّ: ذكره الصفدي رحمه الله. [٧]

---

(1) ابن قيم الجوزية حياته وآثاره . ص ١١٩ – ١٩٦

(2) مفتاح دار السعادة . ص ٦٢

(3) الفوائد . ص ٦ وقد طبع هذا الكتاب عام ١٤٠٨هـــ بتحقيق د.عبدالله بن عواد المعتق . رسالة دكتوراة في جامعة الإمام .

(4) وقد ذكر أحد الباحثين أنهذه الرسالة منسوبة إلى الإمام ابن القيم وليست من تأليفه ، وإنما من تأليف : (ابن رشيق) تلميذ شـــيخ الإسلام ابن تيمية كاتب مصنفات شيخ الإسلام والذي كان أبصر بخط الشيخ منه . انظر : قاعدة في الاستحسان ص (٩ – ١٢) .

(5) جلاء الأفهام ص ٨٣

(6) إغاثة اللهفان ١١٩/٢

(7) الوافي بالوافيات ٢٧١/٢

١١.الأمالي المكية: ذكره في كتابه " بدائع الفوائد" عند تفسير قوله تعالى"ولقد اتينا موسى وهارون الفرقان وضيآء وذكراً للمتقين"[١]

١٢.أمثال القرآن : ذكره ابن العماد[٢] والداودي[٣].

١٣.الإيجاز: ذكره حاجي خليفة.[٤]

١٤.بدائع الفوائد: طبع عدة مرات.

١٥.بطلان الكيمياء : ذكره في كتابه "مفتاح دار السعادة" وذكره ابن العماد[٥].

١٦.بيان الاستدلال على بطلان اشتراط محلل السباق والنضال: ذكره الصفدي[٦]

١٧.التبيان في أقسام القرآن : وهو كتابنا المحقق في هذه الرسالة.

١٨. التحبير لما يحل ويحرم من لبس الحرير: ذكره في كتابه "زاد المعاد" عند كلامه على الحرير[٧]

١٩.التحفة المكية : ذكره ابن العماد[٨] والدوادي [٩]

٢٠.تحفة المودود في أحكام المولود: طبع سنة ١٣٩١هـ في دمشق بتحقيق / عبدالقادر الأرناؤوط.

٢١. تحفة النازلين بجوار رب العالمين: ذكره البغدادي[١٠]، وأشار له في كتابه "مدارج السالكين"[١١].

٢٢.تدبير الرئاسة في القواعد الحكمية بالذكاء والقريحة : ذكره البغدادي[١٢].

٢٣.التعليق على الأحكام: ذكر في مقدمة شرح النونية لابن عيسى.

---

(1) بدائع الفوائد ٢/١٥

(2) شذرات الذهب ٦/١٧٠

(3) طبقات المفسرين ٢/٩٣

(4) كشف الظنون ١/٢٠٦

(5) شذرات الذهب ٦/١٦٩

(6) الوافي بالوفيات ٢/٢٧١

(7) زاد المعاد ٣/٨٨

(8) شذرات الذهب ٦/١٦٨

(9) طبقات المفسرين ٢/٩٣

(10) هدية العارفين ٢/١٥٨

(11) مدارج السالكين ١/٢٣٠

(12) إيضاح المكنون ١/٢٧١

٢٤.تفضيل مكة المكرمة على المدينة المنورة : ذكره ابن رجب[١]، وابن العماد[٢].
٢٥.تهذيب مختصر سنن أبي داود: طبع سنة ١٣٦٨هـ بمصر بتحقيق / محمد حامد الفقي.
٢٦.الجامع بين السنن والآثار: ذكره في كتابه "بدائع الفوائد"[٣]
٢٧.جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام: طبع مراراً.
٢٨.جوابات عابدي الصلبان،وأن ما هم عليه دين الشيطان: ذكره ابن رجب[٤] وابن العماد[٥].
٢٩.الجواب الشافي لمن سأل عن ثمرة الدعاء إذا كان ما قد قدر واقع : ذكره الشوكاني[٦].
٣٠.حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح: طبع مراراً.
٣١. الحامل: أشار له في كتابه "تهذيب السنن"[٧]
٣٢.الحاوي: ذكره الحافظ ابن حجر في فتح الباري"الجزء الحادي عشر".
٣٣. حرمة السماع : ذكره حاجي خليفة [٨]
٣٤. حكم تارك الصلاة : طبع مرارا
٣٥.حكم إغمام هلال رمضان : ذكره ابن رجب[٩]
٣٦.حكم تفضيل بعض الأولاد على بعض في العطية : أشار له في "تهذيب السنن"[١٠]
٣٧.الداء والدواء : طبع مراراً.
٣٨.دواء القلوب : ذكره العلامة بكر بن عبدالله أبو زيد عن الأستاذ عبدالله الجبوري. [١١]
٣٩. رفع الأبرار في الصلاة على النبي المختار: ذكره البغدادي. [١٢]

---

(1) ذيل طبقات الحابلة ٢/٤٥٠
(2) شذرات الذهب ٦/١٦٨
(3) بدائع الفوائد ٤/٦٨
(4) ذيل طبقات الحنابلة ٢/٤٥٠
(5) شذرات الذهب ٦/١٦٩
(6) البدر الطالع ٢/١٤٤
(7) تهذيب السنن ٣/١٠٩
(8) كشف الظنون ١/٦٥٠ ولعله كتاب : كشف الغطاء . الآتي قريباً .
(9) ذيل طبقات الحنابلة ٢/٤٥٠
(10) تهذيب السنن ٥/١٩٣
(11) ابن القيم الجوزية ص ٣٢
(12) هدية العارفين ٢/١٥٨

٤٠. الرسالة الحلبية في الطريقة المحمدية: ذكره الصفدي[١]

٤١.الرسالة الشافية في أحكام المعوذتين : ذكره الصفدي[٢].

٤٢.رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه: مخطوط ذكره بكر بن عبدالله أبوزيد[٣].

٤٣.الرسالة التبوكية : مطبوعة بمصر سنة ١٣٤٧هـ بتصحيح عبدالظاهر أبو السمح.

٤٤.رفع التنزيل : ذكره حاجي خليفة[٤].

٤٥رفع اليدين في الصلاة: ذكره ابن رجب[٥]، والصفدي[٦].

٤٦.روضة المحبين ونزهة المشتاقين: مطبوع بمصر سنة ١٣٧٥هـ بتحقق/ أحمد عبيد.

٤٧.الروح : طبع مراراً.

٤٨.معرفة الروح والنفس: أشار له في كتابه "الروح"[٧].

٤٩.زاد المسافرين إلى منازل السعداء في هدي خاتم الأنبياء: ذكره ابن رجب[٨]، وابن العماد[٩].

٥٠.زاد المعاد في هدي خير العباد:طبع مراراً ، ومن أجود طبعاته ما طبع بتحقيق الأرناؤوط .

٥١.السنة والبدعة : ذكره أحمد عبيد في مقدمة كتاب"روضة المحبين".

٥٢. شرح أسماء الله الحسنى : ذكره ابن رجب[١٠]، وابن العماد[١١].

٥٣.شرح الأسماء الحسنى : ذكره ابن رجب[١٢]، وابن العماد[١٣].

---

(1) الوافي بالوفيات ٢/٢٧٢

(2) الوافي بالوفيات ٢/٢٧٢

(3) ابن قيم الجوزية حياته وآثاره ص ١٥٥ ، وقد طبع حديثاً .

(4) كشف الظنون ١/٩٠٩

(5) ذيل طبقات الحنابلة ٢/٤٥٠

(6) الوافي بالوفيات ٢/٢٧٢

(7) الروح ص ١٨٩

(8) ذيل طبقات الحنابلة ٢/٤٥٠

(9) شذرات الذهب ٦/١٦٩

(10) ذيل طبقات الحنابلة ٢/٤٤٩

(11) شذرات الذهب ٦/١٦٩

(12) ذيل طبقات الحنابلة ٢/١٧٠

(13) شذرات الحنابلة ٦/١٧٠

٥٤.شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل : طبع مراراً، وكانت طبعتـه الأولى سنة ١٣٢٣هـ بمصر ، بتصحيح / محمد بدر أبوفراس النعساني.

٥٥.الصبر والسكن: ذكره حاجي خليفة[١].

٥٦.الصراط المستقيم في أحكام أهل الجحيم : ذكره ابن رجب[٢]، وابن العماد[٣].

٥٧.الصواعق المنزلة على الجهمية والمعطلة : ذكره ابن رجب[٤].

٥٨.الطاعون : ذكره ابن رجب[٥]

٥٩ طب القلوب : ذكره الزركلي[٦]

٦٠.طريق الهجرتين وباب السعادتين : طبع مراراً

٦١.الطرق الحكمية في السياسة الشرعية : طبع مراراً

٦٢. طريقة البصائر إلى حديقة السرائر في نظم الكبائر . ذكره العلامة بكر بن عبدالله أبو زيـد ، نقلا عن عبدالله الجبوري في كتابه فهارس المكتبات العامة لأوقاف بغداد[٧].

٦٣. طلاق الحائض: أشار له في تهذيب السنن[٨]

٦٤. عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين. طبع مراراً

٦٥.عقد الأحباء بين الكلم الطيب والعمل الصالح المرفوع إلى ربِّ السماء: ذكره ابن رجـب[٩] وابن العماد[١٠].

٦٦.الفتاوى : ذكره الألوسي[١١].

---

(1) ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٤٥٠

(2) ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٤٥٠

(3) شذرات الذهب ٦/ ١٦٩

(4) ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٤٥٠

(5) ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٤٥٠

(6) الأعلام ٦/ ٢٨٠

(7) ابن قيم الجوزية حياته وآثاره ص

(8) تهذيب السنن ٣/ ١١١

(9) ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٤٤٩

(10) شذرات الذهب ٦/ ١٦٩

(11) جلاء العينين ص ٣٢

٦٧. الفتح القدسي: ذكره ابن رجب[١]، وابن العماد[٢].

٦٨. الفتح المكي: ذكره في كتابه " بدائع الفوائد "[٣].

٦٩. الفتوحات القدسية : ذكره في كتابه "مفتاح دار السعادة"[٤].

٧٠. الفرق بين الخلة والمحبة ومناظرة الخليل لقومه: ذكره ابن رجب[٥]، وابن العماد[٦].

٧١. الفروسية : طبع مرارا وهو مختصر من كتاب "الفروسية الشرعية".

٧٢. الفروسية الشرعية : ذكره الصفدي[٧]، وابن تغري بردي[٨]

٧٣. فضل العلم وأهله: أشار له في كتابه " طريق الهجرتين" وذكره ابن رجب[٩]

٧٤. فوائد في الكلام على حديث الغمامة ، وحديث الغزالة والضب وغيره: مخطوط ذكره العلامة بكر بن عبدالله أبوزيد[١٠].

٧٥. الفوائد : طبع مراراً

٧٦. قرة عيون المحبين وروضة قلوب العارفين : ذكره البغدادي. [١١]

٧٧. الكافية الشافية في النحو: ذكره حاجي خليفة. [١٢]

٧٨. الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية: طبع مرارا.

٧٩. الكبائر : ذكره ابن رجب [١٣]، وابن العماد[١٤].

---

(1) ذيل طبقات الحنابلة ٢/٤٥٠

(2) شذرات الذهب ٦/١٦٩

(3) بدائع الفوائد ٢/١٨٦

(4) مفتاح دار السعادة ص ٣٠٧

(5) ذيل طبقات الحنابلة ٢/٤٥٠ .

(6) شذرات الذهب ٦/١٦٨

(7) الوافي بالوفيات ٢/٢٧٢

(8) المنهل الصافي ٣/٦٢

(9) ذيل طبقات الحنابلة (٢/٤٥٠).

(10) ابن قيم الجوزية حياته وآثاره ص ١٧٨ ، وقدطبع الكتاب أخيراً عام ١٤١٦هـ عن دار ابن الجوزي .

(11) هدية العارفين ٢/١٥٨

(12) كشف الظنون ٢/١٣٦٩

(13) ذيل طبقات الحنابلة ٢/٤٥٠

(14) شذرات الذهب ٦/١٦٨

٨٠. كشف الغطاء عن حكم سماع الغناء: ذكره الصفدي[١]

٨١. الكلم الطيب والعمل الصالح : طبع مرارا

٨٢. اللمحة في الردّ على ابن طلحة : ذكره المناوي[٢].

٨٣. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وأياك نستعين: طبع مرارا.

٨٤. المسائل الطرابلسية : ذكره ابن رجب[٣]، وابن العماد[٤].

٨٥. معاني الأدوات والحروف : ذكره الصفدي[٥]، وحاجي خليفة[٦].

٨٦. مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة : طبع مرارا.

٨٧. مقتضى السياسة في شرح نكت الحماسة: ذكره البغدادي[٧].

٨٨. المنار المنيف في الصحيح والضعيف: طبع مرارا.

٨٩. المورد الصافي والظل والوافي : أشار له في كتابه "طريق الهجرتين"[٨]، وذكره البغدادي[٩].

٩٠. مولد النبي صلى الله عليه وسلم : ذكره الشوكاني[١٠]، وصديق القنوجي[١١].

٩١. المهدي : ذكره حاجي خليفة[١٢].

٩٢. المهذب: ذكره حاجي خليفة[١٣].

٩٣. نقد المنقول والمحك المميز بين المقبول والمردود : ذكره ابن رجب[١٤].

---

(1) الوافي بالوفيات ٢/٢٧١ ، وقد طبع هذا الكتاب طبعتين إحداهما باسم : الكلام على مسألة السماع بتحقيق د/ راشد الحمد رسالة جامعية ، والأخرى باسم : كشف الغطاء . . . بتحقيق / ربيع أحمد خلف .

(2) فيض القدير ١/١١٦

(3) ذيل طبقات الحنابلة ٢/٤٤٩

(4) شذرات الذهب ٦/١٦٩

(5) الوافي بالوفيات ٢/٢٧١

(6) كشف الظنون .

(7) إيضاح المكنون ١/٤٢٢

(8) طريق الهجرتين ص ١٠٣

(9) هدية العارفين ٢/١٥٩

(10) البدر الطالع ٢/١٤٤

(11) التاج المكلل ص ٤١٩

(12) كشف الظنون ٢/١٤٦٥

(13) كشف الظنون ٢/١٩١٤

(14) ذيل طبقات الحنابلة ٢/٤٥٠

٩٤.نكاح المحرم: ذكره ابن رجب[١].

٩٥.نور المؤمن وحياته: ذكره ابن رجب[٢]، وابن العماد[٣].

٩٦.هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى: طبع مرارا.

وبهذا تم ثبت مؤلفات الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله .

والحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات

(1) ذيل طبقات الحنابلة ٢/٤٥٠.

(2) ذيل طبقات الحنابلة ٢/٤٥٠.

(3) شذرات الذهب ٦/١٦٨

الباب الثاني
دراسة الكتاب

ويتكون هذا الباب من فصلين :

ــ الفصل الأول : التعريف بالكتاب

وفيه المباحث التالية :

المبحث الأول : اسم الكتاب وموضوعه

أولاً / اسم الكتاب :

اشتهر هذا الكتاب بتسمية معروفة عند كثيرين من أهل العلم وهذه التسمية هي (التبيان في أقسام القرآن) بل قد طبع الكتاب بهذه التسمية .

وبعد النظر في الكتب التي ترجمت للإمام بن القيم ، وأيضاً للكتب التي تحدثت عن العلوم والمصنفات وجدت أن هذا الكتاب قد عرف بأكثر من تسمية عند العلماء ، وهـــذه التســـميات هي:

ــ التبيان في أقسام القرآن .

ــ أقسام القرآن .

ــ أيمان القرآن .

وقد أشار الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى إلى هذه التسميات في كتابه (الداء والدواء) .

فقال رحمه الله :

(وقد ذكرنا وجه الاستدلال بذلك في كتاب (أيمان القرآن) عند قوله (فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون)[١]..

وفي طبعة أخرى :

(وقد ذكرنا معنى ذلك وسر الإقسام به في كتاب التبيان في أقسام القرآن)[٢]..

وفي طبعة أخرى :

(وقد ذكرنا معنى ذلك وسر الإقسام به في كتاب أقسام القرآن) ...[٣]

فهذا الكلام من الإمام ابن القيم رحمه الله عن كتابه يدل على أنه سماه باسمه مصرحاً به تارة وأخرى مختصراً باسم (أقسام القرآن) ، وثالثة باسم (أيمان القرآن) فهذا يدل على أنه مسمى لكتاب واحد وليس لكتب متعددة كما وهم البعض فجعلها كتابين مثل : البغدادي في (هدية العارفين)[٤]فقد عدّه كتابين أحدهما باسم التبيان في أقسام القرآن ، والآخر (أيمان القرآن).

وعندما قمت بجمع النسخ المخطوطة لهذا الكتاب وجدته قد سمي بعدة مسميات وهي :

ـــ التبيان في أقسام القرآن ، كما في نسخة دار الكتب المصرية .

ـــ التبيان في أيمان القرآن : كما في نسخة جامعة برنستون .

ـــ أقسام القرآن والكلام على ذلك : كما في نسخة المكتبة المحمودية بالمدينة المنورة ، وكما في نسخ من مصورات جامعة الرياض .

---

[١]الداء والدواء : ص (٥٦) طبعة دار ابن الجوزي وهي طبعة حديثة محققة على أصل خطي .

[٢]الداء والدواء ص (٢٧١) طبعة دار المدني .

[٣]الداء والدواء ص (٣٠٩) طبعة داره‌ابن الجوزي .

[٤]هدية العارفين (١٨٥/٢)

وبعد النظر في المخطوطات أيضاً وجدت أن ابن القيم رحمه الله تعالى قد سمى كتابه في مقدمته والتي توجد في نسختين خطيتين فقط وهي ساقطة من النسخ الأخرى سماه (**التبيان في أيمان القرآن**) .

وبعد وقفة حيرة وتأمل من تعدد هذه المسميات ، اخترت ما سمى ابن القيم به كتابه في مقدمة كتابه وهذه التسمية هي :

(التبيان في أيمان القرآن)

وذلك للأسباب التالية :

ــ هذه التسمية هي التي اختارها الإمام رحمه الله لكتابه ويتضح ذلك من خلال مقدمته .

ــ هذه التسمية ثابتة في أقدم النسخ وهي نسخة دار الكتب المصرية وهي مكتوبة بعد وفاة المؤلف بستة عشر عاماً تقريباً ومثبت أيضاً على طرة نسخة جامعة برنستون أيضاً .

ــ يظهر لي والعلم عند الله تعالى ــ أن التسميات الموجودة على طرة كل مخطوطة مبنية على اجتهاد النساخ والدليل على ذلك هو اختلافها بين النسخ .

هذا ما ترجح لدي واستنتجه مما بين يدي .

ثانياً / موضوع الكتاب :

أما موضوع الكتاب فكما هو واضح من التسمية فهو يتحدث عن القسم أو اليمين في القرآن الكريم حيث يذكر رحمه الله تعالى الآيات التي ورد فيها القسم ويبين المقسم والمقسم به

والمقسم عليه ويذكر جواب القسم بعد ذلك إن وجد وقد اقتصر المؤلف رحمه الله في كتابه على ذكر القسم الصريح ولم يتعرض لغير الصريح وكان يركز على الناحية الشرعية في القسم وإثبات المقسم عليه مع شيء من الاستطرادات المفيدة والطويلة أحياناً كما عند قوله تعالى (**وفي أنفسكم أفلا تبصرون**) وإن كانت هذه الاستطرادات خارجة عن مقصود الكتاب .

المبحث الثاني
توثيق نسبة الكتاب إلى المؤلف

هذا الكتاب ثابتة نسبته إلى ابن القيم بلا أدنى شك وذلك للأمور التالية :

أولاً : نسب هذا الكتاب إلى نفسه ابن القيم فقد أشار رحمه الله تعالى إلى أنه ألف كتاباً في أقسام القرآن ، بل وأشار إلى بعض ما كتبه فيه كما تقدم عند الحديث عن تسمية الكتاب .

ثانياً : أغلب من ترجم للإمام ابن القيم رحمه الله تعالى يذكر هذا الكتاب من ضمن مؤلفاته وهذا يدل دلالة واضحة على شهرة الكتاب وصحة نسبته إليه .

ثالثاً : نقل بعض العلماء منه .

وممن وقفت عليه ممن نقل عن ابن القيم رحمه الله : الإمام السيوطي في كتابه الجامع المانع : الإتقان في علوم القرآن في النوع السابع والستون (في أقسام القرآن)

حيث ذكر في البداية أن لابن القيم كتاباً أفرده بالتصنيف في هذا الموضوع وأنه في مجلد .

ثم بعد ذلك نقل منه عدة نقولات ، وبالمقارنة بين ما نقله وبين الكتاب الأصل نجد التطابق وانظر الاتقان (٤/٤٦-٥١) .

المبحث الثالث
منهج المؤلف في كتابه

لا شك أن الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى قد أبدع وأجاد في هذا الكتاب وليس بمستغرب هذا الأمر عليه فهو جبل راسخ من جبال العلم وكنيف ملئ علماً كما يقال ..

وعند قراءتي للكتاب استطعت أن أخلص إلى بعض النقاط التي تدل على ملامح منهجه الذي سلكه في كتابه :

أولاً : سلك المؤلف رحمه الله تعالى المسلك الاستقرائي للآيات التي ورد فيها القسم وأعطى خلاصة مفيدة عن القسم في القرآن .

- فبين أن الله سبحانه يقسم بأمور على أمور وقسمه سبحانه بذاته الموصوفة بصفاته وأياته المستلزمة لذاته وأقسامه ببعض مخلوقاته يدل على أنه من عظيم آياته .
- ثم بين المقسم عليه .

وهو :

أ ـ قسمه على أصول الإيمان .

ب ـ قسمه على التوحيد .

ج ـ قسمه على أن القرآن حق .

د ـ قسمه على أن الرسول حق .

هـ ـ قسمه على الجزاء والوعد والوعيد .

و ـ قسمه على حال الإنسان .

- ثم تحدث عن جواب القسم وأنه قد يذكر تارة ، وأنه يحذف تارة أخرى لأنه قد علم بأنه يقسم على هذه الأمور (التوحيد والنبوة والمعاد) .

ثانياً : ذكر الآيات التي ورد فيها القسم على سبيل الاختصار ، مع بيان المقسم والمقسم عليه وجواب القسم إن كان مذكوراً أو محذوفاً .

ثالثاً : التفصيل بعد الإجمال حيث ذكر كل آية ورد فيها القسم ، بل و لم يكتف بذلك بل إنه فسَّر هذه الآيات وذكر أقوال السلف فيها بل ورجح غالباً في المعنى المراد من الآية .

رابعاً : الاستطراد في ذكر بعض الفوائد المتعلقة بالآيات حتى إنه أفرد للاستطراد فصلاً وبين معناه وذكر أنواعه ولعله رحمه الله قد أظهر في هذا الاستطراد الشخصية العلمية العارفة بكثير من الفنون والعلوم ويظهر ذلك جلياً في حديثه عن قوله تعالى (وفي أنفسكم أفلا تبصرون).

خامساً : كثرة الاستشهادات التي استشهد بها المؤلف على كثير من كلامه وهذه الإستشهادات :

- إما بالآيات القرآنية أو الأحاديث النبوية والتي تدل على علم واسع بالقرآن والسنة
- وإما بكلام السلف وهو كثيراً ما ينقل عنهم معاني الآيات والمراد بها .
- وإما بكلام أهل اللغة ، وأهل الشعر لأن العربية هي لغة القرآن .

سادساً : النقد والتمحيص لما يذكره من أقوال ، وبيان الصحيح من الضعيف ، سواء كان في الكلام على الأحاديث والآثار المروية عن السلف ، أو في بعض اعتراضاته على أهل اللغة والعربية ، أو في كلامه في الأمور الطبية وعلم الأجسام وعلم النفس .

المبحث الرابع
أهمية الكتاب

نزل القرآن الكريم بلغة العرب كما حدثنا بذلك متزله سبحنه وتعالى بقوله : ﴿ **وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ** ﴾[1] .

والعرب اتخذت أساليب في كلامها لأغراض وحكم عبروا عنها في أقوالهم النثرية منها والشعرية .

ومن الأساليب العربية الشائعة القسم و مما يؤكد هذا الكتاب الذي ألفه أبو إسحاق النجيرمي وهو كتاب : (**أيمان العرب في الجاهلية**) وهو كتاب مطبوع[٢] .

ولما لهذا الأسلوب العربي من قوة ، ولكون القرآن الكريم نزل بلغة العرب ألف العملاء المؤلفات التي تبرز هذا الأسلوب وتبينه أشد البيان ، وممن صال وجال في هذا الميدان فارس من فرسان العربية ، وعالم من علماء الشريعة ألا وهو الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى فألف كتابه الموسوم بـ (التبيان في أيمان القرآن) وحاز به قصب السبق على المتقدمين والمتأخرين إذا لم يصل إلينا من تلك الكتب إلا هذا الكتاب .

ولعل أهمية هذا الكتاب تبرز من النواحي التالية :

أولاً / كونه الكتاب الوحيد ــ حسب اطلاعي وعلمي ــ الذي وصل إلينا في هذا الموضوع ،وإن كان هناك من سبقه من المتقدمين في التأليف ومنهم : **عبدالله بن ذكوان** (٢٤٢هـ) من مشاهير القراء في كتابه : (**أقسام القرآن وأجوبتها**) ، و لم يصلنا هذا الكتاب ، وكذلك كتاب (**الأيمان**) **لثعلب** ، و لم يصل إلينا أيضاً[٣] .

وممن كتب فيه بعد الإمام ابن القيم من المتأخرين **محمد بن طولون** (٩٥٣هـ) في كتابه (**خلاصة البيان في أيمان القرآن**) و لم أطلع عليه[٤] .

---

(1) سورة الشعراء الآيات (١٩٢ - ١٩٥) .

(2) أساليب القسم والشرط (١ / ص ب) .

(3) انظر أساليب القسم والشرط في القرآن الكريم ، د.أحمد اللهيب (١/ص ب) رسالة جامعية غير منشورة .

(4) انظر القسم في القرآن الكريم دراسة بلاغية د.علي الحارثي (١/ ص ج) رسالة جامعية غير منشورة .

ومن كتب فيه أيضاً من المتأخرين جداً ، **الشيخ حميـــد الـــدين عبدالحميـــد الفراهـــي الأنصاري الهندي** (١٣٤٩هـــ) في كتابه (**إمعان في أقسام القرآن**) وهـــو مطبـــوع عـــدة طبعات[١] ، وقد تكلم في كتابه هذا على معنى القسم والحلف والإيلاء ، واقتصر على ما يتعلـــق بالمقسم به من حيث التقديس والاستدلال وأنه خفي على كثير من العلماء ، وعرض نصوصاً من الإنجيل على سبيل المثال ، واقتصر على عرض بعض الآيات[٢] .

ثانياً / عدم اقتصار الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى على أركان القسم فقط في حديثه على آيات القسم ، بل أفاض من علمه في تفسير الآيات التي عرض لها ، ذاكراً اختلاف أوجه النظر في بعض الآيات ، ومرجحاً لما يراه الصواب من تلك الأقوال ، مع تدعيمه ذلك بالأدلة .

ثالثاً / أظهر الإمام ابن القيم ـــ رحمه الله ـــ في حديثه عن القسم ، بلاغة وفصاحة النص القرآني ، وما يتضمنه ذلك القسم من أحكام شرعية ، ودعم ذلك بما يشهد له من القرآن الكريم ، والسنة النبوية ، ومن لغة العرب ، وكذلك من أقوال أهل العلم .

رابعاً / اقتصار المؤلف ـــ رحمه الله تعالى ـــ في كتابه على الكلام على القسم الصـــريح ، وإغفاله الحديث عن القسم غير الصريح ، ولعل ذلك لأن أكثر الأقسام غير الصريحة جاءت مقترنة بالشرط ، وهو إنما قصد في كتابه القسم الصريح ودلالاته فقط .

هذه بعض الأمور التي تدل على أهمية هذا الكتاب ، ولعل المتأمل لهذا الكتاب والقارئ فيه يجد أموراً أخرى .

---

[1] طبع هذا الكتاب عدة طبعات أولها : في المكتبة الســـلفية بالقـــاهرة ، ســـنة ١٣٤٩هـــــ ، وآخرهـــا : دار القلـــم في بـــيروت عام (١٤١٥هـــ) بعناية : د.عبيدالله الفراهي .

[2] انظر : أساليب القسم والشرط (١/ص ج) .

وقد اطلعت على رسائل جامعية في هذا الموضوع وهي :

١) آيات القسم في القرآن الكريم ، لأحمد كمال المهدي . جامعة الأزهر ١٣٨٨هـــ .
٢) أساليب القسم والشرط في القرآن الكريم . د.أحمد بن عبدالعزيز اللهيب . جامعة الأزهر ١٣٩٥هـــ .
٣) أساليب القسم في اللغة العربية لكاظم فتحي الراوي الجامعة المستنصرية بغداد ١٣٩٧هـــ .
٤) أسلوب القسم في القرآن الكريم ، لعواطف يوسف الزبيدي ، جامعة الأزهر (بدون تاريخ) .
٥) القسم في القرآن الكريم ، لخالد سيفي جامعة أم القرى (١٤٠٢-١٤٠٣هـــ) .
٦) أسلوب القسم في القرآن الكريم دراسة بلاغية . د.علي الحارثي . جامعة أم القرى (١٤١١هـــ) .

المبحث الخامس
مصادر المؤلف في كتابه

جمع الله سبحانه وتعالى للإمام ابن القيم رحمه الله تعالى من الحفظ والذكاء وقوة الـذاكرة وكثرة الاطلاع ، وجمع من الكتب ما لا يتوفر لغيره بل كان رحمه الله تعالى أيضاً جيد التصـنيف حتى ولو كان بعيداً عن كتبه كما في كتابه الجميل الرائع (زاد المعاد) فقد ألفه في سفره .

وهكذا في كتابه الماتع (التبيان) فقد أبان فيه عن عالم متبحر في شتى العلوم ، وناقد بارع مطلع متمكن .

وها أنا ذا أشير هنا إلى المصادر التي اعتمد عليها الإمام ابن القيم في كتابه (التبيان) .

١) القرآن الكريم والسنة النبوية .

فلا غنى لمؤلف وكاتب عنهما أبداً ، فمن أراد التسديد في كتابته فعليه بالاعتمـاد علـى هذين المصدرين فهما وحي صادق .

٢) تفسير البسيط للإمام الواحدي .

حيث اعتمد عليه الإمام ابن القيم في تفسيره للآيات اعتماداً كبيراً ، ونقل عنـه كـثيراً ، وهذا الكتاب وهو كتاب الواحدي لم ير النور بعد حيث لا يظل حبيس الأرفف وهو كتاب قيم جداً ، ولا أدل على ذلك من نقل ابن القيم عنه كثيراً .

٣) تفسير غريب القرآن ، وتأويل مشكل القرآن .

وكلاهما لابن قتيبة رحمه الله تعالى ، وقد نقل عنهما أيضاً الإمام ابن القـيم في كتابـه في مواضع عديدة .

٤) الروايتين والوجهين ، للقاضي أبو يعلى الحنبلي رحمه الله تعالى .

وقد نقل عنه الإمام ابن القيم في موضع واحد ، وكلامه الذي نقله ابن القيم موجود أيضاً في كتاب آخر له وهو (إبطال التأويلات لآيات الصفات) وقد أشرت إلى ذلك في موضعه .

٥) **نقض الدارمي على بشر المريسي** . للإمام عثمان بن سعيد الدارمي رحمه الله تعالى . وقد نقل عنه ابن القيم في مواضع .

٦) **التمهيد للإمام ابن عبدالبر النمري القرطبي المالكي رحمه الله تعالى .**

وقد نقل عنه الإمام ابن القيم في كلامه على كتاب النبي ﷺ إلى عمرو بن حزم .

٧) **تهذيب اللغة ، للإمام الأزهري رحمه الله تعالى .**

وقد نقل عنه في مواضع كثيرة في بيان بعض المفردات وفي نقل بعض الأقوال المنسوبة إلى الليث ، وإلى المبرد .

٨) **الصحاح للجوهري رحمه الله تعالى .**

وقد نقل عنه في عدة مواضع في بيان المراد ببعض المفردات .

٩) **كتب معاني القرآن ، مثل :**

معاني القرآن للفراء ، ومعاني القرآن للنحاس ، ومعاني القرآن للأخفش ، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج .

حيث نقل عنها في عدة مواضع وكان يعترض على كلام البعض ويوجه البعض الآخر ويرجح ما يراه الصواب ويبين ذلك بالأدلة والبراهين .

١٠) **مجاز القرآن لأبي عبيدة .**

وإن كان لم يصرح باسم الكتاب وإنما ينقل قول أبي عبيدة وقد وجدت كثيراً من كلامه في هذا الكتاب ، ولعله أيضاً قد نقل عنه من كتب أخرى لعل بعضها غير موجود الآن .

١١) **الكشاف للزمخشري .**

وقد نقل عنه في مواضع ، وذكر أحياناً اعتراضات أبي حيان عليه في البحر المحيط ، وقد يرجح أحياناً ما كتبه الزمخشري ، وأحياناً ما كتبه أبو حيان مع أنه لم يصرح باسم أبي حيان إطلاقاً وإنما يذكره بقوله : " وقد اعترض عليه بعضهم " .

١٢) الحجة للقراء السبعة لأبي علي الفارسي .

حيث نقل عنه في مواضع في الكلام على بعض القراءات الواردة وتوجيهها .

١٣) الرسالة للإمام الشافعي .

حيث نقل عنها في موضع واحد .

١٤) نقولات كثيرة وإشارات إلى كلام شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى . فقد كان يستأنس كثيراً بكلام شيخه بل وينقل عنه أحياناً ولا يشير إليه .

١٥) نقله أيضاً وإشارته إلى بعض كتبه

مثل : روضة المحبين ، وإعلام الموقعين ، وزاد المعاد ، والصواعق المرسلة ، وهداية الحيارى ، وشفاء العليل ، وغيرها .

١٦) **في الأمور الطبية** : استفاد ممن ألف في الطب قبله من مثل : علي بن عبدالكريم الحموي (٧٢٠هـ) في كتابه : (**الأحكام النبوية في الصناعة الطبية**) ، والإمام الذهبي (٧٤٨هـ) في كتابه : (**الطب النبوي**)[1] .

كما أنه أشار إلى صاحب القانون ، وإلى أبقراط وجالينوس وأرسطو وغيرهم .

هذا ما ظهر لي أثناء قراءتي لهذا الكتاب ودراسته ، ولعله يظهر أشياء أخرى للمتأمل والمتفحص الدقيق .

هذه بعض ملامح منهج الإمام ابن القيم رحمه الله في كتابه ومصادره وموارده .

---

(1) أشار إلى ذلك أحمد البقري في كتابه (ابن القيم من آثاره العلمية) .

الفصل الثاني
دراسة النسخ الخطية للكتاب

عثرت على نسخ كثيرة للكتاب منها ما استطعت الحصول عليه وهو الأكثر ومنه ما لم استطع الوصول إليه إما لبعده أو لصعوبة الحصول عليه مع أني قد بذلت في سبيل الحصول عليها ما أستطيع ولكن لم أجد سبيلاً لذلك..

وقفت على تسع نسخ خطية واثنتان لم أستطع الوقوف عليها وإليك ذكر هذه النسخ على سبيل الإجمال ثم بعد ذلك أفصل في بيان وصفها :

١) نسخة دار الكتب المصرية ، ولها صورة ميكروفيلمية في الجامعة الإسلامية .

٢) نسخة جامعة برنستون ، ولها صورة ميكروفيلمية في مركز إحياء التراث بجامعة أم القرى .

٣) نسخة المكتبة المحمودية وهي محفوظة في مكتبة الملك عبد العزيز في المدينة النبوية .

٤) ست نسخ خطية محفوظة في جامعة الملك سعود (جامعة الرياض سابقاً) مصورة عن الإفتاء.

أما النسخ التي لم أستطع الحصول عليها وهي نسختان :

١) نسخة محفوظة بمكتبة برلين الغربية .

٢) نسخة محفوظة في مكتبة شهيد على باشا في تركيا .

وبعد الإجمال يأتي التفصيل :

ا) نسخة دار الكتب المصرية :

وهذه النسخة موجودة في دار الكتب المصرية بالقاهرة وهي موجودة فيه برقم (٤٤٨٥) ، والكتاب فيه ضمن مجموع .

وعدد أوراق هذه النسخة (١٥٣)ورقة ، وقد كتبت هذه النسخة في عام (٧٦٧هـ) أي بعد وفاة المؤلف بستة عشر عاماً فهي بذلك أقدم النسخ وأقربها إلى المؤلف ، أما ناسخها فهو أحمد بن عيسى القاسمي المقدسي .

ولهذه النسخة صرة ميكروفيلمية في الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية برقم (٧١٦٩) .

وهذه النسخة هي أقدم النسخ ، وهي نسخة كاملة حيث يوجد فيها مقدمة الكتاب والتي هي ساقطة في أكثر النسخ ، وعليها حواشي وتصحيحات .

وقد اعتمدت هذه النسخة لتكون هي الأصل ورمزت لها بالأصل .

٢) نسخة جامعة برنستون :

وهي نسخة موجودة في جامعة برنستون الأمريكية (مجموعة يهودا) وهي موجودة فيه برقم (٤٥٧٩) .

وعدد أوراق هذه النسخة : (٩٤) لوحة .

وهذه النسخة لها صورة ميكروفيلمية في مركز إحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى برقم (٧٣٧) .

وهي نسخة فيما يبدو أنها منقولة عن النسخة الأصل حيث بينهما توافق كبير جداً وفيها مقدمة المؤلف التي سقطت من كثير من النسخ ، وفيها سقط كبير عند الحديث حول قوله تعالى : ﴿ **وفي أنفسكم أفلا تبصرون** ﴾ .

وقد جعلت هذه النسخة هي إحدى النسخ المقابلة وذلك لوجود مقدمة المؤلف فيها ولكونها مطابقة تقريباً للنسخة الأصل حيث لم تخالفها إلا في الكلام حول قوله تعالى : ﴿ **وفي أنفسكم أفلا تبصرون** ﴾ فقد اختصر الكلام عليها وحذف الاستطراد الذي استطرده المؤلف في الكلام عليها .

٣) نسخة المكتبة المحمودية :

وهي نسخة موجودة في المكتبة المحمودية بالمدينة المنورة ، وهي موجودة فيها برقم (٨٨) ، وعدد أوراق هذه النسخة (١٥٩) ورقة ، وخطها نسخي جميل ، وتاريخ نسخها في القرن التاسع ، ولم يرد عليها اسم الناسخ الذي نسخها .

وهي نسخة جيدة ومصححة وعليها بلاغات ، وهذه النسخة كاملة لا ينقصها إلا مقدمة المؤلف التي سقطت في كثير من النسخ وقد اعتمدت هذه النسخة في المقابلة لجودتها وقرب عصرها من المؤلف ورمزت لهذه النسخة بالرمز (م) .

٤) نسخة جامعة الرياض (الملك سعود حاليا) :

ومصدرها : المكتبة العامة السعودية بالرياض .

ورقمها : ٨٦/٥٢٣ .

وعدد أوراقها : (١٤٢) ورقة .

وتاريخ نسخها : في القرن الثالث عشر الهجري تقديراً ، وناسخها هو : محمد بن أحمد بن نصر الله بن فوزان بن نصر الله بن عيسى .

وهي نسخة جيدة ، بها آثار رطوبة خفيفة ، والورقة الأخيرة بها خروم . وجاء بآخرها أنه بلغ مقابلتها على الأصل ، وفي بعض الهوامش تصحيحات وبلغ مقابلتها سنة ١٢٤٨هـ .

وقد اعتمدت هذه النسخة أيضاً للمقابلة وقد رمزت لها بالرمز (ق) .

وهذه النسخ السابقة هي التي اعتمدها للمقابلة مع الأصل ، واستبعدت النسخ الباقية وذلك لكونها متأخرة في الكتابة وهي متوافقة غالباً مع نسخة الرياض السابقة ، وأيضاً هناك نقص في بعضها ولذلك أعرضت عنها ، ولكني سأذكر نبذة عن كل نسخة من هذه النسخ :

٥) نسخة جامعة الرياض :

ومصدرها : المكتبة العامة السعودية بالرياض .

ورقمها : ٨٦/٤٤١ .

وعدد أوراقها : (١٤١) ورقة .

وتاريخ نسخها : القرن الثالث عشر الهجري تقديراً . وليس فيها اسم الناسخ .

وهي نسخة جيدة ، خطها نسخي حسن .

وبعد التأمل في هذه النسخة وجدها لا تختلف عن النسخة السابقة بل لعلها منقولة عنها .

٦) نسخة جامعة الرياض :

ومصدرها : المكتبة العامة السعودية بالرياض .

ورقمها : ٨٦/٢٥٣

وعدد أوراقها : (١٢٢) ورقة .

وتاريخ نسخها : أوائل القرن الرابع عشر الهجري تقديراً ،وليس فيها اسم الناسخ .

وهي نسخة حسنة ناقصة الآخر ، بها آثار رطوبة طفيفة وخطها نسخي حسن .

٧) نسخة جامعة الرياض :

وهي من مخطوطات جامعة الرياض .

ورقمها : ١٦٨٧ .

وعدد أوراقها ك (٩٨) ورقة .

و لم يذكر عليها تاريخ النسخ ولا اسم الناسخ .

وهي نسخة حسنة وبها نقص من الآخر وفي الأثناء ، وبها آثار رطوبة وأطـراف بعـض الأوراق غير متساوية ، وفي بعض الهوامش تصحيحات .

٨) نسخة جامعة الرياض :

وهي من مخطوطات جامعة الرياض .

ورقمها : ٢٧٦١ .

وعدد أوراقها : (٦) ورقات فقط .

وتاريخ النسخ : القرن الثاني عشر الهجري تقديراً .

وبعد النظر في هذه النسخة والتأمل فيها تبين لي أنها ليست من نسخ الكتاب بل هـي في مجال آخر ومواضيع أخرى منها : أنواع الخطاب في القرآن ، وأنواع الأمثال في القرآن .

٩) نسخة جامعة الرياض :

وهي موجودة في مكتبة جامعة الرياض .

وعنوان النسخة : كتاب أقسام القرآن والكلام على ذلك .

وتاريخ النسخ : القرن الثالث عشر الهجري تقديراً .

وهي نسخة ناقصة حيث انتهى الكلام فيها إلى فصل : والأقلام متفاوتة في الرتب . . .

هذه النسخة هي ملك للجوهرة بنت تركي بن عبدالله آل سعود وقد وقفت هذا الكتاب لوجه الله طلباً للثواب . وذلك في عام (١٢٨١هـ) .

١٠) النسخة المطبوعة :

وهي النسخة التي قام بطبعها الشيخ / محمد حامد الفقي عليه رحمة الله والذي كانت لـه اليد الطولى في نشر كتب السلف وخصوصاً كتب شيخ الغسلام ابن تيمية وتلميذه ابـن القـيم رحمهما الله تعالى .

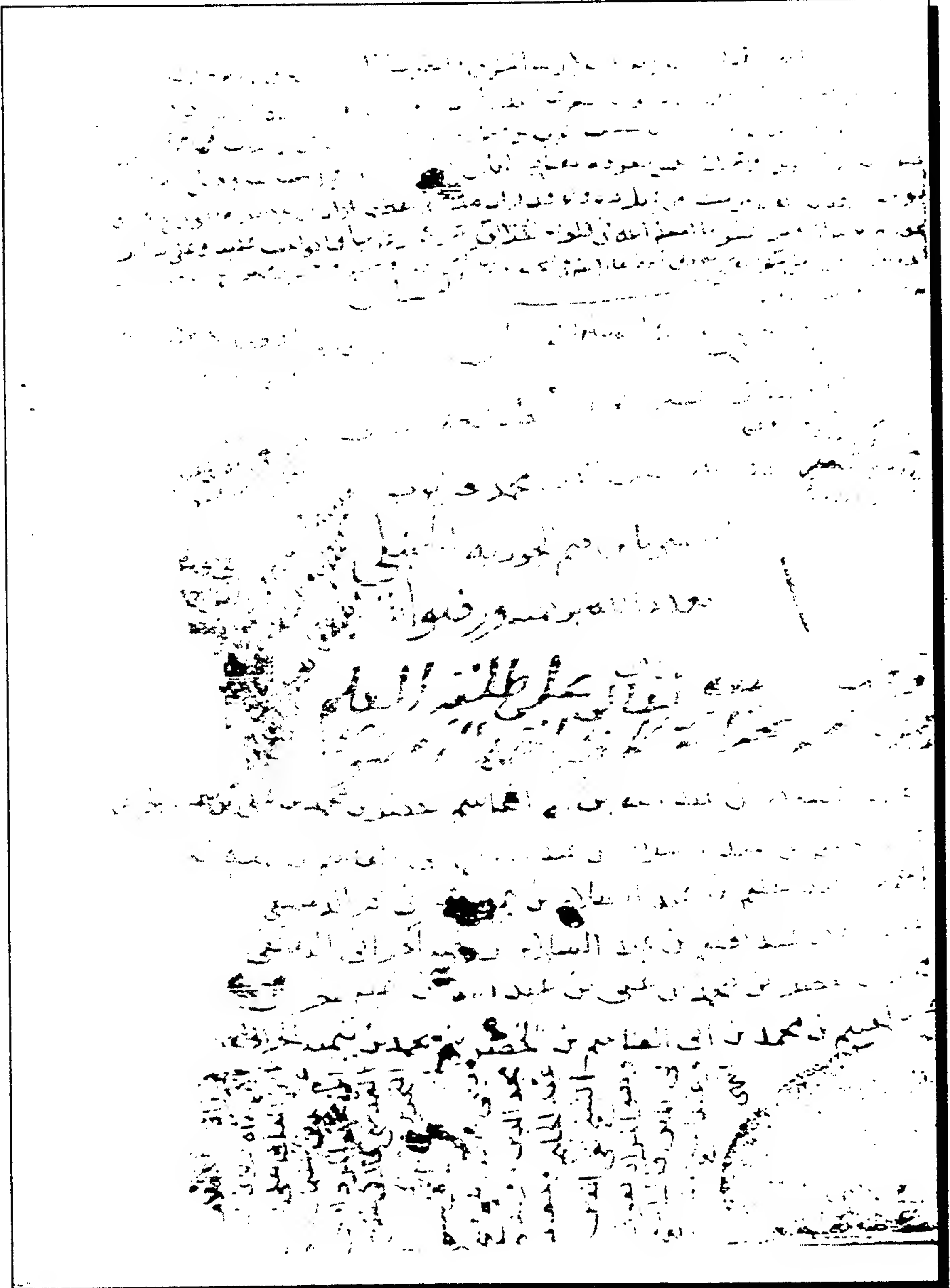
وهذه النسخة المطبوعة طبعت عام (١٣٥٢هـ) .

ولم أحصل على النسخة المطبوعة في ذلك العام ولكن حصلت على نسخة مصورة عنها صورها دار المعرفة في بيروت ، وتقع في (٤٣١) ص من القطع المتوسط .

وتبين لي بعد المقارنة أنه نسخها عن نسخة مقاربة لنسخة المحموية ونسخة جامعة الرياض فإن بينها توافقاً كبيراً .

وقد رمزت لهذه النسخة بالمطبوعة .

نماذج
من النسخ المعتمدة في التحقيق



صفحة الغلاف من النسخة (الأصل)

نسخة دار الكتب المصرية

بسم الله الرحمن الرحيم

[illegible]

الصفحة الأولى من النسخة (الأصل)

نسخة دار الكتب المصرية

الصفحة الأخيرة من النسخة (الأصل)

نسخة دار الكتب المصرية

هذا كتاب التبيان

في أيمان القرآن

صفحة الغلاف من النسخة (ب)

نسخة جامعة برنستون

الصفحة الأولى من النسخة (ب)

نسخة جامعة برنستون

فحص من انتفاء الحرج فالحرج مانع والتسليم أمر
وجودي لا يلزم من انتفاء الحرج حصوله بمجرد
انتفائه إذ قد ينتفي الحرج ويبقى القلب فارغا
منه ومن الرضا والتسليم فتامله وعند هذا
تعلم ان الرب تبارك وتعالى أقسم على انتفاء إيمان
أكثر الخلق وعند الامتحان تعلم مثل هذه الأمور
الثلاثة هل هي موجودة في قلب أكثر من يدعي الإسلام
أم لا والله سبحانه المستعان وعليه التكلان
ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وحسبنا
الله ونعم الوكيل تمت
والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

الصفحة الأخيرة من النسخة (ب)

نسخة جامعة برنستون

صفحة الغلاف من النسخة (م)
نسخة المكتبة المحمودية

الصفحة الأولى من النسخة (م)

نسخة المكتبة المحمودية

الصفحة الأخيرة من النسخة (م)

نسخة المكتبة المحمودية

صفحة الغلاف من النسخة (ق)

نسخة جامعة الرياض

الصفحة الأولى من النسخة (ق)

نسخة جامعة الرياض

الصفحة الأخيرة من النسخة (ق)

نسخة جامعة الرياض

التبيان

في

أقسام القرآن

دار المعرفة

صفحة الغلاف من النسخة المطبوعة

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) فصل

الصفحة الأولى من النسخة المطبوعة

- ٣١ -

الصفحة الأخيرة من النسخة المطبوعة

التِّبْيَانُ

فِي أَيْمَانِ القُرْآنِ

بسم الله الرحمن الرحيم (١)

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له رب العالمين ، وقيوم السماوات والأرضين ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله المبعوث بالكتاب المبين ، الفارق بين الغي والرشاد ، والهدي والضلال ، والشك واليقين ، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين ، صلاة دائمة بدوام السماوات والأرضين

وبعد :

فهذا كتاب صغير الحجم ، كبير (٢) النفع فيما وقع في القرآن العزيز من الأيمان والأقسام والكلام عليها يميناً (٣) وارتباطها بالمقسم عليه وذكر أجوبة القسم المذكورة [و] المقدرة وأسرار هذه الأقسام ، فإن لها شأناً عظيماً يعرفه الواقف عليه في هذا الكتاب وسميته كتاب **التبيان في أيمان القرآن** والله المسئول أن ينفع به من قرأه وكتبه ونظر فيه وأن يجعله خالصاً لوجهه (٤) سبباً لمغفرته فما كان فيه (٥) من صواب فمن الله فضلاً ومنّة ، وما كان فيه من خطأ فمني ومن الشيطان والله ورسوله [بريئان] (٦) منه ، فيا أيها القارئ لك غنمه وعلى مؤلفه غرمه و لم يأل في معرفة المراد والله ولي التوفيق والسداد هو حسبنا ونعم الوكيل (٧) .

(1) زاد في (ب) رب يسر ، وفي (ق) والمطبوع : وبه أستعين .

(2) في (ب) : كثير .

(3) في هامش الأصل : أي من حيث إنها يمين .

(4) في (ب) زيادة : الكريم .

(5) سقط من (ب) .

(6) ما أثبته من (ب) وفي الأصل : براءان .

(7) هذه المقدمة برمتها ساقطة من (م) و (ق) والمطبوع .
ففي (م) : بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على محمد وآله وسلم . فصل . . . الخ .
وفي (ق) : بسم الله الرحمن الرحيم ، وبه أستعين . فصل . . . الخ .
وفي المطبوع : بسم الله الرحمن الرحيم ، وبه أستعين . الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين ، وعلى آله وصحبه . فصل . . . الخ .

﴿ فصل في أقسام القرآن ﴾[1]

اعلم أن الله [2] سبحانه يقسم بأمور على أمور وإنما يقسم بنفسه الموصوفة بصفاته أو آياته المستلزمة لذاته وصفاته ، وإقسامه ببعض المخلوقات دليل على أنه من عظيم آياته .

فالقسم إما على جملة خبرية — وهو الغالب — كقوله تعالى [3] ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾[4] .

وإما على جملة طلبية[5] كقوله (عز وجل) [6] : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(٩٢)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(٩٣)﴾ [7] . مع أن هذا القسم [8] قد يراد به تحقيق المقسم عليه ، فيكون من باب الخبر ، وقد يراد به تحقيق القسم .

والمقسم عليه يراد بالقسم توكيده وتحقيقه ، فلا بد أن يكون مما يحسن فيه ذلك كالأمور الغائبة والخفية إذا أقسم على ثبوتها . فأما الأمور المشهودة الظاهرة [9] كالشمس والقمر والليل والنهار والسماء والأرض فهذه يقسم بها ولا يقسم عليها .

وما أقسم عليه الرب (سبحانه) [10] فهو من آياته / فيجوز أن يكون مقسماً به ولا ينعكس . [٢/أ]

فهو سبحانه يذكر جواب القسم تارة وهو الغالب .

وتارة يحذفه ، كما يحذف جواب " لو " كثيراً .

---

(1) ساقط من الأصل و (ب) ومثبت في النسخ الأخرى وفي المطبوع .

(2) في (م) و (ق) والمطبوع : وهو سبحانه يقسم . . . الخ .

(3) قوله : (تعالى) ساقط من (م) و (ق) والمطبوع .

(4) سورة الذاريات آية (٢٣) .

(5) الجملة الطلبية : هي التي تكون أمراً أو نهياً أو تمنياً أو ترجياً ، أو استفهاماً ، أما الخبرية : فما أخبرت عن شيء حصل أو لم يحصل . انظر : البلاغة الواضحة ص (١٣٩) و (١٧٠) .

(6) قوله : (عز وجل) سقط من (م) و (ق) وفي المطبوع : كقوله تعالى .

(7) سورة الحجر ، الآيتان (٩٢ – ٩٣) .

(8) (القسم) ساقط من المطبوع .

(9) في المطبوع : فأما الأمور الظاهرة المشهورة .

(10) قوله (سبحانه) ، وكذا : (تعالى) : سقط من (م) و (ق) والمطبوع .

كقوله (تعالى)[1] : ﴿ كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ(٥)﴾[2] .

وقوله (تعالى) : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى ﴾[3] .

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ ﴾[4] .

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ﴾[5] .

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ ﴾[6] .

ومثلُ هذا حذفه من أحسن الكلام لأنَّ المراد أنك لو رأيت ذلك لرأيت[7] هولاً عظيماً ، فليس في ذكر الجواب زيادة على ما دل عليه الشرط ، وهذه عادة الناس في كلامهم إذا رأوا أموراً عجيبة وأرادوا أن يخبروا بها الغائب عنها ، يقول أحدهم : لو رأيت ما جرى يوم كذا بموضع كذا .

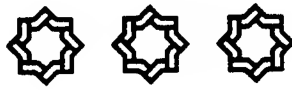
ومنه قوله تعالى[8] : ﴿ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ(١٦٥) ﴾[9] .

فالمعنى في أظهر الوجهين لو يرى الذين ظلموا في الدنيا إذ يرون العذاب في الآخرة ، والجواب محذوف ثم قال بعد ذلك[10] أن القوة لله جميعاً كما قال[11] : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ ﴾ ، ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ﴾ أي لو ترى ذلك الوقت وما فيه .

---

(1) قوله (سبحانه) ، وكذا : (تعالى) : سقط من (م) و (ق) والمطبوع .
(2) سورة التكاثر آية (٥) .
(3) سورة الرعد آية (٣١) . وقوله : (أو كلم به الموتى) سقط من (م) و (ق) والمطبوع .
(4) سورة الأنفال آية (٥٠) .
(5) سورة سبأ آية (٥١) .
(6) سورة الأنعام آية (٣٠) .
(7) في (ب) طمس قوله : (لو رأيت ذلك لرأيت) .
(8) قوله : (تعالى) سقط من (م) و (ق) .
(9) سورة البقرة آية (١٦٥) .
(10) قوله : (بعد ذلك) سقط من المطبوع .
(11) في المطبوع : زيادة (تعالى) .

وأما المقسم [عليه] [١] فإن الحالف قد يحلف على الشيء ، ثم يكرر القسم ولا يعيد عليه لأنه قد عرف ما يحلف ، فيقول : والله إن لي عليه ألف درهم ، ثم يقـول : " ورب السـماء [٢] والأرض " والذي نفسي بيده وحق القرآن العظيم [٣] ، ولا يعيد المقسم عليه لأنه قد عرف المراد ، والقسم لما كان يكثر في الكلام اختصر ، فصار فعل القسم يحذف ويكتفى بالباء ، ثم عوض مـن الباء الواو في الأسماء الظاهرة وبالتاء [٤] في اسم الله كقوله تعالى : ﴿ **وتالله لأكيدن أصنامكم** ﴾ ، وقد نقل : وترب [٥] الكعبة وأما الواو فكثير .



---

(1) زيادة من : (ق) . وهي ساقطة من الأصل وباقي النسخ . وفي المطبوع : (وأما القسم) .

(2) في (م) زيادة : (ورب) .

(3) هذا قسم بغير الله تعالى ، والقسم بغير الله تعالى غير جائز وسيأتي الكلام عليه .

(4) في المطبوع : (والتاء . . .) .

(5) واو (وترب مثبتة في الأصل و (ب) ، ساقطة من النسخ الأخرى .

﴿ فصل ﴾

{ما يقسم الله عليه}

إذا عرف هذا فهو سبحانه يقسم على أصول الإيمان التي يجب على الخلق معرفتها[١] : وتارة يقسم على التوحيد ، وتارة يقسم على أن القرآن حق وتارة على أن الرسول حق ، وتارة على الجزاء[٢] والوعد والوعيد ، وتارة على حال الإنسان .

فالأول كقوله تعالى[٣] : ﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴾ إلى قوله ﴿ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ(٤) ﴾[٤][٥]

والثاني كقوله (تعالى) : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ(٧٥)وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦)إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ(٧٧) ﴾[٦] وقوله : ﴿ حم(١)وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ(٢)إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ ﴾[٧] ، و ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾[٨] ، إذا جعل ذلك جواب القسم كما هو الظاهر.

وإن قيل : بل الجواب محذوف كان كقوله (تعالى) : ﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ(١) ﴾[٩] فإنه هنا حذف الجواب ، ومن قال : إن الجواب هو قوله ﴿ إن ذلك لحق تخاصم أهل النار ﴾ فقد أبعد النجعة[١٠] .

والقسم على الرسول ﷺ كقوله ﴿ يس(١)وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ(٢)إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ(٣) ﴾[١١] ، إذا[١٢] قيل هو الجواب ، وإن قيل الجواب محذوف كان كما ذكر ،

ومنه (قوله تعالى)[١٣] : ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ(٢) ﴾[١٤] .

---

(1) في (ق) زيادة : (تارة بعد (معرفتها) فيصبح الكلام : (معرفتها تارة ، وتارة يقسم على التوحيد . .)

(2) في (م) زيادة (أن) بعد (على) .

(3) قوله : (تعالى) سقط من (م) و (ق) و المطبوع .

(4) سورة الصافات الآيات (١-٤) .

(5) سقطت هذه الآية من (ب) ، وفي المطبوع ذكر الآيات كاملة .

(6) سورة الواقعة الآيات (٧٥-٧٧) .

(7) سورة الدخان الآيات (١-٣) .

(8) سورة الزخرف آية (٣) ، وفي المطبوع ذكر الآيات من أول السورة .

(9) سورة (ص) آية (١) .

(10) سيأتي الكلام قريباً على هذه الآية . ص

(11) سورة يس الآيات (١-٤) .

(12) في (ق) : إذا بدل إذا .

(13) قوله : (قوله تعالى) سقط من غير الأصل و (ب) .

(14) سورة القلم الآيات من (١-٣) . وفي (م) و (ق) والمطبوع زيادة الإية (وإن لك لأجراً غير ممنون) .

ومنه : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى(١)مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى(٢) . . إلى آخر القصة ﴾[١]

ومنه قوله (تعالى)[٢] :﴿ فلا أقسم بما تبصرون ، وما لا تبصرون ، إنه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر . . . الآية ﴾[٣] .

وقوله : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ(١٥)الْجَوَارِي الْكُنَّسِ(١٦)وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ(١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ(١٨)إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ(١٩)ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ(٢٠) ﴾[٤]

وأما القسم على الجزاء والوعد والوعيد ففي مثل قوله (تعالى)[٥] : ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا(١) ﴾[٦] وثم ذكر تفصيل الجزاء وذكر الجنة والنار ، وذكر إن في السماء رزقكم وما توعدون[٧] ثم قال ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ(٢٣) ﴾[٨] .

ومثل قوله (تعالى)[٩] : ﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا(١) ﴾ إلى قوله ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ(٧) ﴾[١٠] .

ومثل [قوله][١١]: ﴿ وَالطُّورِ(١)وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ(٢) ﴾ إلى قوله ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ(٧)مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ(٨) ﴾[١٢]

---

(1) سورة النجم الآيتان (١-٢) . وفي (م) و المطبوع : زيادة الآية (وما ينطق عن الهوى) .

(2) سقط من (م) و (ق) و المطبوع .

(3) في (م) و (ق) و المطبوع : زيادة : (قليلاً ما تؤمنون) . الآيات من سورة الحاقة (٣٨-٤١) .

(4) سورة التكوير الآيات (١٥-٢٠) . وقد سقطت هذه الآيات ما عدا الأخيرة من (م) و (ق) .

(5) قوله : (قوله تعالى) سقط من غير الأصل و (ب) .

(6) في (م) و (ق) : بدل (إلى آخر القسم) : إلى قوله (إنما توعدون لصادق ، وإن الدين لواقع) ، وفي المطبوع ذكر الآيات كاملة من سورة الذاريات (١-٦).

(7) في (م) و (ق) والمطبوع : (وذكر أن في السماء رزقهم وما يوعدون) .

(8) سورة الذاريات آية (٢٣) .

(9) قوله : (قوله تعالى) سقط من غير الأصل و (ب) .

(10) سورة المرسلات الآيات (١-٧) وفي المطبوع : ذكر الآيات كاملة .

(11) زيادة من (ق) .

(12) سورة الطور الآيات (١-٨) و في المطبوع ذكر الآيات كاملة .

وقد أمر نبيه أن يقسم على الجزاء والمعاد في ثلاث آيات ، فقال تعالى : [٣/أ]
﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ . الآية ﴾[١]،
[وقال تعالى][٢]: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾[٣]/ ، (
وقال تعالى)[٤]: ﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾[٥] ، وهذا لأن المعاد إنما
يعلمه عامة الناس بأخبار الأنبياء ، وإن كان من الناس من قد يعلمه بالنظر .

وقد تنازع النظار في ذلك ، فقالت طائفة : أنه لا يمكن علمه إلا بالسمع وهو الخبر ، وهو قول من لا يرى تعليل الأفعال ، ويقول : لا ندري ما يفعل الله إلا بعادة أو خبر كما يقول جهم[٦] ومن اتبعه ، والأشعري[٧] وأتباعه ، وكثير من أهل الكلام والفقه[٨] والحديث من أتباع الأئمة الأربعة بخلاف العلم بالصانع (سبحانه)[٩] ، فإن الناس متفقون على أنه يعلم بالعقل وإن كان ذلك مما نبهت عليه الرسل[١٠] ، وصفاته قد تعلم بالعقل وتعلم بالسمع أيضاً كما قد بسط في موضع آخر[١١] .

---

(1) سورة التغابن آية (٧) . وفي المطبوع : عدم ذكر قوله (ثم لتنبؤن) .

(2) زيادة من (م) و (ق) و المطبوع .

(3) سورة سبأ آية (٣) .

(4) زيادة من (م) و (ق) و المطبوع .

(5) سورة يونس آية (٥٣) . وفي (م) و (ق) و المطبوع تكملة الآية (وما أنتم بمعجزين) .

(6) في المطبوع زيادة : (ابن صفوان)
وجهم هو : جهم بن صفوان ، أبو محرز الراسبي مولاهم ، السمر قندي ، الكاتب المتكلم ، الضال المبتدع ، رأس الجهمية ، هلك في زمان صغار التابعين وقد زرع شراً عظيماً ، قتله : سلم بن أحوز سنة ١٢٨ هـ . انظر : ميزان الاعتدال (٤٢٦/١) ، سير أعلام النبلاء (٢٦/٦-٢٧) .

(7) الأشعري : هو علي بن اسماعيل بن اسحق ، أبو الحسن من نسل أبي موسى الأشعري رضي الله عنه مؤسس مذهب الأشاعرة ، كان معتزلياً ، ثم أشعرياً ، ثم رجع إلى مذهب أهل السنة والجماعة ، كما هو واضح من مؤلفاته مثل الإبانة في أصول الديانة توفي سنة ٣٢٤ هـ ببغداد ، انظر : تاريخ بغداد (٣٤٦/١١) الأعلام (٢٦٣/٤) .

(8) في المطبوع : أهل الكلام في الفقه بدل : والفقه .

(9) قوله : (سبحانه) سقط من (م) و (ق) و المطبوع .

(10) في (م) و (ق) : (مما نبهت الرسل عليه) .

(11) انظر تفصيل ذلك عند المؤلف في :
الصواعق المرسلة (١/ ٣٢٠) ، شفاء العليل (١ / ٢٢٥) .

وأما القسم على أحوال الإنسان فكقوله تعالى : ﴿ **وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى(١)وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى(٢)وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى(٣)إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى(٤)** ﴾[١] . . **إلى آخر السورة** ﴾ . ولفظ السعي هو العمل ، لكن يراد به العمل الذي يهم به صاحبه[٢] ، ويجتهد فيه بحسب الإمكان ، فإن كان يفتقر إلى عدو بدنه عدا ، وإن كان يفتقر إلى جمع أعوانه جمع[٣] ، وإن كان يفتقر إلى تفرغ له وترك غيره فعل ذلك ، فلفظ السعي في القرآن جاء بهذا الاعتبار ليس هو مرادفاً للفظ العمل[٤] كما ظنه طائفة ، بل هو عمل مخصوص[٥]يهتم [به] [٦] صاحبه ويجتهد فيه ولهذا قال في الجمعة : ﴿ **فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ** ﴾[٧] وهذه أحسن من قراءة من قرأ ﴿ **فامضوا** ﴾[٨] .

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : " **إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون وأتوها تمشون ،وعليكم السكينة ، فما أدركتم فصلوا ، وما فاتكم فأتموا** " [٩] فلم ينه عن السعي إلى الصلاة ، فإن الله تعالى أمر بالسعي إليها بل نهاهم أن يأتوها يسعون ، فنهاهم عن الإتيان المتصف بسعي صاحبه ، والإتيان فعل البدن ، وسعيه عدو البدن / وهذا منهي عنه[١٠] . [٣/ب]

---

(1) في (م) و (ق) : زيادة قوله تعالى (فأما من أعطى واتقى) الآية . ولفظ السعي . . وفي المطبوع : ذكر الآيات كاملة إلى قوله : (. . لشتى) .

(2) في المطبوع : يهتم .

(3) هكذا في الأصل و (ب) وفي غيره : (أعوان) .

(4) في (ق) (ليس هو مراد اللفظ العمل) .

(5) في (م) و (ق) : (بل هو عمل مخصوص بعمل يهم به) .

(6) زيادة من (م) و (ق) و المطبوع .

(7) سورة الجمعة آية (٩) .

(8) في غير الأصل : (قراءة من قرأه) ، و في (ب) و (ق) زيادة : (إلى ذكر الله). وهي قراءة شاذة قرأ بها . قرأ بها : علي وعمر وابن مسعود وابن عباس وأبي بن كعب وابن عمر وابن الزبير رضي الله عنهم ، وأبو العالية والسلمي ومسروق وطاوس وسالم بن عبدالله وطلحة رحمهم الله .

قال ابن جني : " في هذه القراءة تفسير للقراءة العامة " فاسعوا إلى ذكر الله " أي : فاقصدوا وتوجهوا ، وليس فيه دليلعلى الإسراع ، وإنما الغرض المضي إليها كقراءة من ذكرنا " .

انظر المحتسب لابن جني (٢/٣٢١-٣٢٢) .

(9) أخرجه البخاري في صحيحه في (١١) كتاب الجمعة ، (١٨) باب المشي إلى الجمعة ح(٩٠٨) ، ومسلم في صحيحه في (٥) كتاب المساجد ، (٢٨) باب استحباب إتيان الصلاة بوقار وسكينة والنهي عن إتيانها سعياً ح (١٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(10) انظر : فتح الباري (٢/٤٥٤) .

وأما السعي المأمور به في الآية فهو الذهاب إليها على وجه الاهتمام بها والتفرغ لها عن الأعمال الشاغلة من بيع وغيره ، والإقبال [بالقلب](١) على السعي إليها ، وكذلك قوله (عز وجل)(٢) في قصة فرعون لما قال له موسى : ﴿ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى(١٨)﴾ إلى قوله : ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى(٢٢)فَحَشَرَ فَنَادَى (٢٣) ﴾(٣)، فهذا اهتمام واجتهاد في حشر رعيته ومناداته فيهم ، وكذلك قوله : ﴿ وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ﴾ ، هو عمل همة ، واجتهاد ، ومنه سمي الساعي على الصدقة والساعي على الأرملة واليتيم ، ومنه قوله تعالى : ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ وهو العمل الذي يقصده صاحبه ويعتني به ليترتب عليه ثواب أو عقاب بخلاف المباحات المعتادة فإنها لم تدخل في هذا السعي .

قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى(٥)وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى(٦). . . ﴾ الآية وما بعدها(٤) ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾(٥)، وقوله عز وجل ﴿ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا ﴾(٦) .



(1) ساقطة من الأصل ومثبتة في باقي النسخ وفي المطبوع .

(2) ساقطة من (م) و (ق) والمطبوع .

(3) سورة النازعات الآيات (١٨-٢٣) . وفي المطبوع ذكر الآيات كاملة .

(4) سورة الليل (٥-١٠) . في غير الأصل و (ب) تكملة الآيات إلى قوله : (فسنيسره للعسرى) .

(5) سورة الإسراء آية (١٩) .

(6) سورة المائدة آية (٣٣) . وفي غير الأصل و (ب) ذكر الآية من أولها .

فصل

{ الكلام على جواب القسم ، وحذفه }

وأقسم على صفة الإنسان بقوله (سبحانه)[1]، ﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا(١)﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّ الآنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ(٦) ﴾[2] .

وأقسم على عاقبته ، وهو قسم على الجزاء في قوله : ﴿ وَالْعَصْرِ(١)إِنَّ الآنسَانَ لَفِي خُسْرٍ(٢)﴾ وإلى آخر السورة[3] . وفي قوله تعالى ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ(١)﴾ إلى قوله : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الآنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ(٤)ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ(٥)إِلاَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾[4] .

وحذف جواب القسم لأنه قد علم أنه يقسم على هذه الأمور وهي متلازمة ، فمتى ثبت[5] أن الرسول حق ثبت القرآن والمعاد ،(ومتى ثبت أن القرآن حق ثبت صدق الرسول الذي جاء به)[6] ، ومتى ثبت أن الوعد والوعيد حق ثبت صدقه وصدق الكتاب الذي جاء به .

والجواب يحذف تارة ولا يراد ذكره ، بل يراد تعظيم المقسم به ،وأنه مما يحلف به كقول[7] النبي ﷺ / : " **من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت** "[8] . ولكن هذا (في الغالب)[9] [٤/أ] يذكر ومعه الفعل دون مجرد حرف القسم كقولك فلان يحلف بالله وحده ، وأنا أحلف بالخالق لا بالمخلوق ، ونحو ذلك فالنصراني يحلف بالصليب والمسيح ، وفلان أكذب ما يكون إذا حلف بالله .

---

(1) قوله (سبحانه) سقط من (م) و (ق) و المطبوع .

(2) سورة العاديات الآيات (١-٦) . وفي المطبوع ذكر الآيات كاملة .

(3) في جميع النسخ عدا الأصل و (ب) ذكر السورة كاملة .

(4) في (م) و (ق) زيادة (وطور سينين) ، وفي المطبوع : ذكر الآيات كاملة إلى (. . الصالحات) .

(5) في (ب) بينت .

(6) ما بين القوسين سقط من (ب) .

(7) في (ب) : لقول .

(8) أخرجه البخاري في (٨٣) كتاب الأيمان والنذور ، (٤) باب لا تحلفوا بآبائكم ح (٦٦٤٦) ، من طريق مالك عن نافع عن ابن عمر ، وفيه : أن رسول الله صلى الله عليه و سلم أدرك عمر بن الخطاب وهو يسير في ركب يحلف بأبيه فقال : (ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم . .) الحديث.

ومسلم في (٢٧) كتاب الإيمان ، (١) باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى ح : (١٦٤٦) بلفظ مقارب له .

(9) ما بين القوسين سقط من (م) و (ق) و المطبوع .

وقد يكون هذا النوع[١] بحرف القسم مجردا كما في الحديث : "**كانت أكثر يمين رسول الله ﷺ : لا ومقلب القلوب** "[٢] .

وكان بعض السلف إذا اجتهد في يمينه قال : والله الذي لا إله إلا هو .

وتارة يحذف الجواب وهو مراد إما لكونه قد ظهر وعرف إما بدلاله الحال كمن قيل له : كل فقال : لا والله الذي لا إله إلا هو ، أو بدلاله السياق ، وأكثر ما يكون هذا إذا كان في نفس المقسم به (ما يدل على المقسم عليه وهي طريقة القران ، فإن المقصود يحصل بذكر المقسم به)[٣] ، فيكون حذف المقسم عليه أبلغ[٤] وأوجز كمن أراد أن يقسم على أن الرسول حق فقال : والذي أرسل محمداً [ﷺ][٥] بالهدى ودين الحق، وأيده بالآيات البينات وأظهر دعوته ، وأعلى كلمته ، ونحو ذلك . . فلا يحتاج إلى ذكر الجواب استغناء عنه بما في القسم من الدلالة عليه .

وكمن أراد أن يقسم على التوحيد وصفات الرب ، ونعوت جلاله فقال: والله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو[٦] الرحمن الرحيم ، الأول الآخر الظاهر الباطن .

وكمن أراد أن يقسم على علوه فوق عرشه فقال : والذي استوى على عرشه فوق سماواته يصعد إليه الكلم الطيب وترفع إليه الأيدي ، وتعرج الملائكة والروح إليه ، و نحو ذلك[٧] .

وكذلك من حلف لشخص أنه يحبه ويعظمه فقال : والذي ملأ قلبي محبتك وإجلالك ومهابتك ، ونظائر ذلك . لم يحتج إلى ذكر الجواب[٨] ، وكان في المقسم به ما يدل على المقسم عليه فمن هذا قوله / تعالى ﴿ **ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ(١)** ﴾[٩] ، فإن في المقسم به من تعظيم [٤/ب]
القرآن ووصفه بأنه ذو الذكر المتضمن لتذكير العباد ما يحتاجون إليه ، وللشرف والقدر ما يدل

---

(1) قوله : (النوع) سقط من (ب) .

(2) أخرجه البخاري في (٨٣) كتاب الإيمان و النذور ، (٣) باب كيف كانت يمين النبي صلى الله عليه وسلم ح (٦٦٢٨) ، و في (٨٢) كتاب القدر ، (١٤) باب يحول بين المرء و قلبه ح (٦٦١٧) ، وفي (٩٧) كتاب التوحيد ، (١١) باب مقلب القلوب ح (٧٣٩١) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

(3) ما بين القوسين سقط من (ب) .

(4) في (ق) : (حذف القسم أبلغ) .

(5) زيادة من (ب) .

(6) سقط من (م) و (ق) و المطبوع .

(7) في (ب) : وتعرج إليه الملائكة والروح . وسقط قوله : (و نحو ذلك) .

(8) في المطبوع : لم يحتج إلى ذكر جواب القسم .

(9) سورة ص آية (١) .

على المقسم عليه ، وهو كونه[١] حقا من عند الله غير مفترى كما يقول الكافرون ، (وهذا معنى قول كثير من المفسرين متقدميهم ومتأخريهم : أن الجواب محذوف تقديره إن القرآن لحق[٢] ، وهذا مطرد في كل ما في شأنه ذلك .

وأما قول بعضهم أن الجواب قوله تعالى ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ ﴾[٣] فاعترض بين القسم وجوابه بقوله ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ(٢) ﴾[٤] فبعيد لأن " كم " لا يتلقى بها القسم فلا تقول : والله كم أنفقت مالا ، وبالله كم أعتقت عبدا ، وهؤلاء لما لم يخف عليهم ذلك احتاجوا [إلى] [٥] أن يقدروا لاماً يتلقى بها الجواب أي لكم أهلكنا[٦] .

وأبعد من هذا قول من قال : الجواب في قوله ﴿ إِنْ كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ[٧] ﴾ ، وأبعد من هذا قول من قال : الجواب في قوله [تعالى][٨]: ﴿ إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ(٥٤) ﴾[٩].

وأبعد منه قول من قال : الجواب قوله ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ(٦٤) ﴾[١٠] .

وأقرب ما قيل في الجواب [لفظاً][١١] ، وإن كان بعيداً معنى ما ذكر عن قتادة[١٢] وغيره أنه في قوله [تعالى] [١٣] : ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ(٢) ﴾[١٤] .

---

(1) في المطبوع : (وكونه) .

(2) انظر على سبيل المثال : جامع البيان (١١٩/٢٣) ، زاد المسير (٩٩/٧) ، الجامع لأحكام القرآن (٩٥/١٥) ، فتح القدير (٤٨٠/٤) ، أضواء البيان (٩/٧) وغيرها .

(3) سورة ص آية (٣) .

(4) سورة ص آية (٢) .

(5) ما بين القوسين سقط من الأصل و المطبوع ومثبت في باقي النسخ .

(6) وممن قال بهذا القول : الفرّاء و ثعلب . انظر : معاني القرآن للفراء (٣٩٧/٢) ، والدر المصون (٣٤٥/٩) .

(7) سورة ص آية (١٤) و قال به الأخفش . انظر : معاني القرآن للأخفش (٤٥٣/٢) .

(8) زيادة من (ب) .

(9) سورة ص آية (٥٤) . وانظر : الجامع لأحكام القرآن (٩٦/١٥) .

(10) سورة ص آية (٦٤) . وممن قال به : الزجاج انظر : معاني القرآن وإعرابه (٣١٩/٤) ، والكوفيون غير الفراء . انظر زاد المسير (٦٩/٧) الدر المصون (٣٤٤/٩) .

(11) زيادة من (م) و (ق) و المطبوع .

(12) قتادة هو : قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزيز السدوسي ، الحافظ العلاقة ، أبو الخطاب البصري ، الضرير الأكمه ، المفسر ، ولد سنة (٦٠) هـ قال أحمد : قتادة عالم بالتفسير ، وباختلاف العلماء ، روى تفسيره عنه : شيبان بن عبد الرحمن التميمي مولاهم النحوي . توفي سنة (١١٧) هـ وقيل (١١٨) هـ .

انظر : سير أعلام النبلاء (٢٦٩/٥-٢٨٣) ، طبقات المفسرين للداودي (٤٧/٢-٤٨) .

(13) زيادة من (ب) .

(14) قوله : (في عزة وشقاق) سقط من (م) و (ق) و المطبوع .

كما قال تعالى : ﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ(١)بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ﴾[١] .

وشرح صاحب النظم [هذا القول][٢] فقال : معنى (بل) توكيد الخبر الذي بعده فصار كإنّ الشديدة في تثبيت ما بعدها قيل هاهنا بمترلة (إن) لأنه يؤكد ما بعده من الخبر وإن كان له معنى سواه في نفي خبر متقدم فكأنه قال تعالى[٣] : ﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ(١)إن الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ(٢)﴾ ، كما يقول : والله إن زيداً لقائم .

قال : واحتج صاحب هذا القول بأن هذا النظم وإن لم يكن للعرب[٤] فيه أصل ولا لها فيه رسم فيحتمل أن يكون نظماً أحدثه الله عز وجل لما بينا من احتمال (بل) بمعنى (أن) انتهى .

وقال أبو القاسم الزجاجي[٥] قال النحويون : إن بل تقع جواب القسم كما تقع إن ، لأن المراد بها توكيد الخبر .

وهذا / القول اختيار أبي حاتم[٦] [٧]وحكاه الأخفش[٨] عن الكوفيين . [٥/أ]

---

(1) سورة ق الآيتان (١-٢) .

(2) سقط من الأصل و (ب) .

(3) في (م) و (ق) و المطبوع : (عز وجل) .

(4) في المطبوع : العربية .

(5) أبو القاسم الزجاجي : هو عبد الرحمن بن اسحق ، وينسب إلى شيخه : إبراهيم الزجاج لملازمته إياه كثيراً . كان عالماً بالنحو والعربية ، صنف كتاب الجمل في النحو ، ومعاني الحروف وغيرهما . و توفي بطبرية سنة (٣٤٠) هـ .
انظر : إنباه الرواة (١٦٠/٢) ، وبغية الوعاة (٧٧/٢) .

(6) أبو حاتم : هو سهل بن محمد بن عثمان السجستاني ، إمام أهل البصرة في النحو والقراءة و اللغة و العروض ، له عدة مؤلفات ، وهو شيخ المبرد . توفي سنة (٢٥٠) هـ تقريباً. انظر : إنباه الرواة (٥٨/٢-٦٤) ، بغية الوعاة (١٠٦/١) .

(7) انظر : القطع والائتناف للنحاس (٥٩٥/٢) .

(8) الأخفش : هو سعيد بن مسعدة البلخي ثم البصري ، المعروف بالأخفش الأوسط ، أخذ عن الخليل بن أحمد ، و لزم سيبويه حتى برع ، و هو من أئمة العربية . من مؤلفاته : معاني القرآن ، المقاييس في النحو و غيرهما . توفي سنة (٢١٥) هـ وقيل (٢٢١) هـ وقيل (٢٢٥) هـ .
انظر : إنباه الرواة (٣٦/٢-٤٣) ، طبقات المفسرين للداودي (١٩١/١) .

وقرره بعضهم بأن قال : أصل الكلام : ﴿ بَلْ الَّذِينَ كَفَرُوا فِـي عِـزَّةٍ وَشِـقَاقٍ﴾ ، ﴿ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ فلما قدم القسم ترك على حاله .

قال الأخفش وهذا يقوله الكوفيون ، وليس بجيد في العربية لو قلت : والله قام وأنت تريد قام والله ، لم يحسن وقال النحاس[١] : "هذا خطأ على مذهب النحويين لأنه إذا ابتـدأ بالقسـم وكان الكلام معتمداً عليه لم يكن بد من الجواب ، وأجمعوا على[٢] أنه لا يجوز والله قام عمـرو بمعنى قام عمرو والله ، لأن الكلام يعتمد على القسم "[٣] .

وذكر الأخفش رسماً آخر في جواب القسم فقال : يجوز أن يكون لصاد معنى يقع عليـه القسم لا ندري نحن ما هو كأنه يقول الحق والله[٤] ، قال أبو الحسن الواحدي[٥] : وهذا الـذي قاله الأخفش صحيح المعنى على قول من يقول صاد الصادق الله أو صدق محمد ، وذكر الفـراء هذا الوجه أيضاً فقال : صاد جواب القسم ، وقال : هو كقولك : وجب والله ، وترك والله فهي جواب لقوله : " والقرآن"[٦] .

---

[1] النحاس : هو أحمد بن محمد بن اسماعيل بن يونس المـرادي ، أبـو جعفـر النحـاس النحـوي المصـري كـان مـن أهـل العلم بالفقه والقرآن ، سمع من الزجاج وأخذ عنه النحو له عدة تصانيف منها : معـاني القـرآن ، والناسـخ والمنسـوخ وغيرهـا . توفي سنة (٣٣٨) هـ .
انظر : إنباه الرواة (١/١٣٦-١٣٩) ، وبغية الوعاة (١/٣٦٢) .

[2] زيادة من (ق) .

[3] القطع والأئتناف (٢/٥٩٥ و ما بعدها) .

[4] لم أجده في المعاني المطبوع .

[5] أبو الحسن الواحدي : هو علي بن أحمد بن محمد بن علي النيسابوري ، المفسر ، النحوي، الشافعي ، إمام علامة تصدّر للتـدريس مدة ، من مؤلفاته : البسيط والوسيط ، والوجيز في التفسير ، وأسباب النزول وغيرها . توفي سنة (٤٦٨) هـ .
انظر : بغية الوعاة (٢/١٤٥) ، طبقات المفسرين للداودي (١/٣٩٤-٣٩٦) .

[6] معاني القرآن للفراء (٢/٣٩٦-٣٩٧) .

[وذكر النحاس وغيره وجهاً آخر في الجواب وهو أنه محذوف تقديره : ﴿ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾][1] ما لأمر كما يقوله هؤلاء الكفار ، ودل على المحذوف قوله تعالى : ﴿ بَلْ الَّـذِينَ كَفَرُوا[2] ﴾ ، وهذا اختيار ابن جرير[3] وهو مخرج من قول قتادة.

وشرحه الجرجاني[4] فقال : بل رافع[5] لخبر قبله ومثبت لخبر بعده ، فقد ظهر ما بعده ، وأضمر ما قبله وما بعده دليل على ما قبله ، فالظاهر يدل على الباطن ، فإذا كان كذلك وجـب أن يكون قوله : ﴿ بَلْ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ ، مخالف لهذا المضـمر فكأنـه قيـل : ﴿ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ إن الذين كفروا يزعمون أهم على الحق أو كل ما في هذا المعنى ، فهذه [٥/ب
ستة / أوجه سوى ما بدأنا به في جواب القسم[6] والله أعلم .

---

(1) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل .

(2) القطع والأئتناف (٢/٥٩٦) ، ومعاني القرآن للنحاس (٦/٧٦) . وقد رجّحه بقوله : وهو أولى الأقوال ، لأنّ بل قد حلّت محل الجواب فاستغنى بها عنه .

(3) جامع البيان (٢٣/١٩) وقال : والصواب عندي ما قاله قتادة لأن (بل) دلّت على التكذيب فمعنى الكلام : ما الأمر كما يقول هؤلاء الكافرون بل هم في عزة وشقاق .

وهو أيضاً ما رجّحه العلّامة الشـنقيطي في أضـواء البيـان و انتصـر لـه و ذكـر الأدلـة علـى ترجيحـه . انظـر : أضـواء البيان (٧/٩-١٢) .

- وابن جرير : هو محمد بن جرير بن يزيد الطبري ، أبو جعفر المفسر المؤرخ ، إمام المفسرين ولد سنة (٢٢٤) هـ في آمل طبرستان و استوطن بغداد و توفي بها و كان إماماً في فنون كثيرة منها : التفسير و القراءات و التاريخ وغيرها من مؤلفاته : جامع البيان ، تـاريخ الأمم والملوك ، توفي سنة (٣١٠) هـ . انظر : طبقات المفسرين للداودي (٢/١١٠-١١٨) .

(4) الجرجاني هو : الحسن بن يحيى بن نصر أبو علي الجرجاني ، كان يقطن جرجان بباب الخندق ، وله دة تصانيف ومنـها : (نظـر القرآن) نقل عنه الثعلبي ، والواحدي ، وقد ألف مكي بن أبي طالب كتاب انتخاب نظم القرآن للجرجاني وإصلاح غلطه . و لم يصلنا أحد الكتابين والله أعلم . انظر : الأنساب للسمعاني (٢/٨٠) .

(5) في تفسير البسيط للواحدي و عنه نقل ابن القيم : دافع بدل رافع (٢/٧١٣) .

(6) انظر : القطع و الأئتناف للنحاس (٢/٥٩٦) . وما بين القوسين نقله الإمام ابن القيم عن الواحدي في تفسيره البسيط ، مع تقديم وتأخير و اختصار و تصرف .

انظر : البسيط (٢/٧١٠-٧١٤) تحقيق : محمد بن عبد الله الطيار ، رسالة جامعية غير منشورة .

ونظير هذا قوله تعالى : ﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ(١)بَلْ عَجِبُوا ﴾ وقيل [جواب][١] القسم ﴿ قَدْ عَلِمْنَا ﴾[٢] ، وقال الفراء[٣] : محذوف دل عليه ﴿ أَئِذَا مِتْنَا﴾ أي : لتبعثن[٤]وقيل: هو ﴿ بَلْ عَجِبُوا﴾[٥] ، كما تقدم بيانه .

---

(1) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل و (ب) .

(2) سورة ق آية (٤) . وقد ذهب إلى هذا القول الأخفش كما في المعاني له (٤٨٣/٢) وأجازه الزجاج ، انظر : المعاني له (٤٢/٥) .

(3) الفرّاء هو : أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله الفرّاء النحوي ، العلامة صاحب التصانيف قال عنه ابن الأنباري : (لو لم يكن لأهل بغداد و الكوفة من النحاة إلا الكسائي و الفرّاء لكفى) . من مؤلفاته : معاني القرآن وغيره . توفي سنة (٢٠٧) هـ . انظر : تاريخ بغداد (١٤٩/١٤-١٥٥) ، إنباة الرواة (٩/٤-٢٣) .

(4) معاني القرآن للفراء (٧٥/٣) ، ومعاني الزجاج (٤١/٥) .

(5) وهو منسوب إلى أهل الكوفة . انظر : الدر المصون (١٧/١٠) .

فصل
{القسم في سورة القيامة}

ومن ذلك قوله (تعالى)[١] : ﴿ لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ(١)وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾[٢] فقد تضمن هذا الإقسام ثبوت الجزاء (ومستحق الجزاء)[٣] ، وذلك يتضمن إثبات الرسالة والقرآن والمعاد ، وهو سبحانه يقسم على هذه الأمور الثلاثة ، ويقدرها أبلغ التقدير لحاجة النفوس إلى معرفتها والإيمان بها ، وأمر رسوله ﷺ أن يقسم عليها كما قال تعالى ﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾[٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾[٥] ، وقال تعالى : ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ(٧) ﴾[٦] .

وقد تقدم إقسامه عليها في ثلاث مواضع من كتابه لا رابع لها[٧] ، يأمر رسوله[٨] أن يقسم على ما أقسم عليه هو سبحانه من النبوة والقرآن والمعاد .

فأقسم سبحانه لعباده ، وأمر أصدق خلقه أن يقسم لهم ، وأقام البراهين القطعية على ثبوت ما أقسم عليه فأبى الظالمون إلا جحوداً وتكذيباً .

واختلف في النفوس المقسم بها ههنا ، هل هي خاصة أو عامة ؟ على قولين : بناءً على الأقوال الثلاثة في اللوامة .

فقال ابن عباس[٩] : كل نفس تلوم نفسها يوم القيامة ، يلوم المحسن نفسه أن لا يكون

---

(1) قوله : (تعالى) سقط من (م) و (ق) و المطبوع .

(2) سورة القيامة الآيتان (١-٢) .

(3) سقط من (ب) .

(4) سورة يونس آية (٥٣) .

(5) سورة سبأ آية (٣) .

(6) سورة التغابن آية (٧) .

(7) هكذا في الأصل و (ب) و في باقي النسخ و المطبوع : فهذه ثلاثة مواضع لا رابع لها .

(8) في (م) و (ق) و المطبوع : يأمر نبيه .

(9) ابن عباس هو : عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم القرشي الهاشمي أبو العباس ، ابن عم الرسول ﷺ ، دعا له الرسول ﷺ بأن يعلمه الله التأويل ويفقهه في الدين و هو حبر الأمة و ترجمان القرآن . توفي سنة (٦٨) هـ على الصحيح .

ازداد إحساناً ، ويلوم المسيء نفسه أن لا يكون رجع عن إساءته[١] .

واختاره الفراء . قال : " ليس من نفس برة ولا فاجرة إلا وهي تلوم نفسها إن كانت عملت خيراً قالت : هلا ازددت ، وإن كانت عملت سوءاً قالت : ليتني لم أفعل "[٢] .

والقول الثاني : أنها خاصة / قال الحسن[٣] هي النفس[٤] المؤمنة ، فإن المؤمن والله ما تراه إلا يلوم نفسه على كل حالة . لأنه يستقصرها في كل ما تفعل ، فيندم ويلوم نفسه ، وإن الفاجر يمضي قدماً ، لا يعاتب نفسه[٥] . [٦/أ]

والقول الثالث : أنها النفس الكافرة نفسها وحدها قاله قتادة[٦] ومقاتل[٧] هي النفس الكافرة تلوم نفسها في الآخرة على ما فرطت في أمر الله[٨] .

انظر : الإصابة (٢ ٣٢٢) ، طبقات المفسرين للداودي (٢٣٩/١) .

[1] ذكر السيوطي في الدر المنثور (٢٤٣/٨) قولاً قريباً منه و ذكر أنه قد خرّجه عبد بن حميد و ابن المنذر . وممن نسبه أيضاً إلى ابن عباس : السمرقندي في بحر العلوم (٤٢٥/٣) ، والرازي في التفسير الكبير (٢٥١/٣٠) .

[2] معاني القرآن (٢٠٨/٣) . وفي المعاني : زيادة : (ليتني قصرت) قبل قوله : (ليتني لم أفعل) .

[3] هو الحسن بن يسار البصري تابعي ، ثقة فقيه فاضل مشهور ، ولد سنة (٢١) هـ و كان مولى لزيد بن ثابت و يقال : مولى لأبي اليسر كعب بن عمرو السلمي . قيل : كلامه يشبه كلام الأنبياء له كتاب في التفسير . توفي سنة (١١٠) هـ .
انظر : غاية النهاية (٢٣٥/١) ، تهذيب التهذيب (٢٦٣/٢) .

[4] قوله : (النفس) سقط من المطبوع .

[5] ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣٤٣/٨) وذكر أنه خرّجه عبد بن حميد ، وابن أبي الدنيا في محاسبة النفس .

[6] المروي عن قتادة أنها النفس الفاجرة كما روى ذلك عنه ابن جرير في تفسيره (٢٩/ ١٧٥) بسنده إلى قتادة . وإسناده حسن كما قال صاحب التفسير الصحيح (٥٦٣/٤) .

[7] مقاتل هو : مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي الخراساني ، قال ابن المبارك : (ما أحسن تفسيره لو كان ثقة) ، اختلف في أمره : فمنهم من وثقه و منهم من نسبه إلى الكذب . من مصنفاته : التفسير الكبير ، ونوادر التفسير ، و نظائر القرآن . توفي سنة (١٥٠) هـ .
تاريخ بغداد (١٦٠/١٣) ، سير أعلام النبلاء (٢٠١/٧-٢٠٢) طبقات المفسرين للداودي (٣٣٠/٢-٣٣١) .

[8] أشار إلى قوله : البغوي في معالم التنزيل (٢٨٠/٨) ، والقرطبي في الجامع (٩٣/١٩) ، والشوكاني في فتح القديرة (٣٨٧/٥) .
وقد حكى هذه الأقوال السابقة جميعها الواحدي في تفسيره البسيط (٣٤٤/١-٣٤٥) . ت . نورة الورثان . رسالة جامعية غير منشورة .
وقد رجح الإمام الطبري رحمه الله تعالى أن جميع الأنفس تلوم نفسها حيث يقول : (وكل هذه الأقوال متقاربة المعنى و الأشبه بظاهر التنزيل أنها التي تلوم صاحبها على الخير والشر وتندم على ما فات) . جامع البيان (١٧٥/٢٩) .

قال شيخنا[١] : والأظهر أن المراد نفس الإنسان مطلقاً ،فإن نفس كل إنسان لوامة كما أقسم بجنس النفس في قوله : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا(٧)فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا(٨) ﴾[٢] . فإنه لا بد لكل إنسان أن يلوم نفسه أو غيره على أمر .

ثم هذا اللوم قد يكون محموداً وقد يكون مذموماً كما قال تعالى : ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلاَوَمُونَ(٣٠)قَالُوا يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ(٣١) ﴾[٣] .

قال تعالى : ﴿ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ ﴾[٤] فهذا لوم[٥] غير محمود ، وفي الصحيحين في قصة احتجاج آدم وموسى : (**أتلومني على أمر [قدره الله عليّ قبل أن أخلق . قال : فحج آدم موسى]**)[٦] .

فهو سبحانه يقسم على صفة النفس اللوامة كقوله : ﴿ إِنَّ الآنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُـــودٌ﴾[٧]. وعلى جزائها كقوله : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[٨]، وعلى تباين عملها كقولـــه : ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى(٤) ﴾[٩] ، وكل نفس لوامة ، فالنفس السعيدة تلوم على فعل الشر وترك الخير ، فتبادر إلى التوبة ، والنفس الشقية بالضد عن[١٠] ذلك .

---

(1) هو شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى وهو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية ، عالم مشهور طبقت شهرته الآفاق . إمام أهل السنة والجماعة في زمانه و ما بعده صاحب التصانيف العجيبة و منها : درء التعارض ، ومنهاج السنة و غيرهما توفي سنة (٧٢٨) هـ . ذيل طبقات الحنابلة (٣٨٧/٢) ، البداية والنهاية (١٤٢/١٤) .

(2) سورة الشمس الآيتان (٧-٨) .

(3) سورة القلم الآيتان (٣٠-٣١) .

(4) سورة المائدة آية (٥٤) .

(5) في المطبوع : اللوم .

(6) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل وهو مثبت في باقي النسخ ، وفي الأصل : (أتلومني على أمر . .) الحديث .
والحديث أخرجه البخاري في صحيحه في (٨٢) كتاب القـدر ، (١١) بـاب تحـاج آدم وموسـى عنـد الله ، ح (٦٦١٤) وفي (٩٧) كتاب التوحيد ، (٣٧) باب ما جاء في قوله عز وجل ﴿ وكلم الله موسى تكليما ﴾ ح (٧٥١٥) .
ومسلم في صحيحه في (٤٦) كتاب القدر ، (٢) باب حجـاج آدم و موسـى عليهمـا السـلام ح (٢٦٥٢) مـن حـديث أبي هريرة رضي الله عنه .
وقد شرح الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى هذا الحديث شرحاً وافياً في كتابه القيم شفاء العليل (٨٨/١-٩٧) فليراجع .

(7) سورة العاديات آية (٦) .

(8) سورة الحجر آية (٩٢) .

(9) سورة الليل آية (٤) .

(10) في (م) و (ق) و المطبوع : (من) بدل : (عن) .

وجمع سبحانه في القسم بين محل الجزاء وهو يوم القيامة ، ومحل الكسب وهو النفس اللوامة ، ونبّه سبحانه بكونها لوّامة على شدة حاجتها وفاقتها وضرورتها إلى مَنْ يعرِّفها الخيرَ والشرَّ ، ويدلها عليه ، ويرشدها إليه ، ويلهمها إياه ، فيجعلها مريدة للخير مؤثرة[1] له كارهة للشر مجافية له للتخلص من اللوم أو من سوء عاقبة[2] / ما تلوم عليه ، ولأنها متلومة مترددة لا [٦/ب] تثبت على حال واحدة ، فهي محتاجة إلى من يعرفها ما هو أنفع لها في معاشها ومعادها فتؤثره وتلوم نفسها عليه إذا فاتها فتتوب منه إن كانت سعيدة ولتقوم عليها حجة عدله فيكون لومها في القيامة لنفسها عليه لوماً بحق قد أعذر الله خالقها وفاطرها إليها فيه ، ففي ذكر صفة اللوم تنبيه على ضرورتها إلى التصديق بالرسالة والقرآن وأنها لا غنى لها عن ذلك ولا صلاح ولا فلاح بدونه البتة .

ولما كان يوم معادها هو محل ظهور هذا اللوم وترتب أثره عليه قرن بينهما في الذكر[3] .



(1) في المطبوع : (مرشدة له) بدل (مؤثرة له) .

(2) في المطبوع : (من شر ما تلوم عليه) بدل (من سوء عاقبة ماتلوم عليه) .

(3) جواب القسم في هذه الآيات محذوف دلّ عليه قوله تعالى : (أيحسب الإنسن أن لن نجمع عظامه) والتقدير : لتبعثن .
انظر : القطع والأئتناف (٢/٧٧٣) ، و قد نقله عن الواحدي في تفسيره البسيط (١/٣٤٥)ت . الورثان ، وانظر أيضاً : الكشاف (٤/ ٦٥٩) ، والبحر المحيط (٨/٣٨٤).

﴿ فصل ﴾
{ القسم في سورة الشمس }

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا(١)وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا(٢)﴾ إلى قوله : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا(٨) ﴾[١] ، قال الزجاج[٢] وغيره : جواب القسم : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا(٩) ﴾[٣] ، ولما طال الكلام حسن حذف اللام من الجواب[٤] .

وقد تضمن هذا القسم الإقسام بالخالق ، والمخلوق ، فأقسم بالسماء وبانيها ، والأرض وطاحيها والنفس ومسويها[٥] .

وقد قيل ، إن ما مصدرية[٦] ، فيكون الإقسام بنفس فعله تعالى فيكون قد أقسم بالمصنوع الدال عليه (سبحانه)[٧] وبصنعته الدالة على كمال علمه وقدرته وحكمته وتوحيده ، ولما كانت حركة الشمس والقمر والليل والنهار أمراً يشهد الناس حدوثه شيئاً فشيئاً ، ويعلمون أن الحادث لا بد له من محدث كان العلم بذلك متزلاً متزلة ذكر المحدث له لفظاً فلم يذكر الفاعل في الإقسام الأربعة الأوَل .

---

(1) سورة الشمس الآيات (١-٨) .و في (م) و (ق) و المطبوع ذكر الآيات كاملة .

(2) الزجاج هو : إبراهيم بن محمد بن السَّرِّي بن سهل الزجاج أبو اسحاق البغدادي النحوي ، لزم المبرد و أخذ عنه ، كان من أهل الفضل والدين ، وله مؤلفات حسان منها : (معاني القرآن وإعرابه) وغيره . توفي سنة (٣١١) هـ وقيل (٣١٦) هـ .
انظر : انباة الرواة (١/١٩٤) ، سير أعلام النبلاء (١٤/٣٦٠) .

(3) سورة الشمس آية (٩) .

(4) معاني القرآن للزجاج (٥/٣٣١) ، الدر المصون (١١/٢٠) .

(5) بناءً على القول بأن ((ما)) موصولة بمعنى الذي . وإليه ذهب الحسن ومجاهد وأبو عبيدة واختاره ابن جرير . وهو أيضاً ما رجحه الزمخشري ، انظر : جامع البيان (٣٠/٢٠٩) ، والكشاف (٤/٧٩٥) ، والبحر (٨/٤٧٩) ، و الدر المصون (١١/١٨-٢٠) .

(6) وإليه ذهب الزجاج و المبرد . وهذا بناءً على أنها مختصة بغير العقلاء . انظر معاني القرآن للزجاج (٥/٣٣٢) ، والدر المصون (١١/١٩) .

(7) قوله : (سبحانه) سقط من (م) و (ق) و المطبوع .

وهذا يسلك[١] طائفةٌ من النُّظَّارِ الاستدلالَ بالزمان على الصانع وهو استدلال صحيح[٢] وقد نبّه عليه القرآن في غير موضع كقوله تعالى : ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ(١٩٠)** ﴾[٣] .

ولما كانت السماء والأرض ثابتتين حتى ظنّ أهما قد يمتان ذكر مع الإقسام بهما بانيهما ومبدعهما ، وكذلك النفس فإن حدوثها غير مشهود حتى ظَنَّ بعضهم قدمها ، فذكر مع الإقسام بها مسويها وفاطرها ، هذا مع ما في ذكر بناء السماء وطحو الأرض ، وتسوية النفس من الدلالة على الرحمة والحكمة / والعناية بالخلق ، فإن بناء السماء يدل على أنها كالقبَّة العالية على الأرض [٧/أ] ، وجعلها سقفاً لهذا العالم ، والطَّحْو[٤] هو مد الأرض وبسطها وتوسيعها ليستقَّر عليها الأنام[٥] والحيوان ويمكن فيها البناء والغراس والزرع وهو متضمن لنضوب[٦] الماء عنها وهو مما حيَّر عقول الطبائعيين حيث كان مقتضى الطبيعة أن يغمرها كثرة الماء ، فبرز[٧] جانب منها عن الماء[٨] على خلاف مقتضى الطبيعة وكون هذا الجانب المعين دون غيره مع استواء الجوانب في الشكل الكري ، يقتضي تخصيصاً فلم يجدوا بداً من أن يقولوا عناية الصانع اقتضت ذلك ، قلنا نعم[٩] إذاً ، ولكن عناية من لا مشيئة له ولا إرداة ولا اختيار ولا علماً بمعين أصلاً كما يقولونه فيه محال ، فعنايته تقتضي ثبوت صفات[١٠] كماله ونعوت جلاله وأنه الفعَّال يفعل باختيار ما يريد .

وكذلك النفس أقسم بها وبمن سواها ، وألهمها فجورها وتقواها ، فإن من الناس من يقول : هي : هي قديمة لا مبدع لها ، ومنهم من يقول : بل[١١] هي التي تبدع فجورها وتقواها ،

---

(1) في المطبوع : (سلك) بدل (يسلك) .
(2) واو (وقد) ثابتة في الأصل فقط .
(3) سورة آل عمران آية (١٩٠)
(4) انظر : المفردات في غريب القرآن ص (٣٠٢) .
(5) قوله : (الأنام) سقط من (ق) .
(6) نضب الماء بمعنى : غار في الأرض . القاموس المحيط ص (١٣٨) ، المعجم الوسيط (٢/٩٢٧) .
(7) في (م) و (ق) و المطبوع : (فبروز) بدل (فبرز) .
(8) في (ق) زيادة : (على آخر الماء) .
(9) في (م) : (فنعم إذاً) بدل (نعم إذاً) .
(10) قوله : (صفات) سقط من المطبوع .
(11) قوله : (بل) سقط من (ق) .

فذكر سبحانه أنه هو الذي سواها وأبدعها ، وأنه هو الذي ألهمها الفجور والتقوى ، فأعلمنا أنه خالق نفوسنا وأعمالها .

وذكر لفظ التسوية[1] كما ذكره في قوله (تعالى)[2] : ﴿ يَاأَيُّهَا الآنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ(٦)الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ(٧) ﴾[3] ، وفي قوله (عز وجل) : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ(٧٢) ﴾[4] إيذاناً بدخول البدن في لفظ النفس لقوله (تعالى) : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾[5] .

وقوله (تعالى) :﴿ فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ ﴾[6] ، ﴿ وَلاَ تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ﴾[7] ، ﴿ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾[8] ، ونظائره[9] وباجتماع الروح مع البدن تصير النفس فاجرة وتقية[10] وإلا فالروح بدون البدن لا فجور لها .

وقوله (تعالى)[11] : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾[12] ، الضمير المرفوع في زكاها عائدعلى (من) وكذلك هو في دساها ، والمعنى : قد أفلح من زكى نفسه ، وقد خاب من دساها ، هذا هو القول الصحيح . وهو نظير/ قوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى(١٤) ﴾[13] وهو سبحانه إذا ذكر [٧/ب]

---

[1] تسوية الشيء : جعله سواءً ، إما في الرفعة ، أو في الصعة . المفردات في غريب القرآن ص (٢٥١) .
[2] قوله : (تعالى – عز و جل) سقط من (م) و (ق) و المطبوع .
[3] سورة الإنفطار الآيتان (٦-٧) .
[4] سورة ص آية (٧٢) .
[5] سورة الأعراف آية (١٨٩) .
[6] سورة النور آية (٦١) .
[7] سورة النساء آية (٢٩) .
[8] سورة النور آية (١٢) . وفي (م) و (ق) و المطبوع : ابتداء الآية من أولها (ولولا إذا سمعتموه) .
[9] قوله : (ونظائره) سقط من (ق) .
[10] في (م) و (ق) و المطبوع : (أو تقية) بدل (وتقية) .
[11] قوله : (تعالى – عز و جل) سقط من (م) و (ق) و المطبوع .
[12] قوله : (قد أفلح من زكّاها) قيل : هي جواب القسم ، والأصل لقد ، و إنما حذفت لطول الكلام .
و قيل : إنه ليس بجواب ، والجواب محذوف تقديره : لتبعثن ، وقيل : ليدمدنّ الله عليهم ، أي أهل مكة .
انظر : البسيط (٧٩٦/٢) ت . الورثان ، و معاني الزجاج (٣٣١/٥) ، والكشاف (٧٦٠/٤) ، والدر المصون (٢٠/١١) .
[13] سورة الأعلى آية (١٤) .

الفلاح علقه بفعل المفلح كقوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ(١)الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) ﴾[١] . . إلى آخر الآيات . وقوله : ﴿ أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ(٥) ﴾[٢] ، بعد قوله : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾[٣] ، وقوله : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ(٥١) ﴾[٤] ، ونظائره . قال الحسن : قد أفلح من زكى نفسه وحملها على طاعة الله ، وقد خاب من أهلكها وحملها على معصية الله[٥] ، وقاله قتادة[٦] .

وقال ابن قتيبة[٧] : يريد أفلح من زكى نفسه أي : أنماها[٨] وأعلاها بالطاعة والبر والصدقة (والكف عن المعاصي ، والتنافس في الدرجات)[٩] واصطناع المعروف ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ ، أي نقصها وأخفاها بترك عمل ذلك[١٠] البر وركوب المعاصي والفاجر أبداً خَفِيّ المكان زَمِن المروءة[١١] ، غامض الشخص ، ناكس الرأس ، فكأنَّ النَّطِفَ[١٢] بارتكاب الفواحش دسَّ نفسه وقمعها . ومصطنع المعروف شهر نفسه ورفعها .

---

(1) سورة المؤمنون الآيتان (١-٢) .

(2) سورة البقرة آية (٥) .

(3) سورة البقرة آية (٣) . و في (م) و (ق) و المطبوع : بداية الآيات بقوله (الذين يؤمنون . . . إلى قوله المفلحون) .

(4) سورة النور آية (٥١) .

(5) أخرجه عبد بن حميد عن الحسن . كما في الدر المنثور (٨/ ٥٣٠) .

(6) أخرج الطبري عن قتادة : (قد أفلح من زكاها) من عمل خيراً زكّاها بطاعة الله ، و أخرج أيضاً عنه : (و قد خاب من دساها) قال : أثّمها و أفجرها . جامع البيان (٣٠/ ٢١١-٢١٢) ، وقد حسّن إسنادهما صاحب التفسير الصحيح (٤/ ٦٣٨) .

(7) ابن قتيبة : هو عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري و قيل : المروزي ، الشهير بابن قتيبة ، النحوي ، اللغوي ، صنّف التصانيف المفيدة في القرآن و الحديث و الأدب و غيرها قال الخطيب : كان ثقة ديناً فاضلاً . من مصنفاته (تأويل مشكل القرآن) و (تفسير غريب القرآن) و غيرهما . توفي سنة (٢٧٦) هـ .

انظر : تاريخ بغداد (١٠/ ١٧٠) ، شذرات الذهب (٢/ ١٧٠) .

(8) في المطبوع : (نمّاها) بدل : (أنماها) .

(9) ثابت في الأصل و (ب) ساقط من البقية .

(10) ثابت في الأصل و (ب) ساقط من البقية

(11) الزمن : المبتلى بلاءً بيناً . لسان العرب (٦/ ٨٧) . و في البسيط (٢/ ٨١١) : زَمِر المروءة .

(12) النطف : معناه من الهم بريبة . لسان العرب (١٤/ ١٨٦) . وفي المطبوع : المتّصف .

وكانت أجواد العرب تنزل الرُّبَا[١] ، ويفاع[٢] الأرض لتشهر أنفسها للمعتفين[٣] ، وتوقد النيران في الليل للطارقين ، وكانت اللئام تنزل الأولاج[٤] والأطراف[٥] والأهضام[٦] لتخفي (أنفسها)[٧] وأماكنها على الطالبين ، فأولئك أعْلَوا أنفسهم وزكَّوها ، وهؤلاء أخفوا أنفسهم ودسّوها وأنشد (في ذلك)[٨] :

وبوأت بيتك في معلم ... رحيب المباءة والمسرح
كفيت العفاة طلاب القرى ... ونبح الكلاب لمستنبح[٩]

وقال أبو العباس[١٠] : سألت ابن الأعرابي[١١] عن قوله (تعالى)[١٢] : ﴿ **وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا(١٠)** ﴾ . فقال : [دس معناه][١٣] دس نفسه مع الصالحين ، وليس منهم[١٤] وعلى هذا

---

[1] الرُّبَا : مفرده الربوة و هي : كل ما ارتفع عن الأرض و ربا . لسان العرب (١٢٧/٥) .

[2] اليفاع : المشرف من الأرض و الجبل . لسان العرب (٤٥٢/١٥) .

[3] المعتفين : الأضياف و طلاّب المعروف . لسان العرب (٢٥٩/٩) .

[4] الأولاج : جمع ولجة ، و هو موضع أو كهف يستتر فيه المارة من مطر أو غيره . لسان العرب (٣٩١/١٥) .

[5] الأطراف : الناحية من الأرض . لسان العرب (١٤٨/٨) .

[6] الأهضام : المطمئن من الأرض . و مفرده : هِضْم و هَضْم . وقيل : هي أسافل الأودية . لسان العرب (١٠١/١٥) .

[7] ثابت في الأصل و (ب) ساقط من البقية .

[8] في (م) و (ق) والمطبوع : (أولئك) بدل (هؤلاء) .

[9] انظر : تأويل مشكل القرآن ص (٣٤٤) و ما بعدها .

والبيتان من المتقارب ، ذكرهما الجاحظ في كتابه (الحيوان) (٣٨١/١) و لم ينسبهما لأحد ، و كذا ابن قتيبة في تأويل المشكل ص (٣٤٤) ، و ذكرهما الزبيدي في تاج العروس و لم ينسبهما لأحد أيضاً (١٥٦/١) .

[10] أبو العبّاس : هو أحمد بن يحيى بن زيد بن سيار ، أبو العباس النحوي ، الشيباني مولاهم ، الشهير بثعلب ، إمام أهل الكوفة ومقدمهم في النحو و اللغة ، ولد سنة (٢٠٠) هـ و توفي سنة (٢٩١) هـ . إنباه الرواة (١٧٣/١-١٨٦) ، بغية الوعاة (٣٩٦/١-٣٩٨) .

[11] ابن الأعرابي : هو محمد بن زياد الأعرابي ، أبو عبد الله ، مولى العباس بن محمد بن علي ابن عبد الله بن العباس ، ولد سنة (١٥٠) هـ وتوفي سنة (٢٣١) هـ .

انظر : إنباه الرواة (١٢٨/٣-١٣٧) ، بغية الوعاة (١٠٥/١ وما بعدها) .

[12] ثابت في الأصل و (ب) ساقط من البقية .

[13] سقط من الأصل و (ق) و الاستدراك من البقية .

[14] انظر : تهذيب اللغة للأزهري (٢٨١/١٢) ، و لسان العرب (٣٤٤/٤) .

[فالمعنى][1] أخفى نفسه في الصالحين يري النَّاس أنه منهم وهو منطوٍ على غير ما ينطوي عليه الصالحون .

وقالت[2] طائفة أخرى : الضمير يرجع إلى الله سبحانه[3] . قال ابن عباس في رواية عطاء[4] :

قد أفلحت نفس من زكاها الله فأصلحها[5] ، وهذا قول مجاهد[6] وعكرمة[7] والكلبي[8] وسعيد بن جبير[9] ومقاتل .قالوا : سعدت نفس / وأفلحت نفس أصلحها الله وطهَّرها ووفقها للطاعة حتى عملت بها[10] وخابت وخسرت نفس أضلها الله وأغواها وأبطلها وأهلكها[11] . [٨/أ]

---

(1) سقط من الأصل.

(2) في (م) و (ف) و المطبوع : و قال .

(3) انظر : الوسيط للواحدي (٤/٤٩٧) ، زاد المسير (٩/١٤١) ، البحر المحيط (٨/٤٨١) ، الدر المصون (١١/٢١) .

(4) عطاء : هو عطاء بن أبي رباح أسلم القرشي مولاهم ، أبو محمد المكي ، ثقة فقيه عالم كثير الإرسال مشهور بالورع و الفضل ، من أهل الفتيا ومن كبار التابعين .قال أحمد (ليس في المرسل أضعف من مرسل الحسن و عطاء ، كانا يأخذان عن كل أحد) . توفي سنة (١١٤) هـ .

انظر : ميزان الاعتدال (٣/٤٦٧) ، غاية النهاية (١/٥١٣) .

(5) ورد قوله من غير ذكر عطاء عنه في : الوسيط (٤/٤٩٧) ، وزاد المسير (٩/١٤١) ، والدر المنثور (٨/٥٣١) و عزاه إلى ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، وورد معنى قول ابن عباس عند ابن جرير من طريق علي الوالبي عنه انظر : جامع البيان (٣٠/٢١١) .

(6) مجاهد : هو مجاهد بن جبر ، أبو الحجاج المكي مولى بني مخزوم ، قرأ على ابن العباس ، وصحب ابن عمر مدّة كثيرة قال عنه قتادة : أعلم من بقي في التفسير مجاهد ، اختلف في سنة وفاته قيل (١٠١-١٠٢-١٠٣-١٠٤) هـ . طبقات المفسرين للأدنة ص (١١) ، شذرات الذهب (١/٢٢٤) .

(7) عكرمة : هو عكرمة بن عبد الله العلامة المفسر أبو عبد الله البربري ثم المدني مولى عبد الله بن عباس ، ثقة ثبت عالم بالتفسير ، لم يثبت تكذيبه عن ابن عمر ولا يثبت عنه بدعة توفي سنة (١٠٤) هـ .

انظر : سير أعلام النبلاء (٥/١٢-٣٦) ، تهذيب التهذيب (٧/٢٦٣-٢٧٣) .

(8) الكلبي : هو محمد بن السائب بن بشر الكلبي ، أبو النضر الكوفي ، العلامة الإخباري المفسر ، قال عنه الذهبي : (كان رأساً في الأنساب إلا أنه شيعي متروك الحديث)قال ابن العماد : (اجمعوا على تركه ، وقدالهم بالرفض و الكذب) . من مؤلفاته : تفسير الأي الذي نزل في أقوام بأعيانهم . توفي سنة (١٤٦) هـ .

انظر سير أعلام النبلاء (٦/٢٤٨-٢٤٩) ، وشذرات الذهب (١/٣٥٧) .

(9) ابن جبير هو : سعيد بن جبير بن هشام الأسدي ، الفقيه المحدث المفسر ، أخذ العلم عن عبد الله بن العباس و عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، قتله الحجاج سنة (٩٤) هـ . طبقات المفسرين للأدنة وي ص (١٠) ، الشذرات (١/١٩٨) .

(10) في الأصل و (ب) حتى عمل بها . و التصحيح من باقي النسخ .

11 قول مجاهد و عكرمة و سعيد بن جبير : أخرجها ابن جرير في تفسيره (٣٠/٢١١) من طريقين :

قال أرباب هذا القول : قد أقسم الله تعالى بهذه الأشياء التي ذكرها ، لأنها تدل على وحدانيته وعلى فلاح من طهّره وخسارة[١] من خذله حتى لا يظن أحد أنه هو الذي يتولى تطهير نفسه ، وإهلاكها بالمعصية من غير قدر سابق ، وقضاء متقدم)[٢] .

قالوا : وهذا أبلغ في التوحيد الذي سيقت له هذه السورة ، قالوا : ويدل عليه قوله : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا(٨)﴾ ، قالوا : ويشهد له حديث نافع بن عمر[٣] عن ابن أبي مليكة[٤] عن عائشة[٥] [رضي الله عنها][٦] أنها قالت : انتبهت[٧] ليلة فوجدت رسول الله ﷺ وهو يقول : " **ربِّ أَعْطِ نَفْسِي تَقْوَاهَا ، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا ، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا** "[٨].

أحدهما : عن ابن حميد بسنده إلى مجاهد و عكرمة و سعيد بن جبير .

و الثاني : عن أبي كريب بسنده إلى مجاهد وسعيد بن جبير ولم يذكر عكرمة .

وأما قول الكلبي : فقد عزاه السيوطي في الدر المنثور (٨/٥٣٠) إلى عبد بن حميد .

(1) في (م) و (ق) : (خسار) بدل (خسارة) .

(2) ما بين القوسين نقله ابن القيم عن الواحدي في تفسيره البسيط (٢/٨٠٦-٨١٢) ت. الورثان ، بتصرف .

(3) نافع : هو نافع بن عمر بن عبد الله بن جميل الجمحي المكي ، كان محدث مكة ، حافظاً ثبتاً ، و أمه أم ولد ، من كبار السابعة مات سنة (١٦٩) هـ .

تقريب التهذيب ص (٩٩٥) ، الشذرات (١/٣٥٧) .

(4) ابن أبي مليكة : هو عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة – بالتصغير – ابن عبد الله بن جدعان .أدرك ثلاثين من أصحاب النبي صلى الله عليه و سلم ، ثقة فقيه ولي القضاء ، و إمامة المسجد الحرام مات سنة (١١٧) هـ . الشذرات (١/٢٦٧) ، التقريب ص (٥٢٤) .

(5) عائشة : هي الصديقة بنت الصديق أبي بكر بن أبي قحافة رضي الله عنهم أجمعين ، أم المؤمنين ، كانت أحب نساء النبي صلى الله عليه و سلم إليه ، و هي فقيهة من فقهاء الصحابة ، ذكر الذهبي أن مسند عائشة يبلغ (٢٢١٠) . اتفق البخاري و مسلم على (١٧٤) حديثاً ، وانفرد البخاري بـ (٥٤) حديثاً ، ومسلم بـ (٦٩) حديثاً. توفيت سنة (٥٧) هـ كما رجح ذلك ابن حجر . سير أعلام النبلاء (٢/١٣٥-٢٠١) ، الإصابة في تمييز الصحابة (٤/٤٣٨-٤٥٠) .

(6) ما بين المعقوفتين زيادة من (ب) و المطبوع .

(7) في المطبوع : زيادة (نفسي) بعد : (انتبهت) .

(8) الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٦/٢٠٩) من طريق نافع بن عمر بن صالح بن سعيد عن عائشة : أنها فقدت النبي صلى الله عليه و سلم من مضجعه ، فلمسته بيدها فوقعت عليه وهو ساجد وهو يقول ...) الحديث . أما هذه الرواية التي ذكرها ابن القيم فقد أخرجها الواحدي في تفسيره البسيط (٢/٨٠٩) بسنده من طريق رواد بن الجراح عن نافع عن أبي مليكة عن عائشة به . و فيه انقطاع حيث أن رواد بن الجراح ليس من شيوخه نافع فرواد من التاسعة و نافع من كبار السابعة انظر : التقريب ص (٥٥٨) . و الحديث له شاهد من حديث زيد بن الأرقم عند مسلم ح (٢٧٢٢) و عند أحمد في المسند (٤/٣٧١) .

قالوا[١] فهذ الدعاء هو تأويل الآية بدليل الحديث الآخر أن النبي ﷺ كان إذا قرأ : ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا(٩)** ﴾ وقف ثم قال : " **اللهمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا ، أَنْتَ وَلِيّهَا وَمَوْلَاهَا ، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا** . . "[٢] ، .

قالوا : وفي هذا ما يبين أن الأمر كله له سبحانه ، وأنه[٣] خالق النفس وهو ملهمها الفجور والتقوى ، وهو مزكّيها ومدسّيها ، فليس للعبد في الأمر شيء ولا هو مالك من [أمر][٤] نفسه شيئاً[٥] .

قال أرباب القول الأول : هذا القول [و][٦] إن كان جائزاً في العربية حملاً[٧] للضمير المنصوب على معنى من ، وإن كان لفظها[٨] مذكراً كما في قوله (عز وجل)[٩] : ﴿ **وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ**[١٠] ﴾ ، جمع الضمير إن كان لفظ (من) مفرداً حملاً على لفظها[١١] ، فهذا إنما يحسن حيث لا يقع لبس في مفسر الضمائر ، وها هنا قد تقدم لفظ (من) والضمير المرفوع في (زكّاها) يستحقه لفظاً ومعنى ، فهو أولى به ، ثم يعود الضمير المنصوب على النفس التي هي أولى به لفظاً ومعنى ، فهذا هو النظم الطبيعي الذي يقتضيه سياق الكلام ووضعه .

---

(1) في الأصل و (ب) قال .

(2) الحديث أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١١/١٠٦) من حديث يحيى بن عثمان بن صالح عن أبيه عن أبي لهيعة عن عمرو بن دينار وعطاء بن أبي رباح عن ابن عباس . قال صاحب المجمع : رواه الطبراني وإسناده حسن . مجمع الزوائد (٧/١٣٨) .

(3) في (م) و (ق) و المطبوع : (فإنه هو خالق . .) .

(4) ما بين المعقوفتين زيادة من (م)و (ق) و المطبوع .

(5) يؤيد هذا ما أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي الأسود الدؤلي عن عمران بن حصين و فيه : أن رجلين من مزينة أتيا رسول الله ﷺ فقالا : يا رسول الله أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه أشيء قضي عليهم ومضى فيهم من قدر سبق ، أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم و ثبت الحجة عليهم ؟ فقال : (لا ، بل شيء قضي عليهم و مضى فيهم . و تصديق ذلك في كتاب الله عز و جل ﴿ و نفس وما سواها ، فألهمها فجورها و تقواها ﴾) .
صحيح مسلم في (٤٦) كتاب القدر (١) باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه و كتابة رزقه و أجله و عمله و شقاوته ح (٢٦٥٠)

(6) ما بين المعقوفتين زيادة من (م)و (ق) و المطبوع .

(7) في المطبوع : (حاملاً) .

(8) في (ب) : (و إن كان لفظاً مذكراً) .

(9) قوله (عز و جل) سقط من (م) و (ق) و المطبوع .

(10) سورة يونس آية (٤٢) .

(11) في المطبوع : نظمها .



وأما عود الضمير الذي يلي (من) على الموصول السابق ، وهو قوله : ﴿ وما سواها ﴾ ، وإخلاء جاره الملاصق له[1] من عوده إليه ، ثم عود الضمير المنصوب وهو المؤنث[2] على ﴿ من ﴾ ولفظه يذكر[3] دون النفس المؤنثة ، فهذا يجوز لو لم يكن للكلام مَحْمَلٌ غيره أحسن / منه ، فأما إذا كان سياق الكلام ونظمه يقتضي خلافه و لم تدع الضرورة إليه فالحمل عليه ممتنع . [٨/ب]

قالوا : والقول الذي ذكرناه أرجح من جهة المعنى لوجوه :

أحدها : أن فيه إشارة إلى ما تقدَّم من تعليق الفلاح على فِعْلِ العبد واختياره كما هي[4] طريقة القرآن .

الثاني : أن فيه زيادة فائدة وهي إثبات فعل العبد وكسبه وما يثاب ويعَاقَب عليه ، وفي قوله : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ ، إثبات القضاء والقدر السابق فتضمنت الآيتان هذين الأصلين العظيمين[5] وهما كثيراً ما يقترنان في القرآن كقوله : ﴿ كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ(٥٤)فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ(٥٥)وَمَا يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ ﴾[6] ، وقوله : ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ(٢٨)وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾[7] .

---

(1) في (م) : جاره الملاصق له و هو (من) من عوده عليه ، و في (ق) : الملاصق له وهو من عوده ، و في المطبوع : جاره الملاصق له و هو (من) ، ثم عود الضمير .

(2) في (م) و (ق) و المطبوع : مؤنث .

(3) في المطبوع : ولفظه مذكر .

(4) في (ق) : في .

(5) قال شارح الطحاوية : فقوله : ﴿ فألهمها فجورها و تقواها ﴾ إثبات للقدر بقوله : ﴿ فألهمها ﴾ و إثبات لفعل العبد بإضافة الفجور و التقوى إلى نفسه ليعلم أنها هي الفاجرة و المتقية ، وقوله بعد ذلك : ﴿ قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها ﴾ إثبات أيضاً لفعل العبد .

شرح الطحاوية لأبن أبي العز (٦٤٤/٢) .

(6) سورة المدثر الآيات (٥٤-٥٦) .

(7) في (م)و (ق) و المطبوع : تكملة الآية . سورة التكوير الآيتان (٢٨-٢٩) .

فتضمنت الآيتان الرد على القدرية[١] والجبرية[٢] .

الثالث : أن قولنا يستلزم قولكم دون العكس فإن العبد إذا زكّى نَفْسَه وَدَسَّاهَا فإنمـــا[٣] يزَكِّيها بعد تَزْكِية الله لها بتوفيقه وإعانته وإنما يدَسيها بعد تدسية الله لها بخذلانه والتخلية بينه وبين نفسه بخلاف ما إذا كان المعنى على القدر[٤] المحض لم يبق للكسب وفعل العبد ههنا ذكر البتة .



[1] القدرية : هم الذين يخوضون في القدر ، و يذهبون إلى نفيه و إنكاره ، وأول القدرية هو معبد الجهني المقتول ســنة (٨٠) هـــ ، وتبعه على ذلك غيلان بن مسلم الدمشقي المقتول في عهد عبد الملك بن مروان و سميت القدرية بهذا الإسم لإنكارهم القــدر ، يقــول الجرجاني : (القدرية هم الذين يزعمون أن كل عبد خالق لفعله ، ولا يرون الكفر و المعاصي بتقدير الله) . انظر : الفرق بين الفــرق (٩٤) ، التعريفات للجرجاني (١١٦) .

[2] الجبرية : من الجبر ، وهو إسناد فعل العبد إلى الله تعالى . و الجبرية صنفان : الجبرية الخالصة : و هي التي لا تثبت للعبــد فعــلاً ولا قدرة على الفعل أصلاً كجهم بن صفوان و أصحابه ، و الجبرية المتوسطة : وهذه التي تثبت للعبد كسباً في الفعل كالأشعرية .
انظر : الملل والنحل للشهرستاني (١/٩٠) ، التعريفات للجرجاني (١٠١) .

[3] في (ق) زيادة (هو) بعد (فإنما) .

[4] في المطبوع : زيادة (السابق) بعد القدر .

﴿ فصل ﴾

{ الحكمة في تخصيص ثمود بالذكر دون غيرهم }

وذكر في هذه السورة ثمود دون غيرهم من الأمم المكذبة ، قال[١] شيخنا : والله أعلم هذا[٢] من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى ، فإنه لم يكن من[٣] الأمم المكذبة أخفّ ذنباً وعذاباً منهم إذ لم يذكر عنهم من الذنوب ما ذكر عن عاد ومدين ، وقوم لوط وغيرهم . . . ولهذا لما ذكرهم وعاداً قال : ﴿ **فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ** ﴾[٤] ، ﴿ **وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى** ﴾[٥] .

وكذلك إذا ذكرهم مع الأمم المكذبة لم يذكر عنهم ما يذكر عن أولئك من التجبر والتكبر والأعمال السيئة كاللواط ، وبخس المكيال والميزان ، والفساد في الأرض .

كما في سورة هود والشعراء وغيرهما . . فكان في قوم لوط – مع الشرك – إتيان الفواحش[٦] التي لم يسبقوا إليها .

وفي [قوم][٧] عاد – مع الشرك – التجبر والتكبر والتوسع في الدنيا ، وشدة البطش ، وقولهم ، من أشدّ منا قوة ؟ .

وفي أصحاب مدين – مع الشرك – / الظلم في الأموال . [٩/أ]

وفي قوم فرعون الفساد في الأرض والعلو .

وكان عذاب كلّ أمّة بحسب ذنوبهم وجزائهم ، فعذّبت[٨] عادٌ بالريح الشديدة العاتية

---

(1) هكذا في الأصل و (ب) ، وفي (م) و (ق) و المطبوع : فقال .

(2) في (م) و (ق) و المطبوع : هذا – والله أعلم – .

(3) في (م) و (ق) و المطبوع : (في) بدل (من) .

(4) سورة فصلت آية (١٥) .

(5) سورة فصلت آية (١٧) . وفي المطبوع ذكر الآية التي بين هاتين الآيتين .

(6) في (م) و (ق) و المطبوع : (الفاحشة) بدل (الفواحش) .

(7) ما بين المعقوفتين زيادة من (م) و (ق) و المطبوع .

(8) في (م) و (ق) و المطبوع : (فعذب قوم عاد) .

التي لا يقوم لها شيء ، وعذَّبَ قوم لوط بأنواع من العذاب لم يعَذِّب بها أمَّـةً غيرهـم ، وجَمَعَ[١] لهم بين الهلاك والرجم بالحجارة من السماء وطَمْسِ الأبصار ، وقَلَبَ ديارهم عليهم بأن جعل عاليها سافلها ، والخسف بهم إلى أسفل سافلين .

وعَذَّبَ قوم شعيب بالنار التي أحرقتهم وأحرقت تلك الأموال التي كسبوها[٢] بالظلم والعدوان .

وأمَّا ثمود فأهلكهم[٣] بالصيحة ، فماتوا في الحال ، فإذا كان هذا عذابه لهؤلاء وذنبهم مع الشرك عَقْر ناقة واحدة[٤] جعلها الله لهم آية ، فمن انتهك محارم الله واستَخَفَّ بأوامره ونواهيه ، وعَقَرَ عباده وسَفَكَ دماءهم ، كان أشدَّ عذاباً .

ومن اعتبر أحوال [العالم][٥] قديماً وحديثاً ، وما يعَاقَب به من سعى في الأرض بالفساد وسَفَكَ الدماءَ بغيرحقّ ، وأقَامَ الفتنَ واستهانَ بحرمَاتِ الله عَلِمَ أنَّ النجاةَ في الدنيا والآخرة للذين أمنوا وكانوا يتقون[٦] .

قلت : وقد يظهر في تخصيص ثمود بالذكر ههنا دون غيرهم معنىً آخرَ وهـو أنَّهـم رَدّوا الهدَى بعدما تيقنوه وكانوا مستبصرين به ، قد ثلجت له صدورهم واستيقنته أنفسهم فاختاروا عليه العمى و الضلالة كما قال (تعالى)[٧]: ﴿ **وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى** ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ **وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً** ﴾[٨] . أي موجبة لهم التَبَصّرَ واليقين ، وإن كان جميع الأمم المهلكة هذا شأنهم فإن الله لم يهلك أمة إلا بعد قيام الحجة عليها ، لكن

[٩/ب]

(1) في المطبوع : (فَجَمَعَ) بدل (وجَمَعَ) .
(2) في المطبوع : (اكتسبوها) .
(3) في المطبوع : (فأهلكوا) .
(4) في (م) و (ق) و المطبوع : (عقر الناقة التي جعلها . . .) .
(5) سقط من الأصل و (ب) و مثبت في باقي النسخ .
(6) مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ و نجينا الذين أمنوا و كانوا يتقون ﴾ سورة فصلت آية (١٨) .
(7) سقط من (م) و (ق) و المطبوع .
(8) الإسراء الآية (**٥٩**) .



خصَّت ثمود من ذلك : الهدى والبصيرة بمزيد ، ولهذا لما قرنهم[١] بعاد قال : ﴿ **فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ** ﴾ الآية ، ثم قال : ﴿ **وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا / الْعَمَى عَلَى الْهُدَى** ﴾ .

ولهذا أمكن عاداً المكابرة ، وأن يقولوا لنبيهم : ﴿ **مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ** ﴾[٢] ، ولم يمكن ذلك ثمود ، وقد رأوا البينة عياناً ، وصارت لهم بمنزلة رؤية الشمس والقمر ، فردوا الهدى بعد تيقنه والبصيرةِ التامَّة به[٣] ، فكان في تخصيصهم بالذّكْر تحذيرٌ لكل من عَرَفَ الحقَّ ولم يتبعه ، وهذا داء أكثرِ الهالكين وهو أعمّ الأدواء وأغلبها على أهل الأرض والله (سبحانه)[٤] أعلم .



---

(1) في (م) و (ق) و المطبوع : زيادة (قوم) .

(2) سورة هود آية (٥٣) .

(3) قوله : (به) سقط من المطبوع .

(4) قوله : (سبحانه) سقط من (م) و (ق) و المطبوع .

فصل

{ القسم في سورة الفجر }

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَالْفَجْرِ(١)وَلَيَالٍ عَشْرٍ(٢)وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ(٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ(٤)هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ(٥) ﴾[1] ، قيل جوابه قوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ(١٤) ﴾[2][3] . وهذا ضعيف لوجهين :

أحدهما : طول الكلامِ والفصْلِ بين القَسم وجوَابه بجملٍ كثيرة .

والثاني : أنَّ[4] قوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ(١٤) ﴾ .ذكرَ تقريراً[5] لعقوبة الله الأمم المذكورة ، وهي : عاد وثمود وفرعون فذكر عقوبتهم ثم قال مقرراً محذراً : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ(١٤) ﴾ . فلا[6] ترى تعلّقه[7] بذلك دون القسم .

وأحسن من هذا أن يقال : إن الفجر والليالي[8] العشر زمن يتضمن أفعالاً معَظَّمَةً ، (والعشر هو عشر ذي الحجة ، وهو يتضمن أفعالاً معظمة)[9] من المناسك وأمكنة معظمة وهي : مَحَلّهَا وذلك من شعائر الله المتضمنةِ خضوعَ العبد لربِّه ، فإن الحج والنسك عبودية

---

(1) سورة الفجر الآيات (١-٥) .

(2) سورة الفجر آية (١٤)

(3) وممن قال بهذا القول : الزجاج في معانيه (٣٢١/٥) ، و الواحدي في الوسيط (٤٨١/٤) و البغوي في تفسيره (٤١٧/٨) و قيل : إن جوابه محذوف تقديره : (لتجازين كل أحد بعمله) ، بدليل تعديده ما فعل بالقرون الخالية ، و قدَّره الزمخشري : (ليعذبن) ، وقدره أبو حيّان : بما دلّت عليه خاتمة السورة قبله أي : لإيابهم إلينا وحسابهم علينا .
انظر : الكشاف (٧٤٧/٤) ، البحر المحيط (٤٦٨/٨) ، والدر المصون (٧٧٧/١٠) .

(4) سقط من (م) و (ق) و المطبوع .

(5) في المطبوع : (ذكر لتقرير عقوبة . . .) .

(6) في (م) و (ق) : أفلا .

(7) في (ق) : تعليقه .

(8) في المطبوع : (إن الفجر في الليالي العشر . . .) .

(9) ما بين القوسين سقط من (م) و (ق) و المطبوع .

مَحْضَةٌ لله ، وذل وخضوع لعظمته ، وذلك ضد ما وصف به عاداً وثمود وفرعون من العتوِّ والتكبّرِ والتجبّرِ فإن النسك يتضمن غاية الخضوع لله ، وهؤلاء الأمم عتوا وتكبروا عن أمر ربهم .

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس[1] عن النبي ﷺ قال : " **مَا مِنْ أَيَّامِ العَمَلِ الصَّالِحِ [فيهنّ]**[2] **أحَب إلى الله مِنْ هَذهِ الأَيَّامِ العَشْرِ . قيل : يا رسول الله ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال : وَلاَ الجِهَاد في سَبيلِ الله**[3] **إلا رَجلٌ خَرَجَ بِنَفْسِه وَمَاله ثُمّ**[4] **لَمْ يَرْجِعْ مَنْ ذَلكَ بِشَيءٍ** "[5] . فالزمان المتضمن لمثل هذه الأعمال أهل أن يقسم الله[6] عز وجل به .

﴿ **وَالْفَجْرِ** ﴾ إن أُرِيدَ / به جنس الفجر[7] كما هو ظاهر اللفظ فإنه يتضمن وقت صلاة [١٠/أ] الصبح التي هي أوَّل الصلوات ، فافتتح القسم بما يتضمن أوَّلَ الصلوات ، وختَمَه بقوله : ﴿ **وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ** ﴾ المتضمنِ لآخرِ الصلوات .

وإن أُريدَ بالفَجْرِ فجر مخصوص[8] فهو فجر يوم النحر وليلته التي هي ليلة عرفة ، فتلك الليلة من أفضل ليالي العام ، " **وما رؤي الشيطان في ليلة أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه فيها** "[9] .

---

(1) في المطبوع زيادة قوله (رضي الله عنهما) .

(2) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل و (ب) .

(3) قوله : (في سبيل الله) سقط من (م) و (ق) .

(4) قوله : (ثم) سقط من المطبوع .

(5) أخرجه البخاري في (١٣) كتاب العيدين ، (١١) باب فضل العمل في أيام التشريق . ح (٩٦٩) و لفظه : (ما العمل في أيام العشر أفضل من العمل في هذه . قالوا : و لا الجهاد ؟ قال : (و لا الجهاد ، إلا رجل خرج يخاطر بنفسه و ماله فلم يرجع بشيء) .

(6) في (م) و (ق) والمطبوع : (الرب) بدل لفظ الجلالة (الله) .

(7) كما روي ذلك عن ابن عباس ، و عكرمة و زيد بن أسلم ومحمد بن كعب والأسود بن يزيد .انظر : جامع البيان (١٦٨/٣٠) ، وتفسير البسيط (٧٣٣/٢-٧٣٤) ت. الورثان ، النكت و العيون (٢٦٥/٦) و معالم التتريل (٤١٥/٨) ، زاد المسير (١٠٣/٩)

(8) و هو مروي أيضاً عن ابن عباس من رواية عطاء ، و هو قول قتادة و الضحاك ومجاهد . انظر : البسيط للواحدي (٧٣٤/٢) ، معالم التتريل (٤١٥/٨) ، زاد المسير (١٠٣/٩) ، الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ٣٨-٣٩) .

(9) جزء من حديث أخرجه مالك عن طلحة بن عبيد الله بن كريز مرسلاً ح (٩٥٤) ص (٢٩١) ، ولفظه عنده : " ما رؤي الشيطان يوماً هو فيه أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه في يوم عرفة . . . " الحديث . و عن مالك أخرجه عبد الرزاق في مصنفه في كتاب الحج باب فضل الحج ح (٨٨٣٢) و لفظه عنده : " ما يوم ابليس فيه أدحر ولا أوهق ولا هو أغيظه من يوم عرفة " وأخرجه ابن نافع في معجم الصحابة (١٠٧/٢) من حديث إبراهيم بن أبي علبة عن عبدالله بن عمر بن أم حرام موصولاً ورواه عن

وذلك الفجر فجر يوم النحر ، الذي هو أفضل الأيام عند الله كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : " **أفضل الأيام عند الله يوم النحر** "(١) رواه أبو داود بإسناد صحيح . وهو آخر أيام العشر ، وهو يوم الحج الأكبر كما ثبت في صحيح البخاري وغيره(٢) ، وهو اليوم الذي أذن فيه مؤذن رسول الله ﷺ : " **أن الله بريء من المشركين ورسوله ، وأن لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان** "(٣) . .

ولا خلاف أنَّ المؤذن أذن بذلك في يوم النحر ، لا في(٤) يوم عرفة ، وذلك بأمر رسول الله ﷺ امتثالاً وتأويلاً للقرآن(٥) .

وعلى هذا قد(٦) تضمن المقسم المناسك والصلوات وهما المختصتان(٧) بعبادة الله والخضوع له ، والتواضع لعظمته ، ولهذا قال الخليل(٨) : ﴿ **إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي**

مالك أيضاً يحيى بن بكير عند البيهقي في شعب الإيمان (٢٥) باب في المناسك ، فضل الوقوف بعرفات ح (٤٠٦٩) وقال البيهقي : أخبرناه أبو عبدالله الحافظ في موضوع آخر قال : وقد كتبناه من حديث أبي الدرداء متصلاً . قال أبو علي الحافظ : أخبرناه عبدالله بن وهب الديبوري . أحمد بن أيوب بن سويد عن أبيه عن إبراهيم بن أبي عبلة عن طلحة عن أبي الدرداء .

انظر أيضاً / شعب الإيمان (٣/٤٦١) .

وقال ابن عبدالبر : ومن هذا الحديث محفوظ من وجوه كثيرة . التمهيد (١/١١٦) .

(1) أخرجه أبو داود في (٧) كتاب المناسك ، (١٧) باب في الهدى إذا عطب قبل أن يبلغ ح (١٧٦٢) عن عبد الله بن قرط و لفظه : " إن أعظم الأيام عند الله يوم النحر . . .) ، و أحمد في المسند (٤/٣٥٠) ، والحاكم في المستدرك في (٤١) كتاب الأضاحي ، (١) باب أعظم الأيام عند الله يوم النحر ثم يوم القرّ ، ح (٧٥٩٧) و قال : هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه ، و البيهقي في السنن الكبرى في كتاب الحج باب نحر الإبل قياماً غير معقولة ، أو معقولة اليسرى (٥/٢٧٣) ، و ابن حبان في صحيحه في (٩) كتاب الصلاة ، (٣١) باب العيدين ح (٢٨١١) ، ولكن من طريق يحيى بن سعيد عن ثور عن راشد بن سعد ، عن عبد الله بن الحي ، عن عبد الله بن قرط به . ولكم ورد عند البيهقي و ابن حبان (أفضل) بدلاً من (أعظم) . و الحديث إسناده صحيح .

(2) كما أورده البخاري من قول حميد بن عبد الرحمن حيث يقول : (يوم النحر يوم الحج الأكبر) من أجل حديث أبي هريرة . صحيح البخاري : (٦٥) كتاب التفسير (٩) سورة براءة ، (٤) باب (إلا الذين عاهدتم من المشركين) ح (٤٦٥٧) ومسلم في (١٥) كتاب الحج (٧٨) باب لا يحج البيت مشرك ح (١٣٤٧) .

(3) أخرجه البخاري في مواضع من صحيحه أحدها : (٨) كتاب الصلاة ، (١٠) باب ما يستر من العورة ح (٣٦٩) ، ومسلم في (١٥) كتاب الحج ، (٧٨) باب لا يحج البيت مشرك و لا يطوف بالبيت عريان ، وبيان يوم الحج الأكبر ح (١٣٤٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(4) قوله : (في) سقط من المطبوع .

(5) في قول الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا . ﴾ الآية . سورة التوبة آية (٢٨)

(6) في المطبوع : (فقد) .

(7) في المطبوع : (المختصان) .

(8) في المطبوع : زيادة (عليه السلام) .

لله رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٦٢)لَا شَرِيكَ لَهُ ﴾[١] ، وقيل لخاتم الرسل[٢] : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ(٢) ﴾[٣] ، بخلاف حال المشركين المتكبرين الذين لا يعبدون الله وحده بل يشركون به ، ويستكبرون عن عبادته ، كحال من ذكر في هذه السورة ، من قوم عاد وثمود ، وفرعون .

وذكر سبحانه من جملة هذه الأقسام : (الشفع والوتر) ، إذ هذه الشعائر المعظمة منها شفع ، ومنها وتر في الأمكنة ، والأزمنة ، والأعمال .

فالصفا والمروة شفع ، والبيت وتر ، والجمرات وتر ومنى مزدلفة شفع [و عرفة وتر و أما الأعمال فالطواف وتر ، وركعتاه شفع][٤] .

والطواف بين الصفا والمروة وتر ورمي الجمار وتر / ، كل ذلك سبع سبع ، وهو الأصل ، [١٠/ب] فإن الله وتر ، يحب الوتر .

والصلوات[٥] منها شفع ومنها وتر ، والوتر يوتر الشفع فتكون كلها وتراً ، كما قال النبي ﷺ : " **المغرب وتر النهار ، فأوتروا صلاة الليل** " رواه أحمد[٦] . وفي الصحيح عنه ﷺ قال : " **صلاة الليل مثنى مثنى فإن خشيت الصبح فأوتر بواحدة ، توتر لك ما قد صليت** "[٧] .

وأما الزمان فإن يوم عرفة وتر ، ويوم النحر شفع ، وهذا قول أكثر المفسرين[٨] .

---

(1) سورة الأنعام الآيتان (١٦٢-١٦٣) . و في (م) و (ق) و المطبوع : من غير ذكر (لا شريك له) .

(2) في المطبوع : زيادة (ﷺ) .

(3) سورة الكوثر آية (٢) .

(4) سقط من الأصل . ومثبت في باقي النسخ .

(5) في المطبوع : والصلاة .

(6) أخرجه الإمام في مواضع من مسنده من حديث ابن عمر ولفظه : (صلاة المغرب وتر صلاة النهار فأوتروا صلاة الليل) . انظر : مسند أحمد (٢/ ٣٠-٤١-٨٣-١٥٤) ، و أخرج أيضاً بلفظ آخر عن عائشة رضي الله عنها قالت : قد فرضت الصلاة ركعتين ركعتين . . . إلى أن قالت : إلا المغرب فإنها وتر النهار . .) الحديث المسند (٦/ ٢٤١-٢٦٥) . كما أخرجه بلفظ مقارب له مالك في الموطأ في (١) كتاب الصلاة (٧٣) الأمر بالوتر ، ح (٣٢٨) عن ابن عمر موقوفاً ولفظه : (صلاة المغرب وتر صلاة النهار) .

(7) أخرجه البخاري في عدة مواضع من صحيحه : أحدها : في (٨) كتاب الصلاة ، (٨٤) باب الحلق والجلوس في المسجد ح (٤٧٣) و مسلم في (٦) كتاب صلاة المسافرين و قصرها (٢٠) باب صلاة الليل مثنى مثنى و الوتر ركعة من آخر الليل ح (٧٤٩) من حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما .

(8) انظر : معاني القرآن للفراء (٣/ ٢٥٩) ، معاني الزجاج (٥/ ٣٢١) ، جامع البيان (٣٠/ ١٧٠) ، زاد المسير (٩/ ١٠٤) ، الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ٤٠) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٠٥) وغيرها .

وروى مجاهد عن ابن عباس : والوتر آدم ، وشفع بزوجته حواء[١] .وقال في رواية أخرى الشفع آدم وحواء الوتر الله وحده[٢] .

وعنه رواية ثالثة : الشفع يوم النحر (والوتر ثلاثة أيام بعده[٣] . وقال ابن الزبير[٤] : الشفع يومان بعد يوم النحر)[٥] ، والوتر اليوم الثالث[٦] .

وقال عمران بن حصين[٧] وقتادة[٨] : الشفع والوتر هي الصلاة[٩] ،وروى فيه حديثاً مرفوعاً[١٠] .

---

[1] انظر : تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص (٥٢٦) ، البسيط للواحدي (٧٤٠/٢) ت. الورثان ، بحر العلوم للسمرقندي (٤٧٥/٣) ، الجامع لأحكام القرآن (٢٠ /٤٠) .

[2] و هي رواية عطاء عنه كما في البسيط (٧٤٠/٢) ت. الورثان ، وانظر : الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ٤٠) ، فتح القدير للشوكاني (٥٠٦/٥) .

[3] كما هي رواية الكلبي عنه كما ذكره الواحدي في البسيط (٧٤٠/٢) ت. الورثان ، و ذكره القرطبي في جامعه منسوباً إلى عطاء . انظر : الجامع لأحكام القرآن (٤٠/٢٠) .

[4] ابن الزبير : هو عبد الله بن الزبير بن العوام ، أبو بكر و أبو حبيب القرشي الأسدي ، المكي المدني ، كان أول مولود للمهاجرين في المدينة ، له صحبة و عداده في صغار الصحابة ، كان كبيراً في العلم والشرف و الجهاد و العبادة ، توفي في خلافة عبد الملك بن مروان قتلاً بيد الحجاج بن يوسف الثقفي سنة (٧٣) هـ .
انظر : أسد الغابة (٢٤٢/٣) ، الإصابة (٦٩/٤) .

[5] ما بين القوسين سقط من المطبوع .

[6] انظر : النكت و العيون (٢٦٦/٦) ، البسيط (٧٤٠/٢) ، معالم التتريل (٤١٦/٨) زاد المسير (١٠٦/٩) .

[7] عمران : هو عمران بن حصين بن عبيد بن خلف ، أبو نجيد الخزاعي ، أسلم يوم خيبر ، غزا عدة غزوات ، كان من علماء الصحابة و فقهائهم . بعثه عمر إلى أهل البصرة ليفقههم . روى عنه : مطرف بن عبدالله بن الشخير ، والحسن وابن سيرين والشعبي ، وغيرهم . كانت الملائكة تسلم عليه . توفي سنة (٥٢) هـ بالبصرة في خلافة معاوية رضي الله عنهم أجمعين .
انظر : طبقات ابن سعد (٢٨٧/٤-٢٩١) ، الاستيعاب (١٢٠٨/٣) .

[8] أخرج قول قتادة الطبري في تفسيره (١٧١/٣٠) ، وحسّن إسناده صاحب التفسير الصحيح (٦٢٧/٤) ، وذكره البغوي في تفسيره (٤١٦/٨) ، ابن الجوزي في زاد المسير (١٠٦/٩) ، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥٠٢/٨) وقال أخرجه بن حميد .

[9] أخرج قول عمران : عبد الرزاق في تفسيره (٣٧٠/٢) ، و ابن جرير في جامعه (١٧١/٣٠) و اسناده حسن كما قال ذلك د.حكمت بشير في التفسير الصحيح (٦٧١/٤) ، وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٥٢/٨) إلى عبد بن حميد .

[10] وهو عن عمران بن حصين أن النبي صلى الله عليه و سلم سئل عن الشفع و الوتر فقال : ((هي الصلاة بعضها شفع و بعضها وتر)) . و الحديث أخرجه الترمذي في جامعه (٤٨) كتاب تفسير القرآن (٧٩) باب و من سورة الفجر ، و قد ضعف اسناده الألباني رحمه الله كما في ضعيف سنن الترمذي (٦٦١) ، وقد أخرجه أيضاً أحمد في مسنده (٤٣٧/٤-٤٣٨-٤٤٢) ، والحاكم في مستدركه في (٢٨) كتاب التفسير باب تفسير سورة الفجر ح (٣٩٨٣) و قال : صحيح الإسناد ووافقه الذهبي ، وأخرجه أيضاً ،

وقال عطية العوفي[١] : الشفع : الخلق ، قال الله تعالى : ﴿ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا(٨) ﴾[٢] ، والوتر هو الله[٣] .

وهذا قول الحكم[٤] ، قال : كل شيء شفع [و الله وتر[٥] .

و قال أبو صالح[٦] : خلق الله من كل زوجين اثنين][٧] ، والله وتر وحد[٨] ، وهذا قول مجاهد[٩] ومسروق[١٠] .

ابن جرير في تفسيره (١٧٢/٣٠) ، وابن أبي حاتم كما نقله عنه ابن كثير (٤/ ٥٠٦) ، وفي اسناده عمران بن عصام لم يوثقه غير ابن حبان و قد قال ابن كثير : و عندي أن وقفه على عمران بن حصين أشبه والله أعلم .

(1) العوفي : هو عطية بن سعد بن جنادة العوفي الكوفي ، أبو الحسن ، صدوق يخطئ كثيراً ، وقال ابن سعد : (كان ثقة) ، روى عن أبي سعيد ، روى عنه ابناه عمرو و الحسن ، وكان شيعياً مدلساً مات سنة (١١١) هـ .

انظر : طبقات ابن سعد (٣٨٢/٦) الكاشف (٢٦٩/٢) ، وتقريب التهذيب ص (٣٩٣) .

(2) سورة النبأ آية (٨) .

(3) عزاه إليه : الواحدي في البسيط (٧٣٩/٢) ت. الورثان ، والبغوي في تفسيره (٤١٦/٨) .

(4) الحكم : لعله الحكم ابن أبان : و هو الحكم ابن أبان العدني أبو عيسى صدوق عابد وله أوهام ، و قال الذهبي : (ثقة صاحب سنة كان سيد أهل اليمن) ، روى عن طاووس و عكرمة ووهب بن منبه . روى عنه : ابنه ابراهيم و اسماعيل بن علية ، وسفيان بن عينية مات سنة (١٥٤) هـ .

انظر : الثقات لابن حبان (١٨٥/٦) ، الكاشف (٢٤٤/١) ، تقريب التهذيب ص (١٧٤) .

(5) نسبه إليه الواحدي في البسيط (٧٤١/٢) ت. الورثان .

(6) أبو صالح : باذام ويقال : باذان مولى أم هانئ بنت أبي طالب بن عبد المطلب ، تابعي روى عن علي ، وابن عباس و غيرهما ، و عنه : الأعمش و الثوري و اسماعيل بن أبي خالد . قال ابن معين : ليس به بأس ، وقال ابن القطان : لم أر أحداً من أصحابنا تركه و قال ابن حجر : ضعيف مدلس من الثالثة . و قد ذكر الذهبي أن أبا صالح باذام من طبقة أبي صالح السمان و لكنه توفي بعده بنحو من عشرين سنة و قد توفي السمان سنة (١٠١) هـ .

انظر : طبقات ابن سعد (٣٠٢/٥) ، سير أعلام النبلاء (٣٧/٥-٣٨) ، تهذيب التهذيب (٤١٦/١-٤١٧) .

(7) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل و هو مثبت في (ب) و (م) و (ق) و المطبوع .

(8) عزاه إليه الواحدي في البسيط (٧٣٩/٢) ت. الورثان ، والبغوي في تفسيره (٤١٦/٨) .

(9) أخرجه الطبري بسنده إلى مجاهد جامع البيان (١٧١/٣٠) و إسناده صحيح كما قال صاحب التفسير الصحيح (٦٢٧/٤) ، و قد ذكره عنه أيضاً : الواحدي في البسيط (٧٤٢/٢) ، والبغوي في تفسيره (٤١٧/٨) ، وابن الجوزي في زاد المسير (١٠٦/٩) .

(10) مسروق : هو مسروق بن الأجدع بن مالك الهمداني الوادعي ، أبو عائشة الكوفي ، روى عن أبي بكر و عمر وعثمان و علي وابن مسعود و عائشة وغيرهم رضي الله عنهم ، روى عنه أبو وائل و الشعبي وإبراهيم النخعي وغيرهم وهو ثقة فقيه عابد مخضرم روى له الجماعة . توفي سنة (٦٣) هـ .

انظر : سير أعلام النبلاء (٣ / ٢٦٥) ، تهذيب التهذيب (١٠٩/١٠-١١١) .

قال الحسن : الشفع والوتر العدد كله منه شفع و [منه] [١] وتر [٢] .

وقال ابن زيد[٣] : الشفع والوتر : الخلق كله منه شـفع و [منه] [٤] وتر[٥]، وقال مقاتل[٦]: شفع الأيام والليالي والوتر اليوم الذي لا ليلة بعده[٧]، وهو يوم القيامة [٨].

وذكِرَتْ أقْوالٌ أخر هذه أصولها .ومدارها كلّها على قولين :

أحدهما : أن الشفع والوتر نوعا المخلوقات والمأمورات[٩] .

---

[1] ما بين المعقوفتين سقط من الأصل و هو مثبت في جميع النسخ و في تفسيره البسيط (٧٤٢/٢) حيث نقله ابن القيم عنه ، وفي المطبوع : (العدد كله من شفع ووتر) .

[2] أخرجه الطبري بسنده إلى الحسن ، جامع البيان (١٧٢/٣٠) . وذكر هذا القول أيضاً و نسبه إلى الحسن : الماوردي في النكت و العيون (٢٦٦/٦) ، والبغوي في تفسيره (٤١٧/٨) ، وابن الجوزي في زاد المسير (١٠٦/٩) ، والقرطبي في تفسيره (٤١/٢٠) ، و السيوطي في الدر المنثور (٥٠٢/٨) و عزاه إلى عبد بن حميد ، و الشوكاني في فتح القدير (٥٠٦/٥)

[3] ابن زيد : هو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم العمري المدني ، أخو أسامة ، وعبد الله ، كان صاحب قرآن و تفسير ، جمع تفسيراً في مجلد و كتاباً في الناسخ و المنسوخ ، روى عن أبيه و ابن المذكور و أبي حازم ، وعنه ابن وهب ووكيع و عبد الرزاق وابن عيينة وغيرهم ضعفه يحيى بن معين و النسائي و ابن المديني و غيرهم ، توفي سنة (١٨٢) هـ . انظر : سير أعلام النبلاء (٣٤٩/٨) ، ميزان الاعتدال (٢٧٨/٣-٢٨٠) .

[4] ما بين المعقوفتين سقط من الأصل ، و هو مثبت في باقي النسخ و في البسيط حيث نقله عنه .

[5] نسبه إلى ابن زيد : الواحدي في البسيط (٧٤٢/٢) ، البغوي في معالم التنزيل (٤١٧/٨) ، وابن الجوزي في زاد المسير (١٠٦/٩) .

[6] مقاتل هنا هو ابن حيان : و هو مقاتل بن حيان أبو بسطام البلخي ، الخراز ، الإمام العالم المحدث الثقة ، قيل أنه هرب أيام أبي مسلم الخراساني إلى كابل فدعا الناس إلى الإسلام فأسلم على يديه خلق كثير ، حكى أبو الفتح الأزدي أن وكيعاً كذبه ورد عليه الذهبي بقوله : (فإبن حيان صدوق قوي الحديث و الذي كذبه فأبن سليمان) ووثقه ابن معين . توفي قبل سنة (١٥٠) هـ . انظر : الجرح و التعديل (٣٥٣/٨) ، ميزان الاعتدال (١٧١/٤) .

[7] انظر : البسيط (٧٤٢/٢) ، زاد المسير (١٠٦/٩) ، الجامع لأحكام القرآن (٤١/٢٠) ، فتح القدير (٥٠٦/٥) قال ابن جرير (١٧٢/٣٠) بعد سرده الأقوال في الشفع والوتر :

" والصواب من القول في ذلك أن يقال : إن الله تعالى ذكره أقسم بالشفعوالوتر ، ولم يخصص نوعاً من الشفع ولا من الوتر دون نوع بخبر ولا عقل ، وكل شفع ووتر فهو مما أقسم به مما قال أهل التأويل أنه داخل في قسمه هذا العموم قسمه بذلك " .

[8] الأقوال السابقة كلها نقلها ابن القيم عن الواحدي في تفسيره البسيط انظر : (٧٣٩/٢-٧٤٢) .

[9] في (ب) و المطبوع : (نوعان للمخلوقات و المأمورات) .

والثاني : أن الوتر الخالق ، والشفع المخلوق ، وعلى هذا القول فيكون قد جمع في القسم بين الخالق والمخلوق ، فهو نظير ما تقدم في قوله : ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا(١)﴾ ، وفي قوله[1] : ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ(٣) ﴾[2] ، وفي قوله[3] : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى(١)﴾ ، إلى قوله : ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى(٣) ﴾[4] ، وقال ههنا : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ(٤) ﴾[5] ، وفي سورة المدثر أقسم بالليل إذا أدبر ، وفي سورة التكوير أقسم بالليل إذا (عسعس)[6] / وقد فسر بأقبل ، وفسر بأدبر فإن كان المراد إقباله فقد أقسم بأحوال الليل الثلاثة وهي حالة إقباله وحالة امتداده وسريانه وحالة إدباره ، وهي من آياته الدالة عليه سبحانه[7] .

وعرَّف الفجر باللام إذ كل أحد يعرفه ، ونكَّر الليالي العشر لأنها إنما تعرف بالعلم ، وأيضاً : فإن في التنكير تعظيماً لها[8] ، فإن التنكير يكون للتعظيم .

وفي تعريف الفجر ما يدل على شهرته ، وأنَّه الفجر الذي يعرفه كل أحدٍ ولا يجهله .

فلما تضمَّن هذا القسم تعظيم[9] ما جاء به إبراهيم ومحمد صلى الله عليه وسلم كان في ذلك ما دلَّ على المقسم عليه ، ولهذا عقّب[10] القسم بقوله ﴿ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ(٥) ﴾ فإن عظمة هذا المقسم به يعرف بالنبوة ، وذلك يحتاج إلى حجر يحجر[11]

---

(1) في (م) و (ق) و المطبوع : (ونظير ما ذكر في قوله) .

(2) سورة البروج آية (٣) .

(3) في (م) و (ق) و المطبوع : (ونظير ما ذكر في قوله) .

(4) في (م) و (ق) و المطبوع : ذكر الآية الثانية : ﴿ و النهار إذا تجلى ﴾ .

(5) سورة الفجر آية (٤) .

(6) في الأصل : (غسق) . وفي باقي النسخ و المطبوع : (عسعس) . وهو الصواب .

(7) قال ابن جرير في تفسيره (٣٠/٧٩) : (و أولى التأويلين في ذلك بالصواب عندي قول من قال : معنى ذلك : إذا أدبر ، وذلك لقوله : ﴿ والصبح إذا تنفس ﴾ فدل بذلك على أن القسم بالليل مدبراً ، وبالنهار مقبلاً ، والعرب تقول : عسعس الليل ، و سعسع الليل إذا أدبر ، و لم يبق منه إلا اليسير . .) .

(8) في المطبوع : (فإن التنكير تعظيم لها) .

(9) سقط من المطبوع .

(10) في المطبوع : (اعتبر) .

(11) في المطبوع : (بحجر صاحبه)

صاحبةَ عن الغفلة واتِّباَعِ الهوى ، ويحمله على اتِّباَعِ الرسلِ لئلا يصيبه ما أصابَ من كذَّب الرسل كعاد وفرعون وثمود .

ولما تضمّن ذلك مدحَ الخاضعين والمتواضعين ذَكَرَ بعد ذلك[١] حال المتكبرين[٢] المتجبرين الطاغين ، ثم أخبر أنه صب عليهم سوط عذاب ، (أي سوطاً من عذاب)[٣] ، ونكره إما للتعظيم ، وإما لأن يسيراً من عذابه استأصلهم وأهلكم ، و لم يكن لهم[٤] معه بقاءٌ ولا ثبات .

ثم ذكر حال الموسع عليهم في الدنيا ، والمقتر عليهم ، وأخبر أن توسعته على من وسع عليه ، وإن كان إكراماً له في الدنيا فليس ذلك إكراماً على الحققة ، ولا يدل على أنه كريم عنده ، (ولا هو)[٥] من أهل كرامته ومحبته ، وأن تقتيره على من قتر عليه لا يدل على إهانته له وسقوط مترلته عنده ، بل يوسع ابتلاء وامتحاناً ، ويقتر ابتلاءً وامتحاناً ، فيبتلي بالنعم كما يبتلي بالمصائب ، وهو سبحانه يبتلي عبده بنعمة تجلب له أخرى ، وبنعمة تجلب له نقمة ، وبنقمة تجلب له أخرى ، وبنقمة تجلبه / له نعمه[٦] فهذا شأن نعمه ونقمه سبحانه . [١١/ب]

وتضمَّنت هذه السورة ذَمّ من اغترَّ بقوته وسلطانه وماله وهم هؤلاء الأمم الثلاثة : قوم عاد . اغتروا بقوهّم ، وثمود اغتروا بجناهم وعيوهم وزروعهم ، وبساتينهم ، وقوم فرعون اغتروا بالمال والرياسة ، فصارت عاقبتهم[٧] ما قص الله علينا ، وهذا شأنه دائماً مع كلّ من اغترَّ بشيء من ذلك ، لا بدَّ أن يفسده عليه ويسلبه إياه .

---

(1) قوله : (بعد ذلك) سقط من المطبوع .

(2) في المطبوع : (المستكبرين) .

(3) ما بين القوسين سقط من المطبوع .

(4) قوله : (لهم) سقط من المطبوع .

(5) ما بين القوسين سقط من المطبوع .

(6) في (م) : (يبتلي عبده بنعمة تجلب له نقمة ، و بنقمة تجلب له نعمة ، و بنقمة تجلب له نقمة أخرى ، وبنعمة تجلب له نعمة أخرى) .

وفي (ق) : (يبتلي عبده بنعمة تجلب له نعمة أخرى ، و بنقمة تجلب له نقمة أخرى . .) .

وفي المطبوع : (وسبحانه هو يبتلي عبده بنعمة تجلب له نقمة ، و بنعمة تجلب له نعمة أخرى ، و بنقمة تجلب له نقمة أخرى ، وبنقمة تجلب له نعمة) .

(7) في (م) و (ق) و المطبوع زيادة : (إلى) بعد عاقبتهم .

ثم ذَكَرَ سبحانه حال الإنسان في معاملته مع من[١] هو أضعف منه كاليتيم والمسكين فلا يكرم هذا ، ولا يحض على إطعام هذا ، ثم ذكر حرص الإنسان[٢] على جمع المال وحبه له وذلك هو الذي أوجب[٣] عدم رحمته لليتيم والمسكين .

ثم ختم السورة بمدح النفس الطيبة ، وهي الخاشعة المتواضعة لربها وما تؤول إليه من كرامته ورحمته كما ذكر قبلها حال النفس الأمارة وما تؤول إليه من شدة عذابه ووثاقه .



---

(1) في (م) و (ق) والمطبوع : (لمن) بدل (مع من) .

(2) في المطبوع : (ثم ذكر حرصه على جمع المال) .

(3) في (م) و (ق) و المطبوع : زيادة : (له) بعد أوجب .

فصل

{ القسم في سورة البلد }

وأما سورة ﴿ لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ(١) ﴾[1] ، فذكر فيها جواب القسم وهو قوله : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ(٤) ﴾[2] ، وفسِّر الكَبَد بالاستواء وانتصاب القامة .

قال ابن عباس في رواية مقْسَم[3] عنه : مستقيم[4] منتصب على قدميه[5] ، وهذا قول أبي صالح[6] والضحاك[7] وإبراهيم[8] وعكرمة[9] وعبدالله بن شداد[10] .

---

(1) سورة البلد آية (١) .

(2) سورة البلد آية (٤) .

(3) مقسم : هو مقسم بن بجرة ، ويقال : ابن نجدة ، أبو القاسم ، روى عن ابن عباس ، ويقال له : مولى ابن عباس للزومة له ، صدوق و كان يرسل مات سنة (١٠١) هـ روى له الجماعة إلا مسلم . انظر : تقريب التهذيب ص (٥٤٥) .

(4) في (م) و (ق) و المطبوع : (في رواية مقسم : منتصباً على قدميه) ، و في البسيط (٧٧٥/٢) : في رواية مقسم : قائماً على قدميه منتصباً .

(5) أخرجه سعيد بن منصور و ابن المنذر و ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (٥١٩/٨) ، و عزاه إليه أيضاً في البسيط (٧٧٥/٢) و في البحر المحيط (٤٧٥/٨) و في تفسير ابن كثير (٥١٢/٤) .

(6) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره بسنده (١٩٧/٣٠) . وذكر قوله أيضاً في : المحرر الوجيز (٣٠٤/١٦) ، البحر المحيط (٤٧٥/٨) .

(7) الضحاك : هو الضحاك بن مزاحم الهلالي أبو القاسم أو أبو محمد الخراساني ، روى عن ابن عباس و ابن عمر و سعيد بن جبير ، روى عنه : مقاتل و عمر بن الرماح و قرة بن خالد . مات سنة (١٠٥) هـ .

انظر : طبقات ابن سعد (٣٠٠/٦) ، سير أعلام النبلاء (٥٩٨/٤) .

و أما قوله فقد أخرجه الطبري في تفسيره بسنده (١٩٧/٣٠) . وذكره أيضاً منسوباً إليه في : معالم التنزيل (٤٣٠/٨) ، زاد المسير (١٢٩/٩) ، البحر المحيط (٤٧٥/٨) ، تفسير ابن كثير (٤/ ٥١٢) ، المحرر الوجيز (٣٠٤/١٦) .

(8) ابراهيم : هو أبو عمران ابراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود النخعي ، من أكابر التابعين صلاحاً و حفظاً للحديث ، كان إماماً مجتهداً ، وقد أجمع العلماء على توثيقه روى عن : مسروق و علقمة و غيرهما . و روى عنه جماعة منهم : الأعمش و سماك بن حرب و غيرهما مات سنة (٩٦) هـ مختفياً من الحجاج .انظر : طبقات ابن سعد (٢٧٠/٦-٢٨٤) ، وفيات الأعيان (٢٥/١-٢٦) .

وقد أخرج قوله الطبري في تفسيره بسنده (١٩٧/٣٠) . وذكر قوله أيضاً مجاهد في تفسيره (٧٢٩/٢) ، و الواحدي في البسيط (٧٧٦/٢) ت. الورثان .

(9) أخرج قوله الطبري في تفسيره بسنده (١٩٧/٣٠) . وذكر قوله أيضاً في : معالم التنزيل (٤٣٠/٨) ، و زاد المسير (١٢٩/٩) ، و تفسير ابن كثير (٥١٢/٤) .

(10) عبد الله بن شداد : لم يتبين لي من هو تحديداً فلعله : عبد الله بن شداد المديني أبو الحسن الأعرج ، كان من تجار واسط ، صدوق .انظر : الجرح و التعديل (٨٠/٥) ، تهذيب التهذيب (٦/) . =

قال المنذري[١] : سمعت أبا طالب[٢] يقول : الكَبَد الاستواء والاستقامة[٣] .

وفسِّر بالنصب هذا قول مجاهد[٤] وسعيد ابن جبير[٥] ، والحسن[٦] ، ورواية عن علي وابن عباس[٧] ، قال الحسن : لم يخلق الله خليقة[٨] يكابد ما يكابد ابن آدم[٩] ، وقال سعيد بن أبي الحسن[١٠] :

= أو هو : عبد الله بن شداد الهاد الليثي ، أبو الوليد المدني ولد على عهد النبي صلى الله عليه و سلم من كبار التابعين الثقات مات مقتولاً بالكوفة سنة (٨١) هـ . انظر : الجرح والتعديل (٥/ ٨٠) ، سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٨٨) . و الأثر أخرجه الطبري في تفسيره بسنده (٣٠/ ١٩٧) . وذكر قوله ونسبه إليه في : البسيط (٢/ ٧٧٦) ، المحرر الوجيز (١٦/ ٣٠٤) البحر المحيط (٨/ ٤٧٥)

(1) في المطبوع : قال المنذر .

والمنذري : هو أبو الفضل محمد بن أبي جعفر المنذري الهروي ، نحوي لغوي ، شيخ الإمام الأزهري و لذا فقد نقل عنه كثيراً في كتابه تهذيب اللغة ، وكان المنذري موثوقاً روايته ، ثبتاً فيما يؤخذ عنه توفي سنة (٣٢٩) هـ . من مصنفاته (نظم الجمان) و غيره .

انظر : إنباه الرواة (٣/ ٧٠) ، بغية الوعاة (١/ ٧٢) .

(2) أبو طالب : هو المفضل بن سلمة بن عاصم ، لغوي أديب علامة له تصانيف في معاني القرآن و الآداب أخذ عن ابن الأعرابي و غيره ، أخذ عنه الصولي وغيره و مات بعد التسعين و المائتين . انظر : سير أعلام النبلاء (١٤/ ٣٦٢) ، إنباه الرواة (٣/ ٣٠٥-٣١١) ، طبقات المفسرين للداودي (٢/ ٣٢٨-٣٢٩) .

(3) انظر : تهذيب اللغة (١٠/ ١٢٧) مادة (كبد) ، ولسان العرب (١٢/ ١٢) مادة (كبد) .

(4) أخرج هذا الأثر الطبري في تفسيره (٣٠/ ١٩٧) . و ذكر قوله أيضاً في : البسيط (٢/ ٧٧٧) ، و زاد المسير (٩/ ١٢٩) ، و عزاه في الدر المنثور (٨/ ٥١٩) إلى الفريابي و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبي حاتم .

(5) نسبه إليه من قوله : الواحدي في البسيط (٢/ ٧٧٧) و البغوي في معالم التنزيل (٨/ ٤٣٠) ، وابن الجوزي في زاد المسير (٩/ ١٢٩) ، ابن كثير في تفسيره (٤/ ٥١٢) ، و عزاه في الدر المنثور (٨/ ٥١٩) إلى سعيد بن منصور و عبد بن حميد . وأخرج الطبري في تفسيره هذا الأثر و جعله من رواية سعيد عن ابن عباس (٣٠/ ١٩٧) .

(6) أخرج هذا الأثر عن الحسن الطبري في تفسيره (٣٠/ ١٩٦) ، وذكر قوله أيضاً في زاد المسير (٩/ ١٢٩) ، والجامع لأحكام القرآن (٢٠/) .

(7) هكذا ورد في الأصل (ورواية عن علي و ابن عباس) و لم أجد فيما بين يدي من مصادر من نسبه إلى علي ، ولكن عند الطبري في تفسيره (٣٠/ ١٩٦) من رواية علي عن ابن عباس . وقد نسب إلى ابن عباس أيضاً في : البسيط (٢/ ٧٧٧) ، معالم التنزيل (٨/ ٤٣٠) ، وزاد المسير (٩/ ١٢٩) و الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ٦٢) .

(8) في المطبوع : (خلقاً) .

(9) أخرج هذا الأثر الطبري في تفسيره (٣٠/ ١٩٧) . وقد ذكر قوله أيضاً في : بحر العلوم (٣/ ٤٨٠) ، المحرر الوجيز (٥/ ٤٨٤) ، و عزاه في الدر المنثور إلى ابن المبارك في الزهد (ولم أره فيه) ، وعبد بن حميد و ابن أبي حاتم ، و فتح القدير (٥/ ٥١٨) .

(10) سعيد بن أبي الحسن : هو سعيد بن يسار الأنصاري مولاهم ، البصري ، أخو الحسن البصري ، روى عن ابن عباس ، وعنه أخوه الحسن ، ثقة مات قبل الحسن سنة (١٠٠) هـ . روى له الجماعة . انظر : التاريخ الكبير (٣/ ٤٦٢) ، الكاشف (١/ ٢٨٣) .

يكابد مصائب الدنيا ، وشدائد الآخرة[١] ، وقال قتادة : يكابد أمر الدنيا والآخرة فلا تلقاه إلا في مشقة[٢] .

وروى ابن جريج[٣] عن عطاء عن ابن عباس قال : يعني حمله وولادته ورضاعه ، وفصاله[٤] ونبت أسنانه وحياته ومعاشه وموته ، كل ذلك شدة[٥] . قال مجاهد : ﴿ **حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً** ﴾ ، ومعيشته / في شدة فهو يكابد ذلك[٦] . [١٢/أ]

وعلى هذا (الكبد[٧] من مكابدة الأمر ، وهي معاناة شدته ومشقته ، والرجل يكابد الليل إذا قاسى هو له وصعوبته)[٨] والكبد شدة الأمر ومنه تكبَّد اللبن إذا غلظ واشتد .ومنه الكَبِد لأنها دم غليظ يشتد[٩] ، وانتصاب القامة والاستواء من ذلك لأنه إنما يكون عن قوة وشدة ، فالإنسان مخلوق في شدة فكونه[١٠] في الرحم[١١] ثم في

---

(1) هذا الأثر أخرجه الطبري في تفسيره (١٩٧/٣٠) . وقد ذكر عنه أيضاً في البسيط (٧٧٧/٢) و الوسيط (٤٨٩/٤)

(2) هذا الأثر عن قتادة أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٣٧٣/٢) و لفظه عنده : (يكابد أمر الدنيا و أمر الآخرة) ، وأخرجه أيضاً ابن حرير في تفسيره (١٩٦/٣٠) من الطريق السابقة ، ومن طريق أخرى عن قتادة قال : (حين خلق في مشقة لا يلقى ابن آدم إلا مكابداً أمر الدنيا و الآخرة) .

وقد ذكر الرواية الثانية أيضاً البغوي في معالم التنزيل (٤٣٠/٨) .

(3) ابن جريج : هو أبو الوليد عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج القرشي المكي ، فقيه الحرم ، كان إمام أهل الحجاز في عصره ، روى عن أبيه و عن مجاهد و الزهري و غيرهم ، وروى عنه : الأوزاعي ، والحمادان ، و السفيانان ، وغيرهم . قال ابن حجر : ثقة فقيه فاضل ، وكان يرسل و يدلس . توفي سنة (١٥٠) هـ .

انظر : تذكرة الحفاظ (١٦٩/١-١٧٠) ، تهذيب التهذيب (٤٠٢/٦) .

(4) في حاشية (ب) : (وفطامه) .

(5) أخرجه ابن جريرالطبري في تفسيره (١٩٧/٣٠) بمعناه و لفظه عنده (في شدة معيشته ، وحمله و حياته و نبات أسنانه) .

و قد ذكر في : بحر العلوم (٤٨٠/٣) ، معالم التنزيل (٤٣٠/٨) ، الجامع لأحكام القرآن (٦٢/٢٠) ، تفسير ابن كثير (٤/ ٥١٢) ، و قد عزاه في الدر المنثور (٥١٩/٨) إلى الفريابي و عبد بن حميد ، وابن المنذر و ابن أبي حاتم . و أخرجه أيضا الحاكم في المستدرك (٣/ ٣٧١) في (٢٨) كتاب التفسير ، تفسير سورة البلد ح (٣٩٨٨) و صححه ووافقه الذهبي .

(6) سورة الأحقاف آية (١٥) ، و قد ذكر هذا القول و نسبه إليه : الواحدي في البسيط (٨٧/٢) ، و ابن كثير في تفسيره (٥١٢/٤) ، وقد ورد مثله عن ابن جريج عند الماوردي في النكت و العيون (٢٧٦/٦) .

(7) في المطبوع : (فالكبد) .

(8) ما بين القوسين منقول عن الأزهري في تهذيب اللغة (١٢٧/١٠) مادة (كبد) ، وانظر : لسان العرب (١٢/١٢) مادة (كبد) ، و هو من قول الليث .

(9) في (م) و (ق) و المطبوع : (يغلظ و يشتد) .

(10) في (م) و (ق) و المطبوع : (بكونه) .

(11) الرَّحِم و الرِّحْم : بيت منبت الولد ووعاؤه في البطن ، لسان العرب (١٧٥/٥) مادة (رحم) .

القمَاط[١] والرِّبَاط[٢] ثم هو على خطر عظيم عند بلوغه حال التكليف ومكابدة المعيشة ، والأمر والنهي ثم مكابدة الموت وما بعده في البرزخ وموقف القيامة ، ثم مكابدة العذاب والنار[٣] ، ولا راحة له إلا في الجنة .

وفسِّرَ الكَبَد بشدَّة الخلق وإحْكَامه وقوَّته ومنه قول لبيد[٤] :

عيني هلا بكيت أربد ، إذ قمنا وقام الخصوم في كبد[٥]

أي في شدة وعناء[٦])[٧]، وهذا يشبه قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ﴾[٨] (قال ابن عباس : أي خلقهم[٩] ، وقال أبو عبيدة[١٠] : الأَسْر شدة الخلق ، يقال : فرس شديد الأَسْر ، قال[١١] : وكل شيء شددته من قتب أو غيره فهو مأسور[١٢] .

---

(1) القَمْط : شدّ كشدِّ الصبي في المهد و في غير المهد ، إذا ضم أعضاؤه إلى جسده ثم لفَّ عليه القماط ، والقماط : الخرقة العظيمة التي تنفها على الصبي ، ولا يكون القمط إلا شد اليدين و الرجلين معاً . لسان العرب (٣٠٣/١١) مادة (قمط) .

(2) الرِّباط : ماتشد به القربة و الدابة و غيرهما . لسان العرب (١١٣/٥) مادة (ربط) .

(3) في المطبوع : (في النار) .

(4) لبيد : هو لبيد بن ربيعة بن عامر بن مالك أبو عقيل العامري أحد الشعراء الفرسان الأشراف في الجاهلية ، من أهل عالية نجد . أدرك دعوة النبي صلى الله عليه و سلم ووفد عليه ، معدود في الصحابة ومن المؤلفة قلوبهم . سكن الكوفة و توفي سنة (٤١) هـ ، و هو أحد أصحاب المعلقات . انظر : جمهرة أشعار العرب (٣٤٧/١-٣٨٣) .

(5) في المطبوع : (يا عين) ، و في البسيط (٧٨٠/٢) : (عينٌ) .

و البيت من المنسرح ، و هو في ديوان لبيد ص (١٦٠) ، بيت من قصيدة يرثي فيها أخاه ، مطلع هذه القصيدة :

ما إن تعري المنون من أحد لا والد مشفق ولا ولد

وممن ذكر هذا البيت و نسبه أيضاً للبيد : الأزهري في تهذيبه (١٢٧/١٠) ، و في لسان العرب (١٢/١٢) ، وابن جني في الخصائص (٣١٨/٣) و غيرهم .

(6) انظر : مجاز القرآن (٢٩٩/٢) ، تهذيب اللغة (١٢٧/١٠) مادة (كبد) .

(7) ما بين القوسين نقله ابن القيم عن الواحدي في تفسيره بتصرف . انظر : البسيط للواحدي (٧٧٥/٢-٧٨٠) ت. الورثان

(8) سورة الإنسان آية (٢٨) .

(9) هذا الأثر أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٢٢٦/٢٩) .

وقد ذكر عنه أيضاً في : البسيط (٤٤٠/١) ، النكت و العيون (٦/ ١٧٣) ، زاد المسير (٩/ ٤٤١) .

(10) أبو عبيدة : هو معمر بن المثنى التيمي البصري ، من أئمة العلم بالأدب و اللغة ، ولد بالبصرة سنة (١١٠) هـ و روى عن هشام بن عروة ، و رؤبة بن العجاج و أبو عمرو بن العلاء المعري و غيرهم ، روى عنه : علي ابن المديني و أبو عبيد القاسم بن سلام والمازني و غيرهم ، و له تصانيف كثيرة منها مجاز القرآن ، ومعاني القرآن . توفي بالبصرة سنة (٢٠٩) هـ .

انظر : انباه الرواة (٢٧٦/٣) ، و فياتا الأعيان (٢٣٥/٥-٢٤٣) .

(11) قوله : (قال) سقط من (ب) .

(12) انظر : مجاز القرآن (٢٨٠/٢) .

وقال المبرِّد[١] : الأَسْر القوى كلّها[٢] ، وقال اللَّيث[٣] : الأسر قوة المفاصل والأوصال ، وشَدَّ الله أَسْرَ فلان ، أي : قَوّى خَلْقَه وكل شيئين[٤] جمع طرفاهما فَشدَّ أحدهما بالآخر فقد أسِر[٥] ، وقال الحسن : شددنا أوصالهم بعضها إلى بعض بالعروق والعصب[٦] ، وقال مجاهد هو الشرج[٧] ، يعني موضع البول والغائط إذا خرج الأذى [تقبضا][٨])[٩].

والمقصود أنه سبحانه أقسم في سورة البلد على حال الإنسان ، وأقسم سبحانه بالبلد الأمين وهو مَكَّة أم القرى .

ثم أقسم بالوالد وما ولد ، وهو آدم وذريته ، في قول جمهور المفسرين ، وعلى هذا فقد تضمَّن القسم أصل المكان وأصل السكان ، فمَرْجِع البلاد إلى مكة ، ومرجع العباد إلى آدم .

وقوله : ﴿ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ(٢) ﴾[١٠] فيه قولان :

---

(1) المبرِّد : هو محمد بن يزيد بن عبد الأكبر ، أبو العباس المبرد ، أديب و نحوي ، لغوي بصري ، ولد سنة (٢٠٧) هـ ، وقرأ كتاب سيبويه على الجرْميّ ، ثم على المازني و روى عنه جماعة منهم : نفطويه ، وأبو بكر الصولي ، و ابن درستويه وجماعة غيرهم كثيرون . له تصانيف كثيرة منها : الكامل و المقتضب ، والمقصور والممدود ، ومعاني القرآن الكريم و غيرها توفي سنة (٢٨٠) هـ . انظر : إنباه الرواة (٣/٢٤١-٢٥٣) ، الفهرست لابن النديم ص (٥٩-٦٠) .

(2) انظر : الكامل للمبرِّد (٢/٩٦٤) .

(3) الليث : اختلف في اسم أبيه فقيل : هو الليث بن نصر بن سيار ، كما حكاه القفطي ، و قيل : الليث بن المظفر هكذا سماه الأزهري ، وقيل : الليث بن رافع بن نصر كما حكاه ياقوت . وهو خراساني ، لغوي ، نحوي ، صاحب الخليل بن أحمد ، قيل إنه صنف كتاب العين و عنه أخذه الخليل و هذّبه ، وقيل : بل هو أخذه عن الخليل و هذّبه . قال ابن المعتز : كان من أكتب الناس في زمانه بارعاً في الأدب بصيراً بالشعر و الغريب و النحو ، وكان كاتباً للبرامكة .

انظر : إنباه الرواة (٣/٤٢-٤٣) ، بغية الوعاة (٢/٢٧٠) ، معجم الأدباء (٨ /١٣٢) ، تهذيب اللغة للأزهري (١/١٤) .

(4) في المطبوع : (و كل شيء) .

(5) انظر : تهذيب اللغة (١٣/٦١) مادة (أسر) ، و لسان العرب (١ / ٣٥٦) مادة (الأسر) .

(6) حكى قوله في : معالم التنزيل (٨/ ٢٩٩) ، وزاد المسير (٨/ ٤٤١) ، والجامع لأحكام القرآن (١٩/١٥١) .

(7) انظر قوله في : معالم التنزيل (٨/٣٠٠) ، والجامع لأحكام القرآن (١٩/١٥١) .

(8) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل : و أثبته من المطبوع كما ترجح لي ، وفي (ب) يقبضا ، وفي (م) و (ق) : تقضياً ، وفي تهذيب الأزهري (١٣/٦١) : (تقبضنا) و ذكر أنه قول لابن الأعرابي .

(9) ما بين القوسين نقله ابن القيم من الواحدي في البسيط (١/٤٤٠-٤٤٢) ت. الورثان .

(10) سورة البلد آية (٢) .

أحدهما : أنه من الإحلال وهو ضد الإحرام[١] .

والثاني : أنه من الحلول وهو ضد الضعن[٢] فإن أريد به المعنى / الأول فهو حالٌّ[٣] [١٢/ب] ساكن البلد بخلاف المحرم الذي يحجّ ويعتمر ويرجع ولأن أمنه[٤] إنما تظهر به النعمة عند المحلّ[٥] من الإحرام ، وإلا ففي حال الإحرام هم في أمان والحرمة هناك للفعل لا للمكان .

والمقصود إنّما[٦] هو ذِكْر حرْمة المكان وهي إنّما تظهر بحال الحلال الذي لم يتلبَّس بما يقتضي أمنه ، ولكن على هذا ففيه تنبيه فإنه إذا أقسم به وفيه الحلال ، فإذا كان فيه الحرام فهو أولى بالأمن والتعظيم[٧] .

وكذلك إذا أريد المعنى الثاني : وهو الحلول فهو متَضَمنٌ لهذا التعظيم مع تضمينه لأَمْرٍ آخَرَ[٨] وهو إقسامه ببلدِه المشتملِ على رسولِه وعبدِه فهو خَيْر البقاعِ ، وقد اشتمل على خير العباد فجعل بَيْتَه هدىً للناس ونبيه إماماً وهادياً لهم وذلك من أَعْظَم نِعَمِه وإحسانه إلى خلقه ، كما هو من أعظمِ آياته ودلائل وحدانيَّته وربوبيَّته ، فمن اعْتَبَر حال بيته وحال نبيه وَجَدَ ذلك مِنْ أظهر أدلَّةِ التوحيد والربوبية .

وفي الآية قول ثالث : وهو أن المعنى وأنت مستحل قتلك وإخراجك من هذا البلد الأمين ، الذي يأمن فيه الطير والوحش والجاني ، وقد استحل قومك فيه حرمتك وهم لا يعضدون[٩] به

---

(1) و هو مروي عن الليث . انظر : تهذيب اللغة (٤٢٧/٣) .
(2) كما هو مروي عن الحسن البصري .
(3) في المطبوع : (فهو حلال) .
(4) في (ق) : (لأن أمنه) بدون واو .
(5) هكذا في الأصل ، وفي غيره : الحل .
(6) قوله : (إنما) سقط من المطبوع .
(7) في (م) و (ق) و المطبوع : (أولى بالتعظيم و الأمن) .
(8) في المطبوع : (أمراً آخر) .
(9) العضد في اللغة : هو القطع . انظر القاموس المحيط ص (٢٩٩) .

شجرةً ، ولا ينفرون به صيداً ، وهذا مرويٌّ عن شرحبيل بن سعد[1] وعلى كل حال فهي جملة اعتراض في أثناء القسم ، موقعها من أحسن موقعٍ وألطفه[2] ، فهذا القسم متضمن لتعظيم نبيه ورسوله .

ثم أنكر سبحانه على الإنسان ظنه وحسبانه أنه لن يقدر عليه أحد[3] من خلقه في هذا الكَبَدِ والشدَّةِ والقوَّةِ التي يكابد بها الأمور ، فإن الذي خلقه لذلك أولى بالقدرة منه ، وأحق ، وكيف يقدر على[4] غيره من لم يكن[5] قادراً في نفسه فهذا برهان مستقلٌّ بنفسه مع أنه متضمّن للجزاء الذي مناطه القدرة والعلم ، فنبَّه على ذلك بقوله : ﴿ **أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ(٥)** ﴾[6] وبقوله : ﴿ **أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ(٧)** ﴾[7] ، فيحصى عليه مَا عَمِلَ من خير وشرّ ، ولا يقدر عليه فيجازيه بما يستحقه .

---

(1) عزاه إلى شرحبيل من قوله في : البسيط (٧٧٣/٢) ، معالم التنزيل (٤٢٩/٨) ، المحرر الوجيز (٣٠٤/١٦) ، التفسير الكبير (٣١/ ١٦٣) ، الجامع لأحكام القرآن (٢٠ /٦١) ، وعزاه في الدر المنثور (٥١٨/٨) إلى سعيد بن منصور و ابن المنذر .
وشرحبيل هو : شرحبيل بن سعد ، أبو سعد الخطمي ، المدني مولى الأنصار . روى عن أبي هريرة و ابن عباس و جابر ، وروى عنه : مالك بن أنس و عكرمة و محمد بن اسحاق . مات سنة (١٢٣) هـ و قد قارب المئة و هو صدوق اختلط بآخرة .
انظر : الجرح و التعديل (٣٣٨/٤) ، والثقات لابن حبان (٣٦٥/٤) .

(2) هذه الجملة فيها وجهان :
الأول / أنها جملة اعتراضية على أحد معنيين :
أ) إما على معنى أنه تعالى أقسم بهذا البلد و ما بعده على أن الإنسان خلق في كبد . واعترض بينهما بهذه الجملة يعني : ومن المكابدة أن مثلك على عظم حرمتك يستحل بهذا البلد كما يستحل الصيد في غير الحرم .
ب) و إما على معنى أنه أقسم ببلده على أن الإنسان لا يخلو من مقاساة الشدائد . واعترض بأن وعده فتح مكة تتميماً للتسلية فقال : و أنت حل به فيما تستقبل تصنع فيه ما تريد من القتل و الأسر . و هو ما ذهب إليه الزمخشري .
و الثاني / أن الجملة حالية أي : لا أقسم بهذا البلد و أنت حال به لعظم قدرك . وقيل : أي لا أقسم به و أنت مستحل فيه . أي : مستحل أذاك . و هو ما ذهب إليه أبو حيان و انتصر له و ردَّ على الزمخشري . قال أبو حيان : (و حمله على أن الجملة اعتراضية لا يتعيّن . و قد ذكرنا – أولاً – أنها جملة حالية ، و بيّنا موقعها ، وهي حال مقارنة لا مقدَّرة و لا محكية) .
وقد حكى هذين القولين السمين الحلبي ومال إلى قول الزمخشري كما يفهم من كلامه حيث يقول : (. . و قد ناقشه الشيخ بما لا يتجّه ، و ردَّ عليه قوله الإجماع على نزولها بمكة . .) . انظر : الكشاف للزمخشري (٧٥٤/٤) ، البحر المحيط لأبي حيان (٤٧٤/٨) ، الدر المصون للحلبي (١١/٥-٦) .

(3) قوله : (أحد) سقط من المطبوع .

(4) (على) سقط من (ب) .

(5) في (ق) : (ممن لم يكن) .

(6) سورة البلد آية (٥) .

(7) سورة البلد آية (٧) .

ثم أنكر سبحانه على الإنسان قوله : ﴿ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا(٦) ﴾[1] ، وهو / الكثير الذي [١٣/أ] يلبد بعضه على[2] فوق بعض[3] ، فافتخر هذا الإنسان بإ هلاكه وهو[4] إنفاقه في غير وجهه ، إذ لو أنفقه في وجوهه التي أمر بإنفاقه فيها ووضعه مَوَاضِعَه ، لم يكن ذلك إهلاكاً له بل تقرباً به إلى الله (عز وجل)[5] وتوصلاً به إلى رضاء وثوابه ، وذلك ليس بإهلاك له ، فأنكر سبحانه افتخاره وتبجّحه بإنفاق المال في شهواته وأغراضه التي إنفاقه فيها إهلاك له .

ثم وبَّخه سبحانه[6] بقوله : ﴿ أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴾ ، وأتى ههنا بلم الدالة على (المضي)[7] في مقابلة قوله : ﴿ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا ﴾ ، فإن ذلك في الماضي أفيحسب أن لم يره أحد فيما أنفقه وفيما أهلكه .

ثم ذكر سبحانه[8] برهاناً مقرَّراً[9] أنه [سبحانه][10] أحق بالرؤية وأولى من هذا العبد الذي له عينان يبصر بهما ، فكيف يعطيه البصر من لا يراه[11] ، وكيف يعطيه آلة البيان من الشفتين واللسان ، فينطق ويبين عن ما في نفسه ، ويأمر وينهى من لا يتكلم ولا يكلم ولا يخاطب ولا يأمر ولا ينهى ، وهل كمال المخلوق مستفاد إلا من خالقه[12] ؟ ومن (جعل)[13] غيره

---

(1) سورة البلد آية (٦) .
(2) (على) ثابتة في الأصل ، ساقطة في البقية .
(3) كما قال أبو عبيد انظر : مجاز القرآن (٢/٢٩٩) . و هو قول جميع المفسرين أن (اللبد) : هو الكثير المجتمع .وهو مروي عن ابن عباس و قتادة و مجاهد و ابن زيد و الحسن و السدي و غيرهم . انظر : جامع البيان (٣٠/١٩٨) ، معاني الزجاج (٥/٣٢٨) ، وتهذيب اللغة (١٤/١٢٩) ، و ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن (٥٢٨) ، و البسيط (٢/٧٨٠-٧٨١) ، ومعالم التزيل (٨/ ٤٣٠) ، و الجامع لأحكام القرآن (٢٠/٦٤) وغيرهم .
(4) في المطبوع : (بإهلاكه وإنفاقه) .
(5) قوله : (عز وجل) سقط من (م) و (ق) و المطبوع .
(6) سقط من المطبوع .
(7) في (م) و (ق) و المطبوع : (المضي) و هو أصَّح ، وفي الأصل و (ب) : (المعنى) .
(8) قوله : (سبحانه) سقط من (م) و (ق) و المطبوع .
(9) في المطبوع : (مقدَّراً) .
(10) ما بين المعقوفتين زيادة من (م) و (ق) و المطبوع .
(11) في المطبوع : (من لم يره) .
(12) في المطبوع : (إلا من كمال خالقه) .
(13) في الأصل : (حمل) و التصحيح من باقي النسخ .

عالماً بنجدي الخير والشر ، وهما طريقاهما[١] أولى وأحق بالعلم منه ، ومن هداه إلى هذين الطريقين كيف يليق به أن يتركه سدىً لا يعَرِّفه ما يَضره وما ينفعه في معاشه ومعاده ، وهل النبوة والرسالة إلا لتكميل هدايته النجدين ؟ ، فدلَّ هذا كله على إثبات الخالق وصفات كماله ، وصدق رسله ووعده ووعيده[٢] .

وهذه أصول الإيمان التي اتفقت عليها جميع الرسل من أولهم إلى آخرهم ، إذا تأمَّل الإنسان حاله وخلقه وَجَدَه من أعظم الأدلَّةِ على صحَّتِها وثبوتها ، فتكفي الإنسان فكرته في نفسه وخلقه .

والرسل بعثوا مذكرين بما في الفطر والعقول مكملين له ، لتقوم على العبد حجة الله بفطرته ورسالته ، ومع هذا[٣] فقامت عليه حجته ، ولم يقتحم العقبة التي بينه وبين ربه التي لا يصل إليه[٤] حتى يقتحمها بالإحسان إلى خلقه بفكِّ الرقبة وهو تخليصها من الرِّقِّ ، ليخلصه الله / [١٣/ب] من رقِّ نفسه ، ورقِّ عدوِّه ، فإطعام[٥] المسكين واليتيم في يوم المجاعة ، وبالإخلاص له سبحانه بالإيمان الذي هو خالص حقه عليه ، وهو تصديق خبره ، وطاعة أمره ابتغاء[٦] وجهه وبنصحه[٧] غيره بأن يوصيه بالصبر والرحمة ، ويقبل وصية من أوصاه بها فيكون صابراً رحيماً في نفسه ، معيناً لغيره على الصبر والرحمة ، (دالاً لغيره)[٨] عليها فمن لم يقتحم هذه العقبة وهلك دونها هلك منقطعاً عن ربِّه غير واصلٍ إليه ، بل محجوباً عَنْه .

والناس قسمان :

أ) نَاجٍ : وهم من قطع العقبة وصار وراءها .

---

(1) في المطبوع : زيادة (أليس) بعد (طريقاهما) .

(2) قوله : (ووعيده) سقط من (ب) و المطبوع .

(3) قوله : (هذا) سقط من (ب) .

(4) في المطبوع : (إليها) .

(5) في (م) و (ق) والمطبوع : (وإطعام) .

(6) في المطبوع : (و ابتغاء) .

(7) في المطبوع : (و بنصيحة) .

(8) سقط من (م) و (ق) و المطبوع .

ب) وهالكٌ : وهو من دون العقبة وهم أكثر الخلق ، ولا يقتحم العقبة إلا المضمرون[١] ، فإنها عقبة كؤود شاقَّة ، لا يقطعها إلا خفيف الظَّهر ، وهم أصحاب الميمنة ، والهالك[٢] دون العقبة الذين لم يصدِّقوا الخبر و لم يطيعوا الأمر ﴿ **هُمْ**[٣] **أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ(١٩)عَلَيْهِمْ نَارٌ مُوصَدَةٌ(٢٠)** ﴾[٤] ، قد أطبقت عليهم فلا يستطيعون الخروج منها كما أطبقت عليهم أعمال الغيِّ والاعتقادات الباطلة المنافية لما أخبرت به الرسل[٥] ، فلم تخرج قلوبهم منها .

كذلك أطبقت عليهم هذه النار فلم تستطع أجسامهم الخروج منها . فتأمَّل هذه السورة على اختصارها وما اشتملت عليه من مطالب العلم والإيمان بالله[٦] ، وبالله التوفيق .

وأيضاً فإن طريقةَ القرآنِ بذكر العلم والقدرة تهديداً وتخويفاً لترتب الجزاء عليهما ، كما قال تعالى : ﴿ **قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا** ﴾[٧] .

وقال : ﴿ **أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى(٩)عَبْدًا إِذَا صَلَّى** ﴾ إلى قوله : ﴿ **أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى** ﴾[٨] .

وقال تعالى : ﴿ **وَقُلْ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ** ﴾[٩] .

وقال تعالى : ﴿ **أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لاَ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ(٨٠)** ﴾[١٠] ، وهذا كثير جداً في القرآن .

وليس المراد به مجرد الإخبار بالقدرة والعلم ، لكن الإخبار مع ذلك بما يترتب عليهما من الجزاء بالعدل ، فإنه إذا كان قادراً أمكن مجازاته ، وإذا كان عالماً أمكن ذلك بالقسط والعدل ومن

---

[1] المضمرون : الضمر : الهزال : ولحاق البطن ،وبالفتح : الرجل الهضيم البطن : اللطيف الجسم . انظر :القاموس المحيط ص (٤٢٩)
[2] في المطبوع : (و الهالكون) .
[3] في المطبوع : (فهم) .
[4] سورة البلد الآيتان (١٩-٢٠) .
[5] في (م) و (ق) : (لما أخبرت به رسله) .
[6] قوله : (بالله) هكذا في الأصل و (ب) و سقط من الباقي .
[7] سورة الأنعام آية (٦٥) .
[8] في (ق) تقديم آيات العلق على الأنعام . و الآيات في سورة العلق (٩-١٤) . و في المطبوع ذكر الآيات كاملة .
[9] سورة التوبة آية (١٠٥) .
[10] سورة الزخرف آية (٨٠) .

لم يكن قادراً لم يمكن مجازاته ، وإذا كان عالماً قادراً لكنه غير عالم بتفاصيل الأعمال / ومقـــادير جزائها لم يجاز بالعدل ، والربّ تعالى موصوفٌ بكمال القدرة وكمال العلم ، فالجزاء منه موقوفٌ على مجرد مشيئته ، وإرادته ، فحينئذٍ يجب على العاقل طلب النجاة منه بالإخلاص والإحســـان ، وهو اقتحام العقبة المتضمن التوبة إلى الله تعالى والإحسان إلى خلقه . [١٤/أ]

وقال : ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ(١١) ﴾[1] ، وهو فعل ماض و لم يكرر معه " لا " .

أ) إما استعمالاً لإداة[2] " لا " كاستعمال " ما " .

ب) وإما إجراءً لهذا الفعل مجرى الدعاء نحو : فلا سلم ، ولا عاش ، ونحو ذلك .

ج) وإما لأنَّ العقبة قد فسِّرت بمجموع أمور ، فاقتحامها فعل كل واحد منها ، فـــأغنى ذلك عن تكريرها ، فكأنه قال : فلا فكَّ رقبة ، ولا أطعم ، ولا كان من الذين آمنوا[3] .

وقراءة من قرأ ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾[4] ، بالفعل كأنها أرجح من قراءة من قرأها بالمصـــدر[5] ، لأن قوله : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴾ على حد قوله : ﴿ وَمَـــا أَدْرَاكَ مَـــا الْحَاقَّـــةُ(٣) ﴾[6] ، ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ(١٧) ﴾[7] ، ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ(١٠)نَارٌ حَامِيَـــةٌ(١١) ﴾[8] ، ونظائره . تعظيماً لشأن العقبة وتفخيماً لأمرها .

وهي جملة اعتراضٍ بين المفسِّر والمفسَّر ، فإن قوله : ﴿ فَكُّ رَقَبَـــةٍ(١٣)أَوْ إِطْعَـــامٌ ﴾ إلى قوله: ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾[9] ، تَفْسيرٌ لاقتحام العقبة ، وليس هو تفسيراً لنفس العقبة ، فإن العقبة مكان شاق كؤود ، يقتحمه[10] الناس حتى يصلوا الجنة ، واقتحامه بفعل هذه الأمور .

---

[1] سورة البلد آية (١١) .

[2] في الأصل : (استعمالاً (لا) كأداة (لا)) و التصحيح من (م) و (ق) و المطبوع .

[3] انظر : معاني القرآن للفراء (٣/٢٦٤) ، و معاني الزجاج (٥/٣٢٩) ، و الحجة لأبي علي الفارسي (٦/٤١٤-٤١٥) ، الـــدر المصون (١١/٨-٩) .

[4] و هي قراءة : (ابن كثير و أبي عمرو والكسائي) انظر : إرشاد المبتدي من (٦٣٦) .

[5] القرآتان متواترتان ، القراءة بالمصدر أو القراءة بالفعل فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب . انظر : جامع البيان (٣٠/٢٠٣) .

[6] سورة الحاقة آية (٣) .

[7] سورة الانفطار آية (١٧) .

[8] سورة القارعةو الآيتان (١٠-١١) .

[9] في الأصل و (ب) زيادة : (وعملوا الصالحات) وهو خطأ والتصويب من النسخ الأخرى . وفي المطبوع : ذكر الآية كاملـــة إلى (آمنوا . .) .

[10] في (ق) : (وتقتحمه) .

فمن فعلها فقد اقتحم العقبة ، ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ **ثُمَّ كَانَ مِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا** ﴾[١] ، وهذا عطف على قوله : ﴿ **فَكُّ رَقَبَةٍ** ﴾ ، والأحسن تناسب هذه الجمل المعطوفة التي هي تفسير لما ذكر أولاً .

وأيضاً فإن من قرأها بالمصدر المضاف فلا بد له من تقدير وهو : ما يدريك ما اقتحام العقبة إنَّ اقتحامها[٢] فك رقبة .

وأيضاً فمن قرأ بالفعل فقد طابق بين المفسر [و جميع ما فسَّره ، و من قرأ بالمصدر فقد طابق بين المفسر][٣] وبعض ما فسره ، فإن التفسير إن كان لقوله (اقتحم) ، طابقه بقوله : ﴿ **ثُمَّ كَانَ مِنْ الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ ، وما بعده دون (فكَّ رقبة) وما يليه ، وإن كان لقوله : " العقبة " طابقه (فك رقبة أو إطعام) دون قوله (ثم كان من الذين / آمنوا) وما بعده ، وإن كانت المطابقة حاصلة معنى فحصولها لفظاً ومعنى أتم وأحسن[٤] .

واختلف في هذه العقبة هل هي في الدنيا أو في الآخرة ؟ . فقالت طائفة : (العقبة ههنا مثلٌ ضربه الله تعالى لمجاهدة النفس والشيطان في أعمال البر ، وحكوا ذلك عن الحسن ومقاتل .

قال الحسن : عقبة والله شديدة مجاهدة الإنسان نفسه وهواه وعدوه والشيطان[٥] .

وقال مقاتل : هذا مثل ضربه الله يريد أن المعتق رقبة والمطعم اليتيم والمسكين يقاحم نفسه وشيطانه مثل أن[٦] يتكلَّف صعود العقبة ، فشبَّه المعتق رقبة في شدَّته عليه بالمكلَّف صعود العقبة[٧] ، وهذا قول أبي عبيدة[٨] .

---

(1) قوله : (و تواصوا) سقط من (م) و (ق) و المطبوع .

(2) في (م) و (ق) و المطبوع : (واقتحامها) .

(3) ما بين المعقوفتين ساقط من الأصل و هو في باقي النسخ .

(4) انظر : جامع البيان (٣٠/٢٠٢-٢٠٣) ، معاني القرآن للفراء (٣/٢٦٤-٢٦٥) ، معاني القرآن وإعرابه (٥/٣٢٩) ، الحجة (٦/٤١٤-٤١٥) ، البسيط للواحدي (٢/٧٨٥-٧٨٦) ، الدر المصون (١١/٨-١٠) .

(5) ذكر قول الحسن و عزاه إليه : الواحدي في البسيط (٢/٧٨٦) ، الماوردي في النكت و العيون (٦/٢٧٨) ، و الزمخشري في الكشاف (٤/٧٥٦) ، والرازي في التفسير الكبير (٣١/١٨٥) ، والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن (٢٠/٦٨-٦٩) .

(6) في (م) و (ق) و المطبوع : (من) .

(7) ذكر قول مقاتل في : البسيط (٢/٧٨٦) ، التفسير الكبير (٣١/١٨٥) .

(8) انظر : مجاز القرآن (٢/٢٩٩) . و قد رجّح هذا القول الواحدي حيث يقول : (ما ذكرنا عن المفسرين في تفسير (العقبة) فغير متوجه ههنا ، لأن من المعلوم أن هذا الإنسان و غيره لم يقتحموا عقبة جهنم و لا جاوزوها ، فإذاً لا معنى لحملها على عقبة في الآخرة

وقالت طائفة : بل هي عقبة حقيقية يصعدها الناس .

قال عطاء : هي عقبة جهنم[١] ، وقال الكلبي : هي عقبة بين الجنة والنار[٢] ، وهذا لعله[٣] قول مقاتل إنها عقبة جهنم[٤] ، وقال مجاهد[٥] والضحاك[٦] : هي الصراط يضرب على جهنم ، وهذا لعلَّه قول الكلبي وقول هؤلاء أصَحّ نظراً وأثراً ولغة . قال قتادة : إنها عقبة[٧] شديدة فاقتحموها بطاعة الله[٨])[٩] ، وفي أثر معروف : " **أن بين أيديكم عقبة كؤود لا يقتحمها إلا المخفون** "[١٠] أو نحو هذا وأن سمي الله تعالى[١١] الإيمان به ، وفعل ما أمر به ، وترك ما نهى عقبة وكثيراً[١٢] ما يقع في كلام السلف الوصية بالتضمر[١٣] لاقتحام العقبة .

، ولكن الصحيح أن ذكر العقبة مثل ضربه الله تعالى لمجاهدة النفس . .) . البسيط (٧٨٦/٢) ، و قد رجحه أيضاً الرازي في تفسيره (١٨٥/٣١) ، و كذا الماوردي في النكت و العيون (٢٧١/٦) ، وكذلك القرطبي في تفسيره (٦٦/٢٠-٦٧) .

(1) ذكره عنه الواحدي كما في البسيط (٧٨٤/٢) ، و الرازي في تفسيره (١٨٤/٣١) .

(2) ذكر قول الكلبي في البسيط (٧٨٤/٢) ، التفسير الكبير (١٨٤/٣١) ، زاد المسير (١٣٤/٩) ، الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ٦٧) ، فتح القدير (٥/ ٥٢٠) .

(3) سقط من المطبوع .

(4) لم أجد من ذكره وقد تقدم قول آخر له انظر ص (١٠١) .

(5) ذكر قوله في : البسيط (٧٨٥/٢) ، و معالم التنزيل (٤٣٢/٨) ، و زاد المسير (١٣٤/٩) ، و الجامع لأحكام القرآن (٦٧/٢٠) .

(6) المراجع السابقة و انظر أيضاً : النكت و العيون (٢٧٨/٦) ، و تفسير الضحاك (٩٦٨/٢) .

(7) هكذا فيما بين يدي من المخطوطات ، وعند الطبري و الواحدي : (إنها قحمة . .) . تفسير الطبري (٢٠١/٣٠) ، البسيط (٧٨٥/٢) .

(8) أخرج هذا الأثر الطبري في تفسيره بسنده إلى قتادة (٢٠١/٣٠) . وقد ذكره أيضاً : الفارسي في الحجة (٤١٤/٦) ، والواحدي في البسيط (٧٨٥/٢) ، و الشوكاني في فتح القدير (٥٢٠/٥) .

(9) ما بين القوسين نقله ابن القيم عن الواحدي في تفسيره البسيط (٧٨٤/٢-٧٨٧) بتصرف .

(10) أخرجه الحاكم في مستدركه في (٥٣) كتاب الأهوال ، بااب موت ابن وهب بسمع كتاب الأهوال ح (٨٧٥٣) ، والبزَّار في مسنده كما في كشف الأستار (٢٧٠/٤) في كتاب الزهد ، باب . ح (٣٦٩٦) و قال : لا نعلم رواه إلا أبو الدرداء ، ولا حدّث به إلا أبو معاوية ، عن موسى ، و موسى ثقة حدّث عنه الناس ، و هلال مشهور ، و الاسناد صحيح) . و قال الهيثمي في المجمع (٢٦٣/١٠) : رواه البزّار و رجاله رجال الصحيح ، غيرأسد بن موسى ، و موسى بن مسلم الصغير ، وهما ثقتان .

(11) في المطبوع : (و أن الله سمى الإيمان به . . .) .

(12) في المطبوع : (فكثيراً) .

(13) في (م) و (ق) : بالتضمين . و التضمر : انضمام الجلد هزالاً . انظر : القاموس المحيط ص (٤٢٩) .

وقال بعض الصحابة : وقد حضره الموت فجعل يبكي ويقول : مالي لا أبكي وبين يــدي عقبة[١] أهبط منها إما إلى جنة وإما إلى نار ، فهذا القول أقرب إلى الحقيقة ، والآثــار الســلفية والمألوف من عادة القرآن [في][٢] استعماله ﴿ وَمَــا أَدْرَاكَ ﴾ في الأمــور الغائبــة العظيمــة كما تقدم . والله أعلم .



[1] في (م) و (ق) و المطبوع : زيادة (كؤود) .
[2] زيادة من (م) و (ق) و المطبوع .

﴾ فصل ﴿

{ القسم في سورة التين }

ومن ذلك إقسام الله سبحانه بـ ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ(١)وَطُورِ سِينِينَ(٢)وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ ﴾ [١] ، فأقسم سبحانه بهذه الأمكنة الثلاثة العظيمة[٢] التي هي مظاهر أنبيائه ورسله وأصحاب الشرائع العظام والأمم الكبيرة ، فالتين والزيتون المراد به : نفس الشجرتين المعروفتين ومنبتهما هو أرض بيت / المقدس[٣] ، فإنها أكثر البقاع زيتوناً وتيناً . [١٥/أ]

(وقد قال جماعة من المفسرين أنه سبحانه أقسم بهذين النوعين من الثمار لمكان العبرة فيهما ، فإن التين فاكهة مخلصة من شوائب التنغيص[٤] ، لا عجم[٥] له ، وهو على مقدار اللقمة ، وهو فاكهة وقوت وغذاء وأدم ، ويدخل في الأدوية ، ومزاجه من أعدل الأمزجة ، وطبعه طبع الحياة ، الحرارة ، والرطوبة ، وشكله من أحسن الأشكال ، ويدخل أكله والنظر إليه في باب المرحات[٦] ، وله لذة يمتاز بها عن سائر الفواكه ، ويزيد في القوّة ، ويوافق الباءة وينفع من البواسير[٧] والنقرس[٨] ، ويؤكل رطباً ويابساً .

---

(1) سورة التين الآيات (١-٣) .

(2) في (م) و (ق) : (بهذه الأمكنة الثلاثة التي هي مظاهر أنبيائه العظيمة) .

(3) بيت المقدس : مدينة مرتفعة على جبال يصعد إليها من كل مكان يقصدها القاصد من فلسطين ، و بها المسجد الأقصى و ليس في بيت المقدس ماء جار سوى عيون لا ينتفع المزروع بها ، و هي من أخصب بلاد فلسطين على مر الأوقات ، وفي سورها موضع يعرف بمحراب داوود عليه السلام ، وهو بنية مرتفعة ارتفاعها نحو خمسين ذراعاً من الحجارة ، و بأعلى بناء كالحجر و هو المحراب . المسالك و الممالك : للإصطخري (٥٦) .

(4) التنغيص : مأخوذ من نغص بمعنى : لم تتم له هناءته ، ويأتي بمعنى : التكدير أيضاً . انظر : لسان العرب (٢١٩/١٤) مادة (نغص) .

(5) العَجَم : بالتحريك : النّوى نوى التمر و النبق ، الواحدة عجمةٌ مثل : قصبة و قصب . : لسان العرب (٧١/٩) مادة (عجم) .

(6) في (م) و (ق) و المطبوع : (المفرحات) .

(7) البواسير : مفرده الباسور ، وهو تضخم في أوردة المستقيم ، وعندما تتوسع هذه الأوردة تتحول إلى بواسير و هي علة تحدث في المقعدة وفي داخل الأنف أيضاً ، كما قاله الجوهري . و من المسببات له : الإمساك ، والحمل ، والوقوف طويلاً تعالج حسب حالاتها . انظر : لسان العرب (٤٠٦/١) مادة (بسر) ، الموسوعة العربية العالمية (٢٠٧/٥) .

(8) النقرس : مرض مزمن يؤدي إلى أورام شديدة في المفاصل ، ويأتي نتيجة لفشل الجسم في أداء مهمته الطبيعية لتحلل أنواع من البروتين مما ينتج عنه زيادة في حمض اليوريك . و ليس له علاج حتى الآن و لكن يمكن التخفيف منه بواسطة الحمية . انظر : الموسوعة العربية العالمية (٣٥٦/٢٥) .

وأما الزيتون ففيه من الآيات ما هو ظاهر لمن اعتبر ، فإن عوده يخرج ثمراً يعصر منه هـذا الدهن الذي هو مادة النور ، وصبغ للآكلين وطيب ودواء ، وفيه من مصالح الخلق ما لا يخفى ، وشجره باق على مر السنين المتطاولة ، وورقه لا يسقط)[١] .

وهذا الذي قالوه حق ، ولا ينافي أن يكون منبته مراداً ، فإن [منبت][٢] هاتين الشجرتين حقيق بأن يكون من جملة البقاع الفاضلة الشريفة ، فيكون الإقسام به[٣] قد تناول الشجرتين ومنبتها ، وهو مظهر عبدالله ورسوله وكلمته وروحه عيسى بن مريم .

كما أن طور سينين مظهر عبده ورسوله وكلمته[٤] موسى ، فإن الجبل الذي كلمه عليه وناجاه وأرسله إلى فرعون وقومه[٥] .

ثم أقسم بالبلد الأمين وهو مكة مظهر خاتم أنبيائه ورسله وسيد ولد آدم ، وترقى في هذا القسم من الفاضل إلى الأفضل ، فبدأ بموضع مظهر المسيح ، ثم ثنى بموضع مظهر الكليم ، ثم ختم بموضع مظهر عبده ورسوله وأكرم الخلق عليه .

ونظير هذا بعينه في التوراة التي أنزلها على موسى : جاء الله من طور سيناء وأشرق من ساعير ، واستعلن من / جبال فاران " فمجيئه من طور سيناء بعثه لموسى بن عمران . [١٥/ب]

وبدأ به على حكم الترتيب الواقع ، ثم ثنى بنبوة المسيح ، ثم ختم بنبوة محمد ﷺ ، وجعل نبوة موسى بمنزلة مجيء الصبح ، ونبوة المسيح بعده بمنزلة طلوع الشمس وإشراقها ، ونبوة محمد ﷺ[٦] بعدها[٧] بمنزلة استعلائها وظهورها للعالم .

[ولما كان الغالب على بني إسرائيل حكم الحس ، ذكر ذلك مطابقاً للواقع][٨] .

---

(1) ما بين القوسين أخذه بمعناه من البسيط (٢/٨٦٤-٨٦٧) .

(2) سقط من الأصل و مثبت في البقية .

(3) (به) ساقطة في (م) و (ق) و المطبوع .

(4) في (م) و (ق) و المطبوع (وكليمه) ولعله أصح .

(5) اختلف في هذا الجبل على قولين :

أ) جبل بالشام كلّم الله عليه موسى و منه نودي فهو الطور . و هو مروي عن كعب الأحبار و الحسن وعكرمة .

ب) الطور هو جبل من غير تخصيص بأنه الذي كلّم عليه موسى . وهو مروي عن : ابن عباس و مجاهد و قتادة و مقاتل و الكلبي

انظر : جامع البيان (٣٠/٢٤٠-٢٤١) ، المحرر الوجيز (١٦/٣٣٠) ، الجامع لأحكام القرآن (٢٠/١١٢) .

(6) في (ق) زيادة : (وعليهم) .

(7) في (م) و (ق) و المطبوع : (بعدهما) .

(8) ما بين المعقوفتين زيادة من (م) و (ق) و المطبوع .

ولما كان الغالب على الأمة الكاملة حكم العقل ذكرها على الترتيب العقلي ، وأقسم بها على بداية الإنسان ونهايته ، فقال : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ(٤) ﴾[١] ، أي في أحسن صورة وشكل واعتدال ، معتدل القامة مستوي الخلق[٢] كامل الصورة ، أحسن من كل حيوان سواه .

والتَّقْويم : تصيير الشيء على ما ينبغي أن يكون في التأليف والتعديل[٣] ، وذلك صـنْعَته سبحانه[٤] وتعالى في قبضة من تراب ، وصنعه بالمشاهدة في نطفة من ماء ، وذلك من أعظم الآيات الدالة على وجود قدرته[٥] وحكمته وعلمه ، وصفات كماله ، ولهذا يكررها كثيراً في القرآن لمكان العبرة بها والاستدلال بأقرب الطرق على وحدانيته ، وعلى المبدأ والمعاد .

وتضمَّن إقسامه بتلك الأمكنة الثلاثة الدالَّة عليه وعلى علمه وحكمته وعنايته بخلقه بأن أرسل منها رسلاً ، أنزل عليهم كتبه ، ويعرِّفون العباد بربهم وحقوقه عليهم ، وينذرونهم بأسه ونقمته ، ويدعونهم إلى كرامته وثوابه .

ثم لما كان الناس في إجابة هذه الدعوة فريقين منهم من أجاب ومنهم من أبى ، ذَكَرَ حال الفريقين فذكر حال الأكثرين وهم المردودون إلى أسفل سافين ، والصحيح أنه النَّار ، قاله مجاهد[٦] والحسن[٧] وأبو العالية[٨] .

---

(1) سورة التين آية (٤) .

(2) في المطبوع : (الخلقة) .

(3) قال في المفردات : (و تقويم الشيء : تثقيفه . . .، و ذلك إشارة إلى ما خصَّ به الإنسان من بين الحيوان من العقل و الفهم ، وانتصاب القامة الدالة على استيلائه على كلِّ ما في هذا العالم) .مفردات الراغب ص (٤١٨) .

(4) في (م) و (ق) والمطبوع : (تبارك وتعالى) .

(5) هكذا في الأصل ، وفي البقية : (على وجوده ، وقدرته . .) .

(6) قول مجاهد أخرجه ابن جرير في تفسيره بسنده (٢٤٥/٣٠) . وذكر أيضاً قوله : الواحدي في البسيط (٨٧٣/٢) ، و الماوردي في النكت و العيون (٣٠٢/٦) ، و البغوي في معالم التنزيل (٨ /٤٧٢) ، وابن عطية في المحرر الوجيز (٣٣١/١٦) و غيرهم ، وعزاه في الدر المنثور (٥٥٥/٨) إلى الفريابي و عبد بن حميد و ابن المنذر .

(7) قول الحسن أخرجه أيضاً ابن جرير في تفسيره بسنده (٢٤٥/٣) ، و إسناده حسن كما قال صاحب التفسير الصحيح (٦٤٩/٤) ، وعبد الرزاق بسنده (٣٨٢/٢) . وذكر أيضاً قوله في المراجع السابقة و انظر أيضاً : (زاد المسير (١٧٣/٩) ، والتفسير الكبير (١١/٣٢) ، و الجامع لأحكام القرآن (١١٥/٢٠) ، و البحر المحيط (٤٩٠/٨) ، وتفسير الحسن البصري (٤٣٠/٢) .

(8) المروي عن أبي العالية : قال : في شرِّ صورة ، في صورة خنزير . أخرجه الطبري بسنده في تفسيره (٢٤٥/٣٠) و ذكر أيضاً قوله في المراجع السابقة ما عدا : التفسير الكبير ، وتفسير عبد الرزاق ، وتفسير الحسن .

قال علي بن أبي طالب [١] : [٢]هي النار بعضها أسفل من بعض[٣] .

وقالت طائفة منهم قتادة[٤] وعكرمة[٥] وعطاء[٦] والكلبي[٧] وإبراهيم[٨] : أنَّه أرْذَل العمر ، وهو مروي عن ابن عباس[٩] .

والصواب القول الأول لوجوه : (أحدها :)[١٠] أن أرذل العمر لا يسمَّى أسفل سافلين لا في لغةٍ ولا عرفٍ ، وإنما أسفل سافلين هو سجِّين الذي هو مكان الفجَّار ، كما أن علّيين مكان الأبرار .

الثاني : أن المردودونَ إلى أرذل العمر بالنسبة إلى نوع الإنسان قليلٌ جداً ، وأكثرهم يموت ولا يرد إلى أرذل العمر .

= وأبو العالية : هو رفيع بن مهران (أبو العالية الرياحي البصري) ، الإمام المقرئ ، الحافظ المفسر ، من كبار التابعين ، أدرك زمان النبي صلى الله عليه وسلم و هو شاب ، ورأى أبا بكر الصديق و دخل عليه ، روى عن : عمر و أبيّ ، وروى عنه : عاصم الأحول و داوود بن أبي هند . مات سنة (٩٠) هـ و قيل غير ذلك . انظر : طبقات ابن سعد (١١٢/٧) ، الكاشف (٣١٢/١) .

(1) علي : هو ابن أبي طالب بن عبد المطلب الهاشمي القرشي ، أبو الحسن ، أمير المؤمنين و رابع الخلفاء الراشدين ، أحد العشرة المبشرين بالجنة ، ابن عم النبي صلى الله عليه و سلم و زوج ابنته فاطمة رضي الله عنها ، ولد قبل الهجرة بعشر سنين ، و قتله عبد الرحمن بن ملجم سنة (٤٠) هـ .
انظر : الرياض النضرة في مناقب العشرة (١٠٣/٣-٢٤١) ، الإصابة (٥٠١/٢-٥٠٣) .

(2) في (م) و (ق) و المطبوع : زيادة (رضي الله عنه) .

(3) ذكر قوله في : البسيط (٨٧٣/٢) ، و التفسير الكبير (١١/٣٢) .

(4) قول قتادة أخرجه عبد الرزاق في تفسيره بسنده (٣٨٢/٢) . و أخرجه أيضاً ابن جرير في تفسيره بسنده (٢٤٤/٣٠) وإسناده حسن كما قال صاحب التفسير الصحيح (٦٤٩/٤) و انظر أيضاً : المحرر الوجيز (٣٣١/١٦) ، زاد المسير (١٧٣/٩) .

(5) أخرج قوله الطبري في تفسيره بسنده (٢٤٤/٣٠) و ذكر أيضاً في البسيط (٨٧٢/٢) ، وزاد المسير (١٧٣/٩) ، والمحرر الوجيز (٣٣١/١٦) ، وعزاه في الدر المنثور (٥٥٨/٨) ، إلى عبد بن حميد و ابن أبي حاتم .

(6) لم أجد من نسب إليه قولاً ، سوى ما ذكره الواحدي في البسيط (٨٧٢/٢) أنه رواية عطاء عن ابن عباس ، و لم أجد هذه الرواية فيما بين يدي من مصادر .

(7) رواية الكلبي عند عبد الرزاق في تفسيره بسنده (٣٨٢/٢) . و عند الواحدي أن رواية الكلبي عن ابن عباس (٨٧٢/٢) ولم أعثر عليها عند غيره .

(8) أخرج قوله الطبري في تفسيره بسنده (٢٤٤/٣٠) . وذكرها عنه أيضاً في : البسيط (٨٧٢/٢) ، و زاد المسير (٩/)

(9) روى عن ابن عباس من أكثر من طريق :
من طريق عكرمة عند الطبري بسنده (٢٤٤/٢) ، و عن طريق أبي رزين عند الطبري أيضاً بسنده (٢٤٤/٢) ، ومن طريق العوفي عند الطبري أيضاً بسنده (٢٤٤/٢) ، و عزاه في الدر المنثور من غير ذكر للطرق (٥٥٤/٨) إلى ابن أبي حاتم و ابن مردويه ، وسعيد بن منصور وعبد بن حميد ، وابن المنذر .

(10) في الأصل و (ب) : منها ، وفي البقية (أحدها :) و هو ما أثبته .

الثالث : أن الذين أمنوا وعملوا الصالحات يستوون وغيرهم في رد من طال عمره إلى أرذل العمر ، فليس ذلك مختصّاً بالكفّار حتى يستثني منهم المؤمنين .

الرّابع : أنَّ الله سبحانه لما أراد [ذلك][١] لم يخصه بالكفار بل جعله لجنس بني آدم فقال (تعالى)[٢] : ﴿ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ ﴾[٣] ، وجعلهم قسمين : قسم يتوفى[٤] قبل الكبر ، وقسم مردود إلى أرذل العمر ، و لم يسمِّه أسفل سافلين .

الخامس : أَنَّهُ لا يَحْسُنُ المقابلةُ بين أرذل العمر وبين أجر[٥] المؤمنين وهو سبحانه قابل بين جزاء هؤلاء ، وبين[٦] جزاء أهل الإيمان فجعل جزاء الكفار أسفل سافلين ، وجزاء المؤمنين أجراً غير ممنون .

السادس : أن قول من فسره بأرذل العمر يستلزم خلو الآية من[٧] جزاء الكفار وعاقبة أمرهم ، وتفسيرها[٨] بأمر محسوس ، فيكون قد ترك الإخبار عن المقصود والأهم[٩] ، وأخبر بأمر[١٠] يعرف بالحس والمشاهدة ، وفي ذلك هضم لمعنى الآية ونقص[١١] بها عن المعنى اللائق بها .

السابع : أنه سبحانه ذكر حال الإنسان في مبدئه ومعاده ، فمبدؤه خلقه في أحسن تقويم ، ومعاده رده إلى أسفل سافلين ، أو إلى أجر غير ممنون ، وهذا موافق لطريقة القرآن وعادته في ذكر مبدأ العبد ومعاده ، فما لأرذل العمر وهذا المعنى المطلوب المقصود إثباته والاستدلال عليه .

الثامن : أن أرباب القول الأول مضطرون إلى مخالفة الحس أو[١٢] إخراج الكلام عن ظاهره ، والتكلف البعيد[١٣] ، فإنهم إن قالوا : أن الذي يرد إلى أرذل العمر هم الكفار دون المؤمنون

---

(1) سقط من الأصل و اثبته من البقية .
(2) سقط من (م) و (ق) و المطبوع .
(3) سورة الحج آية (٥) .
(4) في (م) و (ق) و المطبوع : (وقسم متوفّى) .
(5) في المطبوع : جزاء .
(6) سقط من (م) و (ق) والمطبوع .
(7) في (م) زيادة (ذكر) بعد (عن) فتصبح العبارة : (عن ذكر جزاء الكفار . .) .
(8) في المطبوع : (ويستلزم تفسرها) .
(9) في غير الأصل : (المقصود الأهم) بدون واو .
(10) في المطبوع : (وأخبر عن أمر . . .) .
(11) في (م) و (ق) والمطبوع : (وتقصير) يدل : (ونقص) .
(12) في (ق) والمطبوع : (وإخراج) .
(13) في (ق) : (التكليف البعيد له) ، وفي المطبوع : زيادة : (له) .

كابروا الحس وإن قالوا[١] : إن من النوعين من يرد إلى أرذل العمر احتاجوا إلى التكلف لصحة الاستثناء ، فمنهم من قدر ذلك بأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لا تبطل أعمالهم إذا ردوا إلى أرذل العمر ، بل تجرى عليهم أعمالهم التي كانوا يعملونها في الصحة ، وهذا[٢] وإن كان حقاً فإن الاستثناء إنما وقع من الرد لا من الأجر والعمل .

ولما علم أرباب هذا القول ما فيه من التكلف خص بعضهم الذين آمنوا / وعملوا الصالحات بقرّاء القرآن خاصة . فقالوا : من قرأ القرآن لا يرد إلى أرذل العمر[3] وهذا ضعيف من وجهين : [١٦/ب]

أحدهما : أن الاستثناء عام في المؤمنين ، قارئهم وأميهم .

الثاني[٤] : أنهم لا دليل لهم على ما ادعوه ، وهذا لا يعلم بالحس ولا خبر يجب التسليم إليه[٥] يقتضيه والله أعلم .

التاسع : أنه سبحانه ذكر نعمته على الإنسان بخلقه في أحسن تقويم ، وهذه النعمة توجب عليه أن يشكرها بالإيمان به ، وعبادته وحده لا شريك له ، فينقله وحده[٦] من هذه الدار إلى أعلى عليين ، فإذا لم يؤمن بربه[٧] وأشرك به وعصى رسله نقله منها إلى أسفل سافلين ، وبدله بعد هذه السورة التي هي في أحسن تقويم صورة من أقبح الصور في أسفل سافلين ، فتلك نعمته عليه ، وهذا عدله فيه وعقوبته على هوان[٨] نعمته .

---

(1) في (ق) : (وقالوا) .

(2) في المطبوع : (فهذا) .

(3) ورد هذا القول عن عكرمة عن ابن عباس كما ذكر ذلك البغوي في معالم التنزيل (٤٧٣/٨) ، وورد أيضاً من قول عكرمة كما ذكر ذلك الواحدي في البسيط (٢ / ٨٧٤) ، والقرطبي في تفسيره (١١٦/٢٠) ، وابن كثير في تفسيره (٥٢٧/٤) ، وعزاه في الدر المنثور (٥٥٨/٨) إلى عبد بن حميد وابن أبي حاتم .

(4) سقط من المطبوع وفيه : (وإنهم لا دليل لهم . .) .

(5) في (م) و (ق) والمطبوع : (له) .

(6) في (م) و (ق) والطبوع : (فينقله حينئذ من هذه الدار . .) .

(7) في المطبوع : (لم يؤمن به) .

(8) في (م) و (ق) والمطبوع : (كفران) بدل : (هوان) .

العاشر : أن نظير هذه الآية قوله[1] : ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ(٢٤)إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ[2] أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ(٢٥) ﴾[3] ، فالعذاب الأليم هو أسفل سافلين[4] ، والمستثنون هنا هم المستثنون هناك ، والأجر [غير الممنون هنا هو المذكور هناك ، والله أعلم[5].

وقوله (غير ممنون) أي][6]: غير مقطوع ولا منقوص ، ولا مكدر عليهم ، هذا[7] هو الصواب . وقالت طائفة : غير ممنون به عليهم بل هو جزاء أعمالهم ، ويذكر هذا عن عكرمة[8] ومقاتل[9] ، وهو قول كثير من القدرية ، قال هؤلاء : لأن[10] المنة تكدر النعمة فتمام النعمة بأن يكون[11] غير ممنون بها على المنعم عليه ، وهذا القول خطأ قطعاً ، أتى [به][12] أربابه من تشبيه نعمة الله على عبده بإنعام المخلوق على المخلوق ، وهذا من أبطل الباطل ، فإن المنة التي تكدر النعمة هي منة المخلوق على المخلوق .

وأما منة الخالق على المخلوق فيها تمام النعمة ولذتها وطيبها ، فإنها منة حقيقية[13] ، قال تعالى : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ﴾[14] الآية .

---

(1) في (م) و (ق) والمطبوع : زيادة (تعالى) .
(2) في المطبوع خطأ (فلهم) .
(3) سورة الانشقاق الآيتان (٢٤-٢٥) .
(4) في (م) و (ق) : (السافلين) بالتعريف .
(5) وقد رجح هذا القول جماعة منهم : شيخ الإسلام ابن تيمية انظر : التفسير الكبير (٢٨٤/٦-٢٨٧) وانتصر له وضعف غيره وبين سبب ضعفه . وممن رجحه أيضاً الحافظ ابن كثير حيث رد على الطبري الذي رجح القول الأول حيث يقول : " ولو كان هذا هو المراد ، لما حسن استثناء المؤمنين من ذلك ، لأن الهرم قد يصيب بعضهم ، وإنما المراد ما ذكرناه كقوله تعالى : ﴿ والعصر . إن الإنسان لفي خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ . تفسير ابن كثير (٤/ ٥٢٧) .
(6) ما بين المعقوفتين ساقط من الأصل .
(7) في (ق) والمطبوع : (وهذا) .
(8) قول عكرمة ذكره الواحدي في تفسيره البسيط (٨٧٥/٢) .
(9) قول مقاتل أيضاً ذكره الواحدي في البسيط (٨٧٥/٢) .
(10) في المطبوع : (إن) .
(11) في (ق) والمطبوع : (أن تكون) .
(12) زيادة من المطبوع .
(13) في (ق) والمطبوع : (حقيقة) .
(14) سورة الحجرات آية (١٧) وفي غير الأصل و (ب) إكمال الآية إلى آخرها .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ(١١٤)وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنْ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ(١١٥) ﴾[١] . فكيف[٢] تكون منته[٣] عليهما نعمة الدنيا دون نعمة الآخرة .

وقال (تعالى)[٤] لموسى : ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى(٣٧) ﴾[٥] .

وقال أهل الجنة : ﴿ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴾[٦] .

وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾[٧] الآية

وقال (تعالى)[٨] : ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾[٩] .

وفي الصحيح : أن النبي ﷺ قال لما قال[١٠] للأنصار : " **ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي ؟ ألم أجدكم عالة فأغناكم الله بي ؟** " وجعلوا[١١] يقولون له[١٢] : " **الله ورسوله أمـــنّ** "[١٣] ، فهذا جواب العارفين بالله ورسوله .

وهل المنة[١٤] إلا لله المنان[١٥] بفضله الذي جميع الخلق في منته[١٦] .

---

(1) سورة الصافات الآيتان (١١٤-١١٥) .

(2) في غير الأصل و (ب) (فتكون) .

(3) في (م) و (ق) : (منته) ، وفي المطبوع : (منة) .

(4) قوله : (تعالى) سقط من غير الأصل و (ب) .

(5) سورة طه آية (٣٧) .

(6) سورة الطور آية (٢٧) .

(7) سورة آل عمران آية (١٦٤) . وفي (م) و (ق) زيادة : (يتلو عليهم آياته) .

(8) قوله : (تعالى) سقط من غير الأصل و (ب) .

(9) سورة القصص آية (٥) وفي غير الأصل و (ب) والمطبوع : تكملة الآية .

(10) سقط من المطبوع : (لما قال) .

(11) في (م) و (ق) : (جعلوا) ، وفي المطبوع : (فجعلوا) .

(12) (له) ساقطة من (ق) .

(13) الحديث أخرجه البخاري في (٦٤) كتاب المغازي ، (٥٦) باب غزوة الطائف ، ح (٤٣٣٠) ، ومسلم في (١٢) كتـــاب الزكاة ، (٤٦) باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام ، وتصبر من قوي إيمانه ح (١٠٦١) من حديث عبدالله بن زيد رضي الله عنه

(14) في غير الأصل : زيادة (كل المنة) .

(15) في غير الأصل و (ب) : المان .

(16) في غير الأصل : (منته) .

وإنما قبحت منة المخلوقين لأنها منة ما ليس منه ، وهي منة يتأذى بها الممنون عليه ، وأما منة المنان [1] بفضله التي ما طاب العيش إلا بمنته ، وكل نعمة منه في الدنيا والآخرة فهي منة يمن بها على من أنعم عليه ، فتلك لا يجوز نفيها ، وكيف يجوز أن يقال : أنه لا منة لله على الذين آمنوا وعملوا الصالحات في دخول الجنة ، وهل هذا إلا من أبطل الباطل ؟ .

فإن قيل : هذا القدر لا يخفى على من قال هذا القول من العلماء ، وليس مرادهم ما ذكر وإنما مرادهم أنه لا يمن عليهم به ، وإن كانت لله فيه المنة عليهم ، فإنه لا يمن عليهم به ، بل يقال لهم[2]: هذا جزاء أعمالكم التي عملتموها في الدنيا ، وهذا أجركم ، فأنتم تستوفون أجور أعمالكم ، ولا[3] نمن عليكم بما أعطيناكم .

قيل : وهذا أيضاً هو الباطل بعينه فإن ذلك الأجر ليست الأعمال ثمناً له[4] ولا معاوضة عنه ، وقد قال أعلم الخلق بالله[5] : **" لن يدخل أحد[6] منكم الجنة بعمله " قالوا ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : " ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل "**[7] ، فأخبر أن دخول الجنة برحمة الله وفضله ، وذلك محض منّته عليه (وعلى سائر عباده ، وكما أنه سبحانه المنان بإرسال رسله وبالتوفيق لطاعتهم[8] وبالإعانة عليها ، فهو المنان بإعطاء الجزاء ، وذلك كله محض منته)[9] وفضله وجوده لا حق لا أحد عليه بحيث إذا وفاه[10] إياه لم يكن له عليه منة ، فإن كان في الدنيا باطل[11] فهذا منة[12] .

---

(1) في (م) و (ق) : (المان) .

(2) قوله : (لهم) ساقط من غير الأصل و (م) .

(3) (الواو) ساقطة من غير الأصل .

(4) تحرفت في (ق) إلى (بمثاله) .

(5) في المطبوع زيادة صلى الله عليه وسلم .

(6) في الأصل : (أحدكم) وهو خطأ .

(7) أخرجه البخاري في (٨١) كتاب الرقاق ، (١٨) باب القصد والمداومة على العمل ح (٦٤٦٣) ، ومسلم في (٥٠) كتاب صفات المنافقين وأحكامهم . (١٧) باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى ح (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(8) في المطبوع " (لطاعته) .

(9) ما بين القوسين ساقط من (ق) .

(10) في (ق) والمطبوع : (وافاه) .

(11) في (م) و (ق : (فباطل)

(12) في المطبوع : (فهذا ليس منه في شيء) .

فإن قيل : كيف تقولون هذا وقد أخبر رسوله عنه بأن حق العباد عليه إذا عبدوه وحده[١]/ أن لا يعذبهم[٢] ، وقد أخبر عن نفسه أن حقاً عليه نصر المؤمنين[٣] ؟ . [١٧/ب]

قيل : لعمر الله ، وهذا[٤] من أعظم منته[٥] على عباده أن جعل على نفسه حقـــاً بحكـــم وعده الصادق ، أن يثيبهم ولا يعذبهم إذا عبدوه وحده[٦] فهذا من تمام منته ، فإنه لو عذب أهل سماواته وأرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ، ولكن منته اقتضت أن أحق على نفسه ثواب عابديه ، وإجابة سائليه[٧] .

ما للعباد عليه حـــق واجـــب — كلا ولا سعي لديـــه ضـــائع

إن عذبوا فبعد لـــه أو نعمـــوا — فبفضله وهو[٨] الكريم الواســـع

وقوله سبحانه[٩] : ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ(٧) ﴾[١٠] أصح القولين أن هذا خطـــاب للإنسان[١١] ، أي : فما يكذبك بالجزاء والمعاد بعد هذا البيان وهذا البرهان ؟ فتقول : إنـــك لا تبعث ولا تحاسب ، ولو تفكرت[١٢] في مبدأ خلقك وصورتك لعلمت أن الذي خلقك أقدر على

---

(1) في غير الأصل و (ب) : (إذا وحدوه) .

(2) كما جاء ذلك في حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه الذي أخرجه البخاري في (٥٦) كتاب الجهاد والسير ، (٤٦) باب اسم الفرس والحمار ح (٢٨٥٤) وانظر ح (٥٩٦٧-٦٢٦٧-٧٣٧٣) ، ومسلم في (١) كتاب الإيمان (١٠) باب الدليل علـــى أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً ح (٣٠) وغيرهما .

(3) كما في قوله تعالى : ﴿ وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ﴾ .

(4) في المطبوع : (هذا) من غير واو .

(5) في (م) و (ق) : (مننه) .

(6) في المطبوع : (ووحدوه) .

(7) انظر : شفاء العليل (٢١٣/١-٢١٥) .

(8) قوله (سبحانه) سقط من (ق) .

(9) في غير الأصل و (ب) : (فهو) .

(10) سورة التين آية (٧) .

(11) في (ق) : (للامتنان) .

(12) في (ق) : (فكرت) .

إعادتك بعد موتك ونشأتك[١] خلقاً جديداً (من خلقك الأول)[٢] ، وأن ذلك لو أعياه وأعجزه لأعياه وأعجزه[٣] خلقك الأول .

وأيضاً فإن الذي كمل خلقك في أحسن تقويم [بعد][٤] أن كنت نطفة من ماء مهين ، كيف يليق به أن يتركك سدىً ، لا يكمل ذاتك[٥] بالأمر والنهي ، وبيان ما ينفعك ويضرك ، ولا يبعثك[٦] لدار هي أكمل من هذه الدار[٧] ، ويجعل هذه الدار طريقاً لك إليها ؟ . فحكمة أحكم الحاكمين تأبى ذلك ، وتقتضي خلافه .

قال منصور[٨] : قلت لمجاهد . فما يكذبك بعد بالدين ؟ عني به محمداً ؟ فقال[٩] : معاذ الله ، إنما عني به الإنسان[١٠] .

وقال قتادة : الضمير للنبي ﷺ[١١] ، واختاره الفراء[١٢] ، وهذا موضع يحتاج إلى شرح وبيان[١٣] .

---

(1) في غير الأصل و (ب) : (على أن يعيدك . . . وينشئك . . .) .

(2) ما بين القوسين سقط من غير الأصل و (ب) .

(3) في غير الاصل و (ب) : (لو أعجزه لأعجزه وأعياه) .

(4) سقط من الأصل . والاستدراك من البقية .

(5) في المطبوع : (ذلك) .

(6) في غير الأصل و (ب) : (ولا تنقل لدار) .

(7) قوله : (الدار) ساقط من غير الأصل و (ب) .

(8) منصور هو : منصور بن المعتمر بن عبدالله بن ربيعة السلمي ، أبو عتاب الكوفي ثقة حافظ متقن مشهور بالتعبد والصلاح ، روى عن جماعة منهم : النخعي والحسن البصري ، وسعيد بن جبير ومجاهد وغيرهم ، وروى عنه الأعمش والسفيانان ، وإسرائيل وأبو الأحوص وغيرهم . توفي سنة (١٣٢هـ) وكان فيه تشيع قليل ولم يكن بغال . انظر : الجرح والتعديل (١٧٧/٨) ، التهذيب (٣١٢/١٠) .

(9) في (ق) : (قال) .

(10) قول مجاهد: أخرجه ابن جرير في تفسيره بإسناده (٢٤٩/٣٠) .
وذكر عنه أيضاً في : البسيط (٨٧٧/٢) ، المحرر الوجيز (٣٣٢/١٦) تفسير ابن كثير (٥٢٧/٤) .

(11) أخرج أثر قتادة بمعناه الطبري في تفسيره (٢٤٩/٣٠) وإسناده حسن كما قال صاحب التفسير الصحيح (٦٤٩/٤) .

(12) انظر : معاني القرآن للفراء (٢٧٧/٣)

(13) الكلام الآتي بعد هذا نقله ابن القيم مع شيء من التصرف من شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية انظر التفسير الكبير (٢٨٧/٦-٢٩٤)

يقال : كذب الرجل إذا قال الكذب ، وكذبته[1] إذا نسبته إلى الكذب ولو اعتقدت صدقه وكذبته . إذا اعتقدت كذبه وإن كان صادقاً ، قال تعالى : ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ ﴾[2] . وقال (تعالى)[3] : ﴿ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ ﴾[4] .

فالأول بمعنى : وإن نسبوك[5] إلى الكذب ، والثاني بمعنى لا يعتقدون أنك كاذب ، ولكنهم يعاندون ، ويدفعون الحق بعد معرفته جحوداً / وعناداً ، هذا أصل هذه اللفظة ، ويتعدى [١٨/أ] الفعل إلى المخبر[6] بنفسه ، وإلى خبره بالباء أو بفي[7] ، فيقال : كذبته بكذا ، وكذبته فيه ، والأول أكثر استعمالاً ومنه قوله (تعالى)[8] : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ ﴾[9]،[10] ﴿ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾[11] .

إذا عرف هذا فقوله : ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ ﴾[12] ، اختلف في " ما " هل هي بمعنى : أي شيء يكذبك ، أو بمعنى : من الذي يكذبك ، فمن جعلها بمعنى أي شيء ، تعين على قوله أن يكون الخطاب للإنسان ، أي : فأي شيء يجعلك بعد هذا البيان مكذباً بالدين ؟ وقد وضحت لك دلائل الصدق والتصديق .

ومن جعلها بمعنى فمن الذي يكذبك جعل الخطاب للنبي ﷺ .

---

(1) في غير الأصل و (ب) زيادة : (أنا) فتصبح العبارة : (وكذبته أنا إذا . . .) .

(2) سورة فاطر الآية (٤) وفي المطبوع : تكملة الآية .

(3) سقط من غير الأصل و (ب) .

(4) سورة الأنعام آية (٣٣) .

(5) في غير الأصل و (ب) : (ينسبوك) .

(6) في غير الأصل و (ب) : (الخبر) .

(7) في المطبوع : (و) بدل (أو) .

(8) سقط من غير الأصل و (ب) .

(9) سورة ق آية (٥) .

(10) في المطبوع زيادة : (وقوله) .

(11) سورة الحديد آية (١٩) .

(12) في غير الأصل و (ب) : (فما يكذبك) .

قال الفراء : كأنه يقول من يقدر على تكذيبك بالثواب والعقاب بعد ما تبين له من خلق الإنسان ما وصفناه[١] ، وقال قتادة : فمن يكذبك أيها الرسول بعد هذا بالدين[٢] ؟ .

وعلى قول قتادة والفراء إشكال من وجهين :

أحدهما : إقامة " ما " مقام " من " وأمره سهل .

والثاني : أن الجار والمجرور يستدعي متعلقاً وهو يكذبك ، أي : فمن يكذبك بالدين ؟ فلا يخلوا إما أن يكون المعنى : فمن يجعلك كاذباً بالدين أو مكذبا به ؟ ، ولا يصح واحد منهما ، أما[٣] الثاني والثالث فظاهر ، فإن كذبته ليس [معناه][٤] جعلته مكذّباً أو مكذّباً ، وإنما معناه نسبته إلى الكذب ، فالمعنى على هذا : فمن يجعلك[٥] كاذباً بالدين (أو مكذباً به ؟)[٦] ، وهذا إنما يتعدى إليه بالباء الفعل المضاعف لا الثلاثي ، فلا يقال : كذب بكذا[٧] ، وإنما يقال : كذب به .

وجواب هذا الإشكال أن قوله : كذب بكذا ، معناه : كذب المخبر به ، ثم حذفوا[٨] المفعول[٩] لظهور العلم به ، حتى كأنه نسي منسي[١٠] وعدوا[الفعل][١١] إلى المخبر به . فإذا قيل: من يكذبك بكذا ، فهو بمعنى : كذبوك بكذا سواء ، أي :نسبوك إلى الكذب في الإخبار به بل الإشكال في قول مجاهد والجمهور ، فإن الخطاب إذا كان للإنسان وهو المكذب أي : فاعل التكذيب ، فكيف يقال له : ما يكذبك ؟ أي يجعل مكذباً[١٢] ، والمعروف كذبه إذا جعله كاذباً لا مكذباً ، مثل : فسقه إذا جعله فاسقاً لا مفسقاً / لغيره .

---

(1) معاني القرآن للفراء (٣/٢٧٧) .

(2) انظر قول قتادة في : البسيط (٢/٨٧٧) ، الجامع لأحكام القرآن (٢٠/١١٦) ، البحر المحيط (٨/٤٩٠) .

(3) في (ق) : (وأما) .

(4) سقط من الأصل .

(5) بعد قوله (يجعلك) : زيادة (بعد) .

(6) ما بين القوسين سقط من (م) و (ق) والمطبوع .

(7) في (ق) : (كذبته بكذا) ، وفي المطبوع : (كذب بكذا) .

(8) في المطبوع : (حذف) .

(9) في الطبوع : زياده (به) .

(10) قوله : (منسي) ساقط من المطبوع .

(11) سقط من الأصل .

(12) هكذا في الأصل . وفي غير الأصل : (يجعلك) .

وجواب هذا الإشكال أن صدق وكذب بالتشديد يراد به معنيان :

أحدهما : النسبة وهي إنما تكون للمفعول كما ذكرتم .

الثاني : الداعي والحامل على ذلك وهو يكون للفاعل ، قال الكسائي[١] : يقال : ما صدقك بكذا أو ما كذبك بكذا ، أي ما حملك على التصديق والتكذيب .

قلت : وهو نظير ما جرّأك[٢] على هذا ؟ أي : ما[٣] حملك على الاجتراء عليه ، وما قدمك وما أخرك ؟ أي : ما دعاك وحملك على التقدم والتأخر[٤] ؟ وهذا استعمال سائغ في العربية وبالله التوفيق .

ثم ختم السورة بقوله تعالى[٥] : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴾ ؟ وهذا تقرير لمضمون السورة من إثبات النبوة والتوحيد ، والمعاد ، وحكمه يتضمن نصره لرسوله على من كذبه وجحد ما جاء به بالحجة والقدرة والظهور عليه ، وحكمه بين عباده في الدنيا بشرعه ، وأمره ، وحكمه بينهم في الآخرة بثوابه وعقابه وأن أحكم الحاكمين لا يليق به تعطيل هذه الأحكام بعدما ظهرت حكمته في خلق الإنسان في أحسن تقويم ، وبنقله[٦] في أطوار التخليق حالاً بعد حال ، الى أكمل أحواله[٧] ، فكيف يليق بأحكم الحاكمين أن لا يجازى المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ؟ وهل ذلك إلا قدح في حكمه وحكمته ، فلله ما أخصر لفظ هذه السورة وأعظم شأنها ، وأتم معناها .. والله أعلم .

(1) الكسائي : هو علي بن حمزة بن عبدالله بن بهمن بن فيروز الأسدي مولاهم ، الكوفي . المعرف بالكسائي أبو الحسن ، أحد القراء السبعة . كان إماماً في النحو واللغة والقراءات ، انتهت إليه رئاسة الإقراء بالكوفة بعد حمزة ، أخذ القراءة من حمزة وعيسى بن عمر الهمداني وابن أبي ليلى وغيرهم ، وأخذ العربية عن الخليل بن أحمد . قال الشافعي : من أراد أن يتبحر في النحو فهو عيال على الكسائي . قرأ عليه : أبو عمر الدوري وأبو الحارث الليثي وغيرهما . له عدة مؤلفات منها : معاني القرآن وكتاب القراءات . مات بالري سنة ١٨٩هـ انظر : معرفة القراء الكبار (١/١٠٠) ، غاية النهاية (١/٥٣٥) .

(2) في المطبوع : (أجرأك) .

(3) (ما) ساقطة من (ق) .

(4) في المطبوع : (التقديم والتأخير) .

(5) (تعالى) ساقطة من المطبوع .

(6) في المطبوع : (ونقله) .

(7) في المطبوع : (الأحوال) .

فصل

{ القسم في سورة الليل }

ومن ذلك قسمه سبحانه[1] بـ ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى(١)وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى(٢) ..الآيات ﴾[2] ، وقد تقدم ذكر المقسم عليه ، وأنه سعي الإنسان في الدنيا وجزاؤه في العقبى[3] .

فهو سبحانه يقسم بالليل في[4] جميع أحواله ، إذا هو من آياته الدالة عليه ، فأقسم به في وقت[5] غشيانه ، وأتى به[6] بصيغة المضارع لأنه يغشى شيئا بعد شيء .

وأما النهار فإنه إذا طلعت الشمس ظهر وتجلى وهلة واحدة ، ولهذا قال في سورة والشمس وضحاها : ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا(٣)وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴾[7] وأقسم به وقت سريانه كما تقدَّم ، وأقسم به وقت إدباره وأقسم / به إذا عَسْعَسْ ، فقيل معناه : أدبر[8] ، فيكون [١٩/أ] (معناه)[9] مطابقاً لقوله ﴿ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ(٣٣)وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴾[10] .

وقيل معناه : أقبل[11] ، فيكون كقوله : ﴿ و وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى(١)وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ﴾ .

---

(1) في غير الأصل و (ب) زيادة (وتعالى) .

(2) سورة الليل الآيتان (١ ــ ٢) . وفي (م) و (ق) والمطبوع : ذكر الآية الثالثة أيضاً (وما خلق الذكر والأنثى) .

(3) كما تقدم في ص (   ) .

(4) في (ق) : (وجميع) .

(5) في (م) و (ق) والمطبوع : (فأقسم به وقت . . .) .

(6) (به) سقط من المطبوع .

(7) سورة الشمس الآيتان (٣-٤) .

(8) وهو مروي عن جماعة منهم : ابن عباس وعلي رضي الله عنهما ، ومقاتل و مجاهد و الضحاك و ابن زيد و غيرهم ، انظر : جامع البيان (٧٨/٣٠) ، النكت والعيون (٢١٧/٦) ، المحرر الوجيز (٢٤٢/١٦) ، زاد المسير (١٩٢/٨) ، تفسير القرآن العظيم (٤/ ٤٧٩) ، معالم التنزيل (٨/ ٣٤٩) ، الدر المنثور (٤٣٣/٨)

(9) ما بين القوسين ساقط من (م) و (ق) و المطبوع .

(10) سورة المدثر الآيتان (٣٣-٣٤) ، وسقط من الأصل (إذا) الأولى . و في (م) و (ق) : (إذا دبر) وهي قراءة :

(11) وهو مروي عن الحسن و مجاهد . انظر : المراجع السابقة . وأهل اللغة يذكرون القولين و يقولون إن هذه الكلمة من الأضداد ففيها المعنيان . وممن ذهب إلى هذا القول أبو عبيدة و التوزي و أبو حاتم السجستاني و ابن الانباري . انظر : مجاز القرآن (٢٧٨/٢) ، الأضداد للتوزي ص (٩٩) ، الأضداد لأبي حاتم ص (١٦٦) ، الأضداد لأبن الأنباري ص (٣٢-٣٤) .

فيكون قد أقسم بإقبال الليل و النهار وعلى الأول يكون[١] القسم واقعاً على انصرام الليل ومجيء الصبح[٢] عقيبه ، وكلاهما من آيات ربوبيته .

ثم أقسم بخَلْق الذكر والأنثى ، وذلك يتضمن الإقسام بالحيوان كلّه على اختلاف أصنافه ، ذكره وأنثاه .

وقابل بين الذكر والأنثى ، كما قابل بين الليل والنهار ، وكل ذلك من آيات ربوبيته ، فإن إخراج الليل والنهار بواسطة الأجرام العلوية ، كإخراج الذكر والأنثى بواسطة الأجرام السفلية ، فأخرج من الأرض ذكور الحيوان وإناثه على اختلاف أنواعه ، كما أخرج من السماء الليل والنهار بواسطة الشمس فيها .

وأقسم سبحانه بزمان السعي و [هو][٣] الليل والنهار وبالساعي وهو الذكر والأنثى على اختلاف السعي كما اختلف الليل والنهار ، والذكر والأنثى وسعيه وزمانه يختلف[٤] ، وذلك دليل على [اختلاف][٥] جزائه وثوابه ، وأنه سبحانه لا يسوِّي بين من اختلف [سعيه][٦] في الجزاء كما لم يسو بين الليل والنهار ، والذكر والأنثى .

ثم أخبر عن تفريقه بين عاقبة سعي المحسن ، وعاقبة سعي[٧] المسيء ، فقال (تعالى)[٨] : ﴿ **فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى(٥)وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى(٦)فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى(٧)وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى(٨)وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى(٩)فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى(١٠)** ﴾[٩] فتضمنت الآيتان ذكر شرعه وقدره ، وذكر الأعمال وجزائها ، وحكمة القدر في تيسير هذا لليسرى ، وهذا للعسرى ، وأن العبد ميسر بأعماله لغاياتها ، ولا يظلم ربك أحداً .

---

(1) في (ق) : (لكون) بدل (يكون) .
(2) في المطبوع : (النهار) .
(3) ما بين المعقوفتين ساقط من الأصل .
(4) في (م) و (ق) و المطبوع : (مختلف) .
(5) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل .
(6) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل .
(7) قوله : (سعي) : سقط من (ب) .
(8) ساقط من (م) و (ق) والمطبوع .
(9) سورة الليل الآيات (٥-١٠) .

وذكر للتيسير لليسرى ، (وأن العبد ميسر)[١] ثلاثة أسباب :

أحدها : إعطاء العبد وحذف مفعول الفعل إرادة الإطلاق[٢] والتعميم ، أي : أعطى ما أمر به وسمحت به نفسه وطبيعته[٣] / ، وذلك يتناول إعطاؤه من نفسه الإيمان والطاعة والإخلاص ، والتوبة والشكر ، وإعطاؤه الإحسان والنفع بماله ولسانه ، وبدنه ، ونيته ، وقصده ، فتكون نفسه نفساً مطيعة باذلة لا لئيمة مانعة . [١٩/ب]

فالنفس المطيعة : هي النفَّاعة[٤] المحسنة التي طبعها الإحسان وإعطاء الخير اللازم والمتعدي ، فتعطي خيرها لنفسها ولغيرها ، فهي بمنزلة العين التي ينتفع الناس بشربهم منها ، وسقي دوابهم وأنعامهم وزروعهم ، فهم ينتفعون بها كيف شاءوا ، فهي ميسَّرة لذلك .

وهكذا الرجل المبارك ميسر للنفع حيث حلَّ ، فجزاء هذا أن يسره [الله][٥] لليسرى كما كانت نفسه ميسرة للعطاء .

السبب الثاني : التقوى : وهي اجتناب ما نهى الله عنه وهذا من أعظم أسباب التيسير ، وضده من أسباب التعسير .

فالمتَّقي ميسر[٦] عليه أمور دنياه وآخرته ، وتارك التقوى وإن يسرت عليه بعض أمور دنياه تعسَّر[٧] عليه من أمور آخرته بحسب ما تركه من التقوى .

وأما تيسير ما تعسر عليه من أمور الدنيا فلو اتقى الله[٨] لكان تيسيرها عليه أتم ، ولو قدِّرَ أنَّها لم تيسَّر[٩] له فقد ييسر الله له من الدنيا ما هو أنفع له مما[١٠] ناله بغير التقوى .

---

(1) ثابتة في الأصل فقط و ساقطة في غيره .

(2) في غير الأصل و (ب) : (إرادةً للإطلاق) .

(3) في (م) و (ق) والمطبوع : (ما أمر به وسمحت به طبيعته ، وطاوعته نفسه) .

(4) في المطبوع : (النافعة) .

(5) مابين المعقوفتين سقط من الأصل .

(6) في المطبوع : (ميسَّرة) .

(7) في (ق) : (انعكس) .

(8) في (ب) : زيادة (تعالى) .

(9) في (م) و (ق) و المطبوع : (لم تتيسر) .

(10) في الأصل : (فما) والمثبت من النسخ الباقية .

فإن طيب العيش ونعيم القلب ، ولَذَّةَ الروح وفرحها وابتهاجها من أعظم نعيم الـــدنيا ، وهو أجل من نعيم أرباب الدنيا بالشهوات واللذات ، ونعيم أهل التقوى بالطاعـــات والقربـــات أعظم وأجل . (قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا(٢)﴾ . إلى قوله : ﴿ وَمَنْ يَتَّـــقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا(٤)﴾[١] ، فأخبر أنه ييسر على المتقي[٢] ما ييسر على غيره .

ويرزقه من حيث لا يحتسب ، وهذا أيضاً تيسير عليه لتقواه ، وأخبر تعالى أنه يكفر عـــن المتقي سيئاته ، ويعظم له أجراً ، وهذا تيسير عليه بإزالة ما يخشاه ، وإعطائه ما يحبه ويرضاه)[٣] ، وقال تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو / الْفَضْلِ الْعَظِيمِ(٢٩)﴾[٤] ، وهذا تيسير بالفرقان المتضمن للنجاة والنصر والعلـــم [٢٠/أ] والنور الفارق بين الحق والباطل ، وتكفير السيئات ومغفرة الذنوب ، وذلك غاية التيسير .

وقال تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(١٣٠)﴾[٥] ، والفلاح غاية اليسر ، كما أن الشقاء غاية العسر .

وقال تعالى : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾[٦] الآية ، فضمن لهم سبحانه بالتقوى ثلاثة أمور :

أحدها : أعطاهم نصيبين من رحمته نصيباً في الدنيا ونصيباً في الآخرة ، وقد يضاعف لهم نصيب الآخرة ، فيصير نصيبين .

الثاني : أعطاهم نوراً يمشون به في الظلمات .

الثالث : مغفرة ذنوبهم ، وهذا غاية التيسير . فقد جعل سبحانه التقوى سبباً لكل يســـر ، وترك التقوى سبباً لكل عسر .

---

(1) سورة الطلاق الآيات (٢-٤) .

(2) في الأصل : (التقوى) والتصويب من غيره .

(3) هكذا في الأصل و (ب) أما في غيرهما فتذكر كل آية من آيات التقوى من سورة الطلاق و تعقب بالتعليق عليها .

(4) سورة الأنفال آية (٢٩) . وآخر الآية (والله ذو الفضل العظيم) سقط من (م) و (ق) و المطبوع .

(5) سورة آل عمران الآية (١٣٠) .

(6) سورة الحديد آية (٢٨) . وفي (م) و (ق) و المطبوع : ذكر الآية كاملة من أولها إلى قوله (ويغفر لكم) .

السبب الثالث : التصديق بالحسنى ، وفسرت بلا إله إلا الله[١] ، وفسرت بالجنة[٢] ، وفسرت بالخلف[٣] ، وهي أقوال السلف ، واليسرى صفة لموصوف محذوف ، أي : الحالة والخلّة اليسرى ، وهي فعلى من اليسر ، والأقوال الثلاثة ترجع إلى أفضل الأعمال ، وأفضل الجزاء .

فمن فسَّرها بلا إله إلا الله فقد فسرها بمفرد يأتي بكل جمع ، فإن التَصّديق الحقيقي بلا إله إلا الله يستلزم التصديق بشعبها وفروعها كلها وجميع أصول الدين وفروعه[٤] ن شعب هذه الكلمة فلا يكون العبد مصدِّقاً بها حقيقة التصديق حتى يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، ولقائه ، ولا يكون مؤمناً بأن الله[٥] إله العالمين حتى يؤْمن بصفات جلاله ، ونعوت كماله ، ولا يكون مؤمناً بلا إله إلا هو[٦] حتى يسلب خصائص الإلهية عن كل موجود سواه[٧] ، ويسلبها عن اعتقاده وإرادته ، كما هي منفية في الحقيقة والخارج [فلا يعتقد مثلاً استقلال سوى الله تعالى بنفع ولا ضر ولا يعلق آماله بسوى مولاه ، رزقنا الله ذلك بفضله وكرمه] [٨] .

ولا يكون مصدقاً بها من نفي الصفات العلى[٩] ، ولا من نفى كلامه وتكليمه ، ولا من نفى استواءه على عرشه وأنه يصعد[١٠] إليه الكلم الطيب والعمل الصالح[١١] ، وأنه رفع المسيح

---

(1) هذا القول مروي عن مجاهد و أبي عبد الرحمن السلمي والضحاك . انظر : جامع البيان (٣٠/٢٢٠) البسيط (٢/٨٢١) النكت والعيون (٦/٢٨٧) ، معالم التنزيل (٨/ ٤٤٥) ، المحرر الوجيز (١٦/٣١٧) ، زاد المسير (٩/١٤٩) ، الجامع لأحكام القرآن (٢٠/٨٣) ، البحر المحيط (٨/٤٨٣) ، تفسير الضحاك (٢/٩٧٣) .

(2) هذا القول مروي عن مجاهد . انظر : جامع البيان (٣٠/٢٢٠) .

(3) هذا القول مروي عن ابن عباس وعكرمة و مجاهد أيضاً . انظر : جامع البيان (٣٠/٢٢٠) ، والمراجع السابقة عدا النكت والعيون ، وتفسير الضحاك ، وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٨/٥٣٥) إلى سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان وقدَّ رجح الطبري هذا القول وقال : (و إنما قلت ذلك أولى الأقوال بالصواب في ذلك ، لأن الله ذكر قبله منفقاً أنفق طالباً بنفقته الخلف منها ، فكان أولى المعاني به أن يكون الذي عقيبه الخبر عن تصديقه بوعد الله إياه بالخلف ، إذ كانت نفقته على الوجه الذي يرضاه . .) . واستدلَّ أيضاً بأن هذه الآيات نزلت في أبي بكر رضي الله عنه .

(4) في (ب) و (م) و (ق) : (وجميع الدين أصوله وفروعه) .

(5) في المطبوع : (بالله إله العالمين) .

(6) في (ب) و (م) : (بأنه لا إله إلا هو) ، و في (ق) : (بأن لا إله إلا هو) ، وفي المطبوع : (بأن الله لا إله هو) .

(7) في (م) و (ق) : (عن كل موجود من سواه) .

(8) ما بين المعقوفتين في هامش الأصل فقط .

(9) في المطبوع : (العليا) .

(10) في غير الأصل و (ب) : (يرفع) .

(11) في (ب) زيادة : (يرفعه) .

إليه ، وأسري برسوله صلى الله عليه وسلم[1] إليه ، وأنه يدَبِّر الأمر من السـماء إلى الأرض ، ثم يعرج[2] إليه ، إلى سائر ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم[3] .

ولا يكون مؤمناً بهذه الكلمة مصدقاً بها على / الحقيقة من نفى عموم خلقه لكل شيء ، وقدرتِه على كل شيء ، وعلمه بكل شيء ، وبعثه للأجساد[4] من القبور ليوم النشور . [٢٠/ب]

ولا يكون مصدقاً بها من زعم أنه يترك خلقه سداً لم يأمرهم و لم ينههم على ألسنة رسله .

وكذلك التصديق بها يقتضي الإذعان والإقرار بحقوقها ، وهي شرائع الإسلام الـتي هـي تفصيل هذه الكلمة ، فالتصديق[5] بجميع أخباره ، وامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه هو تفصـيل لا إله إلا الله .

فالمصدِّق بها على الحقيقة الذي يأتي بذلك كله ، وكذلك لم تحصَل عصمة المال والدم على الإطلاق إلا بها وبالقيام بحقها[6] ، وكذلك لا تحصل النجاة من العذاب على الإطـلاق إلا بهـا وبحقها ، فالعقوبة في الدنيا والآخرة على تركها أو ترك حقها .

ومن فسر الحسنى بالجنة فَسَّرها بأعلى أنواع[7] الجزاءِ وكمالِه . ومن فسرها بالخلف ذكر نوعاً من الجزاء فهذا جزاء دنيوي والجنة الجزاء في الآخرة ، فرجع التصديق بالحسنى إلى التصديق بالإيمان وجزائه ، والتحقيق أنها تتناول الأمرين .

وتأمل ما اشتملت عليه هذه الكلمات الثلاث[8] ، وهي الإعطاء والتقوى ، والتصـديق بالحسنى ، من العلم والعمل وتضمنته من الهدى ودين الحق ، فإن النفس لها ثلاث قـوى : قـوة البذل والإعطاء ، وقوة الكفّ و[9] الامتناع ، وقوة الفهم والإدراك[10] ، ففيها قوة العلم والشعور

---

(1) زيادة من غير الأصل و (ب) .
(2) في (ق) : (يرجع) .
(3) زيادة من غير الأصل و (ب) .
(4) في (م) و (ق) و المطبوع : (وبعثه الأجساد) .
(5) في (م) و (ق) و المطبوع : (بالتصديق) .
(6) في (م) و (ق) : (إلا بها و بحقها) .
(7) في (ق) : (فسَّرها بأنواع) .
(8) قوله : (الثلاث) سقط من (ق) .
(9) في الأصل و (ب) : (عن) والتصويب من النسخ الأخرى .
(10) في (م) و (ق) و المطبوع : (قوة الإدراك والفهم) .

، وتتبعها[1] قوة الحب والإرادة وقوة البغض والنفرة ، فهذه القوى الثلاث عليها مدار صـلاحها وسعادتها ، وبفسادها يكون فسادها وشقاوتها ، ففساد قوة العلم والشعور يوجب له التكذيب بالحسنى ، وفساد قوة الحب والإرادة يوجب [له][2] ترك الإعطاء (والمنع)[3] ، وفساد قوة البغض والنفرة يوجب له ترك الاتقاء ، فإذا كَمَّل[4] قوة حبه وإرادته بإعطائه ما أمر به وقوة بغضه ونفرته باتقائه ما نُهي عنه ، وقوة علمه وشعوره بتصديقه بكلمة الإسلام وحقوقها وجزائها ، فقد زكى نفسه وأعدها لكل حالة يسر ، فصارت النفس بذلك ميسرة لليسرى .

ولما كان الدين يدور على ثلاث قواعد / : فعل المأمور ، وترك المحظور ، وتصديق الخبر . [٢١/أ]

وإن شئت قلت : الدين طلب وخبر .

والطلب نوعان : طلب فعل وطلب ترك ، فتضمنت[5] هذه الكلمات الثلاث مراتب الدين أجمعها .

فالإعطاء : فعل المأمور ، والتَّقوى : ترك المحظور ، والتَّصديق بالحسنى : تصديق الخبر ، فانتظم ذلك الدين كله ، وأكمل الناس من كملت له هذه القوى الثلاث ، ودخول النقص بحسب نقصانها أوبعْضها[6] .

فمن الناس من تكون قوة إعطائه وبذله أتم من قوة انكفافه وتركه ، فقوة الترك فيه أضعف من قوة الإعطاء (ومن الناس من تكوة قوة الترك والانكاف فيه أتمّ من قوة الأعطاء)[7] .

ومن الناس من تكون قوة التصديق فيه أتم (من قوة الإعطاء والمنع ، فقوته العلمية الشعورية أتم من)[8] قوة الإرادية وبالعكس ، فيدخل النقص بحسب ما نقص من قوة[9] هذه القوى الثلاث ، ويفوته من التيسير لليسرى بحسب ما فاته منها .

ومن كملت له هذه القوى يسر لكل يسرى .

---

(1) في غير الأصل و (ب) : (وتبعها) .
(2) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل ، مثبت في البقية .
(3) سقط من (م) و (ق) و المطبوع .
(4) هكذا في الأصل و (ب) و في غيرهما : (كملت) .
(5) في (م) و(ق) : (تضمنت) ، وفي المطبوع : (فقد تضمنت) .
(6) في الأصل : (بحسب نقصانها وبغضها) و هو خطأ و التصويب من النسخ الأخرى .
(7) سقط من (ق) .
(8) سقط من (ق) .
(9) في (ب) و (م) : (ما نقص من نقص قوة . .) .

قال ابن عباس : ﴿ فسنيسره لليسرى ﴾ ،[1] نهيئه لعمل الخير ، ونيسِّرها عليه[2] ، وقال مقاتل والكلبي[3] والفرَّاء : " نيسره للعود إلى العمل الصالح "[4] ، وحقيقة اليسرى : أنَّها الخلَّة والحالة السهلة النافعة الرافعة[5] له ، وهي ضدّ العسرى ، وذلك يتضمن تيسيره للخير وأسبابه فيجرى الخير وييسره[6] على قلبه ونيَّته[7] ولسانه وجوارحه فتصير خصال الخير (وأسبابه)[8] ميسرة عليه مذللة له ، منقادة لا تستعصي عليه ولا تستصعب لأنه مهيأٌ لها ، ميسر ليفعلها[9] ، يسلك سبلها ذللاً ، وتنقاد[10] له علماً وعملاً ، فإذا خالطته قلت (هذا)[11] هو الذي قيل فيه:

مبَارك الطَّلْعَةِ[12] ميمونها يَصْلح للدّنيا وللدِّين

﴿ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ﴾ ، فعَطَّل قوة الإرادة والإعطاء عن فعل ما أمر به ، ﴿ وَاسْتَغْنَى﴾ بترك التقوى عن ربه فعطل قوة الانكفاف والترك عن فعل ما نُهي عنه ، ﴿ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى﴾ فعطل قوة العلم والشعور عن التصديق بالإيمان وجزائه ، ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ قال / عطاء : سوف [٢١/ب] أحول بين قلبه وبين الإيمان بي وبرسولي[13] .

قال مقاتل : تعَسَّر[14] عليه أن يعطى خيراً[15] ، وقال عكرمة عن ابن عباس : نيسِّره للشر[16] .

(1) في المطبوع : زيادة (أي) .
(2) ورد معنى قوله في : البسيط (٨٢٢/٢) ، والنكت والعيون (٢٨٨/٦) ، وزاد المسير (١٤٩/٩) ، وتفسير ابن كثير (٥١٨/٤) .
(3) ذكره عنهما و نسبه إليهما الواحدي في البسيط (٨٢٢/٢) .
(4) معاني القرآن (٢٧٠/٣) .
(5) هكذا في الأصل . وفي غيره : (الواقعة) .
(6) في (ب) و (م) والمطبوع : (وييسر) .
(7) في (م) و (ق) : (بدنه) ، وفي المطبوع : (ويده) .
(8) ما بين القوسين سقط من (م) و (ق) والمطبوع .
(9) هكذا في الأصل . وفي غيره : (لفعلها) .
(10) في (ب) : (وينقاد) ، وفي (م) و (ق) والمطبوع : (وتقاد) .
(11) ما بين القوسين سقط من (م) و (ق) والمطبوع .
(12) في (ق) : (الطليعة) .
(13) ذكره الواحدي في البسيط (٨٢٣/٢) ونسب إلى عطاء ، و لم أجده عند غيره ، ولكن ورد بمعنى قوله من طريق الضحاك عن ابن عباس . انظر : الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ٨٤) .
(14) في غير الأصل : (يعَسَّر) .
(15) ذكره الواحدي في البسيط (٨٢٣/٢) وبنحوه في معالم التنزيل (٤٤٦/٨) ، وفتح القدير (٥/ ٥٣٠) .
(16) أخرجه الطبري في تفسيره بسنده (٢٢٤/٣٠) .

قال الواحدي : " وهذا هو القول لأنَّ الشرَّ يؤدي إلى العذاب ، فهو الخلَّة العسرى ، والخير يؤدي إلى اليسر والراحة في الجنة فهو الخلَّة اليسرى . يقول : سنهيئه للشَّرِّ بأن يجريه على يديه .

قال الفرَّاء : والعرب تقول : قد يسَّرت غنم فلان إذا تهيأت[1] للولادة[2] ، وكذلك إذا ولدت وغزرت[3] ألبانها أي : يسَّرت ذلك على[4] أصحابها"[5] انتهى .

والتَّيسير للعسرى يكون بأمرين :

أحدهما : أن يحول بينه وبين أسباب الخير ، فيجري الشرَّ على قلبه ونيَّته ولسانه وجوارحه

والثاني : أن يحول بينه وبين الجزاء الأَيْسَر كما حال بينه وبين أسبابه .

فإن قيل : كيف قابل اتقى باستغنى ؟ وهل يمكن العبد أن يستغني عن ربه طرفة عين ؟ ! .

قيل : هذا من أحسن المقابلة ، فإن المتقي لما استشعر فقره وفاقته ، وشدة حاجته إلى ربه اتقاه و لم يتعرض لسخطه وغضبه ومقته . بارتكاب ما نهاه عنه ، فإن من كان فقيراً شديد الحاجة والضرورة إلى شخص فإنه يتقي غضبه وسخطه عليه غاية الاتقاء ، ويجانب ما يكرهه غاية المجانبة ويعتمد فعل ما يحبه ويؤثره فقابل التقوى بالاستغناء تشنيعاً لحال تارك التقوى ، ومبالغة في ذمِّه بأن فعل فعل المستغني عن ربِّه لا فعل الفقير المضطر إليه الذي لا ملجأ له منه[6] إلا إليه ، ولا غنى له عن فضله وجوده وبرِّه[7] طرفة عين .

فلله (الحمد)[8] ما أحلى هذه المقابلة ، وما أجمع هاتين الآيتين للخيرات كلها وأسبابها ، وللشرور كلها وأسبابها .

فسبحان من تعرَّف إلى خواصِّ عبادِه بكلامه ،وتجلى لهم فيه فهم لا يطلبون أثراً بعد عين ولا يستبدلون الحق بالباطل ، والصدق بالمين .

---

(1) في معاني الفرَّاء : (إذا ولدت وتهيأت للولادة) .

(2) معاني القرآن للفرَّاء (٢٧١/٣) .

(3) في البسيط : (وكثرت) .

(4) في البسيط : (كأنها يسرت الأمر على أصحابها) .

(5) البسيط (٨٢٤/٢) ت. الورثان .

(6) قوله : (منه) سقط من المطبوع .

(7) في (م) و (ق) زيادة : (ولطفه) بعد (وبره) .

(8) مثبت في الأصل ساقط في غيره .

وقد تضمنت هاتان / الآيتان فصل الخطاب في مسألة القدر ، وإزالة كل لبس وإشكال [٢٢/أ] فيها ، وذلك بين بحمد الله لمن وفق لفهمه ولهذا أجاب بهما النبي ﷺ لمن[١] أَوْرَدَ عليه السؤال الذي لا يزال الناس يلهجون به في القدر ، وأجاب بفصل الخطاب وإزالة الإشكال .

ففي الصحيحين من حديث علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)[٢] عن النبي ﷺ أنه قال : " **ما منكم من أحد إلا وقد علم مقعده من الجنة والنار " قيل يا رسول الله : أفلا ندع العمل ونتكل على كتابنا[٣] ؟ قال : اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، ثم قرأ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥)وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى(٦) ﴾[٤] إلى قوله : ﴿ لِلْعُسْرَى﴾**[٥] .

فقد تضمن هذا الحديث الرد على القدرية والجبرية ، وإثبات القدر والشرع وإثبات الكتاب الأول المتضمن لعلم الله سبحانه الأشياء قبل كونها[٦] ، وإثبات خلق الفعل الجزائي ، وهو يبطل أصول القدرية الذين يمنعون خلق الفعل مطلقاً ومن أقر منهم بخلق الفعل الجزائي[٧] دون الابتدائي[٨] هدم أصله ونقض قاعدته .

والنبي ﷺ أخبر بمثل ما أخبر به الرب تعالى أن العبد ميسر لما خلق له ، لا مجبور ، فالجبر لفظ بدعي[٩] ، والتيسير لفظ القرآن والسنة ، وفي الحديث دلالة على أن الصحابة كانوا أعلم الناس بأصول الدين ، فإنهم تلقوها عن أعلم الخلق بالله (عز وجل)[١٠] على الإطلاق ، وكانوا إذا استشكلوا شيئاً سألوه عنه ، وكان يجيبهم بما يزيل الإشكال ، ويبين الصواب ، فهم العارفون بأصول الدين حقاً ، لا أهل البدع والأهواء من المتكلمين ومن سلك سبيلهم .

---

(1) في المطبوع : (من) .
(2) سقط من (ب) .
(3) هكذا في الأصل و (ب) وفي غيرهما : (الكتاب) .
(4) في (م) و (ق) والمطبوع : إكمال الآية التي بعدها (فسنيسره لليسرى) .
(5) الحديث أخرجه البخاري في مواضع من صحيحه أحدها : في (٦٥) كتاب التفسير ، (٩٢) سورة (والليل إذا يغشى) ، (٣) باب (فأما من أعطى و اتقى) ح (٤٩٤٥) . وانظر : (١٣٦٢-٤٩٤٦-٤٩٤٧-٤٩٤٨-٦٢١٧-٦٦٠٥-٧٥٥٢) ، ومسلم في (٤٦) كتاب القدر (١) باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه و أجله و عمله و شقاوته و سعادته ح (٢٦٤٧) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه .
(6) انظر : شفاء العليل (٧٩/١-١٢١) .
(7) في (ق) و المطبوع : (فعل الجزاء) .
(8) في (م) و (ق) و المطبوع : (دون الابتداء) .
(9) انظر كلاماً جميلاً لابن القيم عن الجبر في شفاء العليل (٣٨٥/١-٣٨٩) .
(10) سقط من (م) و (ق) و المطبوع .

وفي الحديث استدلال النبي ﷺ على مسائل أصول الدين بالقرآن وإرشـاد[1] الصحابة إلى[2] استنباطها منه خلافاً لمن زعم أن كلام الله ورسوله لا يفيد العلم بشيء من أصول الدين ، ولا يجوز أن تستفاد معرفة الله وأسمائه وصفاته وأفعاله منه وعبر عن[3] ذلك بقوله / : الأدلة اللفظية لا تفيد اليقين . [٢٢/ب]

وفي الحديث : بيان أن من الناس من خلق للسعادة ، ومنهم من خلق للشقاوة ، خلافاً لمن زعم أنهم كلّهم خلقوا للسعادة ، ولكن اختاروا الشقاوة و لم يخلقوا لها .

وفيه إثبات الأسباب وأن العبد ميسر للأسباب الموصلة له[4] إلى ما خلق له .

وفيه دليل على اشتقاق السنة من الكتاب ، ومطابقتها له ، فتأمل قوله[5] : " اعملوا فكل ميسر لما خلق له " ومطابقته لقوله تعالى :﴿ **فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى(٥)**﴾[6] إلى آخر الآيتين ، كيف انتظم الشرع والقدر والسبب والمسبب .

وهذا الذي أرشد إليه النبي ﷺ هو الذي فطر الله عليه عباده ، بل الحيوان البهيم ، بل مصالح الدنيا وعمارها بذلك فلو قال كل أحد : إن كان قدّر لي كذا وكذا . . فلا بدَّ أن أناله وأن لم يقدَّر لي[7] ، فلا سبيل إلى نيله فلا أسعى ولا أتحرك ، لعد من السفهاء الجهال ، و لم يمكنه طرد ذلك أبداً وإن أتى به في أمر معين فهل يمكنه أن يطرده[8] في مصالحه جميعها من طعامه وشرابه ولباسه ومسكنه ومنكحه ، وهروبه مما يضاد بقاءه وينافي مصالحه ، أم يجد نفسه غير منفكة البتة عن قول النبي ﷺ : " **اعملوا ، فكل ميسر لما خلق له** " .

---

(1) في (م) و (ق) و المطبوع : (وإرشاده) .
(2) في (ق) : (على) ، وفي المطبوع : (لا استنباطها) .
(3) (عن) : سقط من (ب) .
(4) (له) : سقط من (ب) .
(5) في المطبوع : (قوله ﷺ) .
(6) في (ب) : زيادة الآية (و صدّق بالحسنى) .
(7) (لي) : سقط من المطبوع .
(8) في (م) و (ق) و المطبوع : (يطرد ذلك) .

فإذا كان هذا في مصالح الدنيا وأسباب منافعها ، فما الموجب لتعطيله في مصالح الآخرة ، وأسباب السعادة والفلاح[١] ، ورب الدنيا والآخرة واحد ، فكيف يعطل ذلك في شرع الرب وأمره ونهيه ، ويستعمل في إرادة العبد وأغراضه وشهواته ؟ وهل هذا إلا محض الظلم والجهل ؟ والإنسان ظلوم جهول ، ظلوم لنفسه ، جهول بربه ، فهذا الذي أرشد إليه النبي ﷺ ، وتلا عنده هاتين الآيتين موافق لما جعله الله في عقول العقلاء ، وركب[٢] عليه فطر الخلائق حتى الحيوان / [٢٣/أ] البهيم ، وأرسل به جميع رسله ، وأنزل به [جميع][٣] كتبه .

ولو اتّكل العبد على القدر ولم يعمل لتعطلت الشرائع وتعطلت مصالح العالم ، وفسد أمر الدنيا والدين ، وإنما يستروح إلى ذلك معطلوا الشرائع ومن خلع ربقة[٤] الأوامر والنواهي من عنقه ، وذلك ميراث من إخوانهم المشركين الذين دفعوا أمر الله ونهيه وعارضوا شرعه بقضائه وقدره ، كما حكى الله[٥] ذلك عنهم في غير موضع من كتابه ، كقوله تعالى : ﴿ **سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا** ﴾[٦] الآية . . وما بعدها .

وقال تعالى : ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ** ﴾[٧] الآية . .

وقال تعالى : ﴿ **وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ** ﴾[٨] . الآية . .

وقوله تعالى[٩]: ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ ؟** ﴾[١٠] الآية .

---

(1) في المطبوع : زيادة (فيها) .

(2) في نسخة (ق) : اضطراب في العبارة هنا .

(3) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل ، وهو مثبت في جميع النسخ .

(4) في (ب) : (رقبة) .

(5) في (م) و (ق) والمطبوع : زيادة (سبحانه) .

(6) سورة الأنعام آية (١٤٨) ، و في (ب) : زيادة (من شيء) ، وفي (م) و (ق) و المطبوع : تكملة الآية وذكر الآية التي بعدها .

(7) سورة النحل آية (٣٥) ، وفي (م) و (ق) والمطبوع : تكملة الآية .

(8) سورة الزخرف الآية (٢٠) . و في (م) و (ق) والمطبوع : تكملة الآية .

(9) في (م) و (ق) و المطبوع : (قال تعالى) .

(10) سورة يس آية (٤٧) . وفي (م) و (ق) و المطبوع : تكملة الآية .

فإن قيل : فالإعطاء والتقوى والتَّصديق بالحسنى هو من اليسرى ، بل هي أصل اليسرى ، فمن[١] يسَّرها للعبد أولاً وكذلك أضدادها ؟ .

قيل : الله سبحانه هو الذي يسَّر للعبد أسباب الخير والشر ، وخلق خلقه قسمين : أهل السعادة فيسرهم لليسرى ، وأهل الشقاوة فيسرهم للعسرى ، وأستعمل هؤلاء في الأسباب التي خلقوا لغاياها لا يصلحون لسواها ، وهؤلاء في الأسباب التي خلقوا لغاياها لا يصلحون لسواها ، وحكمته الباهرة تأبى أن يضع عقوبته في موضع لا تصلح له ، كما تأبى أن يضع كرامته وثوابه في محل لا يصلح له[٢] ولا يليق به[٣] ، بل حكمة آحاد خلقه تأبى ذلك ومن / جعل محل المسك [٢٣/ب] والرجيع واحداً فهو أسفه[٤] السفهاء .

فإن قيل : فلم جعل الله[٥] هذا لا يليق به إلا الكرامة ، وهذا لا يليق به إلا الإهانة ؟ قيل : هذا سؤال جاهلٍ لا يستحق الجواب ، كأنه يقول : لم خلق الله كذا وكذا ؟

فإن قيل : وعلى هذا ، فهل لهذا الجاهل من جواب لعله يشفى من جهله ؟ قيل : نعم ، شأن الربوبية خلق الأشياء و أضدادها ، وخلق الملزومات ولوازمها ، وذلك هو محض الكمال ، فالعلو لازم وملزوم للسفل ، والليل لازم وملزوم للنهار ، وكمال هذا الوجود بالحر والبرد ، والصحو والغيم .

ومن لوازم الطبيعة الحيوانية الصحة والمرض ، واختلاف الإرادات والمرادات ووجود الملزوم بدون لازمه ممتنع[٦] ، ولولا خلق المضادات[٧] لما عرف كمال القدرة والمشيئة والحكمة ، ولما ظهرت أحكام الأسماء والصفات ، فظهور[٨] أحكامها وآثارها لابد منه ، إذ هو مقتضى الكمال المقدس والملك التام .

---

(1) في (م) و (ق) والمطبوع : (من يسَّرها) .
(2) في المطبوع : (لهما) .
(3) في المطبوع : (بهما) .
(4) في (م) و (ق) والمطبوع : (فهو من أسفه) .
(5) لفظ الجلالة مثبت في الأصل ساقط من غيره .
(6) في (م) و (ق) و المطبوع : (بدون ملزومه ممتنع) .
(7) في (م) و (ق) و المطبوع : (المتضادات) .
(8) هكذا في الأصل وفي غيره : (وظهور) .

وإذا أعطيت اسم الملك حقه ولن تستطيع علمت أن (الخلق)[١] والأمر والثواب والعقاب والعطاء[٢] والحرمان أمرٌ لازمٌ لصفة الملك ، وأن صفة الملك تقتضي[٣] ذلك ولابد ، وأن تعطلر[٤] هذه الصفة أمر ممتنع ، فالملك الحق يقتضي إرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، وأمر العباد ونهيهم ، وثوابهم وعقابهم ، وإكرام من يستحق الإكرام ، وإهانة من يستحق الإهانة ، كما تستلزم[٥] حياة الملك وعلمه وإرادته وقدرته وسمعه وبصره ، وكلامه ورحمته ورضاه وغضبه ، واستواءه على سرير ملكه يدبِّر أمر عباده ، وهذه الإشارة تكفي اللبيب في مثل هذا الموضع ، ويطلع منها على رياض مؤنَّقَة[٦] وكنوز من المعرفة وبالله التوفيق . / [٢٤/أ]



(1) في الأصل تحرفت إلى : (الحق) والتصويب من النسخ الأخرى .
(2) قوله : (العطاء) سقط من (ب) .
(3) في (م) : (يقتضي) .
(4) في المطبوع : (تعطيل) .
(5) في الأصل و (ب) : (يستلزم) ، و في غيرهما : (تستلزم) وهو ما أثبته .
(6) في المطبوع : (على أرض مؤنقة) .

فصل

{ تفسير قوله تعالى { إن علينا للهدى } }

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى(١٢)وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى(١٣)﴾ [1] (قيل معناه : إنَّ علينا أن نبيّن طريق الهدى من طريق الضلال[2] .

قال قتاده : على الله البيان بيان حلاله وحرامه ، وطاعته ومعصيته[3] ، اختاره أبو إسحاق[4] ، وهو قول مقاتل[5] وجماعة ، وهذا المعنى حق ولكن مراد الآية شيء آخر .

وقيل المعنى : إن علينا للهدى والإضلال ، قال[6] ابن عباس[7] في رواية عطاء : يريد : أرشد أوليائي إلى العمل بطاعتي ، وأحول بين أعدائي وبين أن يعملوا بطاعتي[8] .

قال الفرَّاء : فترك ذكر الإضلال كما قال " سرابيل تقيكم الحر " أي[9]: والبرد[10] ، وهذا أضعف من القول الأول ، وإن كان معناه صحيحاً ، فليس هو معنى الآية .

وقيل[11]: المعنى من سلك الهدى فعلى الله سبيله لقوله[12] تعالى : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ﴾ وهذا قول مجاهد[13] ، وهو أصح الأقوال في الآية .

---

(1) سورة الليل الآيتان (١٢-١٣) .
(2) الوسيط للواحدي (٤/٥٠٥) ، معاني القرآن للزجاج (٥/٣٣٦) .
(3) أخرج هذا الأثر الطبري في تفسيره بسنده (٣٠/٢٢٦) و إسناده حسن كما قال صاحب التفسير الصحيح (٤/٦٤١) . وقد ورد أيضاً في : البسيط (٢/٨٢٥) ، النكت والعيون (٦/٢٨٩) ، معالم التنزيل (٨/ ٤٤٧) ، الجامع لأحكام القرآن (٢٠/٨٦) ، تفسير ابن كثير (٤/٥٢٠) ، وعزاه في الدر المنثور (٨/٥٣٧) إلى عبد بن حميد وابن المنذر و ابن أبي حاتم .
(4) يعني الزجاج . انظر : معاني القرآن وإعرابه (٥/٣٣٦) .
(5) نسبه إليه الواحدي في تفسيره البسيط (٢/٨٢٥) . و لم أجده معزواً إلى مقاتل عند غيره .
(6) في (م) و (ق) : (وقال) .
(7) في (م) و (ق) زيادة : (رضي الله عنه) ، وفي المطبوع : (رضي الله عنهما) .
(8) قول ابن عباس ورد في تفسير البسيط (٢/٨٢٦) ، و التفسير الكبير للرازي (٣١/٢٠٣) .
(9) قوله : (أي) سقط من (ق) .
(10) انظر : معاني القرآن للفراء (٣/٢٧١) .
(11) في (م) و (ق) : (قيل) بدون واو .
(12) في غير الأصل و (ب) : (كقوله) .
(13) لم أجد هذا القول منسوباً إلى مجاهد إلا هنا . ويذكره المفسرون نقلاً عن الفرَّاء وهو في معانيه (٣/٢٧١) و قد نسبه ابن جرير إلى قول بعض أهل العربية و يقصد به الفراء فقد نقله عنه نصاً انظر : جامع البيان (٣٠/٢٢٦) .

قال الواحدي : " علينا الهدى[1] : أي أن الهدى يوصل صاحبه إلى الله وإلى ثوابه وجنته "[2] وهذا المعنى في القرآن في ثلاثة مواضع : ههنا ، وفي النحل في[3] قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ﴾[4] وفي الحجر :[5] قال : ﴿ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ(٤١) ﴾[6] وهو معنى شريف جليل ، يدل على أن سالك طريق الهدى يوصله طريقه إلى الله (عز وجل)[7]، ولابد .

فالهدى[8] هو الصراط المستقيم ، فمن سلكه أوصله إلى الله تعالى ، فذكر الطريق والغاية ، فالطريق الهدى والغاية الوصول إلى الله (عز وجل)[9] ، فهذه أشرف الوسائل.، وغايتها أعلى الغايات .

ولما كان مطلوب السالك إلى الله تحصيل مصالح دنياه وآخرته ، لم يتم له هذا المطلوب إلا بتوحيد طلبه والمطلوب منه ، فأعلمه سبحانه أن سواه لا يملك من الدنيا والآخرة شيئا ، وأن الدنيا والآخرة جميعاً له وحده ، فإذا تيقن العبد ذلك اجتمع طلبه ومطلوبه على من يملك الدنيا والآخرة وحده / . [٢٤/ب]

فتضمنت الآيتان أربعة أمور : هي المطالب العالية : ذكر أعلى الغايات وهو الوصول إلى الله سبحانه ، وأقرب الطرق والوسائل إليه ، وهي طريقة الهدى وتوحيد الطريق ، فلا تعدل عنها إلى غيرها ، وتوحيد المطلوب وهو الحق فلا تعدل عنه إلى غيره ، فاقتبس هذه الأمور من مشكاة هذه الكلمات فإن هذا[10] غاية العلم والفهم وبالله التوفيق .

---

(1) في المطبوع : (علينا للهدى) .
(2) البسيط (٨٢٥/٢) .
(3) قوله : (في) سقط من (ب) .
(4) سورة النحل آية (٩) .
(5) في (م) و (ق) والمطبوع : زيادة (في قوله) .
(6) سورة الحجر آية (٤١) .
(7) سقط من (م) و (ق) والمطبوع .
(8) في المطبوع : (والهدى) .
(9) سقط من (م) و (ق) والمطبوع .
(10) قوله : (هذا) سقط من (م) .

والهدى التام يتضمن توحيد الطلب وتوحيد المطلوب[١] وتوحيد الطريق الموصلة والانقطاع . وتخلف الوصول يقع من الشركة في هذه الأمور أو في بعضها ، فالشركة في المطلوب تنافي التوحيد الإخلاص ، والشركة في الطلب تنافي الصدق والعزيمة ، والشركة في الطريق تنافي اتباع الأمر ، فالأول : يوقع في الشرك والرياء .

والثاني : يوقع في المعصية والبطالة .

والثالث : يوقع في البدعة ومفارقة السنة ، فتأمله .

فتوحيد المطلوب يعصم من الشرك ، وتوحيد الطلب يعصم من المعصية ، وتوحيد الطريق يعصم من البدعة . والشيطان إنما ينصب فخه بهذه الطرق الثلاثة .

ولما أقام سبحانه الدليل وأنار السبيل ، وأوضح الحجة وبين المحجة ، أنذر عباده عذابه الذي أعده لمن كذب خبره وتولى عن طاعته ، وجعل هذا الصنف من الناس هم أشقاهم ، كما جعل أسعدهم أهل التقوى و الإحسان والإخلاص ، فهذا الصنف هو الذي تجنب عذابه كما قال[٢] ﴿ **وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى(١٧)الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى(١٨)** ﴾[٣] .

فهذا المتقي المحسن ، ولا[٤] يفعل ذلك إلا ابتغاء وجه ربه ، فهو مخلص في تقواه وإحسانه .

وفي الآية إرشاد[٥] إلى أن صاحب التقوى لا ينبغي له أن يتحمل مِنَنَ الخلق ونعمهم ، وإن حمل منها شيئاً بادر إلى جزائهم عليه ، لئلا يبقى[٦] لأحد من الخلق عليه نعمة تجزى ، فيكون بعد ذلك عمله كله لله وحده ، ليس جزاء للمخلوق[٧] على نعمته .

ونبه بقوله : ﴿ **تجزى** ﴾[٨] / على أن نعمة الإسلام التي لرسول الله ﷺ على هذا الأتقى [٢٥/أ] لا تجزى ، فإن كل ذي نعمة يمكن جزاء نعمته إلا نعمة الإسلام ، فإنها لا يمكن جزاؤها من المنعم

---

(1) في غير الأصل : (توحيد المطلوب وتوحيد الطلب) .
(2) في (ب) : زيادة : (تعالى) .
(3) سورة الليل الآيتان (١٧-١٨) .
(4) الواو ساقطة من المطبوع .
(5) في المطبوع : (الإرشاد) .
(6) في المطبوع : (يتبقى) .
(7) في المطبوع : (ليس للمخلوق جزاء) .
(8) سورة الليل آية (١٩) .

بها عليه[١] ، وهذا يدل على أن الصِّدِّيق[٢] أول وأولى من ذكر في هذه الآية ، وأنه أحق الأمة بها ، فإن علياً رضي الله عنه تربى في بيت رسول الله ﷺ ، فلرسول الله ﷺ عنده نعمة غير نعمة الإسلام يمكن أن تجزى .

ونبه سبحانه بقوله : ﴿ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى(٢٠)﴾[٣] على أن من ليس لمخلوق عليه نعمة تجزى لا يفعل ما يفعله إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ، بخلاف من تطوق بنعم[٤] المخلوقين ومنّتهم[٥] فإنه مضطر إلى أن يفعل لأجلهم ، ويترك لأجلهم ، ولهذا كان من كمال الإخلاص أن لا يجعل العبد عليه منّةً لأحدٍ من الناس لتكون معاملته كلها لله ، ابتغاء وجهه ، وطلب مرضاته[٦]، وكما أن هذه الغاية أعلى الغايات ، وهذا المطلوب أشرف المطالب ، فهذه الطريق ــ أقصد الطرق إليه ــ وأقربها وأقومها ، وبالله التوفيق .



(1) في (م) و (ق) والمطبوع : (فإنها لا يمكن المنعم بها عليه أن يجزي بها) .
(2) في المطبوع : زيادة : (رضي الله عنه) .
(3) سورة الليل آية (٢٠) .
(4) في (م) و (ق) والمطبوع : (من تطوق نعم) .
(5) في غير الأصل : (ومننهم) .
(6) في (ق) : (وطلب رضاه) .

فصل

{القسم في سورة الضحى}

ومن ذلك إقسامه سبحانه بـ ﴿وَالضُّحَى(١)وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى(٢)﴾[1] على إنعامه على رسوله ﷺ وإكرامه له وإعطائه ما يرضيه ، وذلك متضمن لتصديقه له ، فهو يقسم[2] على صحة نبوته ، وعلى جزائه في الآخرة ، فهو قسمٌ على النبوة والمعاد ، وأقسم بآيتين عظيمتين من آياته دالتين على ربوبيته وحكمته ورحمته ، وهما الليل والنهار .

فتأمل مطابقة هذا القسم وهو نور الضحى الذي يوافي بعد ظلام الليل للمقسم عليه وهو نور الوحي الذي وافاه بعد احتباسه [عنه حتى قال أعداؤه : ودع محمداً ربه . فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل ، على ضوء الوحي ونوره بعد ظلمة احتباسه][3] واحتجابه .

وأيضاً فإن الذي فَلَقَ[4] ظلمة الليل عن ضوء النهار هو الذي فلق ظلمة الجهل والشرك بنور الوحي والنبوة ، فهذان للحس وهذان للعقل .

وأيضاً ، فإن الذي اقتضت رحمته أن لا يترك عباده في ظلمة الليل سَرْمَداً[5] / بل هداهم [٢٥/ب] بضوء النهار إلى مصالحهم ومعايشهم ، لا يليق به أن يتركهم في ظلمة الجهل والغي ، بل يهديهم بنور الوحي والنبوة إلى مصالحهم في دنياهم وآخرهم[6] .

فتأمل حسن ارتباط المقسم به بالمقسم عليه ، وتأمل هذه الجزالة[7] والرونق[8] الذي على هذه الألفاظ ، والجلالة التي على معانيها .

---

(1) سورة الضحى الآيتان (١-٢) وفي الأصول : (أقسم بالضحى . . .) .

(2) في غير الأصل : (قسم) .

(3) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل ، واستدركته من باقي النسخ .

(4) في المطبوع : (فإن فالق ظلمة الليل) .

(5) (سرمداً) تعني : الدائم ومنه قوله تعالى : ﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً ﴾ . انظر : المفردات ص (٢٣١) .

(6) في غير الأصل و (ب) : (إلى مصالح دنياهم وآخرهم . .) .

(7) اللفظ الجزل : خلاف الركيك ، والكلام الجزل : القوي الشديد . لسان العرب (٢٧٦/٢) مادة (جزل) .

(8) الرونق : الصفاء والحسن والبهاء . انر : القاموس المحيط ص (٨٨٨) ، المعجم الوسيط (٣٧٦/١) .

ونفى سبحانه أن يكون ودع نبيه أو قلاه ، فالتوديع : الترك[١] ، والقلي : البغض[٢]، فما تركه منذ اعتنى به وأكرمه ، ولا أبغضه منذ أحبَّه ، وأطلق سبحانه أن الآخرة خير له من الأولى ، وهذا يعمّ كل (أحواله ، وأن كل)[٣] حالة يرقِّيه إليها هي خير له مما قبلها ، كما أن الـــدار الآخرة خير له مما قبلها . ثم وعده بما تقر به عينه ، وتفرح به نفسه ، وينشرح به صدره ، وهو أن يعطيه فيرضيه[٤] ، وهذا يعم ما يعطيه من القرآن والهدى ، والنصر ، وكثرة الأتباع ، ورفع ذكره وإعلاء كلمته ، وما يعطيه بعد مماته وما يعطيه في موقف القيامة وما يعطيه في الجنة .

وأما ما يغتر به الجهال من أنه لا يرضى (أن يبقى)[٥] واحدٌمن أمتـــه في النـــار ، أو لا يرضى أن يدخل أحد من أمته النار ، فهذا من غرور الشيطان لهم ولعبه بهم ، فإنه صـــلوات الله وسلامه عليه يرضى بما يرضى به ربه تبارك وتعالى ، وهو سبحانه يدخل النار من يستحقها مـــن الكفار والعصاة (والمنافقين من هذه الأمة وغيرها)[٦] ثم يحد لرسوله حداً يشفع فيهم ، ورسوله أعرف به وبحقه من أن يقول : لا أرضى أن يدخل أحد من أمتي النار أو[٧] يدعه فيها بـــل ربـــه تبارك وتعالى يأذن له فيشفع فيمن شاء الله أن يشفع فيه ، ولا يشفع في غير من أذن له[٨] ورضيه تعالى[٩] .

ثم ذكَّره سبحانه بنعمه عليه[١٠] من إيوائه بعد يتمه ، وهدايته بعد إضلاله[١١] ، وإغنائه بعد الفقر ، فكان محتاجاً إلى من يؤويه ويهديه ويغنيه ، فآواه ربه وهداه وأغناه .

فأمره سبحانه أن يقابل هذه النعم الثلاث[١٢] بما يليق بها من الشكر ، فنهاه أن يقهر اليتيم وأن ينهر السائل وأن يكتم النعمة ، بل يحدث بها ، فأوصاه سبحانه باليتامى والفقراء والمتعلمين .

---

(1) انظر : المفردات ص (٥١٧) .
(2) انظر : المفردات ص (٤١٢) .
(3) سقط من المطبوع .
(4) في غير الأصل : (فيرضى) .
(5) ما بين القوسين ثابت في الأصل ، ساقط في غيره من النسخ .
(6) ما بين القوسين ثابت في الأصل ، ساقط في غيره من النسخ .
(7) في (م) و (ق) والمطبوع : (أن) بدل (أو) .
(8) في المطبوع : زيادة (فيه) بعد (له) .
(9) سقط من غير الأصل و (ب) .
(10) في (م) و (ق) و المطبوع : (ثم ذكر سبحانه نعمه عليه) .
11 في غير الأصل : (بعد الضلالة) .
(12) في الأصل و (ب) : (الثلاثة) وهو خطأ لغة فإن العدد من ثلاثة إلى تسعة يخالف المعدود تذكيراً وتأنيثاً .

قال / مجاهد[1] ومقاتل[2] : لا تحقر اليتيم فقد كنت يتيماً . [٢٦/أ]

وقال الفرَّاء : لا تقهره على ماله[3] فتذْهبَ حقَّه لضعفه[4] ، وكذلك كانت العرب تفعل في أمر اليتامى تأخذ أموالهم وتظلمهم ، فغلَّظ الخَطاب في أمر اليتيم ، وكذلك من لا ناصر له يغلظ في أمره ، وهو نهي لجميع المكلفين[5] .

﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ(١٠)﴾[6] أكثر المفسرين[7] : هو سائل المعروف والصدقة لا تنهره إذا سألك فقد كنت فقيراً ، فإما أن تطعمه ، وإما أن ترده رداً ليناً[8] .

وقال الحسن : أما أنه ليس بالسائل الذي يأتيك ولكن طالب العلم[9] ، وهذا قول يحيى بن آدم[10] قال : إذا جاءك طالب العلم فلا تنهره[11] ، والتحقيق أن الآية تتناول النوعين .

وقوله (تعالى)[12] : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ(١١)﴾[13]

قال مجاهد : بالقرآن[14] .

---

(1) قول مجاهد أخرجه الطبري في تفسيره (٢٣٣/٣٠) .
وقد ذكره أيضاً في : البسيط (٨٤٦/٢) ، النكت والعيون (٢٩٥/٦) ، معالم التنزيل (٨/ ٤٥٧) ، زاد المسير (٩/ ١٦٠) ، الجامع لأحكام القرآن (١٠٠/٢٠) ، البحر المحيط (٤٨٦/٨) ، فتح القدير (٥٣٨/٥) .

(2) ذكر هذا القول ونسبه إلى مقاتل الواحدي في البسيط (٨٤٦/٢) ولم أجد عند غيره .

(3) هذا من كلام الزجاج انظر معاني القرآن وإعرابه (٣٤٠/٥) .

(4) هذا كلام الفراء كما في المعاني (٢٧٤/٣) .

(5) هذا من كلام الواحدي . انظر : البسيط (٨٤٦/٢) .

(6) سورة الضحى آية (١٠) .

(7) في (م) و (ق) والمطبوع : (قال أكثر المفسرين) .

(8) انظر : البسيط (٨٤٧/٢) ، معالم التنزيل (٨/ ٤٥٨) ، معاني القرآن للفراء (٢٧٥/٣) ، معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٣٤٠/٥) ، النكت والعيون (٢٩٥/٦) ، تفسير ابن كثير (٤/ ٤١٢) ، فتح القدير (٥٣٨/٥) .

(9) كلام الحسن ذكره في : البسيط (٨٤٧/٢) ، معالم التنزيل (٤٥٨/٨) ، المحرر الوجيز (٣٢٣/١٦) ، التفسير الكبير (٢٢٠/٣٢) ، البحر المحيط (٤٨٧/٨) .

(10) يحيى : هو يحيى بن آدم بن سليمان القرشي ، أبو زكريا الكوفي ، مولى خالد بن خالد بن عقبة بن أبي معيط ، روى عن ابراهيم الرؤاسي ، وعنه الإمام أحمد بن حنبل ، وهو ثقة كثير الحديث ، توفي سنة (٢٠٣) هـ ، روى له جماعة .
انظر : السابق واللاحق للخطيب البغدادي ص (١٣٧) ، تهذيب التهذيب (١٧٥/١١) .

(11) انظر كلامه في : البسيط (٨٤٨/٢) ، زاد المسير (١٦٠/٩) .

(12) سقط من (م) و (ق) والمطبوع .

(13) سورة الضحى آية (١١) .

(14) ذكر قوله في : البسيط (٨٤٨/٢) ، معالم التنزيل (٤٥٨/٨) ، المحرر الوجيز (٣٢٣/١٦) ، التفسير الكبير (٢٢١/٣٢) ، الجامع لأحكام القرآن (١٠٢/٢٠) ، وعزاه في الدر المنثور (٥٤٥/٨) إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن ابي حاتم ، وفتح القدير (٥٢٨/٥) .

قال الكلبي : يعني[1] أظهرها ، والقرآن أعظم ما أنعم الله به عليه ، فأمره أن يقرئه ويعلّمه[2] .

وروى أبو بشر[3] عن مجاهد : حدث بالنبوة التي أعطاك الله[4] ، وقال الزجاج : وبلغ ما أرسلت به وحدث بالنبوة التي آتاك وهي أجل النعم[5].

وقال مقاتل : اشكر هذه النعم[6] التي ذكرت في هذه السورة[7]، والتحقيق : أن النعم تعمّ هذا كله ، فأمر أن لا ينهر سائل المعروف والعلم ، وأن يحدث بنعم الله عليه في الدنيا والدين .



---

(1) في المطبوع : (بمعنى) .

(2) ذكر بمعناه في : معالم التنزيل (٤٥٨/٨) ، فتح القدير (٥٣٨/٥) .

(3) أبو بشر : هو جعفر بن إياس بن أبي وحيشة اليشكري ، أبو بشر الواسطي بصري الأصل ، روى عن مجاهد بن جبر ، وعنه أيوب السختياني ، من أثبت الناس في سعيد بن جبير ، وضعّفه شعبة في روايته عن حبيب بن سالم ومجاهد . مات سنة (١٢٥) هـ وقيل (١٢٦) هـ وقيل غير ذلك . روى له الجماعة .

انظر : الطبقات الكبرى (٢٥٣/٧) ، تهذيب التهذيب (٨٣/٢) .

(4) أخرج هذا الأثر الطبري في تفسيره بسنده (٣٣٣/٣٠) .

وذكر أيضاً في : البسيط (٨٤٨/٢) ، معالم التنزيل (٨/ ٤٥٨) ، زاد المسير (١٦٠/٩) ، التفسير الكبير (٢٢١/٣١) ، الجامع لأحكام القرآن (١٠٢/٢٠) ، تفسير ابن كثير (٤/ ٥٢٤) ، وعزاه في الدر المنثور (٥٤٥/٨) إلى سعيد بن منصور وابن المنذر ، فتح القديرة (٥٣٨/٥) .

(5) معاني القرآن وإعرابه (٣٤٠/٥) .

(6) في المطبوع : (النعمة) .

(7) ذكر هذا القول عنه الواحدي في البسيط (٨٤٩/٢) ، وانظر : معالم التنزيل (٤٥٨/٨) ، زاد المسير (١٦٠/٩) ، فتح القدير (٥٣٨/٥) .

فصل
{القسم في سورة العاديات}

ومن ذلك إقسامه سبحانه بـ ﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا(١). . ﴾[١] الآية وما بعدها[٢]، وقد اختلف الصحابة ومن بعدهم في ذلك :

فقال علي بن أبي طالب وعبدالله بن مسعود[٣] هي : إبل الحاج تعدو من عرفة إلى مزدلفة ومن مزدلفة إلى منى[٤] .

وهذا اختيار محمد بن كعب[٥] وأبي[٦] صالح[٧] وجماعة من المفسرين .

---

(1) سورة العاديات آية (١) في الأصول : (بالعاديات ضبحاً) .

(2) في (م) و (ق) والمطبوع : ذكر الآيات إلى قوله تعالى : ﴿ فالمغيرات صبحاً ﴾ .

(3) ابن مسعود : هو عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي ، أبو عبد الرحمن من أكابر أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو من أهل مكة ومن السابقين إلى الإسلام وأول من جهر بقراءة القرآن بمكة تلقى من في رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين سورة ، نظر إليه عمر يوماً فقال : (وعاء مليء علماً) توفي سنة (٣٢) هـ رضي الله عنه وأرضاه .
انظر : سير أعلام النبلاء (٤٦١/١-٥٠٠) ، الإصابة (٣٦٠/٢-٣٦٢) .

(4) أخرج قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه الطبري في تفسيره بسنده (٢٧٢/٣٠-٢٧٣) .
وقد ذكر أيضاً في : البسيط (٩٢٤/٢) ، النكت والعيون (٣٢٣/٦) ، معالم التنزيل (٥٠٧/٨) ، المحرر الوجيز (٣٥٢/١٦) ، زاد المسير (٢٠٦/٩) ، التفسير الكبير (٦٣/٣٢) ، البحر المحيط (٥٠٣/٨) ، تفسير ابن كثير (٤/ ٥٤١) .
أما قول ابن مسعود فقد أخرجه الطبري أيضاً في تفسيره بسنده (٢٧٣/٣٠) وحسّن اسناده ابن حجر في الفتح (٥٩٩/٨) وذكره أيضاً أصحاب المراجع السابقة عدا : المحرر الوجيز .

(5) محمد بن كعب : هو محمد بن كعب بن سليم بن أسد ، أبو حمزة القرظي ، المدني ، نزل الكوفة وقضى بها مدة ، روى عن : أبي أيوب الأنصاري وأبي هريرة و معاوية ، روى عنه : أخوه عثمان ، ويزيد بن الهاد ، وأبو جعفر الخطمي . مات سنة (١٢٠) هـ .
انظر : الجرح والتعديل (٦٧/٨) ، الثقات لابن حبان (٣٥١/٥) وقوله هذا ذكره الواحدي في البسيط (٩٢٤/٢) ، والبغوي في معالم التنزيل (٥٠٧/٨) ، وابن الجوزي في زاد المسير (٢٠٦/٩) ، والرازي في تفسيره الكبير (٦٣/٣٢) ، وابن حيان في البحر (٥٠٣/٨) ، وعزاه في الدر المنثور (٦٠٣/٨) إلى عبد بن حميد ، والشوكاني في فتح القدير (٥٦٦/٥) .

(6) في غير الأصل و (ب) : (أبو صالح) .

(7) قول أبي صالح ذكر في المراجع السابقة عدا التفسير الكبير .

وقال عبدالله بن عباس : هي خيل الغزاة[١] وهذا قول أصحاب ابن عباس[٢] والحسن[٣] وجماعة واختاره الفراء[٤] والزجاج[٥] .

قال أصحاب قول[٦] الإبل : السورة مكية ، ولم يكن ثمَّ جهاد ولا خيل تجاهد وإنما أقسم بما يعرفونه (ويألفونه)[٧] وهي إبل الحاج إذا عدت من عرفة إلى مزدلفة ، فهي عاديات ، والضبح والضبع : مد الناقة ضبعها في السير ، يقال : ضبحت وضبعت بمعنى[٨] ، وانشد أبو عبيدة وقد اختار / هذا القول[٩] : [٢٦/ب]

فكان لكم أجري جميعاً وأضبحت بي البازل الوجناء في الآل تضبح[١٠]

قالوا : فهي تعدو ضبحاً فتوري بأخفافها النار من حَكّ الأحجار بعضها ببعض ، فتثير النقع وهو الغبار بعدوها ، فتتوسط جَمْعَاً وهو[١١] المزدلفة .

---

(1) قول ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه عبد الرزاق في تفسيره بسنده (٢/٣٩٠) والحاكم في المستدرك في كتاب التفسير – تفسير سورة العاديات ح (٤٠٢٠) وابن جرير في تفسيره بسنده (٣٠/٢٧١) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي ، وذكر أيضاً في : معاني القرآن للفراء (٣/٢٨٤) ، بحر العلوم (٣/٥٠٢) ، البسيط (٢/٩٢٢) ، النكت والعيون (٦/٣٢٣) ، معالم التنزيل (٨/٥٠٧) ، المحرر الوجيز (١٦/٣٥٣) ، زاد المسير (٩/٢٠٧) التفسير الكبير (٣٢/٦٤) ، تفسير ابن كثير (٤/٥٤١) ، وعزاه في الدر المنثور (٨/٦٠٠) إلى عبد بن حميد .

(2) كما هو مروي عن عطاء و مجاهد وعكرمة وأبي العالية .
انظر : جامع البيان (٣٠/٢٧١) وغيره .

(3) قول الحسن ذكر في : البسيط (٢/٩٢٣) ، النكت والعيون (٦/٣٢٣) / معالم التنزيل (٨/٥٠٧) ، زاد المسير (٩/٢٠٧) ، وانظر تفسير الحسن البصري (٢/٤٣٣) .

(4) انظر : معاني القرآن (٣/٢٨٤) .

(5) انظر : معاني القرآن وإعرابه (٥/٣٥٣) .

(6) قوله : (قول) ثابتة في الأصل و (ب) وساقطة في غيرهما .

(7) في الأصل رسمت هكذا(بالنوبه) و التصويب من غيره .

(8) انظر : تهذيب اللغة للأزهري (٤/٢١٩) مادة (ضبح) .

(9) انظر : مجاز القرآن (٢/٣٠٧) وليس فيه ذكر البيت .

(10) البيت من الطويل . وهو بلا نسبة في جمهرة اللغة ص (٣٥٣) ، وفي تاج العروس (٢١/٣٨٧) مادة (ضبع) والراوية فيهما :
فكان لكم أجري جميعاً وأصبحت بي البازل الوجناء في الآل تضبع
وقد نقل ابن القيم هذا الكلام عن الواحدي في البسيط (٢/٩٢٥) والرواية فيه كما هو هنا .

(11) في المطبوع : (وهي) .

قال أصحاب قول[١] الخيل[٢] المعروف في اللغة أن الضبح أصوات أنفاس الخيل إذا عدون ، والمعنى : (والعاديات تضبح ضبحاً أو)[٣] والعاديات ضابحة ، فتكون ضبحاً مصدر على الأول ، وحالاً على الثاني[٤] .

قالوا : والخيل هي التي تضبح في عدوها ضبحاً وهو صوت يسمع من [أجوافها ليس بالصهيل ولا الحمحمة ، ولكنه صوت أنفاسها في أجوافها من][٥] شدة العدو .

قال[٦] الجرجاني : (كلا القولين قد جاء في التفسير إلا أن السياق يدل على أنها الخيل ، وهو قوله تعالى : ﴿ **فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا** ﴾ ، والإيراء لا يكون إلا للحافر لصلابته ، وأما الخف ففيه لين واسترخاء انتهى .

قالوا : والضبح في الخيل أظهر منه في الإبل والإيراء لسنابك الخيل أبين منه لأخف الإبل ، قالوا : والنقع هو الغبار ، وإثارة الخيل بعدوها له أظهر من إثارة أخفاف الإبل لأنها لصلابة حوافرها وسنابكها تثير من الغبار بعدوها ما لا يثيره أخفاف الإبل ، والضمير في به يعود على المكان الذي تعدوا فيه .

قالوا : وأعظم ما يثير الغبار عند الإغارة إذا توسطت الخيل جمع العدو ولكثرة حركتها واضطرابها في ذلك المكان . وأما حمل الآية على إثارة الغبار في الغالب وادي محسر عند الإغارة فليس بالبين ولا يثور هناك غبار في الغالب لصلابة المكان .

قالوا : وأما قولكم : أنه لم يكن بمكة حين نزل الآية جهاد ولا خيل مجاهدين ، فهذا لا يلزم لأنه سبحانه أقسم بما يعرفونه من شأن الخيل إذا كانت في الغزو وإغارة ، فإثارة النقع وتوسطت جمع العدو ، وهذا أمر معروف .

وذكر خيل المجاهدين أحق ما دخل في هذا الوصف وذكره على وجه التمثيل لا الاختصاص ، فإن هذا شأن خيل المقاتلة وأشرف أنواع هذا الخيل خيل المجاهدين ، والقسم إنما

---

(1) قوله : (قول) ثابتة في الأصل و (ب) ساقطة في غيرهما .

(2) انظر كلاماً قريباً من هذا في كتاب الخيل لأبي عبيدة ص (٢٦٦) .

(3) ما بين القوسين سقط من المطبوع .

(4) انظر : الدر المصون (١١/٨١-٨٣) .

(5) ما بين المعقوفتين ساقط من الأصل واثبته نت بقية النسخ

(6) في المطبوع : (وقال) .

وقع لما تضمنه شأن هذه العاديات من الآيات البينات من خلق هذا الحيوان الذي من هو أكرم الحيوان البهيم وأشرفه ، وهو الذي يحصل به الغزو والضفر والنصر على الأعداء ، فتعدو طالبة للعدو وهاربة منه فيثير عدوها الغبار لشدته ، وتوري حوافرها وسنابكها النار من الأحجار لشدة عدوها ، فتدرك الغارة التي طلبتها حتى تتوسط جمع الأعداء .

فهذه من أعظم آيات الرب تعالى وأدلة قدرته وحكمته ، فذكرهم بنعمته عليهم من خلق هذا الحيوان الذي ينتصرون به على أعداءهم ويدركون به ثأرهم .

كما ذكرهم سبحانه في خلق الإبل التي أثقالهم من بلد إلى بلد ، فالإبل أخص بحمل الأثقال ، والخيل أخص بنصرة الرجال ، فذكرهم بنعمه بهذا ، وهذا وخص الإغارة بالضبح لأن العدو لم ينتشروا إذ ذاك و لم يفارقوا محلتهم ، وأصحاب الإغارة حاملون مستريحون ينصرون مواقع الغارة والعدو لم يأخذوا هبتهم ، بل هي في غرهم وغفلتهم ، ولهذا كان النبي ﷺ إذا أراد الإغارة صبر حتى يطلع الفجر ، فإن سمع مؤذناً أمسك وإلا أغار .

ولما علم أصحاب الإبل أن أخفافهم أبعد شيء من وري النار تأولوا الآية على وجوه بعيدة . فقال محمد بن كعب (القرضي)[1]: هم الحاج إذا أوقدوا نيرانهم ليلة المزدلفة[2] ، وعلى هذا [فيكون][3] التقدير فالجماعات الموريات وهذا خلاف الظاهر ، وإنما الموريات هي العاديات وهي المغيرات .

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس[4] : هم الذين يغيرون فيورون بالليل نيرانهم لطعامهم وحاجتهم[5] كأنه أخذه من قوله تعالى : ﴿ **أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ(٧١)**﴾[6] وهذا إن أريد به

---

(1) ما بين القوسين ثابت في الأصل . وساقط في غيره .

(2) ذكر هذا القول ونسبه إليه : الواحدي في البسيط (٩٢٧/٢) ، وفي النكت والعيون (٣٢٤/٦) ، وفي معالم التتزيل (٥٠٧/٨) ، وزاد المسير (٢٠٨/٩) .

3 من غير الأصل و (ب) : زيادة " فيكون " .

(4) في (ق) زيادة : " قال " .

(5) أخرج هذا الأثر بمعناه الطبري في تفسيره (٢٧٥/٣٠) .

وذكر أيضاً في : البسيط (٩٢٧/٢) ، معالم التتزيل (٥٠٨/٨) ، زاد المسير (٢٠٨/٩) ، التفسير الكبير (٦٥/٣٢) ، البحر المحيط (٥٠٤/٨) .

(6) سورة الواقعة آية (٧١) .

التمثيل . وإن الآية تدل عليه فصحيح وإن أريد به اختصاص الموريات (به)[1] فليس كـــذلك ، لأن الموريات هي العاديات بعينها ، ولهذا عطفها عليها بالفاء التي للسبب[2] فإنها / عدت فأورت . [٢٧/ب]

وقال قتادة : الموريات هي الخيل توري نار العداوة بين المقتتلين[3] ، وهذا ليس بشـــيء ، وهو بعيد من معنى الآية وسياقها ، وأضعف منه قول عكرمة : هي الألسنة توري نـــار العـــداوة بعظم[4] ما تتكلم به[5] ، وأضعف منه ما ذكر عن مجاهد : هي أفكار الرجال ، توري نار المكـــر والخديعة في الحرب[6] .

وهذه الأقوال :

١- إن أريد بها أن اللفظ دل عليها ، وأنها هي المراد فغلط .

٢- وإن أريد أنها أخذت من طريق الإشارة والقياس فأمرها قريب .

وتفسير الناس يدور[7] على ثلاثة أصول :

أ/ تفسير على اللفظ ، وهو الذي ينحوا إليه المتأخرون .

ب/ وتفسير على المعنى . وهو الذي يذكره السلف .

ج/ وتفسير على الإشارة (والقياس)[8] ، وهو الذي ينحو إليه كثير من الصوفية وغيرهم

---

(1) سقط من (م) و (ق) والمطبوع .

(2) في (م) و (ق) والمطبوع : (للتسبب) .

(3) أخرج هذا الأثر بمعناه الطبري بسنده في تفسيره (٢٧٤/٣٠) .
وورد أيضاً في : البسيط (٩٢٧/٢) ، النكت والعيون (٣٢٤/٦) ، معالم التنزيل (٥٠٨/٨) ، المحرر الوجيز (٣٥٣/١٦) .

(4) في (م) و (ق) والمطبوع " (بعظيم) .

(5) أخرج هذا الأثر الطبري بسنده في تفسيره (٢٧٤/٣٠) .
وورد هذا القول أيضاً في : البسيط (٩٢٧/٢) ، النكت والعيون (٣٢٤/٦) . المحرر الوجيز (٣٥٣/١٦) ، معالم التنزيل (٥٠٨/٨) ، زاد المسير (٢٠٨/٩) ، التفسير الكبير (٦٢/٣٢) وغيرها .

(6) أخرج هذا الأثر باختصار عن مجاهد الطبري في تفسيره (٢٧٤/٣٠) .
وورد أيضاً في البسيط (٩٢٧/٢) ، النكت والعيون (٣٢٤/٦) ، معالم التنزيل (٥٠٨/٨) ، المحـــرر الـــوجيز (٣٥٣/١٦) ، زاد المسير (٢٠٨/٩) ، البحر المحيط (٥٠٤/٨) ، تفسير ابن كثير (٥٤٢/٤) وغيرها .

(7) في (ق) : (يدل) .

(8) سقط من (ق) .

وهذا لا بأس به بأربع شرائط :

* أن لا يناقض معنى الآية .
* وأن يكون معنىً صحيحاً في نفسه .
* وأن يكون في اللفظ إشعار به .
* وأن يكون بينه وبين معنى الآية ارتباط وتلازم .

فإذا اجتمعت هذه الأمور الأربعة كان استنباطاً حسناً . وأضعف من ذلك كله قول ابن جريج : ﴿ **فالموريات قدحاً** ﴾ يعني فالمنجحات أمراً[١] ، يريد البالغين نجحهم[٢] ، فما طلبوه ، وعطف قوله : فأثرن ووسطن[٣] وهما فعلان على العاديات والموريات لما فيه من معنى الفعل ، وكان ذكر[٤] الفعل في أثرن ، ووسطن أحسن من ذكر الاسم ، لأنه سبحانه قسم أفعالهنَّ إلى قسمين : وسيلة وغاية ، فالوسيلة : هي العدو وما يتبعه من الإيراء والإغارة ، والغاية[٥] : هي توسط الجمع وما يتبعه من إثارة النقع ، فهنّ عاديات موريات مغيرات حتى يتوسطن الجمع[٦] ويثرن النقع ، فالأول : شأنهن الذي أعددن له ، والثاني : فعلهن الذي انتهين إليه والله أعلم .



(1) ذكره الواحدي في البسيط (٩٢٧/٢) .

(2) في (ق) : (نحجتهم) ، وفي المطبوع : (بنجحهم) ، وفي البسيط للواحدي (٩٢٧/٢) : (بحجتهم) .

(3) في غير الأصل و (ب) : (فوسطن) .

(4) في الأصل : (ذلك) ، وهو تصحيف والتصحيح من بقية النسخ .

(5) في (ق) : (والغارة) .

(6) في (ق) : (يتوسطن العدد) .

فصل [1]

{ بيان المقسم عليه في سورة العاديات }

فهذا شأن القسم وأما شأن المقسم عليه فهو حال / الإنسان وهو كون الإنسان كنوداً [٢٨/أ] بشهادته على نفسه أو شهاده ربه عليه ، وكونه بخيلاً لحبه المال ، والكنود : الكفور للنعمة ، وفعله كند يكند كنوداً ، مثل : كفر يكفر كفوراً ، والأرض الكنود التي لا تنبت شيئاً ، وامرأة (كنود) [2] كند أي كفور للمعاشرة ، وأصل اللفظة منع الحق والخير ، ورجل كنود : إذا كان مانعاً لما عليه من الحق [3] ، وعبارات المفسرين تدور على هذا المعنى .

قال ابن عباس رضي الله عنهما وأصحابه رحمهم الله تعالى [4] : هو الكفور [5] ، قيل [6] هو البخيل الذي يمنع رفده [7] ، ويجيع عبده ولا يعطي في النائبة [8] [9]، وقال الحسن : هو اللوام لربه يعد المصائب وينسى النعم [10] ،

---

[1] ما بين المعقونتين ساقط من الأصل و (ب) ومثبت في البقية .

[2] هكذا في الأصل وهي ساقطة في غيره . وجاء في المطبوعة : (كندى) ولم أجد هذه اللفظة في كتب اللغة .

[3] انظر : تهذيب اللغة للأزهري (١٢٢/١٠) ، لسان العرب (١٦٤/١٢) . وغيرها .

[4] زيادة من غير الأصل و (ب) .

[5] أخرج هذا الأثر الطبري بسنده في تفسيره (٢٧٧/٣٠) وورد أيضاً في البسيط (٩٣٣/٢) ، معالم التنزيل (٥٠٩/٨) زاد المسير (٢١٠/٩) التفسير الكبير (٦٤/٣٢) ، البحر المحيط (٥٠٥/٨) وعزاه في الدر المنثور (٦٠٢/٨) إلى الطيالسي وعبد بن حميد وسعيد بن منصور وغيرهما .

وهو مروي أيضاً عن عكرمة ومجاهد والضحاك وغيرهم .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله : (وصله الفريابي عن مجاهد بهذا ، وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس مثله ويقال : إنه بلسان قريش الكفور ، وبلسان كنانة : البخيل ، وبلسان كندة : العاصي) انظر : الفتح (٥٩٩/٨) .

[6] (قيل) ساقطة في غير الاصل و (ب) وفي المطبوع : (وقيل) .

[7] الرفد : بالكسر : العطاء والصلة ، والرفد بالفتح : المصدر رفده : اعطاه وأعانه . لسان العرب (٢٦٤/٥)

[8] النائبة : المصيبة ، وجمعها نوائب ، والنائبة النازلة . انظر لسان العرب (٣١٨/١٤) .

[9] هذا الأثر مروي عن أبي أمامة موقوفاً ومرفوعاً بمعناه ، أما المرفوع فأخرجه الطبري في تفسيره بسنده (٢٧٨/٣٠) وأما الموقوف : فأخرجه أيضاً الطبري في تفسيره بسنده (٢٧٨/٣٠) ، وقد أخرجه أيضاً البخاري في الأدب المفرد ح (١٦٠) وضعفه الألباني كما في ضعيف الأدب المفرد ص (٣٥) .

[10] هذا الأثر أخرجه الطبري في تفسيره بسنده (٢٧٨/٣٠) .

وذكر هذا القول أيضاً في : بحر العلوم (٣/ ٣٤٥) ، البسيط (٩٣٣/٢) ، المحرر الوجيز (٣٥٤/١٦) تفسير الحسن (٤٣٣/٢)

(قال محمود الوراق[١] في ذلك :

يـــا أيهـــا الظـــالم فـــي فعلـــه   والظلـم مـردود علـى مـن ظلـم
إلـــى متـــى أنـــت وحتـــى متـــى   تشكو المصيبات وتنسى النعم)[٢]

وأما قوله (تعالى) : ﴿ وَإِنَّهُ عَلَى ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ فقال ابن عباس : يريد وإن ربه على ذلك لشهيد[٣] .

وقيل : إن الإنسان لشهيد على ذلك[٤] ، أن أنكره بلسانه شهيد عليه به حاله ، ويؤيد هذا القول اتساق[٥] الضمائر فإن قوله : " وإنه لحب الخير لشديد " للإنسان ، فافتتح الخير عن الإنسان بكونه كنوداً ، ثم ثناه [بكونه][٦] شهيداً على ذلك ، ثم ختمه بكونه بخيلاً بماله لحبه إياه ، ويؤيد قول ابن عباس (رضي الله عنه)[٧] أنه أتى بعلى فقال : ﴿ وَإِنَّهُ عَلَى ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ أي مطلع عالم به ، كقوله (تعالى) : ﴿ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ(٤٦) ﴾[٨] ، ولو أريد شهادة الإنسان لأتى بالباء ، فقيل : وإنه بذلك لشهيد ، كما قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِمْ / بِالْكُفْرِ ﴾[٩] . فلو أراد شهادة الإنسان لقال : وإنه على نفسه لشهيد ، فإن كنوده هو المشهود به ، ونفسه هي المشهود عليها . [٢٨/ب]

ثم قال (تعالى)[١٠] : ﴿ وإنه لحب الخير لشديد ﴾ والخير هاهنا : المال باتفاق المفسرين ، والشديد : البخيل ، (والمعنى : وإنه لبخيل من)[١١] أجل حب المال ، فحب المال هو الذي حمله على البخل ، هذا قول الأكثرين .

---

(1) محمود الوراق : هو محمود بن حسن الوراق ، شاعر ، أكثر شعره في المواعظ والحكم . روى عنه ابن أبي الدنيا ، وفي (الكامل) للمبرد نتف من شعره ، توفي نحوه (٢٢٥) هـ انظر : الأعلام للزركلي (١٦٧/٧) .

(2) ما بين القوسين ساقط من غير الأصل و (ب) .

(3) ذكر هذا القول أيضاً عنه : الواحدي في البسيط بمعناه (٩٣٦/٢) ، وابن الجوزي في زاد المسير (٢١٠/٩) ، وأبو حيان في البحر المحيط (٥٠٥/٨) ، وذكره البغوي عن أكثر المفسرين (٥٠٩/٨) .

(4) انظر ما قبله .

(5) في المطبوع : (سياق) .

(6) سقط من الأصل و (ب) .

(7) سقط من الأصل و (ب) .

(8) سورة يونس آية (٤٦) .

(9) سورة التوبة آية (١٧) .

(10) سقط من الأصل و (ب) .

(11) ما بين القوسين سقط من المطبوع .

وقال ابن قتيبة : بل المعنى أنه شديد الحب للخير(١) ، فتكون اللام في قوله : ﴿ لِحُبِّ الْخَيْرِ ﴾ ، متعلقة بقوله ﴿ لَشَدِيدٌ ﴾ على حد تعلق قولك : إنه لزيد لضارب ، ومنعت طائفة من النحاة أن يعمل ما بعد اللام ،فيما قبلها ، وهذه الآيات حجة على الجواز ، فإن قوله : ﴿ لِرَبِّهِ﴾ معمول الكنود ، وقوله : ﴿ عَلَى ذَلِكَ ﴾ معمول ﴿ لَشَهِيدٌ﴾ ، ولا وجه للتكلف البارد في تقدير عامل مقدم محذوف يفسره هذا المذكور ، فالحق جوار إني لزيد لضارب ، فوصف سبحانه الإنسان بكفران نعم ربه وبخله بما آتاه من الخير ، فلا هو شكور لنعم الله(٢) ، ولا محسن إلى خلق الله ، بل بخيل بشكر الله ، بخيل بمال الله(٣) ، وهذا ضد المؤمن الكريم فإنه مخلص لربه محسن إلى خلقه ، فالمؤمن له الإخلاص والإحسان ، والفاجر له الكفر والبخل .

وقد ذم الله سبحانه هذين الخلقين المهلكين في غير موضع من كتابه كقوله (تعالى) : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ(٤)الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ(٥) ﴾ إلى آخرها(٤) . (فلا إخلاص ولا إحسان)(٥) ، وكذلك قوله [تعالى](٦) :﴿ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ. الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ﴾ الآية(٧) ، فاختيال الإنسان وفخره من كفره وكنوده ، وهذا ضد قوله (تعالى) : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ(٣) ﴾(٨) ، وقوله (تعالى) : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾(٩) .

وكذلك ذكر الخلقين الذميمين في قوله عز وجل : ﴿ وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ ﴾(١٠) / ، وما تقدم [٢٩/أ]
في سورة الليل في ذم(١١) المستغني البخيل ، ومدح المعطي المصدق بالحسنى .

---

(1) انظر : تأويل مشكل القرآن ص (٢٠٠) . وقد ذكره في موضع النقد لا الإقرار حيث حكى أن بعضهم عده من المقلوب في القرآن الكريم واعترض على جواز ذلك في القرآن .

(2) في المطبوع : (للنعم) .

(3) في (م) و (ق) والمطبوع : (إلى خلقه ـــ بشكره ـــ بماله) .

(4) في غير الأصل و (ب) إكمال الآيات إلى آخر السورة . سورة الماعون الآيتان (٤ ، ٥) .

(5) في المطبوع : (الرياء ضد الإخلاص ، ومنع الماعون ضد الإحسان) .

(6) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل و (ب) .

(7) سورة الحديد الآيتان (٢٣-٢٤) وفي غير الأصل و (ب) ذكر آيتي النساء مع تكملتها إلى أخرها .

(8) سورة البقرة آية (٣) .

(9) سورة النساء آية (٣٦) .

(10) سورة النساء الآيتان (٣٨-٣٩) . وفي غير الأصل و (ب) : ونظيره (وماذا عليهم لو آمنوا . . وأنفقوا مما رزقهم الله) .

(11) في غير الأصل : (من ذم) .

ونظيره ذم الهمزة اللمزة الذي جمع مالاً وعدده[١] ، فإن الهمز واللمز من الفخر والكبر وجمع المال وتعديده من البخل ، وذلك مناف لسر الصلاة والزكاة ومقصودهما . ثم خوف سبحانه الإنسان الذي هذا وصفه حين يبعثر ما في القبور أي : يثار ويخرج ويحصل ما في الصدور ، أي : ميز وجمع وبين وأظهر ونحو ذلك .

وجمع سبحانه بين القبور والصدور كما جمع بينهما النبي ﷺ في قوله : " **ملأ الله أجوافهم وقبورهم ناراً** "[٢] فإن الإنسان يواري صدره ما فيه من الخير والشر ، ويواري قبره جسمه ، فيخرج الرب جسمه من قبره وسره من صدره ، فيصير جسمه بارزاً على الأرض وسره بادياً على وجهه كما قال تعالى : ﴿ **يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ** ﴾[٣] ، وقال تعالى : ﴿ **سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ(١٦)** ﴾[٤] .



---

(1) في غير الأصل و (ب) : ونظيره قوله : (ويل لكل همزة لمزة . الذي جمع مالاً وعدده) .

(2) الحديث أخرجه البخاري في (٦٥) كتاب التفسير (١) سورة البقرة (٤٢) باب (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى) ح(٤٥٣٣) ، ومسلم في (٥) كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٣٦) باب الدليل لمن قال الصلاة الوسطى هي صلاة العصر ح (٦٢٨) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

(3) سورة الرحمن آية (٤١) .

(4) سورة القلم آية (١٦) .

فصل [١]

ومفعول العلم أن وما عملت فيه وكسرت لمكان اللام[٢] ، وقيد سبحانه كونه خبيراً بهم ذلك اليوم وهو خبير بهم في كل وقت إيذاناً بالجزاء ، وأنه يجازيهم في ذلك اليوم بما يعلمه منهم فذكر العلم والمراد لازمه والله أعلم[٣] .



---

(1) ما بين المعقوفتين ساقط من الأصل و (ب) .
(2) انظر : الدر المصون (١١/٩٠) وما بعدها .
(3) في المطبوع : (والله سبحانه وتعالى أعلم) .

﴿ فصل ﴾
{ القسم في سورة العصر }

ومن ذلك إقسامه سبحانه[1] بالعصر على حال الإنسان في الآخرة ، وهذه السورة على غاية اختصارها لها شأن عظيم ، حتى قال الشافعي[2] (رحمه الله)[3] : لو فكر الناس كلهم فيها لكفتهم والعصر المقسم به ، قيل : هو الوقت[4] الذي يلي المغرب من النهار .

وقيل : هو آخر ساعاته[5] ، وقيل : المراد صلاة العصر .

وأكثر المفسرين على أنه الدهر[6] ، وهذا هو الراجح ، وتسمية الدهر عصراً أمر معروف في لغتهم قال :

ولن يلبث[7] العصران يوم وليلة إذا طلبا أن يدركا ما تيمما[8] / [٢٩/ب]

ويوم وليلة بدل من العصران فأقسم سبحانه بالعصر لمكان العبرة والآية فيه ، فإن مرور الليل والنهار على تقدير قدرة العزيز العليم منتظم لمصالح العالم على أكمل ترتيب ونظام وتعاقبهما

---

(1) قوله : (سبحانه) سقط من المطبوع .

(2) الشافعي : هو محمد بن إدريس الشافعي المطلبي ، الإمام العلامة ناصر السنة ، ومجدد المائة الثانية ومؤسس علم أصول الفقه . كان إماماً ثقة عابداً فارساً رامياً شاعراً ، أحد الأئمة الأربعة ، من مصنفاته : (الأم) في الفقه و (الرسالة) في أصول الفقه توفي سنة (٢٠٤) هـ .

انظر : سير أعلام النبلاء (١٠/٥-٩٩) ، شذرات الذهب (٢/٩-١١) .

(3) زيادة من غير الأصل و (ب) .

(4) في المطبوع : (أول الوقت) .

(5) في (م) و (ب) والمطبوع : (آخر ساعة من ساعاته) .

(6) انظر على سبيل المثال : جامع البيان (٣٠/٢٨٩) ، البسيط (٢/٩٥٩) ، النكت والعيون (٦/٣٣٣) معالم التنزيل (٨/٥٢٥) ، المحرر الوجيز (٥/٥٢٠) ، زاد المسير (٩/٢٢٤) ، الجامع لأحكام القرآن (٢٠/١٧٨) وغيرها .

(7) في حاشية الأصل ، و (ب) : رواية أخرى للبيت : (يبرح) .

(8) البيت من الطويل ، قائله : حميد بن ثور الهلالي كما في ديوانه ص (٩٠) ، والرواية في الديوان : (ولا يلبث العصران . .) وهو من قصيدة طويلة مطلعها :

ألا هيما مما لقيت وهيما ويحاً لمن لم ألق منهما ويحما

وقد ذكره صاحب إصلاح المنطق ص (٣٩٤) .

واعتدالهما تارة وأخذ أحدهما من صاحبه تارة واختلافهما في الضوء والظلام والحر والبرد وانتشار الحيوان وسكونه ، وانقسام العصر إلى القرون والسنين والأشهر والأيام والساعات وما دونها آية من آيات الرب تعالى ، وبرهان من براهين قدرته وحكمته .

فأقسم بالعصر الذي هو زمان أفعال الإنسان ومحلها على عاقبة تلك الأفعال وجزائها ، ونبه بالمبدأ وهو خلق الزمان والفاعلين وأفعالهم على المعاد ، وأن قدرته كما لم تقصر عن المبدأ لم تقصر عن المعاد وأن حكمته التي اقتضت خلق الزمان وخلق الفاعلين وأفعالهم ، وجعلها قسمين خيراً وشراً ، تأبى أن يسوي بينهم ، وأن لا يجازي المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ، وأن يجعل النوعين رابحين أو خاسرين بل الإنسان من حيث هو إنسان خاسر إلا من رحمه الله فهداه ووفقه للإيمان والعمل الصالح في نفسه ، وأمر غيره به ، وهذا نظير رده الإنسان إلى أسفل سافلين واستثنائه[1] الذين آمنوا وعملوا الصالحات من هؤلاء المردودين .

وتأمل حكمة القرآن لما قال : ﴿ **إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ(٢)** ﴾ ضيق[2] الاستثناء وخصصه فقال : ﴿ **إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ(٣)** ﴾[3] ولما قال : ﴿ **ثم رددناه أسفل سافلين** ﴾ وسع الاستثناء وعممه فقال : ﴿ **إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ﴾ ولم يقل : ﴿ **وَتَوَاصَوْا** ﴾ فإن التواصي هو أمر الغير بالإيمان والعمل الصالح ، وهو قدر زائد على مجرد فعله فمن لم يكن كذلك فقد خسر هذا الربح / فصار في خسر ، ولا يلزم أن [٣٠/أ] يكون في أسفل سافين ، فإن الإنسان قد يقوم بما يجب عليه ولا يأمر غيره ، فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مرتبة زائدة وقد يكون[4] فرضاً على الأعيان وقد يكون فرضاً على الكفاية وقد يكون مستحباً[5] .

والتواصي بالحق يدخل فيه الحق الذي يجب والحق الذي يستحب والصبر يدخل فيه الصبر الذي يجب ، والصبر الذي يستحب ، فهؤلاء إذا تواصوا بالحق وتواصوا بالصبر حصل لهم من

---

(1) في المطبوع : (واستثناء) .
(2) في المطبوع : (فإنه ضيق) .
(3) سورة العصر آية (٣) .
(4) في غير الأصل : (تكون) بالتاء .
(5) في المطبوع : (مستحبة) .

الربح ما خسره أولئك الذين قاموا بما يجب عليهم من[١] أنفسهم ، ولم يأمروا غيرهم به وإن كان أولئك لم يكونوا من الذين خسروا أنفسهم وأهليهم ، فمطلق الخسار شيء والخسار المطلق شيء وهو سبحانه إنما قال : ﴿ **إن الإنسان لفي خسر** ﴾ ، ومن ربح في سلعة وخسر في غيرها قد يطلق عليه أنه في خسر ، وأنه ذو خسر ، كما قال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما : " **لقد فرطنا في قراريط كثيرة**"[٢] . فهذا نوع تفريط ، وهو نوع خسر بالنسبة إلى من حصل ربح ذلك . ولما قال في سورة التين[٣] : ﴿**ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ** ﴾ قال : ﴿ **إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ﴾ فقسم الناس[٤] في هذين القسمين فقط .

ولما كان الإنسان له قوتان قوة العلم ، وقوة العمل ، وله حالتان : حالة يأتمر فيها بأمر غيره وحالة يأمر فيها غيره استثنى سبحانه من كمل قوته العلمية بالإيمان ، وقوته العملية بالعمل الصالح ، وانقاد لأمر غيره له بذلك ، وأمر غيره (به)[٥] من الإنسان الذي هو في خسر . فإن العبد له حالتان : حالة كمال في نفسه ، وحالة تكميل لغيره ، وكماله وتكميله موقوف على أمرين : علم بالحق ، وصبر عليه .

انتضمت هذه الآية جميع مراتب الكمال الإنساني من العلم النافع والعمل الصالح ، والإحسان إلى نفسه بذلك ، وإلى أخيه به ، وانقياده وقبوله لمن يأمره بذلك .

وقوله تعالى : ﴿ **وَتَوَاصَوْا/ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾ إرشاد إلى منصب الإمامة في الدين [٣٠/ب] كقوله تعالى : ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ** ﴾[٦] فبالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين .

والصبر نوعان : نوع بالمقدور كالمصائب ، ونوع بالمشروع وهذا النوع أيضاً نوعان : صبر على الأوامر ، وصبر على المناهي[٧] ، فذاك صبر على الإرادة والفعل ، وهذا صبر عن الإرداة والفعل[٨] .

---

(1) في غير الأصل (في) .

(2) هذا الكلام قاله ابن عمر رضي الله عنهما بعدما سمع حديث (من تبع جنازة فله قيراط) ، انظر كلامه هذا عند البخاري في (٢٣) كتاب الجنائز (٥٧) باب فضل اتباع الجنائز ح(١٣٢٤) وعند مسلم أيضاً في (١١) كتاب الجنائز ، (١٧) باب فضل الصلاة على الجنازة واتباعها ح (٩٤٥) .

(3) في غير الأصل و (ب) : (والتين) .

(4) في المطبوع : (إلى) .

(5) سقط من الأصل .

(6) سورة السجدة آية (٢٤)

(7) في غير الأصل : (النواهي) .

(8) انظر في تفصيل ذلك : عدة الصابرين لابن القيم ص / (٥٥-٥٩) .

فأما النوع الأول من الصبر : فمشترك بين المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، ولا يثاب عليه لمجرده ، إن لم يقترن به إيمان واحتساب ، كما[1] قال النبي صلى الله عليه وسلم في حق ابنته **(مرها فلتصبر ولتحتسب)**[2] .

وقال تعالى : ﴿ **إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ** ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ **بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا** ﴾[4] ، وقال تعالى : ﴿ **وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا** ﴾[5] ، فالصبر بدون الإيمان والتقوى بمنزلة قوة البدن الخالي عن الإيمان والتقوى ، وعلى حسب اليقين بالمشروع ، يكون الصبر على المقدور .

وقال[6] تعالى : ﴿ **فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ(٦٠)** ﴾[7] ، فأمره أن يصبر ولا يتشبه بالذين لا يقين عندهم في عدم الصبر ، فإنهم لعدم يقينهم عدم صبرهم وخفوا واستخفوا قومهم ، ولو حصل لهم اليقين[8] لما خفوا واستخفوا قومهم .

فمن قلّ يقينه قل صبره ، ومن قل صبره خف واستخف ، فالمؤمن الصابر رزين مآن ذو عقل ولب[9] ، ومن لا يقين له ولا صبر خفيف طائش تلعب به الأهواء والشهوات كما تلعب الرياح بالشيء الخفيف والله المستعان[10] .



---

(1) سقط من غير الأصل و (ب) قوله : (كما) .

(2) كما أخرج ذلك البخاري في صحيحه في (٢٣) كتاب الجنائز . (٣٢) باب قول النبي صلى الله عليه وسلم الميت يعذب ببكاء أهله عليه إذا كان النوح من سنته ح (١٢٨٤) . ومسلم في صحيحه في (١٠) كتاب الجنائز ، (٦) باب البكاء على الميت ح (٩٢٣) ، من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما .

(3) سورة هود آية (١١) .

(4) سورة آل عمران الآية (١٢٥) .

(5) سورة آل عمران الآية (١٢٠) .

(6) في (م) و (ق) : (قال) بدون واو .

(7) سورة الروم الآية (٦٠) .

(8) في (م) و (ق) : زيادة : (والحق) ، وفي المطبوع : (اليقين والحق لصبروا وما خفوا ولا استخفوا) .

(9) في غير الأصل : (ذو لب وعقل) .

(10) في (ق) : (والله أعلم والله المستعان) .

﴿ فصل ﴾

{ القسم في سورة البروج }

ومن ذلك إقسامه سبحانه بـ ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ(١)وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ(٢)وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ(٣)﴾ [1] وقد فسرت البروج : بالبروج التي تترلها الشمس والقمر والسيارة ، وفسرت بالنجوم أو نوع منها ، وفسرت بالقصور العظام[2]، وكل ذلك من آيات قدرته وشواهد وحدانيته وأدلة ربوبيته ، فإن السماء كرة متشابهة الأجزاء ، والشكل الكري لا يتميز منه جانب / [٣١/ب]
عن جانب بطول ولا قصر ولا وضع بل هو متساوي الجوانب فجعل هذه البروج في هذه الكرة على اختلاف صورها ، وأشكالها ومقاديرها ليستحيل أن توجد[3]بغير فاعل ، ويستحيل أن يكون فاعله غير قادر ولا عالم ولا مريد ولا حي ولا حكيم ولا مباين للمفعول ، وهذا ونحوه مما هدم قواعد الطبائعية والملاحدة والفلاسفة الذين لا يثبتون للعالم رباً مبايناً له قادراً فاعلاً بالاختيار عالماً بتفاصيله حكيماً مدبراً له .

فبروج السماء : هي منازلها أو منازل السيارة التي فيها من أعظم آياته سبحانه فلهذا أقسم بها مع السماء ، ثم أقسم باليوم الموعود وهو يوم القيامة وهو المقسم به وعليه ، كما أن القرآن يقسم به وعليه ، ودل على وقوع اليوم الموعود باتفاق جميع الرسل عليه ، وبما عرف عباده من حكمته وعزته التي تأبى أن يتركهم سدى ويخلقهم عبثاً . وبغير ذلك من الآيات والبراهين التي يستدل بها سبحانه على إمكانه تارة ، وعلى وقوعه تارة ، وعلى تتريهه عما يقول أعداؤه من أنه لا يأتي به تارة والإقسام[4]به عند من آمن بالله كالإقسام بالسماء وغيرها من الموجودات المشاهدة بالعيان .

---

(1) سورة البروج الآيات (١ – ٣) وفي الأصول : (بـ السماء ذات البروج . .)

(2) وهناك تفسير رابع وهو : السماء ذات الرمل والماء .

وانظر هذه التفاسير في : الطبري (١٢٧/٣٠) ، الدر المنثور (٤٦٢/٨) .

(3) في (ق) : (يوجد) .

(4) في غير الأصل : (فالإقسام) .

ثم أقسم سبحانه بالشاهد والمشهود ، مطلقين غير معينين وأعم المعاني فيه أنه المدرك والمدرك ، والعالم والمعلوم ، والرائي والمرئي ، وهذا أليق المعاني به ، وما عداه من الأقوال ، ذكرت على وجه التمثيل لا على وجه التخصيص[١].

فإن قيل : فما وجه الارتباط بين هذه الأمور الثلاثة المقسم بها . قيل : هي بحمد الله في غاية الارتباط ، والإقسام بها متناول لكل موجود في الدنيا والآخرة ، وكل منها آية مستقلة دالة على ربوبيته وإلاهيته ، فأقسم بالعالم العلوي وهو السماء وما فيها من البروج التي هي أعظم الأمكنة وأوسعها ، ثم أقسم بأعظم الأيام وأجلها قدراً الذي هو مظهر ملكه وأمره ونهيه وثوابه وعقابه ومجمع أوليائه وأعدائه ، والحكم بينهم بعلمه وعدله ، ثم أقسم بما هو أعظم[٢]من ذلك وهو الشاهد والمشهود .

وناسب هذا القسم ذكر أصحاب الأخدود الذين عذبوا / أولياءه وهم شهود على ما [٣١/ب] يفعلون بهم ، والملائكة شهود عليهم بذلك والأنبياء وجوارحهم تشهد به عليهم .

وأيضاً فالشاهد هو : المطلع والرقيب والمخبر ، والمشهود هو المطلع عليه المخبر به المشاهد[٣] ، فمن نوع الخليقة إلى شاهد ومشهود ــ وهو أقدر القادرين ــ كما نوعها إلى مرئي لنا وغير مرئي . كما قال (تعالى) : ﴿ **فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ(٣٨)وَمَا لَا تُبْصِرُونَ(٣٩)**﴾[٤]، وكما[٥]نوعها إلى أرض وسماء وليل ونهار وذكر وأنثى ، وهذا التنويع والاختلاف من آياته سبحانه كذلك نوعها إلى شاهد ومشهود وفيه سر آخر وهو أن من المخلوقات ما هو مشهود ، ومنها ما هو شاهد عليه[٦]، ولا يتم نظام العالم إلا بذلك ، فكيف يكون المخلوق شاهداً رقيباً حفيظاً على غيره ، ولا يكون الخالق تبارك وتعالى شاهداً على عباده مطلعاً عليهم رقيباً .

---

[1] انظر هذه التفاسير في جامع البيان (٣٠/١٢٨-١٣٠) ، البسيط (٢/٦٦٢-٦٦٥) ، الدر المنثور (٨/٤٦٣-٤٦٥) وغيرها .

[2] في غير الأصل : (أعم) .

[3] في (ق) : (للمشاهد) .

[4] سورة الحاقة الآيتان (٣٨-٣٩) .

[5] في المطبوع : (كما) من غير واو .

[6] في المطبوع : (من المخلوقات ماهو مشهود عليه) .

وأيضاً فإن ذلك يتضمن القسم بملائكته وأنبيائه ورسله فإنهم شاهدون على العباد فيكون من باب إيجاد[١] المقسم به والمقسم عليه ، كما أقسم باليوم الموعود وهو المقسم به وعليه ، وأيضاً فيوم القيامة مشهود كما قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴾[٢] يشهده الله وملائكته والإنس والجن والوحش فالشاهد[٣] من آياته والمشهود من آياته .

أيضاً[٤] فكلامه مشهود كما قال تعالى : ﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا(٧٨) ﴾[٥] يشهده ملائكة الليل وملائكة النهار ، والمشهود[٦] من أعظم آياته وكذلك الشاهد ، فكل ما وقع عليه اسم شاهد ومشهود فهو داخل في هذا القسم فلا وجه لتخصيصه ببعض[٧] الأنواع أو الأعيان إلا على سبيل التمثيل .

وأيضاً : فكتاب الأبرار في عليين . يشهده المقربون فالكتاب مشهود والمقربون شاهدون والأحسن أن يكون هذا القسم مستغنياً عن الجواب[٨] لأن القصد التنبيه على المقسم به وأنه من آيات الرب العظيمة ويبعد أن يكون الجواب : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴾ (لأن ذلك دعاء وطلب ، ولكنه سبحانه ذكر حال أعدائه وأوليائه فذكر أصحاب الأخدود)[٩] الذين فتنوا أولياءه وعذبوهم بالنار ذات الوقود ، ثم وصف حالهم القبيحة بأنهم قعدوا[١٠] على جانب الأخدود [٣٢/أ]

---

(1) في (م) و (ق) والمطبوع : (اتحاد) .

(2) سورة هود الآية (١٠٣)

(3) قوله : (فالشاهد) سقط من المطبوع .

(4) في غير الأصل زيادة واو (وأيضاً) .

(5) سورة الإسراء الآية (٧٨) .

(6) في غير الأصل و (ب) : (فالمشهود) .

(7) في (م) و (ق) : (بعض) .

(8) اختلف في جواب القسم على أقوال منها :

– قيل إنه قوله تعالى : (قتل أصحاب الأخدود) واختلف في (قتل) :

هل هي من باب الخبر أو الدعاء ؟ فمن قال إنها من باب الخبر جعله جواباً ، ومن قال إنه من باب الدعاء فلا يكون جواباً .

–وقيل : انه قوله : (ان الذين فتنوا)

– وقيل : قوله : (إن بطش ربك لشديد) .

– وقيل : إنه مقدر ، دل عليه (قتل أصحاب الأخدود) فكأنه قال أقسم بهذه الأشياء إن كفار قريش ملعونون كما لعن أصحاب الأخدود ، وقيل : التقدير : (لتبعثن) .

انظر معاني القراء للفراء (٢٥٣/٣) ، الطبري (١٣٥/٣) ، الدر المصون (٧٤٣/١٠-٧٤٤) .

(9) ما بين القوسين سقط من المطبوع .

(10) في (م) و (ق) والمطبوع : (قعود) .

/ شاهدين على[1] ما يجري على عباد الله (تعالى)[2] وأوليائه عياناً ، ولا تأخذهم بهم رأفة ولا رحمة ولم يعيبوا عليهم ذنباً[3] سوى إيمانهم **بالله العزيز الحميد الذي له ملك السماوات والأرض** ، وهذا الوصف يقتضي إكرامهم وتعظيمهم ومحبتهم ، فعاملوهم بضد ما يقتضي أن يعاملوا به .

وهذا شأن أعداء الله دائماً ، ينقمون على أوليائه ما ينبغي أن يحبوا ويكرموا لأجله كما قال تعالى : ﴿ **قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ(٥٩)** ﴾[4].

وكذلك اللوطية[5] نقموا من عباد الله تنزههم عن مثل فعلهم فقالوا : ﴿ **أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ(٨٢)** ﴾[6] .

وكذلك أهل الإشراك : ينقمون من الموحدين تجريدهم التوحيد وإخلاص الدعوة والعبودية لله وحده .

وكذلك أهل البدع : ينقمون من أهل السنة تجريد متابعتها ، وترك ما خالفها .

وكذلك المعطلة[7]: ينقمون من أهل الإثبات إثباتهم لله صفات كماله ونعوت جلاله (وعلوه على مخلوقاته ، ويعادوهم على ذلك ويرموهم لأجله بالعظائم)[8].

---

(1) سقط من غير الأصل و (ب) .

(2) سقط من الأصل و (ب) .

(3) في المطبوع : (ديناً) .

(4) سورة المائدة آية (٥٩) .

(5) الذين يعملون عمل قوم لوط وهو (إتيان الذكران) والعياذ بالله .

(6) سورة الأعراف الآية (٨٢) .

(7) المعطلة : هم الذين جحدوا صفات الله تعالى ، وأنكروا قيامها بذاته ، ونفوا ما دلت عليه من صفات الكمال ويندرج تحت هذا الاسم فرق كثيرة ، والتعطيل نوعان :

١) تعطيل كلي : كتعطيل الجهمية الذين أنكروا الصفات وغلاتهم ينكرون الأسماء أيضاً .

٢) تعطيل جزئي : كتعطيل الأشعرية الذين ينكرون بعض الصفات دون بعض وأول من قال بالتعطيل الجعد بن درهم ، وتلقاه عنه الجهم بن صفوان كما قال ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله . .

انظر : الملل والنحل للشهرستاني (١/٨٦-٩٤) ، مجموع الفتاوى (٥/٢٠) وغيرهما .

(8) سقط من المطبوع .

وكذلك الرافضة[1]: ينقمون على أهل السنة محبتهم للصحابة [جميعهم][2] وترضيهم عنهم وولايتهم إياهم ، وتقديم من قدمه رسول الله ﷺ منهم ، وتنزيلهم منازلهم التي أنزلهم الله ورسوله بها .

وكذلك أهل الرأي المحدث[3]: ينقمون على أهل الحديث وحرب الرسول أخذهم بحديثه ،وتركهم ما خالفهم[4]، وكل هؤلاء لهم نصيب (من هذه الآية)[5] وفيهم شبه من أصحاب الأخدود وبينهم نسب قريب أو بعيد .

ثم أخبر سبحانه[6] أنما أعد لهم عذاب جهنم وعذاب الحريق حيث لم يتوبوا ، وأنهم لو تابوا بعد أن فتنوا المؤمنين[7] وعذبوهم بالنار لغفر لهم ولم يعذبهم ، وهذا غاية الكرم والجود . قال الحسن : انظروا إلى هذا الكرم والجود يقتلون أولياءه ويفتنونهم وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة[8].

انظروا إلى كرم الرب تعالى يدعوهم إلى التوبة وقد فتنوا أولياءه وحرقوهم[9] بالنار فلا ييأس العبد من مغفرته وعفوه ولو كان منه ما كان . فلا عداوة لله أعظم[10] من / هذه العداوة ، ولا [٣٢/ب] أكفر ممن حرق بالنار من آمن به [وعبده][11] وحده ومع هذا فلو تابوا لم يعذبهم وألحقهم بأوليائه .

---

(1) الرافضة : طائفة من طوائف الشيعة وهم عدة فرق إنما سمو رافضة لرفضهم إمامة أبي بكر وعمر ، وهم مجمعون على أن النبي صلى الله عليه وسلم نص على استخلاف علي بن أبي طالب باسمه ، وأظهر ذلك وأعلنه وإن أكثر الصحابة ضلوا بتركهم لما نص عليه الرسول عليه الصلاة والسلام وغير ذلك من الأباطيل التي ادعوها .

انظر مقالات الإسلاميين للأشعري (١٦-٣١) ، الفرق بين الفرق للبغدادي (٢٢-٤٩) .

(2) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل .

(3) أهل الرأي المحدث : الذين تركوا حديث النبي صلى الله عليه وسلم وخصوصاً الآحاد منه . وانصرفوا إلى أقوال الرجال وقدموها على حديثه صلى الله عليه وسلم .

(4) في غير الأصل : (خالفه) .

(5) سقط من غير الأصل و (ب) .

(6) المطبوع (أنه) بدل (أنما) .

(7) في (م) و (ق) والمطبوع : (أولياءه) بدل (المؤمنين) .

(8) ذكر هذا القول ونسبه إلى الحسن ابن كثير في تفسيره (٤/٤٩٦) ، وانظر : تفسير الحسن البصري (٢/٤١٠) .

(9) في المطبوع : (فحرقوهم) .

(10) في المطبوع : (. فلا عداوه اعظم)

(11) سقط من الأصل ، وأثبته من البقية . وفي المطبوع : (من آمن بالله وحده ، وعبده وحده) .

ثم ذكر سبحانه جزاء أوليائه المؤمنين ، ثم ذكر شدة [بطشه][1]وأنه لا يعجزه شيء فإنه هو المبدئ المعيد ، ومن كان كذلك فلا أشد من بطشه وهو مع ذلك الغفور الودود يغفر لمن تاب إليه ويوده ويحبه ، فهو سبحانه الموصوف بشدة البطش وهو مع ذلك الغفور الودود ، والودود المتودد إلى عباده بنعمه ، الذي يود من تاب إليه وأقبل عليه ، (وهو المودود)[2]أي : المحبوب ، قال البخاري في صحيحه : [الودود][3](الحبيب)[4].

والتحقيق أن اللفظ يدل على الأمرين : على كونه واداً[5]لأوليائه مودوداً لهم ، فأحدهما بالوضع ، والآخر باللزوم فهو الحبيب المحب لأوليائه يحبهم ويحبونه . قال شعيب[6]: ﴿ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ(٩٠)﴾[7].

وما ألطف اقتران اسم الودود بالرحيم وبالغفور ، فإن الرجل قد يغفر لمن أساء إليه[8]ولا يحبه ، وكذلك قد يرحم من لا يحبه[9]، والرب تعالى يغفر لعبده إذا تاب إليه ويرحمه ويحبه مع ذلك فإنه يحب التوابين ، وإذا تاب إليه عبده أحبه ولو كان منه ما كان .

ثم قال (تعالى) : ﴿ ذُو الْعَرْشِ ﴾ فأضاف العرش إلى نفسه كما تضاف إليه الأشياء العظيمة الشريفة ، وهذا يدل على عظمة العرش وقربه منه سبحانه واختصاصه به ، بل يدل على غاية القرب والاختصاص كما يضيف إلى نفسه (بذو) صفاته القائمة به كقوله (تعالى) : ﴿ ذُو الْقُوَّةِ ﴾[10] (و)[11]﴿ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ(٢٧)﴾[12]ويقال : ذو العزة وذو الملك وذو الرحمة ، ونظائر ذلك فلو كان حظ العرش منه حظ الأرض السابعة لكان لا فرق (بين)[13] أن يقال : ذو العرش ، وذو الأرض .

---

(1) سقط من الأصل .
(2) في غير الأصل و (ب) : (وهو الودود أيضاً) .
(3) سقط من الأصل .
(4) ذكره البخاري في صحيحه في (٦٥) كتاب التفسير ، (٨٥) سورة البروج من كلام ابن عباس رضي الله عنهما وذكره أيضاً في (٩٧) كتاب التوحيد (٢٢) باب (وكان عرشه على الماء) .
(5) في (م) : (وداً) .
(6) في غير الأصل و (ب) : (وقال) وفي المطبوع زيادة : (عليه السلام) .
(7) سورة هود الآية (٩٠) .
(8) قوله : (إليه) سقط من (م) و (ق) .
(9) في المطبوع : (من لا يحب) .
(10) سورة الذاريات الآية (٥٨) .
(11) سقط من (م) و (ق) والمطبوع)
(12) سورة الرحمن الآية (٢٧) .
(13) سقط من (م) والمطبوع .

ثم وصف نفسه بالمجيد ، وهو المتضمن لكثرة صفات كماله وسعتها وعدم إحصاء الخلق لها وسعة أفعاله / وكثرة خيره ودوامه ، وأما من ليس له صفات كمال ولا أفعال حميدة فليس له من المجد شيء والمخلوق إنما يصير مجيداً بأوصافه وأفعاله فكيف يكون الرب تبارك وتعالى مجيداً وهو معطل عن الأوصاف والأفعال ؟ ! ، تعالى الله عما يقول الظالمون[1] علواً كبيراً ، بل [هو][2] المجيد الفعال لما يريد . [٣٣/أ]

والمجد[3] في لغة العرب : كثرة أوصاف الكمال وكثرة أفعال الخير وأحسن ما قرن اسم المجيد إلى الحميد كما قالت الملائكة لبيت الخليل[4] ﴿**رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ(٧٣)**﴾[5]، وكما شرع لنا في آخر الصلاة بأن نثني على الرب تعالى بأنه حميد مجيد[6]، وشرع في آخر الركعة عند الاعتدال أن نقول بعد[7](ربنا ولك الحمد ، أهل الثناء والمجد)[8] فالحمد والمجد على الإطلاق لله الحميد المجيد .

فالمجيد : الحبيب المستحق لجميع صفات الكمال . والحميد[9] العظيم الواسع القادر الغني ذو الجلال والإكرام .

ومن قرأ (المجيد) بالكسر[10] فهو صفة لعرشه سبحانه ، (و)[1] إذا كان عرشه مجيداً فهو سبحانه أحق بالمجد ، وقد استشكل هذه القراءة بعض الناس[2] وقال لم يسمع في صفات الخلق مجيد ، ثم خرجها على أحد وجهين :

---

(1) في غير الأصل : (المعطلون) .

(2) ما بين المعقوفتين زيادة من غير الأصل .

(3) في (ق) : والمجيد) . وانظر : لسان العرب (١٣/٢٨) .

(4) في المطبوع : زيادة (عليه السلام) .

(5) سورة هود الآية (٧٣) .

(6) كما جاء ذلك في صحيح مسلم في (٤) كتاب الصلاة ، (١٧) باب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بعد التشهد ح (٤٠٥) من حديث أبي مسعود الأنصاريرضي الله عنه

(7) في (ق) : أن يقول : (ربنا . .) ، وفي المطبوع : أن نقول : (ربنا . .) . [٣٣/ب]

(8) كما جاء ذلك في الحديث الذي أخرجه مسلم في (٤) كتاب الصلاة ، (٤٠) باب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع ح (٤٧٧) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ولفظه : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رفع رأسه من الركوع قال : (ربنا لك الحمد ، ملء السماوات والأرض ، وملء الأرض ، وملء ما شئت من شيء بعد ، أهل الثناء والمجد . .) الحديث ، وأخرجه أيضاً بعده من رواية ابن عباس رضي الله عنهما إلا أنه قال : (اللهم ربنا لك الحمد . .) ح (٤٧٨) .

(9) في (ب) : (فالحميد ـــ والحميد) وفي (م) و (ق) والمطبوع : (فالحميد ـــ والمجيد) .

(10) انظر في توجيه القراءتين :

معاني القرآن للفراء (٣/٢٤٥) ، معاني الأخفش (٢/٧٣٦) ، معاني الزجاج (٥/٣٠٨) ، الكشف لمكي (٢/٣٩٦) ، الموضح لابن أبي مريم (٣/١٣٥٦) ، الدر المصون (١٠/٧٤٨) .

إما على الجوار ، وإما أن يكون صفة لربك[٣] ، وهذا من قلة بضاعة هذا القائل فإن الله سبحانه وصف عرشه بالكرم وهو نظير المجد ووصفه بالعظمة فوصفه بمجد مطابق لوصفه بالعظمة والكرم بل هو أحق المخلوقات أن يوصف بذلك لسعته وحسنه وبهاء منظره ، فإنه أوسع شيء في المخلوقات وأجمله وأجمعه لصفات الحسن وبها المنظر وعلو القدر والرتبة والذات ولا يقدر قـدر عظمته وحسنه وبهاء منظره إلا الله (تعالى) ومجده مستفاد من مجد خالقه ومبدعه . والسماوات السبع والأرضون السبع في الكرسي الذي بين يديه كحلقة ملقاة في جنب فلاة والكرسي فيـه ـ كذلك ـ[٤]كتلك الحلقة في الفلاة[٥]قال ابن عباس : (السماوات السبع / والأرضون السـبع في العرش كسبعة دراهم جعلن في ترس)[٦]فكيف لا يكون مجيداً وهذا شأنه فهو عظيم كريم مجيد ، وأما تكلّف هذا المتكلّف جره على الجوار[٧] أو أنه صفة لربك فتكلّف شديد وخروج عن المألوف في اللغة من غير حاجة إلى ذلك .

وقوله (تعالى) : ﴿ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ(١٦) ﴾[٨]دليل على أمور :

أحدها : أنه سبحانه يفعل بإرداته ومشيئته .

---

(1) الواو ساقطة من (ق) .

(2) الذي استشكل القراءة هو : أبو علي الفارسي .

(3) انظر : الحجة للقراء السبعة للفارسي (٦/٣٩٣-٣٩٥) .

(4) سقط من غير الأصل .

(5) كما ورد في الحديث : (ما السماوات السبع في الكرسي ـ وفي لفظ : مع الكرسي ـ إلا كحلقة ملقاة بأرض فـلاة ، وفضـل العرش على الكرسي ، كفضل الفلاة على الحلقة) .

الحديث أخرجه : ابن أبي شيبة في كتاب العرش رقم (٥٨) ، والدارمي في رده على المريسي (١/٤٢٤) ، وابن جرير في تفسـيره (٥/٢٩٦) طبعة شاكر ، وأبو الشيخ في العظمة (٢/٦٤٨) ، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/٢٩٩-٣٠٢) وغيرهم وفي أسانيدها مقال . وقد صححه الشيخ الألباني في الصحيحة وتحدث عن طرقه تراجع السلسلة الصحيحة (١/١٧٣-١٧٦) .

(6) المروي عن ابن عباس رضي الله عنهما : (ما السماوات السبع و الأرضون السبع في كف الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم) كما أخرج ذلك ابن جرير رحمه الله تعالى في تفسيره (٢٤/١٧) وغيره ، وأما الرواية التي ذكرها المؤلف فالذي يظهر ـ والعلم عند الله ـ أنها من رواية عبدالرحمن بن زيدد بن أسلم بن أبيه كما أخرجه ابن جرير في تفسيره (٣/٧-٨) وللحديث تكملة ، أخرجه محمد بـن أبي شيبة في العرش (٥٨) وفي إسناده إسماعيل بن مسلم المكي وهو متروك ، وفيه أيضاً : المختار بن غسان مجهول لا يعرف بجرح ولا تعديل ، وأخرجه أيضاً أبو الشيخ في العظمة (٩) (ذكر عرش الرب تبارك وتعالى وكرسيه ، وعظم خلقهما ، وعلو الـرب تبـارك وتعالى فوق عرشه ح (٢٢٠) ، وكذلك ذكره الذهبي في العلو (١/٨٤٩) ح (٢٧٩) وقال عنه : " هذا مرسـل ، وعبـدالرحمن ضعف " .

وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره كما ذكر ذلك ابن كثير في تفسيره (١/ ٢٣٦) وقد أورده الحافظ ابن كثير في البدايـة والنهايـة (١/ ٧٥) وقال عنه : (أول الحديث مرسل) .

وقال الشيخ سليمان بن عبدالله كما في إبطال التنديد ص (١٧٠) : " رواه أصبغ بن الفرج بهذا الطريق واللفـظ ، وهـو مرسـل ، وعبدالرحمن بن زيد ضعيف " .

(7) في (ب) : (على الجواز) ، وفي (م) و (ق) : (إلى الجواز) وفي المطبوع : (إلى الجوار) .

(8) سورة البروج الآية (١٦) .

الثاني : أنه(١) لم يزل كذلك لأنه ساق ذلك (في)(٢) معرض المدح والثناء على نفسه وأن ذلك من كماله سبحانه فلا يجوز أن يكون عادماً لهذا الكمال في وقت من الأوقات وقد قال (سبحانه) : ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ ﴾(٣) وما كان من أوصاف كماله ونعوت جلاله لم يكن حادثاً بعد أن لم يكن .

الثالث : أنه إذا أراد شيئاً فعله، فإن (ما) موصولة عامة أي يفعل كل ما يريد أن يفعله وهذا في إرادته المتعلقة بفعله وإما إرادته المتعلقة بفعل العبد فتلك لها شأن آخر فإن أراد فعل العبد ولم يرد من نفسه أن يعينه [عليه](٤) ويجعله فاعلاً لم يوجد الفعل وإن أراده حتى يريد(٥) من نفسه أن يجعله فاعلاً وهذه هي النكتة التي خفيت على القدرية [و](٦) الجبرية وخبطوا في مسألة القدر لغفلتهم عنها .

فإن هنا إرادتان(٧) : إرادة أن يفعل العبد، وإرادة أن يجعله الرب فاعلاً وليسا(٨) متلازمتين وإن لزم من الثانية الأولى من غير عكس ، فمتى أراد من نفسه أن يعين عبده وأن يخلق له أسباب الفعل فقد أراد فعله وقد يريد فعله ولا يريد من نفسه أن يخلق له أسباب الفعل فلا يوجد الفعل .

فإن اعتاص عليك فهم هذا الموضع وأشكل عليك فانظر إلى قول النبي ﷺ ، حاكياً عن ربه قوله للعبد يوم القيامة (**قد أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب أبيك : أن لا تشرك بي شيئاً . فأبيت إلا الشرك** "(٩) فأخبر سبحانه أنه أراد من المشرك أن لا يشرك به شيئاً)(١٠) ولم يقع هذا المراد لأنه لم يرد من / نفسه إعانته عليه وتوفيقه له . [٣٤/أ]

الرابع : أن فعله سبحانه وإرادته متلازمتان(١١) فما أراد أن يفعله فعله ، وما فعله فقد أراده بخلاف المخلوق ، فإنه يريد ما لا يفعل ، وقد يفعل ما لا يريد فما ثم فعال لما يريد إلا الله وحده .

---

(1) في المطبوع : (لأنه) .
(2) سقط من الأصل
(3) في غير الأصل و (ب) تكملة الآية إلى أخرها .
(4) سقط من الأصل .
(5) في غير الأصل : (يريده) .
(6) سقط من الأصل و (ب) .
(7) في المطبوع : (إرادتين) .
(8) في المطبوع : (وليستا) .
(9) أخرجه البخاري في (٦٠) كتاب أحاديث الأنبياء (١) باب كيف خلق آدم وذريته ح (٣٣٣٤) ، ومسلم في (٥٠) كتاب صفة المنافقين وأحكامهم (١٠) باب طلب الكافر الفداء بملء الأرض ذهباً ، ح(٢٨٠٥)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .
(10) ما بين القوسين سقط من المطبوع .
(11) في غير الأصل : (متلازمان) .

الخامس : إثبات إرادات متعددة بحسب الأفعال ، وأن كل فعل له إرادة تخصه وهذا هو المعقول في الفطر ، وهو الذي يعقله الناس من الإرادة ، فشأنه تعالى أن[1] يريد على الدوام ، ويفعل ما يريد .

السادس : أن كل ما صح[2] أن يتعلق به إرادته جاز فعله ، فإذا أراد أن يترل كل ليلة إلى سماء الدنيا ، وأن يجيء يوم القيامة لفصل القضاء ، وأن يري نفسه لعباده ، وأن يتجلى لهم كيف شاء ، وأن يخاطبهم ويضحك إليهم وغير ذلك مما يريد سبحانه لم يمتنع عليه فعله ، فإنه فعال لما يريد ، وإنما يتوقف[3] صحة ذلك على إخبار الصادق به ، فإذا أخبر به وجب التصديق به ، وكان رده رداً لكماله الذي أخبر به عن نفسه وهذا عين الباطل ، وكذلك إذا أمكن إرادته سبحانه محو ما شاء وإثبات ما شاء أمكن فعله ، وكانت تلك الإرادة والفعل من مقتضيات كماله المقدس .

وقد اشتملت هذه السورة على اختصارها من التوحيد على وصفه سبحانه بالعزة المتضمنة للقدرة والقوة وعدم النظير ، والحمد المتضمن لصفات الكمال ، والتتريه عن أضدادها مع محبته وإلاهيته وملك[4] السماوات والأرض المتضمن لكمال غناه ، وسعة ملكه وشهادته على كل شيء المتضمن لعموم اطلاعه على ظواهر الأمور وبواطنها ، وإحاطة بصره بمرئياتها ، وسمعه بمسموعاتها وعلمه بمعلوماتها ، ووصفه / بشدة البطش المتضمن لكمال القدرة والقوة والعزة[5] وتفرده بالإبداء والإعادة (المتضمن لتوحيد ربوبيته وتصرفه في المخلوقات بالإبداء والإعادة)[6] وانقيادها لقدرته فلا يستعصي عليه منها شيء ، ووصفه بالمغفرة المتضمن لكمال جوده وإحسانه وغناه ورحمته ووصفه بالودود المتضمن لكونه حبيباً إلى عباده محباً لهم . [٣٤/ب]

---

(1) في (م) و (ق) والمطبوع : (أنه) .
(2) في المطبوع : (صلح) .
(3) في (ب) والمطبوع : (تتوقف) .
(4) في (م) و (ق) والمطبوع : (وملكه) .
(5) في غير الأصل : (لكما ل القوة والعزة والقدرة) .
(6) ما بين القوسين سقط من (ق) .

ووصفه بأنه ذو العرش الذي لا يقدر قدره سواه ، وأنه[1] عرشه المختص به الذي[2] لا يليق بغيره أن[3] يستوي عليه ، ووصفه بالمجد المتضمن لسعة العلم والقدرة الملك والغنى ، والجود والإحسان والكرم، وكونه فعالاً لما يريد المتضمن لحياته وعلمه[4] وقدرته ومشيئته وحكمته ، وغير ذلك من أوصاف كماله .

فهذه السورة كتاب مستقل في أصول الدين تكفي من فهمها . فالحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ، وتبارك الذي نزل الفرقان على عبده .

ثم ختمها بذكر فعله وعقوبته بمن أشرك به ، وكذب رسله ، تحذيراً لعباده من سلوك سبيلهم وأن من فعل فعلهم ، فعل به كما فعل بهم ، ثم أخبر عن أعدائه بأنهم مكذبون بتوحيده ورسالاته مع كونهم في قبضته وهو محيط بهم ، ولا أسوأ حالاً ممن[5] عادى من هو في قبضته ، ومن هو قادر عليه من كل وجه ، وبكل اعتبار فقال تعالى : ﴿ **بَلْ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ(١٩)وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ(٢٠)** ﴾[6] فهل أعجب[7] ممن كفر بمن هو محيط به ، آخذ[8] بناصيته قادر عليه ؟!!.

ثم وصف كلامه بأنه مجيد ، وهو أحق بالمجد من كل كلام ، كما أن المتكلم به له المجد كله ، فهو المجيد ، وكلامه مجيد ، وعرشه مجيد ، قال ابن عباس[9]: (قرآن مجيد) كريم لأن كلام الرب ليس هو كما يقول الكافرون شعر وكهانة وسحر[10].

---

(1) في غير الأصل و (ب) : (وأن) .
(2) قوله : (الذي) سقط من المطبوع) .
(3) في (ق) : (وأن) .
(4) قوله : (وعلمه) سقط من (ق) .
(5) في (ب) : (بمن) .
(6) سورة البروج الآيتان (١٩-٢٠) .
(7) في المطبوع : (فهذا أعجب عجب) .
(8) في غير الأصل و (ب) : (وآخذ) . س
(9) في (م) و (ق) والمطبوع : زيادة : (رضي الله عنه) .
(10) ذكره ونسبه إلى ابن عباس الواحدي في الوسيط (٤٦٣/٤) وكذا في البسيط (٦٧٨/٢) وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٧٩/٩) ولم ينسبه لأحد .

وقد تقدم أن المجد السعة وكثرة الخير ، وكثرة خير القرآن لا يعلمها / إلا من تكلم به . [٣٥/أ]

وقوله : ﴿ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ(٢٢) ﴾[1] أكثر القراء على الجر[2] صفة للوح وفيه إشارة إلى أن الشياطين لا يمكنهم التنزل به ، لأن محله محفوظ أن يصلوا إليه وهو في نفسه محفوظ أن تقدر الشياطين[3] على الزيادة فيه والنقصان ، فوصفه سبحانه بأنه محفوظ في قوله : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ ، ووصف محله بالحفظ في هذه السورة .

فالله سبحانه حفظ محله ، وحفظه[4] من الزيادة والنقصان والتبديل ، وحفظ معانيه من التحريف ، كما حفظ ألفاظه من التبديل ، وأقام له من يحفظ حروفه من الزيادة والنقصان ومعانيه من التحريف والتغيير .



[1] سورة البروج الآية (٢٢) .

[2] قرأ نافع (في لوح محفوظ) بالرفع صفة لقرآن ، والباقون بالخفض صفة للوح . انظر إرشاد المبتدي ص (٦٢٨) النشر (٢/٣٦٢)

[3] في (م) و (ق) والمطبوع : (يقدر الشيطان) .

[4] في (ب) : (وحفظ) .

﴿ فصل ﴾[١]

{ المقسم عليه في سورة الطارق }

والمقسم عليه هاهنا حال النفس الإنسانية والاعتناء بها وإقامة الحفظة عليها وأنها لم تترك سدى بل قد أرصد عليها أعمالها ويحصيها فأقسم سبحانه بأنه[٢]ما من نفس إلا عليها حافظ [من الملائكة][٣]يحفظ عملها وقولها[٤]، ويحصي ما تكسب من خير أو شر .

واختلف القراء في " لما " فشددها بعضهم ، وخففها بعضهم[٥] فمن قرأها بالتشديد جعلها بمعنى (إلا) ، وهي تكون بمعنى (إلا) في موضعين :

أحدهما : بعد (أن) المخففة مثل هذا الموضع ، أو المثقلة مثل قوله : ﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ﴾[٦] .

والثاني : في باب القسم . نحو : سألتك بالله لما فعلت[٧] .

قال أبو علي الفارسي[٨]: (من خفف كانت إن[٩]عنده هي المخففة من الثقيلة واللام في خبرها هي الفارقة بين أن النافية والمخففة[١٠]و" ما " زائدة وإن هي التي تلقى[١١]بها القسم كما

---

(1) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل و (ب) ومثبت في البقية .
(2) في (م) ، (ق) والمطبوع : (أنه) .
(3) زيادة من غير الأصل و (ب) .
(4) في (ب) : (يحفظ عليها أعمالها ويحصيها ويحصي . .) .
(5) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر بالتخفيف ، وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بالتخفيف .
(6) سورة هود آية (١١١).
(7) انظر : معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٥/٣١١) .
(8) الفارسي : هو أبو علي الحسن بن أحمد بن عبدالغفار الفارسي ، صاحب التصانيف ، قال الذهبي : مصنفاته كثيرة نافعة وكان فيه اعتزال . من مؤلفاته : (الحجة للقراء السبعة) وهو كبير و (الإيضاح) ، و (التكملة) وغيرها . توفي سنة (٣٧٧) هـ .
انظر : تاريخ بغداد (٧/٢٧٥-٢٧٦) ، سر أعلام النبلاء (١٦/٣٧٩-٣٨٠) .
(9) سقطت من المطبوع .
(10) في غير الأصل : (والخفيفة) .
(11) في (م) و (ق) : (يلقى) ، وفي المطبوع : (يتلقى) .

يتلقى بالمثقلة ومن قرأها مشددة[١] كانت(إن) عنده نافية بمعنى (ما) ، و(لما) في معنى[٢] (إلا) قال سيبويه[٣] عن الخليل[٤]: في قولهم : نشدتك بالله لما فعلت ، قال : المعنى إلا[٥] فعلت)[٦].

ثم نبه سبحانه الإنسان على دليل المعاد بما يشاهده من حال مبدئه على طريقة القرآن في الاستدلال على المعاد بالمبدأ فقال : ﴿ فَلْيَنظُرْ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ(٥)﴾[٧] أي : فلينظر نظر الفكر والاستدلال ليعلم أن الذي ابتدأ خلقه[٨] من نطفة قادر على إعادته .

ثم أخبر سبحانه أنه ﴿ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ(٦)﴾[٩] والدفق : صب الماء يقال : دفقت الماء فهو مدفوق ودافق ومندفق ، فالمدفوق الذي وقع عليه فعلك كالمكسور والمضروب ، والمندفق المطاوع لفعل الفاعل تقول : دفقته فاندفق كما تقول : كسرته فانكسر والدافق :

- قيل إنه فاعل بمعنى مفعول ، كقوله[١٠]: سر كاتم وعيشة راضية .
- وقيل : هو على النسب لا على الفعل أي : ذي دفق وذات (رضى)[١١] ولم يرد الجريان / على الفعل . [٣٦/أ]
- وقيل : ـــ **وهو الصواب** ـــ أنه اسم فاعل على بابه ، ولا يلزم من ذلك أن يكون هو فاعل الدفق ، فإن اسم الفاعل هو من قام به الفعل سواء فعله هو أو غيره كما يقال : ماء جارٍ ، ورجل ميت ، وإن لم يفعل الموت بل لما قام به[١٢] الموت ونسب

---

(1) في (ق) : (بالمشددة) .
(2) في (ق) : (بمعنى).
(3) سيبويه : عمرو بن عثمان بن قنبر ، أبو بشر ، سيبويه الفارسي ثم البصري ، إمام النحو توفي سنة (١٨٠) هـ بغية الوعاة (٢/٢٢٩)
(4) هو أبو عبدالرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي البصري الإمام صاحب العربية ، ومنشىء علم العروض ، أحد الأعلام ، كان رأساً في لسان العرب ، ديناً ورعاً ، كان مفرطاً في الذكاء له كتاب العين مات سنة بضع وستين ومائة وقيل غير ذلك .
انظر : إشارة التعيين ص (١١٤) ، البلغة في تراجم أئمة اللغة ص (٩٩) .
(5) انظر : حروف المعاني للزجاجي ص (١١) .
(6) هذا الكلام موجود في الحجة للفارسي (٦/٣٩٧) وقد نقله بنصه .
(7) سورة الطارق الآية (٥) .
(8) في المطبوع : (ابتدأ أول خلقه) .
(9) سورة الطارق الآية (٦) . وفي غير الأصل و (ب) : (أنه خلق من ماء دافق) .
(10) في (م) و (ق) والمطبوع : (كقولهم) .
(11) (رضى) سقط من غير الأصل و (ب) .
(12) في (م) و (ق) والمطبوع : زيادة (من) بعد (به) .

إليه على جهة الفعل . وهذا غير منكر في لغة أمة من الأمم فضلاً عن أوسع اللغات وأفصحها[١].

وأما العيشة الراضية : فالوصف بها أحسن من الوصف بالمرضية فإنها اللائقة بهم فشبه ذلك برضاها بهم كما رضوا بها ، كأنها رضيت بهم ورضوا بها ، وهذا أبلغ من مجرد كونها مرضية فقط فتأمله[٢]. وإذا كانوا يقولون : الوقت الحاضر والساعة الراهنة ، وإن لم يفعلا ذلك فكيف يمتنع أن يقولوا : ماء دافق وعيشة راضية ؟ .

ونبه سبحانه بكونه دافقاً على أنه ضعيف غير متماسك ثم ذكر محله الذي يخرج منه وهو بين الصلب والترائب قال ابن عباس : يريد[٣]صلب الرجل وترائب المرأة وهو موضع القلادة من صدرها ، والولد يخلق من المائين جميعاً[٤].

وقيل : صلب الرجل وترائبه ، وهي صدره[٥]، فيخرج من صلبه وصدره وهذه الآية الدالة على قدرة الخالق سبحانه نظير إخراجه اللبن الخالص من بين الفرث والدم .

ثم ذكر (سبحانه) الأمر المستدل عليه وهو[٦]المعاد بقوله : ﴿ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾[٧] أي : على رجعه إليه يوم القيامة كما هو قادر على خلقه من ما هذا شأنه . هذا هو الصحيح في معنى الآية[٨] وفيها قولان ضعيفان : أحدهما : قول مجاهد : إنه على رد الماء في الإحليل لقـادر[٩].

---

(1) انظر : تهذيب اللغة للأزهري (٩/٣٩) وما بعدها ، ومعاني الفراء (٣/٢٥٥) ومعاني الزجاج (٥/٣١١) .

(2) في (ق) : (فتأملها) .

(3) قوله (يريد) سقط من المطبوع .

(4) ذكره ابن كثير في تفسيره (٤/٤٩٨) ، وعزاه في الدر المنثور (٨/٤٧٥) إلى عبد بن حميد وابن المنذر .

(5) وهو مروي عن جماعة منهم : عكرمة وسعيد بن جبير ، وابن زيد ومجاهد .

انظر جامع البيان (٣٠/١٤٣-١٤٤) ، النكت والعيون (٦/٢٤٧) ، معالم التنزيل (٨/٣٩٤) الجامع لأحكام القـرآن (٢٠/٥) وغيرها .

(6) لفظ (وهو) سقط من المطبوع .

(7) سورة الطارق الآية (٨) .

(8) كما هو مروي عن ابن عباس وقتادة والحسن ومقاتل ، واختاره الفراء والزجاج .

انظر : جامع البيان (٣٠/١٤٦) ، معالم التنزيل (٨/٤٩٣) ، زاد المسير (٩/٨٣) ، الجامع الأحكام القرآن (٢٠/٧) معاني الفراء (٣/٢٥٥) ، معاني الزجاج (٥/٣١٢) وغيرها .

(9) أخرج قول مجاهد الطبري في تفسيره بسنده ـ ٣٠/١٤٥) .

والثاني : قول عكرمة والضحاك : وإنـه[1]علـى رد المـاء في الصـلب لقـادر [٢]. [٣]وفيهـا قول ثالث : قال مقاتل : إن شئت رددته من الكبر إلى الشـباب ومـن الشـباب إلى الصـبا ، (ومن الصبا إلى) [٤] النطفة[٥].

والقول [الصواب] [٦]هو الأول لوجوه :

أحدها : أنه هو المعهود من طريقة القرآن من الاستدلال بالمبدأ على المعاد .

الثاني : أن / ذلك أدل على المطلوب من القدرة على رد الماء في الإحليل . [٣٦/ب]

الثالث : أنه لم يأت في القرآن لهذا المعنى[٧]نظير في موضع واحد ، ولا أنكره أحد حتى يقيم سبحانه الدليل عليه .

الرابع : أنه قيد الفعل بالظرف وهو قوله : ﴿ **يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ(٩)** ﴾ [٨]وهو يوم القيامة أي : أن الله قادر على رجعه إليه حياً في ذلك اليوم .

الخامس : أن الضمير في ﴿ **رَجْعِهِ** ﴾ هو الضمير في قوله : ﴿ **فَمَـا لَـهُ مِـنْ قُـوَّةٍ وَلاَ نَاصِرٍ** ﴾[٩] وهذا للإنسان قطعاً لا للماء .

السادس : أنه لا ذكر للإحليل حتى يتعين كون الراجع[١٠] إليه : فلو قال قائل : على رجعه إلى الفرج الذي صب فيه لم يكن فرق بينه وبين هذا القول ، ولم يكن أولى منه .

وورد قوله أيضاً في : البسيط (٦٨٧/٢) ، النكت والعيون (٢٤٧/٦) معالم التنزيل (٣٩٤/٨) ، زاد المسير (٨٤/٩) ، وعزاه في الدر المنثور (٤٧٦/٨) إلى عبد بن حميد وابن المنذر .

(1) قوله (وإنه) سقط من (م) و (ق) والمطبوع .

(2) (لقادر) سقط من (ق) .

(3) أخرج القولين الطبري في تفسيره بسنده (١٤٥/٣٠-١٤٦) .
وانظر أيضاً المراجع السابقة .

(4) ما بين القوسين سقط من المطبوع .

(5) ورد ذكره في البسيط (٦٨٨/٢) ومعالم التنزيل (٣٩٣/٨) ، وفتح القدير (٤٨٩/٥) وغيرها .

(6) بياض بالأصل ، وباقي النسخ : (والقول هو الأول) ، في المطبوع : (والقول الصواب) .

(7) في غير الأصل و (ب) : (إنه لم يأت لهذا المعنى في القرآن) .

(8) سورة الطارق الآية (٩) .

(9) سورة الطارق الآية (١٠) .

(10) في (م) و (ق) : (الرجع) ، وفي المطبوع : (المرجع) .

السابع : إن رد الماء إلى الإحليل أو الصلب بعد خروجه منه غير معروف ولا هو أمر معتاد جرت به القدرة وإن كان مقدوراً للرب تعالى ، ولكن هو لم يخبر به[1]، و لم تجربه العادة ، ولا هو مما تكلم الناس فيه نفياً أو إثباتاً . ومثل هذا لا يقرره الرب (تعالى) ولا يستدل عليه[2] على منكريه . وهو سبحانه إنما يستدل على أمر واقع ولا بد ، إما قد وقع ووجد أو[3] سيقع .

فإن قيل : فقد قال تعالى : ﴿ **أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ(٣)بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ(٤)** ﴾[4] أي : نجعلها كخف البعير[5] قيل : هذه أيضاً فيها قولان : أحدهما : هذا .

والثاني وهو الأرجح أن تسوية بنانه إعادتها كما كانت بعدما فرقها البلى في التراب[6].

الثامن : أنه سبحانه دعا الإنسان إلى النظر فيما خلق منه ليرده نظره عن تكذيبه بما أخبر به وهو لم يخبر بقدرة خالقه على رد الماء في إحليله بعد مفارقته له ، حتى يدعوه إلى النظر فيما خلق منه ليستنتج[7] منه صحة إمكان رد الماء .

التاسع : أنه لا ارتباط بين النظر في مبدأ خلقه ورد الماء في الإحليل بعد خروجه ولا / [٣٧/أ] تلازم بينهما حتى يجعل أحدهما دليلاً على إمكان الآخر ، بخلاف الارتباط الذي بين المبدأ والمعاد ، والخلق الأول والخلق الثاني ، والنشأة الأولى والنشأة الثانية ، فإنه ارتباط من وجوه عديدة ، ويلزم من إمكان أحدهما إمكان الآخر ، ومن وقوعه صحة وقوع الآخر فحسن الاستدلال بأحدهما على الآخر .

العاشر : أنه سبحانه نبه بقوله : ﴿ **إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ(٤)** ﴾ . على أنه قد وكل به من يحفظ عليه عمله ويحصيه ، فلا يضيع منه شيء ، ثم نبه بقوله (عز وجل) : ﴿ **إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ(٨)** ﴾ على بعثه لجزائه على العمل الذي حفظ وأحصى عليه . فذكر شأن مبدأ

---

(1) في (م) و (ق) : (لم يجربه) ، وفي المطبوع : (لم يجره) .
(2) في (م) و (ق) زيادة (ويبينه) ، وفي المطبوع : (وينبه) .
(3) في (ق) : (وإماسيقع) .
(4) سورة القيامة الآيتان (٣ – ٤) .
(5) انظر: جامع البيان (٢٩/١٧٥-١٧٦) ، تفسير مقاتل (٢١٧/ب) ، النكت والعيون (٦/١٥٢) الجامع لأحكام القرآن (١٩/٩٤) وغيرها .
(6) انظر : معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٥/٢٥١) .
(7) في (م) و (ق) والمطبوع : (ليستقبح)

عمله ونهايته فمبدؤه محفوظ عليه ، ونهايته الجزاء عليه . ونبه على هذا بقوله : ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ(٩)﴾ أي : تختبر[١] . وقال مقاتل : تظهر وتبدو[٢]. وبلوت الشيء إذا اختبرته ليظهر لك باطنه وما خفي منه والسرائر : جمع سريرة وهي : سرائر الله التي بينه وبين عبده في ظاهره وباطنه[٣] فالإيمان من السرائر ، وشرائعه من السرائر ، فتختبر ذلك اليوم حتى يظهر خيرها من شرها ، ومؤداها من مضيعها ، وما كان لله مما لم يكن له .

قال عبدالله بن عمر[٤]: يبدي الله يوم القيامة كل سر ، فيكون زيناً في الوجوه وشيناً فيها[٥].

والمعنى : يختبر السرائر بإظهارها[٦]وإظهار مقتضياتها من الثواب والعقاب . والحمد والذم . وفي التعبير عن الأعمال بالسر لطيفة وهي[٧]: أن الأعمال نتائج السرائر الباطنة ، فمن كانت سريرته صالحة كان عمله صالحاً ، فتبدو سريرته على وجهه نوراً وإشراقاً وحسناً[٨]، ومن كنت سريرته فاسدة كان عمله تابعاً / لسريرته لا اعتبار بصورته ، فتبدوا سريرته على وجهه سواداً [٣٧/ب] وظلمة وشيناً ، وإن كان الذي يبدو عليه في الدنيا إنما هو عمله لا سريرته ، فيوم القيامة تبدو عليه سريرته ويكون الحكم والظهور لها .

(وفي الحديث : " **اتقوا هذه السرائر ، فإنه ما أسر امرؤ سريرة إلا ألبسه رداء سريرته** "[٩] .

---

(1) وهو مروي عن قتادة وسفيان انظر : تفسر الطبري (١٤٧/٣٠) ، البسيط للواحدي (٦٨٩/٢) ، معالم التنزيل (٣٩٤/٨) .

(2) قول مقاتل في تفسيره (٢٣٦/ب) ، وذكره عنه أيضاً الواحدي في البسيط (٦٨٩/٢) والبغوي في تفسيره (٣٤٩/٨) .

(3) في المطبوع : زيادة (لله) .

(4) في غير الأصل و (ب) : زيادة (رضي الله عنهما) .

(5) ورد ذكره في البسيط (٦٨٩/٢) ، ومعالم التنزيل (٣٩٤/٨) ، والتفسير الكبير للرازي (٣١ / ٧٥) .

(6) في الأصل : تكررت كلمة : (إظهارها) .

(7) في غير الأصل و (ب) : (وهو) .

(8) في غير الأصل : (وحياءً) بدل (وحسناً) .

(9) الحديث أخرجه الطبري في تفسيره بسنده (٣٦٧/١٢-٣٦٨) طبعة شاكر وضعف الشيخ أحمد شاكر هذا الحديث لضعف سليمان بن أرقم .

وفيما كتب بعض السلف إلى بعض : من أصلح سريرته أصلح الله علانيته[١].

وقال بعضهم : من كانت سريرته خيراً من علانيته فهو الفضل ، ومن استوت سريرته وعلانيته فهو العدل ، ومن كانت علانيته خيراً من سريرته فهو الجور .

ومن دعاء ابن عمر : اللهم اجعل سريرتي خيراً من علانيتي ، واجعل علانيتي صالحة[٢] .

ومن دعاء علي بن الحسين : اللهم إني أعوذ بك أن يحسن في لوامع العيون علانيتي ، ويقبح في خفيات العيون سريرتي[٣])[٤]. قال الشاعر :

وإن[٥] لها في مضمر القلب والحشا سريرة حب يوم تبلى السرائر[٦]

ثم أخبر سبحانه عن حال الإنسان في يوم القيامة أنه[٧] غير ممتنع من عذاب الله لا بقوة منه ولا بقوة من خارج وهو الناصر ، فإن العبد إذا وقع في شدة فإما أن يدفعها بقوته أو بقوة[٨] من ينصره وكلاهما معدوم في حقه ، ونظيره قوله سبحانه : ﴿ **لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِّنَّا يُصْحَبُونَ(٤٣)** ﴾[٩] .

وقد أورد ابن كثير هذا الحديث في تفسيره أيضاً (٤ / ٤١٣) وضعفه ، وقد أخرج هذا الحديث أيضاً البخاري في الأدب المفرد في (١٨٦) باب ذبح الحمام ح (١٣٠١) وضعف إسناده الألباني كمافي ضعيف الأدب المفرد ص (١١٧-١١٨) لسببين أحدهما : لأن في إسناده يوسف بن عبدة لين الحديث ، والآخر : لكون الحسن البصري مدلساً .

(1) يروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كما ذكر ذلك الحافظ ابن كثير في تفسيره ، وقد ذكر أيضاً : ابن أبي شيبة في مصنفه في كتاب الزهد برقم (٣٤٩٨٨) (٧/١٦٢) ، وأبو نعيم في الحلية في ترجمة عون بن عبدالله بن عتبة (٤/٢٤٧) .

(2) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه في كتاب الدعاء ، (١٣٥) باب ما أمر النبي صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب أن يدعو به ح (٢٩٨٢٤) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وفي إسناده ضعف فيه راوٍ لم يسم . المصنف (٦/١٠٤) .

(3) دعاء علي بن الحسين ذكره ابن الجوزي في صفوة الصفوة (٢/٩٤) ، ولفظه فيه : (اللهم إني أعوذ بك أن تحسن في لوامع العيون علانيتي وتقبح سريرتي ، اللهم كما أسأت وأحسنت إليفإذا أعدت فعد علي) .

(4) ما بين القوسين مثبت في الأصل ، ومستدرك في حاشية (ب) ، وساقط في (م) و (ق) والمطبوع .

(5) في المطبوع : (فإن) .

(6) البيت من الطويل ، وهو للأحوص بن محمد الأنصاري.

انظر ديوانه ص (٨٢) . وفي لسان العرب : (سيبقى لها) بدلاً من : (فإن لها) ، و (سريرة ود) بدلاً من : (سريرة حب) .

(7) في (ق) : (وأنه) .

(8) في المطبوع : (أو قوة) .

(9) سورة الأنبياء الآية (٤٣) .

ثم أقسم سبحانه بـ ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ(١١)وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴾[(١)] فأقسم بالسماء ورجعها بالمطر ، والأرض وصدعها بالنبات ، [قال الفراء : تبدأ بالمطر ثم ترجع به في كل عام[(٢)].

وقال أبو إسحاق : الرجع المطر][(٣)] لأنه يجيء ويرجع ويتكرر[(٤)] وكذا[(٥)] قال ابن عباس[(٦)]: تبدي بالمطر ثم ترجع به في كل عام[(٧)].

والتحقيق أن هذا على وجه التمثيل ورجع السماء هو : إعطاء الخير الذي يكون من جهتها حالاً بعد حال على مرور الأزمان يرجعه رجعاً أي تعطيه مرة بعد مرة[(٨)]، والخير كله من قبل السماء يجيء ، ولما كان أظهر الخير المشهود بالعيان المطر فسر الرجع به ، وحسن تفسيره به مقابلته بصدع الأرض [عن النبات، وفسر الصدع بالنبات ، لأنه يصدع الأرض][(٩)] أي يشقها .

فأقسم سبحانه بالسماء ذات المطر ، والأرض ذات النبات ، وكل من[(١٠)] ذلك آية من آيات الله تعالى الدالة على ربوبيته . [٣٨/أ]

وأقسم على كون القرآن / حقاً وصدقاً فقال (تعالى) : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ(١٣)وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ(١٤) ﴾[(١١)] .

كما أقسم في أول السورة على حال الإنسان في مبدئه ومعاده ، والقول الفصل هو الذي يفصل به[(١٢)] بين الحق والباطل[(١)] فيميز هذا من هذا ويفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه ومصيب

---

(1) سورة الطارق الآيتان (١١-١٢) .
(2) معاني القرآن للفراء (٣/٢٥٥) .
(3) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل .
(4) معاني القرآن وإعرابه (٥/٣١٢) .
(5) في (م) و (ق) والمطبوع : (وكذلك) .
(6) في غير الأصل و (ب) : زيادة (رضي الله عنهما) .
(7) أخرجه عبدالرزاق في تفسيره بإسناده (٢/٣٦٥) وأخرجه الطبري أيضاً في تفسيره بسنده (٣٠/١٤٨) وقد أخرجه أيضاً الحاكم في المستدرك في (٢٨) كتاب التفسير ، تفسير سورة الطارق ح (٣٩٧٥) ، وأبو الشيخ في العظمة في (٢٤) ذكر المطر ونزوله ح(٧٤٦) ، وعزاه في الدر المنثور (٨/ ٢٨٩) إلى الفريابي وعبد بن حميد والبخاريفي تاريخه وابن المنذر وابن الحاكم وابن مردويه. وقد صحح إسناده الحاكم ووافقه الذهبي ، وصححإسناده أيضاً الحافظ ابن حجر . الفتح (٨/ ٣٦٥) .
(8) انظر : البسيط (٢/٦٩١) ، التفسير الكبير (٣١/١٢٠) .
(9) ما بين المعقوفتين ساقط من الأصل .
(10) (من) ساقطة من (ق) .
(11) سورة الطارق الآيتان (١٣-١٤) .
(12) سقط من (م) و (ق) والمطبوع .

الفصل الذي ينفصل عنده المراد ويتميز من غيره كما يقال[٢]: أصاب الفصل وأصاب المحــن[٣]إذا أصاب بكلامه نفس المعنى ومنه فصل الخطاب[٤].

وأيضاً فالقول الفصل : الفصل[٥]ببيان المعنى ضد الإجمال فكون[٦]القرآن فصلاً يتضـــمن هذه المعاني كلها ويتضمن كونه حقاً ليس بالباطل وجداً ليس بالهزل ولما كان الهزل هو الـــذي لا حقيقة له . وهو الباطل واللعب قابل بين الفصل والهزل .

وإنما يكيد المكذبون ويتحيلون[٧]ويخادعون لرده ، لا[٨]يردونه بحجة والله يكيدهم كمـــا يكيدون دينه ورسوله وعباده . وكيده سبحانه استدراجهم من حيث لا يعلمون والإملاء لهم حتى يأخذهم على غرة كما قال تعالى : ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ(١٨٣)﴾[٩]فالإنسان إذا أراد أن يكيد غيره يظهر له إكرامه وإحسانه إليه فيأخذه حتى يطمئن إليه فيأخذه كما يفعل الملوك فإذا فعل أعداء الله ذلك[١٠]بأوليائه ودينه كان كيد الله لهم حسناً لا قبح فيه فيعطيهم ويعافيهم وهـــو يستدرجهم حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذهم بغتة .

ثم قال (سبحانه)[١١]: ﴿ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا(١٧)﴾[١٢]أي أنظرهم قلـــيلاً ولا تستعجل لهم والرب تعالى هو الذي يمهلهم وإنما خرج الخطاب للرسول ﷺ[١٣]على جهـــة التهديد والوعيد لهم أو على معنى انتظر لهم قليلاً .

---

(1) انظر : جامع البيان (١٤٩/٣٠) ، معاني القرآن للزجاج (٣١٣/٥) ، البسيط (٦٩٣/٢) .
(2) في المطبوع : (قال) .
(3) في غير الأصل و (ب) : (المرء) . ولعله هو الأصوب .
(4) في (ب) والمطبوع : (المعنى المراد . .) ، وفي (م) : (المعنى المراد من فصل الخطاب) ، وفي (ق) : (المعنى المراد منه ، ومنه فصل الخطاب).
(5) سقط من غير الأصل و (ب) .
(6) في (ق) : (فيكون) .
(7) في (م) والمطبوع : (يحيلون) .
(8) في غير الأصل و (ب) : (ولا يردونه) .
(9) سورة الأعراف الآية (١٨٣) .
(10) في غير الأصل و (ب) : (فإذا فعل ذلك أعداء الله).
(11) في (ب) : (تعالى) وهي ساقطة في البقية .
(12) سورة الطارق الآية (١٧) .
(13) قوله : (صلى الله عليه وسلم) سقط من (م) و (ق) والمطبوع .

ورويداً في كلامهم يكون اسم فعل فينصب بها الاسم نحو رويداً زيداً ، أي خله وأمهله وارفق به .

الثاني : أن يكون مصدراً مضافاً إلى المفعول نحو : رويد زيد ، أي : إمهال زيد نحو : (ضرب الرقاب) .

الثالث : أن يكون نعتاً منصوباً نحو قولك : ساروا رويداً تقول العرب : ضعه رويداً أي وضعاً رويداً وفي حديث عائشة في خروج النبي ﷺ / بالليل من عندها إلى البقيع : " **فخرج رويداً وأجاف الباب رويداً** "[1] . [٣٨/ب]

ويجوز في هذا الوجه وجهان :

أحدهما : أن يكون حالاً .

والثاني : نعتاً[2] لمصدر محذوف .

فإن أظهرت المنعوت[3] تعين الوجه الثاني .

ورويداً في[4] الآية هو من هذا النوع الثالث والله أعلم .



(1) جزء من حديث طويل . أخرجه مسلم في (١١) كتاب الجنائز ، (٣٥) باب ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها ح (٩٧٤) من حديث عائشة رضي الله عنها .

(2) في (م) و (ق) والمطبوع : زيادة : (أن يكون) .

(3) في الأصل (النعوت) .

(4) في المطبوع : زيادة (هذه) . وانظر في إعراب (أمهلهم رويداً) الدر المصون (١٠/٧٥٧) .

فصل

{ القسم في سورة الانشقاق }

ومن ذلك إقسامه تعالى[1]﴿ بِالشَّفَقِ(١٦)وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ(١٧)وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ(١٨)﴾ [2]فأقسم بثلاثة أشياء متعلقة بالليل .

أحدها[3]: الشفق وهو في اللغة الحمرة بعد غروب الشمس إلى وقت صلاة العشاء الآخرة وكذلك هو في الشرع .

قال الفراء[4]، والليث[5]والزجاج[6]وغيرهم : الشفق الحمرة في السماء وأصل موضع الحرف لرقة الشيء : ومنه قولهم[7]: شيء شفق لا تماسك له لرقته ومنه الشفقة وهي الرقة وأشفق عليه إذا رق له .

وأهل اللغة يقولون : الشفق بقية ضوء الشمس وحمرتها ولهذا كان الصحيح أن الشفق الذي يدخل وقت العشاء الآخرة بغيبوبته هو الحمرة ، فإن الحمرة لما كانت بقية ضوء الشمس جعل بقاؤها حداً لوقت المغرب فإذا ذهبت الحمرة بعدت الشمس عن الأفق فدخل وقت العشاء[8].

---

(1) سقط من المطبوع .

(2) سورة الانشقاق الآيات (١٦-١٨) .

(3) تحرفت في الأصل إلى (أحدهما) .

(4) معاني القرآن (٣/٢٥١) .

(5) تهذيب اللغة للأزهري (٨/٣٣٢) .

(6) معاني القرآن وإعرابه (٥/٣٠٥) .

(7) سقط من غير الأصل و (ب) .

(8) انظر : المغني (١/٣٨٢) ، والمجموع شرح المهذب (٣ / ٤٢-٤٣) . وعزة إلى أكثر أهل العلم وقال : (والذي ينبغي أن يعتمد أن المعروف عند العرب أن الشفق الحمرة ، وذلك مشهور في شعرهم ونثرهم .

وأما البياض فإنه يمتد وقته ويطول[1] لبثه ويكون حاصلاً مع بعد الشمس عن الأفق[2] ولهذا صح عن ابن عمر[3] أنه قال : الشفق الحمرة[4] والعرب تقول : ثوب مصبوغ كأنه الشفق إذا احمر ، حكاه الفراء[5] قال[6] الكلبي : الشفق الحمرة التي تكون في المغرب[7] وكذلك قال مقاتل : هو الذي يكون بعد غروب الشمس في الأفق قبل الظلمة[8] .

وقال عكرمة : هو بقية النهار[9] وهذا يحتمل أن يريد به أن تلك الحمرة بقية ضوء الشمس التي هي آية النهار وقال مجاهد : هو النهار كله[10] وهذا ضعيف جداً وكأنه لما رآه قابله بالليل وما وسق ظن أنه النهار وهذا ليس بلازم .

الثاني : قسمه بالليل وما وسق أي وما ضم وحوى وجمع[11] . والليل آية وما ضمه وحواه آية أخرى والقمر آية واتساقه آية أخرى والشفق يتضمن إدبار النهار وهو آية وإقبال / الليل وهو [٣٩/أ] آية أخرى فإن هذا إذا أدبر خلفه الآخر يتعاقبان لمصالح الخلق فإدبار النهار آية وإقبال الليل آية (وما حواه آية)[12] (وتعقب أحدهما الآخر آية)[13] والشفق الذي هو متضمن[14] للأمرين آية والليل آية وما حواه آية والهلال آية وتزايده كل ليلة آية واتساقه وهو امتلاؤه نوراً — آية ثم أخذه في النقص آية .

---

(1) في المطبوع : (يطول) .

(2) انظر : معاني القرآن للفراء (٢٥١/٣) ؛ تهذيب اللغة (٣٣٢/٨) ، البسيط (٦٥٢/٢) .

(3) في (م) و (ق) والمطبوع : زيادة (رضي الله عنهما) .

(4) قول ابن عمر أخرجه عبدالرزاق في تفسيره بسنده (٣٩٥/٢) .
وورد ذكره أيضاً في الجامع لأحكام القرآن (٢٧٥/١٩) ، وتفسير ابن كثير (٤٨٩/٤) .

(5) معاني القرآن (٢٥١/٣) .

(6) في غير الأصل و (ب) زيادة (وكذلك) .

(7) حكاه الواحدي في البسيط (٦٥١/٢) ، وذكره أيضاً الرازي في تفسيره (٩٩/٣١) .

(8) تفسر مقاتل : (٢٣٤/ب) : بمعناه ولفظه عنده (هو الحمرة إلى أن تغيب) .

(9) ذكره الماوردي في النكت والعيون (٢٣٧/٦) ، والبغوي في معالم التنزيل (٣٧٥/٨) ، وابن الجوزي في زاد المسير (٦٦/٩) .

(10) أخرج قوله ابن جرير في تفسيره بسنده (١١٩/٣٠) . وورد أيضاً في بحر العلوم (٤٦١/٣) ، معالم التنزيل (٣٧٥/٨) زاد المسير (٦٦/٩) الجامع لأحكام القرآن (٢٧٦/١٩) وغيرها .

(11) هذا القول مروي عن جماعة منهم ابن عباس ومجاهد والحسن ومسروق وأبو صالح ، واختاره الفراء والزجاج . انظر : جامع البيان (١٢٠/٣٠) ،الجامع لأحكام القرآن (٢٢٦/١٩) ، تفسر ابن كثير (٤٨٩/٤) معاني الفراء(٢٥١/٣) معاني الزجاج (٣٠٥/٥)

(12) سقط من غير الأصل .

(13) سقط من الأصل .

(14) في (ق) : (يتضمن) .

وهذه وأمثالها آيات دالة على ربوبيته مستلزمة للعلم بصفات كماله ولهذا شرع عند إقبال الليل وإدبار النهار ذكر الرب تعالى بصلاة المغرب في الحديث : " **اللهم هذا إقبال ليلك وإدبار نهارك وأصوات دعائك[١] وحضور صلواتك**[٢]"[٣] .

كما شرع ذكر الله بصلاة الفجر عند إدبار الليل وإقبال النهار ولهذا يقسم سبحانه بهذين الوقتين كقوله (عز وجل) : ﴿ **وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ**[٤] **(٣٣) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (٣٤)** ﴾[٥] وهو يقابل إقسامه بالشفق ونظيره إقسامه بـ ﴿ **وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨)** ﴾[٦] .

ولما كان الرب تعالى[٧] يحدث عند كل واحدة من طرفي إقبال الليل والنهار وإدبارهما ما يحدثه ، ويبث من خلقه ما شاء فينشر الأرواح (الشيطانية عند إقبال الليل وينشر الأرواح)[٨] الإنسانية عند إقبال النهار فيحدث هذا الانتشار في العالم أثره شرع سبحانه في هذين الوقتين هاتين الصلاتين العظيمتين مع ما في ذلك من ذكره عند هاتين الآيتين المتعاقبتين وعند انصرام أحدهما واتصال الأخرى بهما[٩]، مع ما بينهما من التضاد والاختلاف ، وانتقال الحيوان عند ذلك من حال

---

(1) في المطبوع : (دعائك) .

(2) في المطبوع : زيادة (اغفرلي) .

(3) أخرجه أبو داود في (٢) كتاب الصلاة (٣٩) باب ما يقول عند أذان المغرب ح (٥٣١) والترمذي في (٤٩) كتاب الدعوات (١٢٧) باب دعاء أم سلمة ح (٣٥٨٩) ، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٣٩٩) باب ما يقول إذا سمع أذان المغرب ح (٦٤٩) ، والحاكم في مستدركه في (٤) كتاب الصلاة ، (٢٨٦) الدعاء عند آذان المغرب ح (٧٤١) ، وأبو يعلى في مسنده ح (٦٨٦٠) ، والطبراني في المعجم الكبير ح (٦٨٠-٦٨١) (٣٠٣/٢٣) من حديث أم سلمة رضي الله عنها .

(4) هكذا في الأصل و (ب) و (ق) وهي قراءة ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر والكسائي وشعبة وأبو جعفر ، وفي الباقي (إذا أدبر) انظر (إرشاد المبتدئ) ص (٦١٠) ، والتذكرة (٦٠٤/٢) .

(5) سورة المدثر الآيتان (٣٣ ـــ ٣٤) .

(6) سورة التكوير الآيتان (١٧-١٨) .

(7) في غير الأصل و (ب) : (تبارك وتعالى) .

(8) سقط من الأصل .

(9) في (م) و (ق) والمطبوع : (بها) .



إلى حال ، ومن حكم إلى حكم وذلك مبدأ ومعاد يومي ، مشهود للخليقة كل يوم وليلة فالحيوان والنبات في مبدأ ومعاد ، وزمان العالم في المبدأ[1] [illegible] ، ﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ(١٩)** ﴾[2].



---

(1) هذا في الأصل ، وفي غيره : (مبدأ) .

(2) سورة العنكبوت الآية (١٩) .

فصل

{ جواب القسم }

وقوله (تعالى) : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ(١٩) ﴾[١] الظاهر أنه جواب القسم ، ويجوز أن يكون من القسم المحذوف جوابه ، ولتركبن وما بعده مستأنف[٢] / وقرئ " لتركبن بضم الباء [٣٩/ب] للجمع (ولتركبن) بفتحها[٣] فمن فتحها فالخطاب عنده للإنسان أي لتركبن أيها الإنسان وقيل هو النبي ﷺ خاصة . وقيل ليست التاء[٤] للخطاب ولكنها للغيبة أي لتركبن السماء طبقاً بعد[٥] طبق ومن ضمها فالخطاب للجماعة ليس إلا . فمن جعل الكناية للسماء قال : المعنى لتركبن السماء حالاً بعد حال من حالاتها التي وصفها الله تعالى من الانشقاق والانفطار والطي . وكونها كالمهل مرة وكالدهان مرة ومورانها وتفتحها وغير ذلك من حالاتها وهذا قول عبدالله بن مسعود[٦] ودل على السماء ذكر الشفق والقمر وعلى هذا فيكون قسماً على المعاد وتغيير العالم .

ومن قال الخطاب للنبي ﷺ فله ثلاث معان :

أ/ لتركبن سماء بعد سماء حتى تنتهي إلى حيث يصعدك الله هو[٧] قول ابن عباس في رواية مجاهد[٨] وقول مسروق[٩] والشعبي[١٠] .

---

(1) سورة الانشقاق الآية (١٩) .

(2) نظر : التفسير الكبير (٣١/١٠٠-١٠١) ، الدر المصون (١٠/٧٣٧-٧٤٠) .

(3) وهي قراءة (ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف) انظر إرشاد المبتدي للقلانسي ص (٦٢٧) والتذكرة لأبي الحسن (٢/٦٢١) .

(4) تحرفت في (م) و (ق) إلى (الباء) .

(5) في (م) و (ق) والمطبوع : (عن) .

(6) أخرج قوله الطبري في تفسيره بسنده (٣٠/١٢٤) .

وورد ذكره أيضاً في : النكت والعيون (٦/٢٣٨) ، المحرر الوجيز (١٦/٢٦٦) ، زاد المسير (٩/٦٧) ، ونسبه في الدر المنثور (٨/) إلى عبد بن حميد وابن المنذر والبيهقي .

(7) في غير الأصل : (هذا) بدل (هو) .

(8) أخرجه الطبري في تفسيره بسنده (٣٠/١٢٤) .

وذكر أيضاً في : البسيط (٢/٦٥٥) ، ومعالم التنزيل (٨/٣٧٥) ، وزاد المسير (٩/٦٧) وغيرها .

(9) أخرجه الطبري في تفسيره بسنده (٣٠/١٢٤) .

(10) أخرجه أيضاً الطبري في تفسيره بسنده (٣٠/١٢٤) وذكر ايضاً في : النكت والعيون (٦/٢٣٨) ، زاد المسير (٩/٦٧) الجامع لأحكام القرآن (١٩/٢٧٨) وغيرها .

قالوا : والسماء طبق ،ولهذا يقال للسماوات السبع الطباق .

والمعنى الثاني : لتصعدن درجة بعد درجة ومنزلة بعد منزلة ورتبة بعد رتبة حتى تنتهي إلى محل القرب والزلفى من الله[1].

والمعنى الثالث : لتركبن حالاً بعد حال من الأحوال المختلفة التي نقل الله فيها رسوله ﷺ من الهجرة والجهاد ونصره على عدوه وإدالة العدو عليه تارة وغناه وفقره وغير ذلك من حالاته التي تنقل فيها إلى أن بلغ ما بلغه (الله) [2]إياه.

ومن قال الخطاب للإنسان أو لجملة الناس فالمعنى واحد وهو تنقل الإنسان حالاً بعد حال من حين كونه نطفة إلى مستقره من الجنة أو النار فكم بين هاتين[3] من الأطباق والأحوال للإنسان وأقوال المفسرين كلها تدور على هذا قال ابن عباس[4] : لتصيرن الأمور حالاً بعد حال[5].

وقيل : لتركبن أيها الإنسان حالاً بعد حال من النطفة إلى العلقة إلى / المضغة إلى كونه [٤٠/أ] حياً ، إلى خروجه إلى هذه الدار ثم ركوبه طبق التمييز بين ما ينفعه ويضره ثم ركوبه بعد ذلك طبقاً آخر وهو طبق البلوغ ، ثم ركوبه طبق الأشد ، ثم طبق الشيخوخة ، ثم طبق الهرم ، ثم ركوبه طبق الموت وشأنه ثم ركوبه [طبق][6] ما بعده[7]في البرزخ وركوبه في أثناء هذه الأحوال أطباقاً

---

(1) وهذا القول مروي عن عمر وابن مسعود وابن عباس والشعبي .
انظر الجامع لأحكام القرآن (٢٧٨/١٩) .

(2) سقط من المطبوع .

(3) في غير الأصل : (هاذين).

(4) في (م) و (ق) : زيادة (رضي الله عنه) ، وفي المطبوع : (رضي الله عنهما) .

(5) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (٧٩/٣) في كتاب التفسير ، سورة إذا السماء انشقت ح (٢٢٨٢) ، قال الهيثمي : رواه البزار وفيه جابر الجعفي وهو ضعيف : مجمع الزوائد (١٣٥/٧) . وكذلك أخرجه الفراء بإسناده في معاني القرآن (٢٥٢/٣) .

(6) سقط من الأصل . وفي المطبوع : (ثم ركوبه طبق ما بعد الموت في البرزخ) .

(7) في (م) و (ق) : (ما بعد) .

عديدة لا يزال يتنقل فيها حالاً بعد حال إلى دار القرار فذلك آخر أطباقه التي يعلمها العباد ثم يفعل الله سبحانه بعد ذلك ما يشاء(١).

واختار أبو عبيد(٢)قراءة الضم وقال : معنى بالناس أشبه منه بالنبي ﷺ ، فإنه ذكر قبل الآية من يؤتى كتابه بيمينه وشماله ثم ذكر بعدها قوله : ﴿ فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ . فذكر كونهم طبقاً بعد طبق .

قال الواحدي : (وهذا قول أكثر المفسرين ،قالوا : لتركبن حالاً بعد حال ومترلاً بعد مترل وأمراً بعد أمر)(٣).

قال سعيد بن جبير ، وابن زيد : لتكونن في الآخرة بعد الأولى ولتصيرن أغنياء بعد الفقر وفقراً بعد الغنى(٤)، وقال عطاء : شدة بعد شدة(٥)، وقال أبو عبيدة :لتركبن سنة من كان قبلكم في التكذيب والاختلاف على الرسل(٦).

وأنت إذا تأملت هذا المقسم عليه(٧)وجدته من أعظم الآيات الدالة على الربوبية ، وتغيير الله سبحانه العالم(٨)، وتصريفه له كيف أراد ونقله إياه من حال إلى حال ، وهذا محال أن يكون بنفسه من غير فاعل مدبر له ومحال أن يكون فاعله غير قادر ولاحي ولا مدبر(٩)ولا حليم ولا عليم فكلاهما في الامتناع سواء .

---

(1) انظر : التفسير الكبير (٣١/١٠٠-١٠١) ، الجامع لأحكام القرآن (١٩/٢٧٩-٢٨٠) .

(2) في (م) و (ق) : (أبو عبيد) وفي الأصل و (ب) والمطبوع : (أبو عبيدة) والتصحيح من البسيط (٢/٦٥٦) ، والجامع لأحكام القرآن (١٩/٢٧٨) .

(3) تفسير البسيط (٢/٦٥٦) ، والوسيط (٤/٤٥٥) .

(4) قول سعيد ذكره الواحدي في البسيط (٢/٦٥٧) ، والماوردي في النكت والعيون (٦/٢٣٨) ، وابن الجوزي في زاد المسير (٩/٦٨) ، أما قول ابن زيد فأخرجه الطبري في تفسيره بإسناده (٣٠/١٢٤) وذكره أيضاً صاحب البحر المحيط (٨/٤٤٨) وابن كثير في تفسيره (٤/٤٩٠) بمعناه ، وغيرهم .

(5) نسبه إليه الواحدي في تفسيره البسيط (٢/٦٥٧) .

(6) مجاز القرآن لأبي عبيدة (٢/٢٩٢) .

(7) في غير الأصل : (المقسم به والمقسم عليه) .

(8) في المطبوع : (للعالم) .

(9) في غير الأصل : (ولا مريد) .

فالمقسم به وعليه من أعظم الأدلة على ربوبيته وتوحيد . وصفات كماله وصدقه ، وصدق رسله وعلى المعاد . ولهذا عقب ذلك بقوله ﴿ فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ(٢٠)﴾[1] إنكاراً على من لم يؤمن بعد ظهور هذه الآيات المستلزمة أتم استلزام وأنكر عليهم عدم خضوعهم وسجود هم للقرآن المشتمل على ذلك ، بأفصح عبارة وأبينها وأجزلها . فالمعنى أشرف معنى والعبارة اشرف عبارة : غاية الحق بغاية البيان والفصاحة.

بل الذين يكذبون[2] ولا يصدقون بالحق جحوداً / وعناداً والله أعلم[3] بما يضمرون في صدورهم ويكتمونه ، وما يسرونه من أعمالهم وما يجمعونه فيجازيهم عليه بعلمه وعدله ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ(٦) ﴾[4] . [٤٠/ب]



(1) سورة الانشقاق الآية (٢٠) .
(2) في غير الأصل : ذكر الآية (بل الذين كفروا يكذبون) .
(3) في المطبوع : ذكر الآية (والله أعلم بما يوعون) .
(4) سورة التين الآية (٦) . وقد أثبت الآية على هذا النحو كما في الأصول ، والأولى إثبات آية الانشقاق ، لأن الحديث عن هذه السورة .

﴿ فصل ﴾

{ القسم في سورة التكوير }

ومن ذلك إقسامه سبحانه[١] ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ(١٥)الْجَوَارِي الْكُنَّسِ(١٦)وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ(١٧)وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ(١٨) ﴾[٢] ، أقسم سبحانه بـالنجوم في أحوالهـا الـثلاث : في[٣] طلوعها ، وجريانها ، وغروبها ، هذا قول علي[٤] وابن عباس[٥] وعامة المفسرين وهو الصواب .

والخنس : جمع خانس ، والخنوس : الانقباض ، والاختفاء ومنه سمي الشـيطان خناسـاً لانقباضه وانكماشه حين يذكر العبد ربه[٦]، ومنه قول أبي هريرة (فانخنست منه) [٧].

والكنس : جمع كانس وهو الداخل في كناسة أي في بيته ومنه تكنست المرأة إذا دخلت في هودجها ومنه كنست الظباء إذا آوت إلى أكناسها[٨].

والجواري جمع جارية ، كغاشية وغواش[٩] قال علي بن أبي طالب[١٠]: النجوم تخنس بالنهار وتظهر بالليل[١١] وهو[١٢] قول مقاتل[١] وعطاء[٢] وقتادة[٣] وغيرهم .

---

(1) في غير الاصل : (ومن ذلك قوله سبحانه : فلا أقسم . .) .
(2) سورة التكوير الآيات (١٥-١٨) .
(3) في غير الأصل : (من) .
(4) أخرج قوله الطبري في تفسيره بسنده (٧٤/٣٠) .
وورد ذكره أيضاً في : البسيط (٥٨٣/١) ، زاد المسير (٤٢/٩) ، الجامع لأحكام القرآن (٢٣٦/١٩) وغيرها .
(5) أخرج أبو الشيخ في العظمة بسند رجاله ثقات عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله عز وجل (فلا أقسم بالخنس) قال: الخـنس نجوم يقطعن المجرة كما تجري الفرس (الجوار الكنس) يتوارين . العظمة (١٢١٢/٤) ح (٦٨٢) . وقد نسبه إليه أيضاً القـرطبي في تفسيره (٢٣٦/١٩) ، وابن كثير في تفسيره (٤٧٩/٤) ، وعزاه في الدر المنثور (٤٣١/٨) إلى ابن أبي حاتم وأبي الشيخ في العظمة
(6) انظر : تهذيب اللغة (١٧٣/٧) .
(7) سقط هذا الحديث من المطبوع . وهو جزء من حديث يرويه أبو هريرة رضي الله عنه ، أخرجه البخاري في (٥) كتاب الغسل ، (٢٣) باب عرق الجنب ، وأن المسلم لا ينجس ح (٢٨٣) .
(8) انظر : التهذيب (٦٣/١٠-٦٤) .
(9) انظر لسان العرب (/   ) .
(10) في (م) و (ق) والمطبوع : زيادة (رضي الله عنه) .
(11) قول علي رضي الله عنه أخرجه ابن جرير في تفسيره (٧٤/٣٠-٧٥) .
وورد ذكره أيضا في : معالم التنزيل (٣٤٩/٨) ، زاد المسير (٤٢/٩) ، الجامع لأحكام القرآن (٢٣٧/١٩) وعزاه في الدر المنثـور (٤٣١/٨) إلى سعيد بن منصور والفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه
(12) في غير الأصل : (وهذا) .

قالوا : الكواكب تخنس بالنهار فتختفي فلا[٤] ترى وتكنس في وقت غروبها .

ومعنى تخنس : على هذا القول تتأخر عن البصر وتتوارى عنه بإخفاء النهار لها . وفيه قول آخر وهو أن خنوسها رجوعها ، وهي حركت‍ ‍قية[٥] فإن لها حركتين حركة بفلكها[٦] وحركة بنفسها راجعة[٧] ، وعلى هذا فهو قسم بنوع من الكواكب وهي السيارة وهذا قول الفراء[٨] وفيه قول ثالث : وهو أن خنوسها وكنوسها اختفاؤها وقعت مغيبها ، فتغيب في مواضعها التي تغيب فيها ، وهذا قول الزجاج[٩].

ولما كان للنجوم ظهور واختفاء[١٠] وحال جريان ، وحال غروب ، أقسم سبحانه بها في أحوالها كلها ، ونبه بخنوسها على حال ظهورها لأن الخنوس هو الاختفاء بعد الظهور ولا يقال لما لم يزل[١١] مختفياً أنه قد خنس فذكر سبحانه جريانها وغروبها صريحاً وخنوسها وظهورها واكتفى من ذكر طلوعها بجريانها الذي مبدؤه الطلوع فالطلوع أول جريانها .

فتضمن القسم طلوعها وغروبها وظهورها[١٢] واختفاءها وذلك من آياته ودلائل ربوبيته وليس / قول من فسرها بالظباء[١٣] وبقر الوحش[١٤] بالظاهر لوجوه ، أحدها : أن هذه الأحوال في [٤١/أ] الكواكب السيارة أعظم آية وعبرة .

الثاني : (أن)[١٥] اشتراك أهل الأرض في معرفتها[١٦] بالمشاهدة والعيان .

---

(1) ورد ذكره في البسيط (٥٨٣/١) ، وزاد المسير (٤٢/٩) .

(2) لم أجد من ذكر هذا القول عنه .

(3) قول قتادة أخرجه الطبري في تفسيرة (٧٥/٣٠) .
وورد ذكره أيضاً في البسيط (٥٨٣/١) ، معالم التنزيل (٣٤٩/٨) ، الجامع لأحكام القرآن (٢٣٦/١٩) ، تفسير ابن كثير (٤٧٨/٤) وعزاه في الدر المنثور (٤٣٢/٨) إلى عبد بن حميد .

(4) في غير الأصل : (ولا ترى) .

(5) في غير الأصل و (ب) : (الشرقية) .

(6) في المطبوع : (بفعلها) .

(7) في (م) و (ق) والمطبوع : (وحركة بنفسها ، فخنوسها حركتها بنفسها راجعة).

(8) انظر : معاني القرآن للفراء (٢٤٢/٣) .

(9) انظر : معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢٩٢/٥) .

(10) في (ب) : (حال ظهور واختفاء) ، وفي (م) و (ق) والمطبوع : (حال ظهور وحال اختفاء) . .

(11) في المطبوع : (لم يزال) .

(12) في المطبوع : (جريانها) بدل : (ظهورها) .

(13) كما هو قول سعيد بن جبير رحمه الله ذكره في معالم التنزيل (٣٤٩/٨) وزاد المسير (٤٢/٩) وغيرهما .

(14) كما هو قول عبدالله بن مسعود وإبراهيم النخعي كما في جامع البيان (٧٥/٣٠) ، والنكت والعيون (٢١٧/٦) وغيرهما .

(15) سقط من غير الأصل و (ب) .

(16) في (م) و (ق) والمطبوع : (معرفته) .

الثالث : أن البقر والظباء ليست لها حالة تختفي فيها عن العيان مطلقاً بل لا تزال ظاهرة في الفلوات .

الرابع : أن الذين فسروا الآية بذلك قد ... خنوسها من الاختفاء . قال الواحدي : "هو من الخنس في الأنف ، وهو تأخر الأرنبة ، وقصر القصبة ، والبقر والظباء أنوفهن خنس والبقرة خنساء ، والظبي أخنس "[١] ومنه سميت الخنساء لخنس أنفها .

ومعلوم أن هذا أمر خفي يحتاج إلى تأمل فأكثر الناس لا يعرفونه وآيات الرب التي يقسم بها لا تكون إلا ظاهرة جلية يشترك في معرفتها الخلائق فليس الخنس في أنف البقرة والظباء بأعظم من الاستواء والاعتدال في أنف ابن آدم فالآية فيه أظهر[٢] .

الخامس : أن كنوسها في أكنتها ليس بأعظم من دخول الطير وسائر الحيوان[٣] في أكنته التي[٤] يأوي (فيها)[٥] ولا أظهر منه حتى تعين[٦] للقسم .

السادس : أنه لو كان جمعاً للظباء لقال الخنس بالتسكين لأنه جمع أخنس ، فهو كأحمر وحمر ، ولو أريد به جمع بقرة خنساء لكان على وزن (فعل)[٧] أيضاً كحمراء وحمر فلما جاء جمعه على (فُعَّل) ـــ بالتشديد ـــ استحال أن يكون جمعاً لواحد من الظباء والبقر وتعين أن يكون جمعاً لخانس ، كشاهد وشهد وصائم وصوم وقائم وقوم ونظائرها .

السابع : أنه[٨] ليس بالبين إقسام الله تعالى[٩] بالبقر والغزلان وليس هذا عرف القرآن ولا عادته وإنما يقسم سبحانه من كل جنس بأعلاه كما أنه لما أقسم بالنفوس أقسم بأعلاها وهي النفس الإنسانية ولما أقسم بكلامه أقسم بأشرفه وأجله وهو القرآن ولما أقسم بالعلويات أقسم

---

[١] تفسر البسيط (١/٥٨٥) . [٤١/ب]

[٢] رجح ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى عموم القول فكل ما كانت صفة الخنوس أحياناً والجري أحياناً فهو داخل في عموم الآية انظر جامع البيان (٣٠/٧٧) ورجح الواحدي ، وكذا القرطبي والشوكاني القول بأنها النجوم لذكر الليل والصبح بعدها . انظر : البسيط (١/٥٨٥) ، الجامع لأحكام القرآن (١٩/٢٣٧) ، فتح القدير (٥/٤٥٢) .

[٣] في المطبوع : (الحيوانات) .

[٤] في (م) و (ق) والمطبوع : (في بيته الذي) .

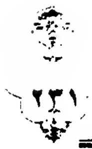
[٥] زيادة من (ب) ، وفي (م) و (ق) والمطبوع : (فيه) .

[٦] في المطبوع : (يتعين) .

[٧] في المطبوع (فعلاء).

[٨] سقط من (ق) .

[٩] في (ب) (إقسام الله) وفي (م) و (ق) والمطبوع : (إقسام الرب تعالى) .



بأشرفها وهو السماء وشمسها وقمرها ونجومها ولما أقسم بالزمان أقسم بأشرفه وهو الليالي العشر وإذا أراد سبحانه أن يقسم بغير / ذلك درجة في العموم كقوله (عز وجل) ﴿ **فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ(٣٨)وَمَا لَا تُبْصِرُونَ(٣٩)** ﴾[1] ونحو ﴿ **وَالذَّكَرَ وَالْأُنْثَى** ﴾ في قراءة رسول الله ﷺ [2] ونحو ذلك .

الثامن : أن اقتران القسم بالليل والصبح يدل على أنها النجوم وإلا فليس باللائق اقتران البقر والغزلان والليل والصبح في قسم واحد ، وبهذا احتج أبو إسحاق على أنها النجوم فقال : (هذا أليق بذكر النجوم منه بذكر الوحش) [3].

التاسع : أنه لو أراد ذلك سبحانه لنبه[4] وذكر ما يدل عليه كما أنه لما أراد بالجواري السفر قال : " ومن آياته الجوار في البحر " وهنا ليس في اللفظ ولا في السياق ما يدل على أنها البقر والظباء وفيه ما يدل على أنها النجوم من الوجوه التي ذكرناها[5] وغيرها .

العاشر : أن الارتباط الذي بين النجوم التي هي هداية السالكين ، (وزينة للسماء)[6] ورجوم للشياطين وبين المقسم عليه وهو القرآن الذي هو هدى للعالمين وزينة للقلوب وداحض لشبهات الشياطين أعظم من الارتباط الذي بين البقر والظباء [والقرآن] [7] والله تعالى أعلم .

---

(1) سورة الحاقة الآيتان (٣٨-٣٩) .

(2) كما أخرج ذلك البخاري في صحيحه في (٦٥) كتاب التفسير (٩٢) سورة (والليل إذا يغشى) ح (٤٩٤٤) : (قدم أصحاب عبدالله على أبي الدرداء ، فطلبهم فوجدهم ، فقال : أيكم يقرأ على قراءة عبدالله ؟ قال : كلنا . قال : فأيكم يحفظ ؟ وأشاروا إلى علقمة ، قال : كيف سمعته يقرأ : (والليل إذا يغشى) قال علقمة : (والذكر والأنثى) قال : أشهد أني سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ هكذا ، وهؤلاء يريدونني على أن أقرأ (وما خلق الذكر والأنثى) والله لا أتابعهم) .
قال الحافظ ابن حجر رحمه الله معلقاً : (قوله : " وهؤلاء " أي أهل الشام ، " يريدونني على أن أقرأ وما خلق الذكر والأنثى والله لا أتابعهم " ، هذا أبين من الرواية التي قبلها حيث قال : " وهؤلاء يأبون علي " ثم هذه القراءة لم تنقل إلا عمن ذكر هنا ، ومن عداهم قرءوا " وما خلق الذكر والأنثى " وعليها استقر الأمر مع قوة إسناد ذلك إلى أبي الدرداء ومن ذكر معه ، ولعل هذا مما نسخت تلاوته ولم يبلغ النسخ أبا الدرداء ومن ذكر معه ، والعجب من نقل الحفاظ من الكوفيين هذه القراءة عن علقمة وابن مسعود وإليهما تنتهي القراءة بالكوفة ، ثم لم يقرأ بها أحد منهم ، وكذا أهل الشام حملوا القراءة عن أبي الدرداء ولم يقرأ أحد منهم بهذا ، فهذا مما يقوي أن التلاوة بها نسخت) .
فتح الباري (٥٧٨/٨) .

(3) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢٩١/٥) بتصرف .

(4) في غير الأصل و (ب) : (لبينه) .

(5) في (ق) : (ذكرنا) .

(6) سقط من المطبوع .

(7) سقط من الأصل وأثبته من البقية .





فصل

واختلف في عسعسة الليل : هل هي إقباله أم إدباره ؟

فالأكثرون : على أن عسعس بمعنى : ولّى وذهب وأدبر . هذا قول علي[١] وابن عباس[٢] وأصحابه[٣].

وقال الحسن : أقبل بظلامه[٤] وهو إحدى الروايتين عن مجاهد[٥]. فمن رجح الإقبال قال : أقسم الله سبحانه[٦] بإقبال الليل وإقبال النهار فقوله (عز وجل) : ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ مقابل : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴾ .

قالوا : ولهذا أقسم تعالى[٧] بـ ﴿ اللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى(١)وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ﴾ وبالضحى قالوا : فغشيان الليل نظير عسعسته ، وتجلى النهار نظير تنفس الصبح إذ هو مبدؤه وأوله .

ومن رجح أنه إدباره : احتج بقوله تعالى : ﴿ كَلَّا وَالْقَمَرِ(٣٢)وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ(٣٣)وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴾ فأقسم سبحانه[٨] بإدبار الليل وإسفار الصبح وذلك نظير عسعسة الليل وتنفس الصبح.

---

(1) أخرج قوله الطبري في تفسيره بسنده (٧٨/٣٠) .
وورد ذكره في البسيط (٥٨٧/١) ، والنكت والعيون (٢١٧/٦) ، وتفسيره ابن كثير (٤٧٩/٤) .

(2) أخرج قوله الطبري في تفسيره بسنده (٧٨/٣٠) .
وذكره أيضاً في : البسيط (٥٨٦/١) ، والنكت والعيون (٢١٧/٦) ، زاد المسير (٤٢/٩) وغيرها .

(3) مثل عطاء ، والكلبي ، والضحاك ومجاهد .
انظر : جامع البيان (٧٨/٣٠) ، البسيط (٥٨٦/١) ، النكت والعيون (٢١٧/٦) ، المحرر الوجيز (٤٤٤/٥) ، الجامع لأحكام القرآن (٢٣٨/١٩) ، الدر المنثور (٤٣٣/٨) .

(4) أخرج قوله الطبري في تفسره بسنده (٧٨/٣٠) .
وورد ذكره في : البسيط (٥٨٧/١) ، معالم التنزيل (٣٤٩/٨) ، الجامع لأحكام القرآن (٢٣٨/١٩) ، تفسير ابن كثير (٤٧٩/٤) تفسير الحسن البصري (٢٠٤/٢) .

(5) أخرج قوله الطبري في تفسيره بسنده (٨٧/٣٠) وفيه : (والليل إذا عسعس) قال : إقباله ، ويقال : إدباره .
وانظر : الدر المنثور (٤٣٣/٨) وعزاه إلى عبد بن حميد .

(6) في (م) و (ق) والمطبوع : زيادة : (وتعالى) .

(7) في (ق) : (سبحانه وتعالى ، وفي المطبوع : (أقسم الله بالليل . .) .

(8) سقط من غير الأصل و (ب) .

قالوا : والأحسن أن يكون القسم بانصرام الليل وإقبال النهار عقيبه[١] من غير فصل فهـــذا أعظم / في الدلالة والعبرة ، بخلاف إقبال الليل وإقبال النهار فإنه لم يعرف القسم في القرآن بهما ، [٤٢/أ] ولأن بينهما زمن طويل . فالآية في انصرام هذا ومجيء الآخر عقيبه بغير فصل أبلغ . فذكر سبحانه حالة ضعف هذا وإدباره وحالة قوة هذا وتنفسه وإقباله يطرد ظلمة الليل بتنفسه ، فكلما تـــنفس هرب الليل وأدبر بين يديه . وهذا هو القول[٢].[٣]



(1) في (م) و (ق) والمطبوع : (فإنه عقيبه) .
(2) في (م) و (ق) والمطبوع : زيادة : (والله أعلم) .
(3) انظر : جامع البيان (٧٩/٣٠) ، الجامع لأحكام القرآن (٢٣٨/١٩) .

فصل

{ بيان المقسم عليه }

ثم ذكر سبحانه المقسم عليه وهو القرآن ، وأخبر أنه قول رسول كريم وهو ههنا جبريل قطعاً لأنه ذكر صفته بعد ذلك بما يعينه به وأما الرسول الكريم في الحاقة[١]فهو محمد ﷺ لأنه نفى بعده أن يكون قول من زعم أعداؤه[٢]أنه قوله فقال (تعالى) : ﴿ **وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ(٤١)وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ(٤٢)** ﴾[٣] فأضافه إلى الرسول الملكي تارة وإلى البشري تارة وإضافته إلى كل واحد من الرسولين إضافة تبليغ لا إضافة إنشاء من عنده وإلا تناقضت النسبتان ولفظ الرسول يدل على ذلك .

فإن الرسول هو الذين يبلغ كلام من أرسله وهذا صريح في أنه كلام من أرسل جبريل ومحمداً ﷺ وأن كلاً منهما بلغه عن الله ، فهو قوله مبلغاً ، وقول الله الذي تكلم به حقاً ، فلا راحة لمن أنكر أن يكون الله (تعالى) متكلماً بالقرآن ، وهو كلامه حقاً في هاتين الآيتين بل هما من أظهر الأدلة على كونه كلام الرب تعالى ، وأنه ليس للرسولين الكريمين منه إلا التبليغ ، فجبريل سمعه من الله ومحمد [ﷺ][٤] سمعه من جبريل ، ووصف رسوله الملكي في هذه السورة بأنه كريم قوي مكين عند الرب [تعالى][٥]، مطاع في السماوات ، أمين ، فهذه خمس صفات تتضمن تزكية سند القرآن ، وأنه سماع محمد من جبريل ، وسماع جبريل من رب العالمين ، فناهيك بهذا السند علواً وجلالة : قول الله سبحانه بنفسه تزكيته الصفة الأولى[٦]: كون الرسول الذي جاء [به][٧] إلى محمد [ﷺ][٨] كريماً ، ليس كما يقول أعداؤه أن الذي جاء به شيطان ، فإن الشيطان خبيث مخبث ، لئيم قبيح المنظر ، عديم الخير ، باطنه أقبح من ظاهره وظاهره أشنع من

[٤٢/ب]

---

(1) في قوله تعالى : ﴿ إنه لقول رسول كريم ﴾ آية (٣٠) .

(2) في المطبوع : (من أعدائه) .

(3) سورة الحاقة الآيتان (٤١-٤٢) .

(4) سقط من الأصل و (ب) ، وأثبته من البقية .

(5) سقط من الأصل و (ب) ، وأثبته من البقية .

(6) في الأصل و (ب) : (الأول) .

(7) سقط من الاصل .

(8) سقط من الأصل و (ب) ، وأثبته من البقية .

باطنه ، وليس فيه ولا عنده / خير فهو أبعد شيء عن[١] الكرم ، والرسول الذي ألقى القرآن إلى محمد (صلى الله عليه وسلم)[٢] كريم جميل المنظر بهي السورة كثير الخير ، طيب مطيب ، معلم الطيبين ، كل[٣] خير في الأرض من هدى وعلم ومعرفة وإيمان وبر[٤] فهو مما أجراه ربه على يديه ، وهذا غاية الكرم الصوري والمعنوي .

الوصف الثاني : أنه ذو قوة كما قال في موضع آخر : ﴿ **عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى(٥)** ﴾[٥] وفي ذلك تنبيه على أمور :

أحدها : أنه بقوته يمنع الشياطين أن تدنوا منه وأن ينالوا منه شيئاً أو يزيدوا[٦] فيه وينقصوا منه ، بل إذا رآه الشيطان هرب منه ولم يقربه .

الثاني : أنه موال لهذا الرسول الذي كذبتموه ، ومعاضد له ، موادد له وناصر كما قال تعالى : ﴿ **وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ(٤)** ﴾[٧] ومن كان هذا القوي وليه ، ومن أنصاره وأعوانه ، ومعلمه فهو المهدي المنصور ، والله هاديه وناصره .

الثالث : أن من عادى هذا الرسول فقد عادى صاحبه ووليه جبريل ، ومن عادى ذا[٨] القوة والشدة فهو عرضة للهلاك .

الرابع : أنه قادر على تنفيذ ما أمر به لقوته ، فلا يعجز عن ذلك ، مؤدٍ له كما أمر به لأمانته فهو القوي الأمين (وأحدكم إذا انتدب غيره في أمر من الأمور لرسالة أو ولاية أو وكالة أو غيرها ، فإنما ينتدب لها القوي عليه الأمين)[٩] على فعله وإن كان ذلك الأمر من أهم الأمور

---

(1) في (ق) : (من) .
(2) سقط من الأصل و (ب) ، وأثبته من البقية .
(3) في المطبوع : (وكل) .
(4) سقط من (ق) .
(5) سورة النجم الآية (٥) .
(6) في (م) و (ق) والمطبوع : (وأن يزيدوا) .
(7) سورة التحريم الآية (٤) .
(8) في (م) و (ق) : (ذو) .
(9) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل .

عنده انتدب له قوياً أميناً معظماً ذا مكانة عنده مطاعاً في الناس كما وصف[1] عبده جبريل بهذه الصفات وهذا يدل على عظمة شأن المرسل والرسول والرسالة والمرسل إليه حيث انتدب له الكريم القوي المكين عنده المطاع في الملأ الأعلى ، لأمين حق الأمين فإن الملوك لا ترسل في مهماتها إلا الأشراف ذوي الأقدار والرتب العالية وقوله (عز وجل) ﴿ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ(٢٠) ﴾[2] أي : له مكانة ووجاهة عنده ، وهو أقرب الملائكة إليه .

وفي قوله : ﴿ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ ﴾ إشارة إلى علو مترلة جبريل ، إذ كان قريباً من ذي العرش سبحانه وفي قوله : ﴿ مُطَاعٍ ثَمَّ ﴾[3] إشارة إلى أن جنوده وأعوانه / يطيعونه إذا ندبهم [٤٣/أ] لنصر صاحبه وخليله محمد ﷺ ، وفيه إشارة أيضاً إلى أن هذا الذي تكذبونه وتعادونه سيصير مطاعاً في الأرض ، كما أن جبريل مطاع في السماء ، وأن كلاً من الرسولين مطاع في محله وقومه ، وفيه تعظيم له بأنه بمترلة الملوك المطاعين في قومهم ، فلم ينتدب لهذا الأمر العظيم إلا مثل هذا الملك المطاع .

وفي وصفه بالأمانة[4] إشارة إلى حفظ[5] ما حمله وأدائه له على وجهه . ثم نزه رسوله البشري وزكاه عن ما يقول فيه أعداؤه فقال (تعالى) : ﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ(٢٢) ﴾[6] وهذا أمر يعلمونه ولا يشكون فيه وإن قالوا بألسنتهم خلافه فهم يعلمون أنهم كاذبون .

ثم أخبر عن رؤيته صلى الله عليه وسلم لجبريل ، وهذا يتضمن أنه ملك موجود في الخارج يرى بالعيان ويدركه البصر ، لا كما تقول المتفلسفة ومن قلدهم أنه العقل الفعال ، وأنه ليس مما يدرك بالبصر وحقيقته عندهم : أنه خيال موجود في الأذهان لا في الأعيان ، وهذا مما خالفوا به جميع الرسل وأتباعهم ، وخرجوا به عن جميع الملل .

ولهذا كان تقرير رؤية النبي ﷺ لجبريل أهم من تقرير رؤيته لربه تعالى ، فإن رؤيته لجبريل هي أصل الإيمان الذي لا يتم إلا باعتقادها ومن أنكرها كفر قطعاً .

---

(1) في المطبوع : (كما وصف الله عبده) .
(2) سورة التكوير الآية (٢٠) .
(3) سورة التكوير الآية (٢١) . وفي المطبوع إكماله الآية (أمين) .
(4) تحرفت في (ق) إلى : (الأمان) .
(5) في (م) و (ق) والمطبوع : (حفظه) .
(6) في المطبوع : (إنهم كانوا كاذبين) .

وأما رؤيته لربه (تعالى)[1] فغايتها أن تكون مسألة نزاع لا يكفر جاحدها بالاتفاق ، وقد صرح جماعة من الصحابة بأنه لم يره ، وحكى عثمان بن سعيد الدارمي[2] [اتفاق][3] الصحابة على ذلك[4] فنحن إلى تقرير رؤيته لجبريل أحوج منا إلى تقرير رؤيته لربه تعالى ، وإن كانت رؤية الرب تعالى أعظم من رؤية جبريل ومن دونه ، فإن النبوة لا تتوقف على ثبوتها عليها البتة .

ثم نزه رسوليه / كليهما ، أحدهما بطريق النطق ، والثاني بطريق اللزوم عما يضاد مقصود [٤٣/ب] الرسالة من الكتمان الذي هو الضنة والبخل ، والتبديل والتغيير الذي يوجب التهمة فقال : ﴿ **وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤)** ﴾[5] فإن الرسالة لا يتم مقصودها إلا بأمرين : أداؤها من غير كتمان ، وأداؤها على وجهها من غير زيادة ولا نقصان .

والقراءتان كالآيتين فتضمنت إحداهما[6] وهي قراءة الضاد[7] تنزيهه عن البخل فإن الضنين البخيل يقال ضننت به أضن[8] ، بوزن بخلت به أبخل ومعناه ، ومنه قول جميل بن معمر:

أجود بمضنون التلاد وإنني لسرك[9] عمن سائلي لضنين[10]

قال ابن عباس[11] : ليس ببخيل بما أنزل الله (عز وجل)[12] وقال مجاهد : لا يضن عليهم بما يعلم[13] .

---

(1) سقط من (ب) .

(2) الدارمي هو عثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد الدارمي السجستاني أبو سعيد ، الإمام العلامة كان قذاً في عيون المبتدعة ، حسن المناظرة ، أكثر الترحال في طلب الحديث وصنف عدة مصنفات منها : " المسند " ، ورده على بشر المرسي وغيرهما توفي سنة (٢٨٠ هـ) .

انظر : تذكرة الحفاظ (٦٢١/٢) ، شذرات الذهب (١٧٦/٢) .

(3) سقط من الأصل .

(4) انظر : نقض الدارمي على المريسي (٧٣٨/٢) .

(5) سورة التكوير الآية (٢٤) .

(6) هكذا في الأصل و (م) ، وفي غيرهما : (أحدها) .

(7) وهي قراءة : (نافع وابن عامر وعاصم وحمزة وروح وخلف وأبو جعفر) انظر إرشاد المبتدي للقلانسي ص (٦٢٣) والتذكرة لأبي الحسن (٦١٧/٢) .

(8) في (ق) : (أضنن) .

(9) في غير الأصل : (بسرك) .

(10) لم أجده في ديوانه .

(11) في (م) و (ق) والمطبوع : زيادة : (رضي الله عنهما) .

(12) انظر الدر المنثور (٤٣٥/٨) وعزاه إلى سعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، وابن جرير ولم أجدها عنده في تفسيره .

(13) اخرج هذه الرواية الطبري في تفسيره بسنده (٨٢/٣٠) . وهي أيضاً في تفسيره (٧٠٩/٢) ، وعزاه في الدر المنثور (٤٣٥/٨) إلى عبد بن حميد وابن المنذر .

وأجمع المفسرون على أن الغيب ههنا القرآن والوحي وقال الفراء : (يقول تعالى يأتيه غيب السماء وهو منفوس فيه فلا يضن به عليكم)[١] وهذا معنى حسن جداً فإن عادة النفوس الشح بالشيء النفيس ولا سيما عمن لا يعرف قدره ويذمه ويذم من هو من[٢] عنده ومع هذا فهذا الرسول لا يبخل عليكم بالوحي الذي هو أنفس شيء وأجله .

وقال أبو علي الفارسي : المعنى يأتيه الغيب فيبينه ويخبر به ويظهره ولا يكتمه كما يكتم الكاهن ما عنده ويخفيه حتى يأخذ عليه حلواناً[٣] .

وفيه معنى آخر : وهو أنه على ثقة من الغيب الذي يخبر به فلا يخاف أن ينتقض ، ويظهر الأمر بخلاف ما أخبر به كما يقع للكهان وغيرهم ممن يخبر بالغيب فإن كذبهم أضعاف صدقهم وإذا أخبر أحدهم بخبر لم يكن على ثقة منه ، بل هو خائف من ظهور كذبه ، فإقدام هذا الرسول على الإخبار بهذا الغيب العظيم الذي هو أعظم الغيب واثقاً به مقيماً عليه مبدياً له في كل مجمع ومعيداً منادياً به على صدقه ، مستجلباً[٤] به لأعدائه من أعظم الأدلة على صدقه.

وأما قراءة من قرأ " بظنين " بالظاء[٥] فمعناه المتهم ، يقال : ظننت زيداً بمعنى / اتهمته . [٤٤/أ] وليس من الظن الذي هو الشعور والإدراك ، فإن ذلك يتعدى إلى مفعولين[٦]، ومنه ما أنشد أبو عبيدة[٧]:

أما وكتاب الله لا عن شناءة — هجرت ولكن المحب ظنين[٨]

---

(1) معاني القرآن للفراء (٣/٢٤٢) .

(2) سقطت (من) من غير الأصل .

(3) الحجة لأبي علي الفارسي (٦/٣٨١) بتصرف يسير جداً .

(4) في المطبوع : (مجلباً على) .

(5) وهي قراءة : (ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ورويس) انظر إرشاد المبتدي للقلانسي ص (٦٢٣) والتذكرة لأبي الحسن (٢/٦١٧) .

(6) انظر : الحجة للفارسي (٦/٣٨٠-٣٨١) .

(7) لم أجده في (مجاز القرآن) .

(8) البيت في اللسان : فلا ويمين الله لا عن جناية ..هجرت ولكن الظنين ظنين .
وفي الكامل (١/٢٣) : (. . . ما عن جناية ..) بدل : لا عن جناية .
وقد نسبه ابن بري إلى نهار بن توسعة كما في اللسان . وقال في الكامل : ومن ذلك قول الشاعر أحسبه عبدالرحمن بن حسان .
ونقله عنه الأزهري في التهذيب (١٤/٣٦٤).

والمعنى : وما هذا الرسول على القرآن بمتهم ، بل هو أمين لا يزيد فيه ولا ينقص[(١)]، وهذا يدل على أن الضمير يرجع إلى محمد ﷺ لأنه قد تقدم وصف الرسول الملكي بالأمانة ثم قال : " وما صاحبكم بمجنون " ثم قال : " وما هو " أي : وما صاحبكم بمتهم ولا بخيل .

واختار أبو عبيدة[(٢)] قراءة الظاء لمعنيين :

أحدهما : أن الكفار لم يبخلوه : وإنما اتهموه . فنفي التهمة أولى من نفي البخل .

الثاني : أنه قال " على الغيب " ولو كان المراد البخل لقاله : بالغيب ، لأنه يقال فلان ضنين بكذا ، وقل ما يقال : على كذا .

قلت : ويرجحه أنه وصفه بما وصف به رسوله الملكي من الأمانة فنفى عنه التهمة ، كما وصف جبريل بأنه أمين .

ويرجحه أيضاً : أنه سبحانه نفى أقسام الكذب كلها عما جاء به من[(٣)] الغيب ، فإن ذلك لو كان كذباً ، فإما أن يكون منه ، أو ممن علمه ، وإن كان منه فإما أن يكون تعمده أو لم يتعمده ، فإن كان من معلمه فليس هو بشيطان[(٤)] رجيم ، وإن كان منه مع التعمد فهو المتهم ضد الأمين ، وإن كان من[(٥)] غير تعمد فهو المجنون ، فنفى سبحانه عن رسوله ذلك كله ، وزكى سند القرآن أعظم التزكية فلهذا قال سبحانه : ﴿ **وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ(٢٥)** ﴾[(٦)] أي ليس بتعليم[٧] الشيطان ولا يقدر عليه ولا يحسن منه ، كما قال[(٨)]: ﴿ **وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ(٢١٠)وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ(٢١١)** ﴾[(٩)] فنفى فعلهم[(١٠)] وابتغاءه منهم وقدرتهم عليه . وكل من له أدنى خبرة بأحوال الشياطين والمجانين والمتهمين وأحوال الرسل يعلم

[٤٤/ب]

---

(1) كما هو مروي عن ابن زيد بكلام نحوه عند الطبري في تفسيره (٣٠/٨٢) .
(2) في (م) و (ق) : (أبو عبيد) .
(3) في (ق) و (م) : (عن) .
(4) في (ق) : (شيطان) .
(5) في (ب) و (م) والمطبوع : (عن) وفي (ق) ساقطة .
(6) سورة التكوير الآية (٢٥) .
(7) في (م) و (ق) والمطبوع : (تعليم).
(8) في غير الأصل و (ب) : زيادة (تعالى) .
(9) سورة الشعراء الآيتان (٢١٠-٢١١) .
(10) في المطبوع : (فعله) .

علماً لا يمارى فيه ولا يشك بل علماً ضرورياً كسائر الضروريات منافـاة أحـدهما / للآخـر ومضادته له ، كمنافاة أحد الضدين لصاحبه ، بل ظهور المنافاة بين الأمرين للعقل أبين من ظهور المنافاة بين النور والظلمة للبصر .

ولهذا وبخ سبحانه من كفر بعد ظهور هذا الفرق المبين بين دعـوة الرسـل[1] ودعـوة الشيطان فقال (تعالى) : ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ(٢٦) ﴾[2] قال أبو إسحاق : " المعنى فـأي طريـق تسلكون أبين من هذه الطريقة التي بينت لكم "[3] .

قلت : هذا من أحسن الإلزام وأبينه أن يبين للسامع الحق ثم يقول له : أيش تقول خلاف هذا ؟ ! وأين تذهب خلاف هذا ؟ ! .

قال تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ(٥٠) ﴾[4] وقال (تعالى) : ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ(٦) ﴾[5] ، فالأمر منحصر في الحق والباطل والهدى والضلال ، فإذا عدلتم عن الهدى والحق فأين العدل[6] وأين المذهب ؟ .

ونظير هذا قوله سبحانه[7]: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ(٢٢) ﴾[8] أي : إن أعرضتم عن الإيمان بالقرآن والرسول وطاعته فليس إلا الفساد في الأرض بالشرك[9] والمعاصي وقطيعة الرحم .

ونظيره قوله تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ(٥) ﴾[10] لمـا تركوا الحق وعدلوا عنه مرج عليهم أمرهم والتبس فلا يدرون ما يقولون وما يفعلـون بـل لا

---

(1) في (ب) و (م) : (دعوة الرسول ودعوى الشياطين) ، وفي (ق) والمطبوع : (دعوة الرسل ودعوة الشياطين) .
(2) سورة التكوير الآية (٢٦) .
(3) معاني القرآن وإعرابه (٥/٢٩٣) .
(4) سورة المرسلات الآية (٥٠) .
(5) سورة الجاثية الآية (٦) .
(6) في المطبوع : (العدول) .
(7) سقط من المطبوع .
(8) سورة محمد الآية (٢٢) .
(9) في المطبوع : (والشرك) .
(10) سورة ق الآية (٥) .

يقولون شيئاً إلا كان (باطلاً ، ولا يفعلون شيئاً إلا كان ضائعاً)[١] غير نافع لهم ، وهذا شأن كل من خرج عن الطريق (المستقيم في قوله وفعله ، وهو بمنزلة من خرج عن الطريـــق)[٢] الموصـــل المقصود[٣].

ونظيره قوله تعالى : ﴿ **فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْـــوَاءَهُمْ** ﴾[٤] وقـــد كشف هذا المعنى كل الكشف بقوله عز وجل : ﴿ **فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّا تُصْرَفُونَ(٣٢)** ﴾[٥] .



---

(1) سقط من (ق) .

(2) سقط من المطبوع .

(3) في غير الأصل و (ب) : (إلى المقصود) .

(4) سورة القصص الآية (٥٠) .

(5) سورة يونس الآية (٣٢) .

فصل [(١)]

{ وصف القرآن ، ومعنى كونه ذكرا }

ثم أخبر تعالى عن القرآن بأنه ذكر للعالمين[(٢)]، وفي موضع آخر تذكرة للمتقين[(٣)] [وفي موضع آخر ذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقومه[(٤)]وفي موضع آخر ذكر مطلق[(٥)]][(٦)]وفي موضع آخر : ذكر مبارك[(٧)]، وفي موضع آخر : وصفه بأنه ذو الذكر[(٨)].

وبجمع هذه المواضع يتبين[(٩)]المراد من كونه ذكراً عاماً وخاصاً وكونه ذا ذكر فإنه يذكر العباد بمصالحهم في معاشهم ومعادهم ، ويذكر[(١٠)]بالمبدأ والمعاد ، ويذكرهم / بالرب تعالى [٤٥/أ] وأسمائه وصفاته وأفعاله وحقوقه على عباده ، ويذكرهم بالخير ليقصدوه وبالشر ليجتنبوه ، ويذكرهم بنفوسهم وأحوالها وآفاقها وما تكمل به ، ويذكرهم بعدوهم وما يريد منهم وبماذا يحترزون من كيده ، ومن أي الأبواب والطرق يأتي إليهم ، ويذكرهم بفاقتهم وحاجتهم إلى ربهم[(١١)] وأنهم مضطرون إليه لا يستغنون عنه نفساً واحداً ، ويذكرهم بنعمه عليهم ويدعوهم بها إلى نعم أخرى أكبر منها ، ويذكرهم باسمه وشدة بطشه وانتقامه ممن عصى أمره وكذب رسله ، ويذكرهم بثوابه وعقابه ، ولهذا يأمر سبحانه عباده أن يذكروا ما في كتابه كما قال (تعالى) :

---

(1) سقط من الأصل .

(2) في قوله تعالى : ﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ هنا في التكوير .

(3) في قوله تعالى : ﴿ ولكن ذكرى لعلهم يتقون ﴾ في سورة الأنعام .

(4) في قوله تعالى : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ في سورة الزخرف .

(5) في قوله تعالى ﴿ إن هو إلا ذكر وقرآن مبين ﴾ في سورة يس .

(6) ما بين المعقوفتين ساقط من الأصل .

(7) في قوله تعالى : ﴿ وهذا ذكر مبارك أنزلناه . . ﴾ في سورة الأنبياء .

(8) في قوله تعالى : ﴿ ص . والقرآن ذي الذكر ﴾ . في سورة ص .

(9) في (ب) و (ق) والمطبوع : (وبجمع هذه المواضع تبيين . .) .

(10) في غير الأصل : (ويذكرهم) .

(11) في (م) و (ق) والمطبوع : (إليه) بدل : (إلى ربهم) .

﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(٦٣) ﴾[1] وإذا كان كذلك فأحق وأولى وأول من[2] كان ذكراً[3] له من أنزل عليه ، ثم لقومه ، ثم لجميع العالمين وحيث خص به المتقين فلأنهم الذين انتفعوا بذكره[4]، وأما وصفه بأنه ذو الذكر فلأنه مشتمل على الذكر فهو صاحب الذكر وفيه[5] الذكر فهو ذكر وفيه الذكر كما أنه هدى وفيه الهدى ، وشفاء وفيه الشفاء ، ورحمة وفيه الرحمة .

وقوله سبحانه : ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ(٢٨) ﴾[6] بدل من العالمين وهو بدل بعض من كل ، وهذا من أحسن ما يستدل به على أن البدل في قوة ذكر عاملين مقصودين ، فإنه جهة كونه ذكراً للعالمين كلهم ، غير جهة كونه ذكراً لأهل الاستقامة فإنه ذكر للعموم بالصلاحية والقوة ، وذكر لأهل الاستقامة بالحصول والنفع . فكما أن البدل أخص من المبدل منه ، فالعامل المقدر فيه أخص من العامل الملفوظ في المبدل منه ولا بد من هذا فتأمله[7].

وقوله تعالى : ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ(٢٨)﴾[8] رد على الجبرية القائلين بأن العبد لا مشيئة له ، وأن مشيئته مجرد علامة على حصول الفعل لا ارتباط بينهما[9] وبينه إلا مجرد اقتران عادي من غير أن يكون سبباً فيه .

وقوله (تعالى) : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾[10] رد على القدرية القائلين / بأن [٤٥/ب] مشيئة العبد مستقلة بإيجاد الفعل من غير توقف على مشيئة الله (عز وجل)[11]، بل متى شاء

---

(1) سورة البقرة الآية (٦٣) .
(2) في المطبوع و (ق) : (ظن) .
(3) في المطبوع : (ذاكراً له) .
(4) في (ق) : (ظن) .
(5) في المطبوع : (ومنه) .
(6) سورة التكوير الآية (٢٨) .
(7) انظر في هذه المسألة : أسرار العربية لابن الأنباري (٣٠٠-٣٠١) شرح التصريح على التوضيح (٢/١٥٥) .
(8) في (م) و (ق) والمطبوع : (لمن شاء منكم) بدون تكملة الآية .
(9) في غير الأصل و (ب) : (بينها) .
(10) سورة التكوير الآية (٢٩) .
(11) سقط من (ب) و (م) و (ق) والمطبوع .

العبد الفعل وجد ، ويستحيل عندهم تعلق مشيئة الله عز وجل بفعل العبد ، بل هو يفعله بدون مشيئة الله (تعالى)[1].

فالآيتان مبطلتان لقول الطائفتين ، فإن قال الجبري : هو سبحانه لم يقل إن الفعل واقع بمشيئة العبد ، بل أخبر أن الاستقامة تحصل عند المشيئة ، ونحن قائلون بذلك ، وقال القدري : قوله (عز وجل) : ﴿ **وما تشاءون إلا أن يشاء الله** ﴾ المشيئة[2] مختلفة . فمشيئة العبد هي الموجبة للفعل التي بها يقع ومشيئة الله لفعله هو أمره له به ونحن لا ننكر ذلك .

فالجواب : أن هذا من تحريف الطائفتين :

أما الجبري فيقال له : اقتران الفعل عندك بمشيئة العبد بمنزلة اقترانه بكونه وشكله وسائر أعراضه التي لا تأثير لها في الفعل فإن نسبة جميع أعراضه إلى الفعل في عدم التأثير نسبة إرادته[3] عندك والاقتران حاصل بجميع أعراضه فما الذي أوجب تخصيص المشيئة ؟ وهل سوى الله سبحانه في فطر الناس أو عقولهم أو شرائعهم ، بين نسبة المشيئة والإرادة إلى الفعل ، ونسبة سائر أعراض الحي إذ كان[4] إلا مجرد الاقتران عادة ؟ والاقتران العادي حاصل مع الجميع .

وأما القدري : فتحريفه أشد ، لأنه حمل المشيئة على الأمر وقال : المعنى وما تشاءون إلا أن يأمر[5] الله ، وهذا باطل قطعاً ، فإن المشيئة في القرآن لم تستعمل في ذلك ، وإنما استعملت في مشيئة التكوين كقوله (تعالى) : ﴿ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ** ﴾[6] وقوله : ﴿ **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا** ﴾[7] وقوله : ﴿ **وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا** ﴾[8] وقوله : ﴿ **أَفَلَمْ يَيْئَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا** ﴾[9] ونظائر ذلك مما لا يصح[1] حمل المشيئة على الأمر البتة

---

(1) سقط من (ب) و (م) و (ق) والمطبوع .

(2) سقط من المطبوع .

(3) في (م) و (ق) والمطبوع : (إرداية) .

(4) في (م) و (ق) والمطبوع : (إذ كان عندك) .

(5) في المطبوع : (إلا بأمر الله) .

(6) سورة الأنعام الآية (١١٢) .

(7) سورة البقرة الآية (٢٥٣) .

(8) سورة السجدة الآية (١٣) .

(9) سورة الرعد الآية (٣١) .

والذي دلت عليه الآية مع سائر أدلة التوحيد وأدلة العقل الصريح أن مشيئة العباد من جملة الكائنات التي لا / توجد إلا بمشيئة الله سبحانه وتعالى فما لم يشأ لم يكن البتة كما أن ما شاء [٤٦/أ] كان ولا بد ، ولكن هاهنا أمر يجب التنبيه عليه وهو أن مشيئة الله سبحانه تارة تتعلق بفعله ، وتارة تتعلق بفعل العبد ، فتعلقها بفعله سبحانه هو أن يشاء من نفسه إعانة عبده وتوفيقه وتهيئته للفعل فهذه المشيئة تستلزم فعل العبد ومشيئته ، ولا يكفي في وقوع الفعل مشيئة الله لمشيئة عبده دون أن يشاء فعله ، فإنه سبحانه قد يشاء من عبده المشيئة وحدها فيشاء العبد الفعل ويريده ولا يفعله لأنه لم يشأ من نفسه (سبحانه) إعانته عليه وتوفيقه هل ، وقد دل على هذا وهذا[٢] قوله تعالى[٣]: ﴿ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ(٢٩)﴾[٤] وقوله : ﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾[٥] .

وهاتان الآيتان متضمنتان إثبات الشرع والقدر ، والأسباب والمسببات ، وفعل العبد واستناده إلى فعل الرب ، ولكل منهما عبودية يختص[٦] بها .

فعبودية الآية الأولى : الاجتهاد واستفراغ الوسع والاختيار والسعي .

وعبودية الثانية الاستعانة بالله والتوكل عليه واللجأ إليه واستنزال التوفيق والعون منه ، والعلم بأن العبد لا يمكنه أن يشاء ولا يفعل حتى يجعله الله كذلك . وقوله : ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ينتظم ذلك كله ويتضمنه ، فمن عطل أحد الأمرين فقد جحد كمال الربوبية وعطلها .

وبالله التوفيق



(1) في غير الأصل : (مما لا يصح فيه حمل . . .) .
(2) سقط من المطبوع .
(3) سقط من (م) و (ق) .
(4) سورة التكوير الآية (٢٩) . وفي المطبوع بداية الآية من أولها .
(5) سورة المدثر الآية (٥٦) .
(6) في المطبوع : (مختص) .

﴿ فصل ﴾

{ القسم في سورة النازعات }

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا(١)وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا(٢)وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (٣)فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا(٤)فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا(٥) ﴾[١] فهذه خمسة أمور وهي صفات الملائكة .

فأقسم سبحانه بالملائكة الفاعلة لهذه الأفعال إذ ذاك[٢]من أعظم آياته ، وحذف مفعول النزع والنشط لأنه لو ذكر ما تنزع وتنشط لأوهم التقييد ، ولأن القسم على نفس الأفعال الصادرة من هؤلاء الفاعلين فلم يتعلق الغرض بذكر المفعول كقوله (تعالى) : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى(٥) ﴾[٣] ونظائره / . [٤٦/ب]

فكأن نفس النزع هو المقصود لاعين المنزوع ، وأكثر المفسرين على أنها[٤] التي تنزع أرواح بني آدم من أجسامهم وهم جماعة كقوله (تعالى) : ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾[٥] وقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾[٦] ، وأما قوله (عز وجل) : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ﴾[٧] [٨] فإما أن يكون واحداً وله أعوان ، وإما أن يكون المراد الجنس لا الوحدة[٩]كقوله (تعالى) : ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ ﴾[١٠] وقوله (تعالى) : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾[١١] والنزع هو اجتذاب الشيء بقوة والإغراق

---

[1] سورة النازعات الآيات (١ ــ ٥) .

[2] في (م) و (ق) والمطبوع : (ذلك) .

[3] سورة الليل الآية (٥) .

[4] في غير الأصل و (ب) : زيادة (الملائكة) .

[5] سورة الأنعام الآية (٦١) .

[6] سورة النساء الآية (٩٧) .

[7] سورة السجدة الآية (١١) .

[8] في المطبوع : زيادة : (الذي وكل بكم) .

[9] في (ق) : (كالوحدة) .

[10] سورة التحريم الآية (١٢) .

[11] سورة النحل الآية (١٨) .

في النزع أن يجتذبه إلى آخره ، ومنه إغراق النزع في جذب القوس[١] أن[٢] يبلغ بها نهاية[٣] المد ، فيقال : أغرق في النزع ، ثم صار مثلاً لكل من بالغ في فعل حتى وصل إلى آخره ، والغرق اسم مصدر أقيم مقامه كالعطاء والكلام أقيم مقام الإعطاء والتكلم[٤].

واختلف الناس هل[٥] النازعات متعدياً ولازماً[٦]؟ فعلى القول الذي حكيناه يكون متعدياً ، وهذا قول علي[٧] ومسروق[٨] ومقاتل[٩] وأبي صالح[١٠] وعطية عن ابن عباس[١١].

وقال ابن مسعود : هي أنفس الكفار[١٢] وهو قول قتادة[١٣] والسدي[١٤] وعطاء عن ابن عباس[١٥] وعلى هذا فهو فعل[١٦] لازم ، وغرقاً على هذا معناه : نزعاً شديداً أبلغ ما يكون وأشده[١٧].

---

(1) هكذا في الأصل ، وفي (م) و (ق) : (القوس) ، وفي المطبوع (القوة) .

(2) في المطبوع : (بأن) .

(3) في غير الأصل : (غاية) .

(4) انظر : لسان العرب (١٠/٥٧-٥٨) .

(5) في (ب) و (م) و (ق) : (على) .

(6) في المطبوع : (أو لازم) .

(7) انظر : زاد المسير (٩/١٤) ، الدر المنثور (٨/٤٠٣) وعزاه إلى سعيد بن منصور ، وابن المنذر .

(8) انظر : جامع البيان (٣٠/٢٧) ، النكت والعيون (٦/١٩٢) ، تفسير ابن كثير (٤/٤٦٦) وغيرها .

(9) انظر : النكت والعيون (٦/١٩٢) ، معالم التنزيل (٨/٣٢٣) .

(10) انظر تفسير ابن كثير (٤/٤٦٦) ، الدر المنثور (٨/٤٠٤) وعزاه إلى عبد بن حميد ، وابن المنذر .

(11) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٣٠/٢٧) . وورد ذكره أيضاً في : بحر العلوم (٣/٤٤٣) ، النكت والعيون (٦/١٩٢) ، معالم التنزيل (٨/٣٢٣) ، المحرر الوجيز (١٦/٢١٨) ، زاد المسير (٩/١٤) وغيرها .

(12) أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (٨/٤٠٤) .
وورد ذكره أيضاً في النكت والعيون (٦/١٩٢) ، زاد المسير (٩/١٤) ، الجامع لأحكام القرآن (١٩/١٩٠) .

(13) أخرجه عبدالرزاق في تفسيره بإسناده (٢/٣٤٥) .
وورد ذكره أيضاً في : المراجع السابقة .

(14) أخرج قوله الطبري في تفسيره بإسناده (٣٠/٢٨) .
وكذا أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (٨/٤٠٤) .

(15) نسبه إليه الواحدي في البسيط (١/٥٠٤) ، والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن (١٩/١٩٠) من غير ذكر الطريق إلى ابن عباس ، وابن كثير في تفسيره (٤/٤٦٦) .

(16) في (ق) : (قول لازم) .

(17) البسيط (١/٥٠٤) .

وفي هذا القول ضعف من وجوه :

أحدها : أن عطف ما بعده عليه يدل على أنها الملائكة فهي السابحات والمدبرات والنازعات .

الثاني : أن الإقسام بنفوس الكفار خاصة ليس بالبين ، ولا في اللفظ ما يدل عليه .

الثالث : أن النزع مشترك بين نفوس بني آدم ، والإغراق لا يختص بالكافر .

وقال الحسن : النازعات هي النجوم تنزع من الشرق إلى المغرب وغرقاً هو غروبها قال : تنزع من هاهنا ، وتغرق هنا[1]. واختاره الأخفش[2]وأبو عبيدة[3].

وقال مجاهد : هي شدائد الموت وأهواله[4]تنزع الأرواح نزعاً شديداً[5].

وقال عطاء[6]وعكرمة[7]: هي القسي ، والنازعات على هذا القول بمعنى النشب أي ذوات النزع التي ينزع بها الرامي ، فهو النازع .

قلت : النازعات اسم فاعل من نزع ، ويقال : نزع كذا ، إذا اجتذبه بقوة ، ونزع عنه : إذا خلاه وتركه بعد ملابسته ونزع إليه : إذا ذهب إليه ومال إليه ، وهذا إنما يوصف به النفوس التي لها حركة / إرادية للميل إلى الشيء أو الميل عنه ، وأحق ما صدق عليه هذا الوصف : الملائكة [٤٧/أ] ، لأن هذه القوة فيه أكمل ، وموضع (الآية)[8]فيها أعظم ، فهي التي تغرق في النزع إذا طلبت ما تنزعه أو تنزع إليه ، والنفس الإنسانية أيضاً لها هذه القوة[9]والنجوم أيضاً تنزع من أفق إلى أفق ، فالنزع حركة شديدة سواء كانت من ملك أو نفس إنسانية أو نجم .

---

(1) في غير الأصل : (ههنا) .

(2) لم أجده في المعاني ولكن ورد ذكر قوله في المحرر الوجيز (٢١٨/١٦) ، وزاد المسير (١٤/٩) ، والجامع لأحكام القرآن (١٩١/١٩) .

(3) انظر : مجاز القرآن (٢٨٤/٢) . وتصحف اسم (أبي عبيدة) في المطبوع إلى (أبي عبيد) .

(4) في (م) و (ق) والمطبوع : زيادة : (التي) .

(5) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢٨/٣٠) مختصراً .

وورد ذكره أيضاً في النكت والعيون (١٩٢/٦) ، البسيط (٥٠٤/١) ، معالم التنزيل (٣٢٣/٨) ، الجامع لأحكام القرآن (١٩١/١٩) ، تفسير الحسن البصري (٣٩٣/٢) .

(6) انظر قوله في : جامع البيان (٢٨/٣٠ ٩) النكت والعيون (١٩٢/٦) ، معالم التنزيل (٣٢٤/٨) ، زاد المسير (١٥/٩) وغيرها

(7) انظر معالم التنزيل (٢٢٤/٨) ، زاد المسير (١٥/٩) ، الجامع لأحكام القرآن (١٩١/١٩) وغيرها .

(8) سقط من الأصل والاستدراك من البقية .

(9) وهو قول ابن مسعود كما تقدم .

والنفوس تنزع إلى أوطانها وإلى مألفها ، وعند الموت تنزع إلى ربها والمنايا تنزع النفوس .

والقسي تنزع بالسهام ، والملائكة تنزع من مكان إلى مكان ، وتنزع ما وكلت بنزعه ، والخيل تنزع من[١] أعنتها نزعاً تغرق فيه الأعنة لطول أعناقها ، فالصفة واقعة على كل من له هذه الحركة التي هي آية من آيات الله تعالى[٢]، فإنه هو الذي خلقها وخلق محلها وخلق القوة والنفس التي بها تتحرك ، ومن ذكر صورة من هذه الصور فإنما أراد التمثيل ، وإن كانت الملائكة أحق من تناوله هذا الوصف .

فأقسم بطوائف الملائكة وأصنافهم :

النازعات : التي تنزع الأرواح من الأجساد .

والناشطات : التي تنشطها أي تخرجها بسرعة وخفة ، من قولهم : نشط الدلو من البئر إذا أخرجها ، وأنا أنشط لكذا[٣] أي : أخف له وأسرع[٤].

والسابحات : التي تسبح في الهواء في طريق ممرها إلى ما أمرت به ، كما يسبح الطير في الهواء[٥].

فالسابقات : التي تسبق وتسرع إلى ما أمرت به ، لا تبطئ عنه ولا تتأخر .

فالمدبرات : (التي تدبر)[٦] أمور العباد التي أمرها وبها تدبيرها وهذا أولى الأقوال[٧].

وقد روي عن ابن عباس : أن النازعات الملائكة (التي)[٨] تنزع نفوس الكفار بشدة وعنف ، والناشطات الملائكة التي تنشط أرواح المؤمنين بيسر وسهولة[٩].

---

(1) في غير الأصل : (في أعنتها) .

(2) (في غير الأصل : (من آيات الرب تعالى) .

(3) في المطبوع : (بكذا).

(4) انظر : تهذيب اللغة للأزهري (١١/٣١٤-٣١٥) مادة (نشط) . [٤٧/ب]

(5) ورد عن مجاهد وأبي صالح نحوه .

انظر : الجامع لأحكام القرآن (١٩/١٩٣) ، الدر المنثور (٨/٤٠٤) .

(6) سقط من المطبوع .

(7) ذكر الفخر الرازي رأياً له بعيداً وهو أنها الأرواح ، وأنها قد تدبر أمر الإنسان في المنامات . وهو قول ضعيف لا يستند إلى دليل ، والذي يشهد له النص أنها الملائكة ، كما في قوله تعالى : (تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر) ، وكما وصف الله تعالى ملائكته بقوله : (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) .

انظر : التفسير الكبير (٣١/٢٧) ، أضواء البيان (التتمة ٩/٢٤) .

(8) سقط من غير الأصل .

(9) انظر : النكت والعيون (٦/١٩٢-١٩٣) ، معالم التنزيل (٨/٢٢٣-٣٢٤) ، زاد المسير (٩/١٤-١٥) . وغيرها .

واختار الفراء هذا القول فقال : هي الملائكة تنشط نفس المؤمن فتقبضها وتـنـزع نفـس الكافر[1].

قال الواحدي : إنما اختار ذلك لما بين النشط والنزع من الفرق في الشدة واللين، فالنزع : الجذب بشدة ، والنشط : الجذب برفق [ولين][2]، ولأن الناشطات هي النفوس التي تنشط لمـا أمرت به ، والملائكة أحق الخلق بذلك ، ونفوس المؤمنين ناشطة لما أمرت / به .

وقيل : السابحات : هي النجوم[3]تسبح في الفلك كما قال تعالى : ﴿ **وَكُلٌّ فِـي فَلَـكٍ يَسْبَحُونَ(٤٠)** ﴾[4] ، وقيل : هي السفن تسبح في الماء[5]، وقيل : هي نفوس المؤمنين تسبح بعد المفارقة صاعدة إلى ربها[6].

قلت : والصحيح أنها الملائكة ، والسياق يدل عليه .

وأما السفن والنجوم فإنما تسمى جارية وجوار كما قال تعالى : ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَـوَارِي فِي الْبَحْرِ** ﴾[7] وقال (تعالى) : ﴿ **حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ(١١)** ﴾[8] وقال تعالى : ﴿ **الْجَـوَارِي الْكُنَّسِ(١٦)** ﴾[9] ولم يسمها سابحات وإن أطلق عليها فعل السباحة كقوله (تعالى) : ﴿ **كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ(٣٣)** ﴾[10] ويدل عليه ذكره السابقات بعدها ، والمدبرات بالفاء ،وذكـره الثلاثة الأول بالواو لأن السبق والتدبير مسبب عن المذكور قبله فإنها نزعت ونشطت وسـبحت ،فسبقت إلى ما أمرت به فدبرته ، ولو كان[11]السابحات هي السفن أو النجوم أو النفوس الآدمية لما عطف عليها فعل السبق والتدبير بالفاء[12]فتأمله .

---

(1) انظر : معاني القرآن للفراء (٣/١٣٠) .
(2) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل و (ب) وهو في غيرهما من النسخ وفي البسيط للواحدي (١/٥٠٨) .
(3) كما روي ذلك عن الحسن ، انظر : الدر المنثور (٨/٤٠٥) وعزاه إلى ابن المنذر) ، تفسير الحسن البصري (٢٣٩٣) .
(4) سورة يس الآية (٤٠) .
(5) انظر : جامع البيان (٣٠/٣٠) وهو مروي عن عطاء .
(6) انظر : الدر المنثور (٨/٤٠٤) وقد عزاه إلى جويبر في تفسيره .
(7) في المطبوع : تكملة الآية . سورة الشورى الآية (٣٢) .
(8) سورة الحاقة الآية (١١)
(9) سورة التكوير الآية (١٦) .
(10) سورة الأنبياء الآية (٣٣) .
(11) في المطبوع : (كانت) .
(12) انظر : البسيط (١/٥١٠) ، فتح القدير (٥/٤٣١) .

قال مسروق[١] ومقاتل[٢] والكلبي[٣]: ﴿ **فالسابقات سبقاً** ﴾ هم[٤] الملائكة. قال مجاهد[٥] وأبو روق[٦]: سبقت ابن آدم بالخير والعمل الصالح والإيمان والتصديق.

وقال مقاتل[٧]: تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة.

وقال الفراء والزجاج: هي الملائكة تسبق الشياطين بالوحي إلى الأنبياء إذا[٨] كانت الشياطين تسترق السمع[٩]. وهذا القول خطأ لا يخفى فساده إذ يقتضي الإشراك بين الملائكة والشياطين في إلقائهم الوحي، وأن الملائكة تسبقهم[١٠] إلى الأنبياء وهذا ليس بصحيح فإن الوحي الذي تأتي به الملائكة إلى الأنبياء لا تسترقه الشياطين، وهم معزولون عن سماعه، وإن استرقوا بعض مايسمعونه من ملائكة السماء الدنيا من أمور الحوادث فالله سبحانه صان وحيه إلى أنبيائه أن تسترق الشياطين شيئاً منه وعزلهم عن سمعه.

ولو أن قائل هذا القول فسر السابقات بالملائكة التي تسبق الشياطين بالرجم بالشهب قبل إلقائه الكلمة التي استرقها لكان له وجه، فإن الشيطان يبدر مسرعاً بإلقاء ما استرقه[١١] إلى وليه فتسبقه الملائكة في نزوله بالشهب الثواقب فتهلكه، وربما ألقى الكلمة قبل إدراك الشهاب له.

وفسرت السابقات سبقاً: بالأنفس / السابقات إلى طاعة الله (تعالى) ومرضاته[١٢]. [٤٨/أ]

---

(1) انظر قوله في: النكت والعيون (٦/١٩٣)، زاد المسير (٩/١٥)، الجامع لأحكام القرآن (١٩/١٩٣) تفسير ابن كثير (٤/٤٦٦).

(2) انظر: تفسير مقاتل (٢٢٦/ب) وانظر أيضاً: معالم التنزيل (٨/٣٢٤)، الجامع لأحكام القرآن (١٩/١٩٣).

(3) انظر: البسيط (١/٥٠٩).

(4) في (م و ق) والمطبوع: (هي).

(5) انظر: معالم التنزيل (٨/٣٢٤)، الجامع لأحكام القرآن (١٩/١٩٣).

(6) انظر: البسيط (١/٥٠٩)، زاد المسير (٩/١٧).

(7) هو ابن حيان، انظر قوله في: معالم التنزيل (٨/٣٢٥)، الجامع لأحكام القرآن (١٩/١٩٣).

(8) في الأصل: (إذا) وفي الباقي (إذ).

(9) انظر: معاني القرآن للفراء (٣/٢٣٠) والعبارة له، ومعاني الزجاج (٥/٢٧٨).

(10) في غير الأصل: زيادة (به).

(11) في المطبوع: (بإلقائه إلى وليه).

(12) كما هو مروي عن ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما.
انظر: البسيط (١/٥١٠)، معالم التنزيل (٨/٣٢٥)، زاد المسير (٩/١٥).

وأما " المدبرات أمراً " أجمعوا على أنها الملائكة (ثم)[١]قال مقاتل : هم جبريل وميكائيل و إسرافيل وملك الموت يدبرون أمر الله تعالى في الأرض وهم ﴿ **المقسمات أمراً** ﴾[٢] .

قال عبدالرحمن بن سابط[٣]: جبريل موكل بالرياح وبالجنوب ، وميكائيل موكل بالقطر والنبات ، وملك الموت موكل بقبض الأنفس ، وإسرافيل يترل بالأمر عليهم[٤].

وقال ابن عباس : هم الملائكة وكلهم الله (تعالى) بأمور عرفهم العمل بها والوقوف عليها ، بعضهم لبني آدم يحفظون و يكتبون ، وبعضهم وكلوا بالأمطار والنبات والخسف والمسخ والرياح ، والسحاب[٥]إنتهى .

(وقد أخبر النبي ﷺ أن للجبال ملك يختص بشأنها)[٦]، وأخبر أن لله (تعالى) وكل بالرحم ملكاً[٧]، وللرؤيا ملك موكل بها، وللجنة ملائكة موكلون بعمارتها، وعمل آلاتها ، وأوانيها وغراسها ، وفرشها ، ونمارقها ، وأرائكها ،وللنار ملائكة موكلون[٨]بعمل ما فيها وإيقادها وغير ذلك .

فالدنيا وما فيها ، والجنة والنار والموت وأحكام البرزخ[٩]قد وكل الله بذلك كله ملائكة يدبرون ماشاء الله من ذلك ، ولهذا كان الإيمان بالملائكة أحد أركان الإيمان الذي لا يتم إلا به .

---

(1) سقط من المطبوع .

(2) تفسير مقاتل (٢٢٧/أ) .

(3) في المطبوع : (ساباط) . وعبدالرحمن ابن سابط ، ويقال : عبدالرحمن بن عبدالله بن سابط الجمحي روى عنه : أبي بكر وعمر ، روى عنه : عمرو بن مرة وعلقمة بن مرثد والليث بن سعد . مات بمكة سنة (١١٧) هـ . انظر : الجرح والتعديل (٢٤٩/٥) ، الكاشف (١٦٥/٢) .

(4) انظر : معالم التتريل (٣٢٥/٨) ، زاد المسير (١٦/٩) ، ونسبه في الدر المنثور (٤٠٥/٨) إلى عبد بن حميد وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في شعب الإيمان .

(5) انظر : الدر المنثور (٤٠٥/٨) بكلام مقارب له ، ونسبه إلى ابن أبي الدنيا في (ذكر الموت) .

(6) ما بين القوسين سقط من المطبوع .

(7) كما ورد ذلك في عدة أحاديث منها ما أخرجه مسلم في صحيحه في (٤٦) كتاب القدر (١) باب كيفية خلق الآدمي . . ح (٢٦٤٥) من حديث حذيفة بن أسيد الغفاري : (إن ملكاً موكلاً بالرحم . .) الحديث .

(8) في غير الأصل : (موكلة) .

(9) في غير الأصل والمطبوع : زيادة (وأحكامه) .

وأما من قال إنها النجوم فليس هذا من أقوال أهل الأسلام و لم يجعل الله (تعالى) للنجوم تدبير شئ من الخلق ، بل هي مدبرة مسخرة كما قال تعالى : ﴿ **وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ** ﴾[1] فالله سبحانه هو المدبر بملائكته لأمر العالم العلوي والسلفي .

قال الجرجاني : وذكر السابقات والمدبرات بالفاء وماقبلها بالواو ،لأن ماقبلها اقسام مستأنفة ، وهذان القسمان منشآن عن الذي قبلها كأنه قال: فاللاتي يسبحن فسبقن، كما تقول : قام فذهب . أوجب الفاء أن القيام كان سبباً للذهاب ، (ولو قلت : قام وذهب لم يجعل القيام سبباً للذهاب)[2].

[٤٨/ب] واعترض عليه الواحدي فقال : " هذا غير / مطرد في هذه[3]الآية لأنه يبعد أن يجعل السبق سبباً للتدبير مع أن السابقات ليست الملائكة في قول المفسرين "[4]. قلت: و[5]الملائكة داخلون في السابقات قطعاً ، وأما اختصاص السابقات بالملائكة فهذا محتمل[6]وأما قوله : يبعد أن يكون السبق سبباً للتدبير فليس كما زعم بل السبق المبادرة إلى تنفيذ ما يؤمر به الملك فهو سبب للفعل الذي أمر به وهو التدبير مع أن الفاء دالة على التعقيب ، وأن التدبير يتعقب السبق[7]بلا تراخ بخلاف الأقسام الثلاثة (الأول)[8]والله أعلم . (وسيأتي مزيد بيان لهذا قريباً إن شاء الله تعالى)[9].

---

(1) سورة النحل الآية (١٢) .
(2) ما بين القوسين سقط من (ق) . وانظر : البسيط (١/٥١٠-٥١١) ، فتح القدير (٤٣١/٥) بنحوه .
(3) سقط من (ق) .
(4) البسيط (٥١٢/١) .
(5) سقطت الواو من غير الأصل .
(6) في (ق) : (يحتمل) .
(7) تحرفت في (ق) إلى : (السبب) .
(8) ما بين القوسين سقط من (م) و (ق) والمطبوع .
(9) سقط من المطبوع .

وجواب القسم محذوف يدل عليه السياق ، وهو النعت[1]المستلزم لصدق الرسول وثبوت القرآن ، أو أنه من القسم الذي أريد به التنبيه على الدلالة ، والعبرة بالمقسم به دون أن يراد به مقسما عليه بعينه ، وهذا القسم يتضمن الجواب المقسم عليه و إن لم يذكر لفظا ولعل هذا مراد من قال :أنه محذوف للعلم به لكن هذا الوجه ألطف مسلكاً ، فإن المقسم به إذا كان دالاً لعلى المقسم عليه مستلزماً له[2]استغنى عن ذكره بذكره وهذا غير كونه محذوفاً لدلالة ما بعده عليه فتأمله .

ولعل هذا قول من قال : إنه إنما أقسم برب هذه الأشياء وحذف المضاف فإن هذا معناه صحيح لكن على غير الوجه الذي قدروه ، فإن إقسامه سبحانه بهذه الأشياء لظهور دلالتها على ربوبيته [ووحدانيته وعلمه وقدرته وحكمته ، فالإقسام بها في الحقيقة إقسام بربوبيته][3] وصفات كماله فتأمله .

ثم قرر سبحانه بعد هذا القسم أمر المعاد ونبوة موسى ﷺ[4]المستلزمة لنبوة محمد ﷺ إذ من المحال أن يكون موسى نبي / ومحمد ليس نبياً ،مع أن كل ما يثبت نبوة موسى فلمحمد [٤٩/أ] نظيره، أو أعظم منه ، وقرر سبحانه تكليمه لموسى بندائه له بنفسه فقال (تعالى) ﴿ **إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ** ﴾[5] فأثبت النداء المستلزم للكلام والتكليم ،وفي موضع آخر أثبت الإيحاء والنداء ، فالإيحاء نوعا التكليم ، ومحال ثبوت النوع بدون الجنس .

ثم أمره أن يخاطبه بألين خطاب فيقول له: ﴿ **هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى(١٨)وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى(١٩)** ﴾[6] ففي هذا من لطف الخطاب ولينه وجوه :

---

(1) في (م) و (ق) والمطبوع : (البعث) .

(2) سقط من غير الأصل .

(3) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل .

(4) سقط من (م) و (ق) والمطبوع .

(5) سورة النازعات الآية (١٦) .

(6) سورة النازعات الآيتان (١٨-١٩) .

أحدها : إخراج الكلام مخرج العرض ، ولم يخرجه مخرج الأمر والإلزام وهـو ألطـف . ونظيره قول إبراهيم (عليه السلام)[١] لضيفه المكرمين[٢]﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ(٢٧) ﴾[٣] ، ولم يقـل كلوا .

الثاني : قوله ﴿ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ﴾ ، و التزكى النماء والظهور والبركة والزيادة فعرض عليه أمراً يقبله كل عاقل ولايرده إلا كل أحمق جاهل .

الثالث: قوله ﴿ تَزَكَّى ﴾ و لم يقل أزكيك ، فأضاف التزكية إلى نفسه وعلى هذا يخاطب الملوك .

الرابع : قوله ﴿ وَأَهْدِيَكَ ﴾ أي أكون دليلاً لك وهادياً بين يديك فنسب الهداية إليـه ، والتزكي إلى المخاطب ، أي : أكون دليلاً لك وهادياً فتزكى أنت كما تقول للرجل هل لك إي أدلك على كتر تأخذ منه ما شئت وهذا أحسن من قوله ﴿ أعطيك ﴾ .

الخامس : قوله ﴿ إِلَى رَبِّكَ ﴾ فإن في هذا ما يوجب قبول ما دل[٤]عليه وهو أنه يـدعوه ويوصله إلى ربه فاطره وخالقه الذي أوجده ورباه بنعمه جنيناً وصغيراً وكبيراً ، وآتاه الملك وهذا نوع من خطاب الاستعطاف والإلزام كما يقول لمن خرج عن طاعة سيده : ألا تطيـع سـيدك ومولاك ، ومالكك ، وتقول للولد ألا تطيع والدك[٥]الذي رباك .

السادس : قوله " فتخشى " أي إذا أهتديت[٦]إليه وعرفته خشيته لأن من عرف الله خافه ، ومن لم يعرفه / لم يخفه فخشيته تعالى مقرونة بمعرفته ، وعلى قدر المعرفة تكون الخشية . [٤٩/ب]

السابع : أن في قوله ﴿ هَلْ لَكَ ﴾ فائدة لطيفة[٧]وهي أن المعنى : هل لك في ذلك حاجة أو إرب ، ومعلوم أن كل عاقل يبادر إلى قبول ذلك ، لأن الداعي إنما يدعوه إلى حاجته ومصلحته لا إلى

---

(1) سقط من غير الأصل .
(2) قوله : (المكرمين) سقط من (ق) .
(3) سورة الذاريات الآية (٢٧) .
(4) في (ب) و (م) : (ما دله) .
(5) في غير الأصل : (أباك) .
(6) في (م) و (ق) : (هديت) .
(7) هنا بياض في (ق) .

حاجة الداعي فكأنه يقول : الحاجة لك وأنت المتزكي ، وأنا الدليل لك والمرشد لك إلى أعظم مصالحك ، فقابل هذا بغاية الكفر والعناد وادعى أنه رب العباد هذا وهو يعلم أنه ليس بالذي خلق فسوى ، ولاقدر فهدى . فكذب الخبر وعصى الأمر ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى(٢٢) ﴾[1] بالخديعة والمكر ، فحشر جنوده فأجابوه ثم نادى فيهم بأنه ربهم الأعلى ، واستخفهم[2]فأطاعوه ، فبطش به جبار السماوات والأرض بطشة عزيز مقتدر ، وأخذه نكال الآخرة والأولى ليعتبر بذلك من يعتبر ، فا عتبر بذلك من خشي ربه من المؤمنين وحق القول على الكافرين .

ثم أقام سبحانه حجته على العالمين بخلق ماهو أشد منهم وأكبر وأعظم وأعلى وأرفع وهو خلق السماء وبنائها ورفع سمكها وتسويتها واظلام ليلها وإخراج ضحاها وخلق الأرض ومدها وبسطها وهداها لما يراد منها ، فأخرج منها شراب الحيوان وأقواتهم وأرسى الجبال فجعلها رواسي للأرض لئلا تميد بأهلها وأودعها من المنافع ما تتم به مصالح الحيوان الناطق والبهم ، فمن قدر [على][3] ذلك كله كيف يعجز عن إعادتكم خلقاً جديداً .

فتأمل دلالة المقسم به المذكور في أول السورة على المعاد والتوحيد وصدق الرسل كدلالة هذا [الدليل][4] المذكور وإذا كان هذا هو المقصود لم يكن محتاجاً إلى جواب والله أعلم[5] .



(1) سورة النازعات الآية (٢٢).
(2) في (ق) : (فاستخفهم) .
(3) سقط من الأصل .
(4) تحرفت في الأصل إلى (الليل) .
(5) في (ب) : (والله تعالى أعلم) .

فصل

{ القسم في سورة المرسلات }

ومن ذلك قوله تعالى ﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا(١)فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا(٢)وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا(٣)فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا(٤)فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا(٥)عُذْرًا أَوْ نُذْرًا(٦)إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ(٧) ﴾[١]

فسرت المرسلات بالملائكة وهو قول أبي هريرة[٢] وابن عباس في رواية مقاتل[٣] وجماعة[٤].

وفسرت بالرياح وهو قول ابن مسعود[٥] وإحدى الروايتين عن ابن عباس[٦] وقول قتادة[٧].

وفسرت بالسحاب ، وهو قول الحسن[٨].

وفسرت بالأنبياء وهو رواية عطاء عن ابن عباس[٩].

قلت : الله سبحانه يرسل الملائكة ويرسل الأنبياء ويرسل الرياح ويرسل السحاب فيسوقه حيث يشاء ، ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء فارساله واقع على ذلك كله[١٠] وهو نوعان :

١ - إرسال دين يحبه ويرضاه كإرسال رسله وأنبيائه .

---

(1) سورة المرسلات الآيات (١-٧) .

(2) هذا الأثر أخرجه الحاكم في المستدرك في (٢٨) كتاب التفسير : تفسير سورة المرسلات رقم (٣٩٤١) وقال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وقد ذكر هذا القول في : النكت والعيون (١٧٥/٦) ، زاد المسير (٤٤٤/٨) ، وعزاه في الدر المنثور إلى ابن أبي حاتم (٣٨١/٨) .

(3) ذكره في الدر المنثور (٣٨٢/٨) وعزاه إلى ابن المنذر .

(4) وهو مروي أيضاً عن مقاتل ومسروق وأبي صالح .

انظر : تفسير مقاتل (٢٢٣/أ) ، جامع البيان (٢٢٩/٢٩) ، تفسير ابن كثير (٤٥٨/٤) ، الدر المنثور (٣٨٢/٨) .

(5) هذا الأثر أخرجه الطبري في تفسيره من عدة طرق (٢٢٨/٢٩) .

وذكر أيضاً في : زاد المسير (٤٤٤/٨) . وعزاه في الدر المنثور (٣٨٢/٨) إلى عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم .

(6) هذا الأثر أيضاً أخرجه الطبري في تفسيره بإسناده (٢٢٨/٢٩) من رواية العوفي عنه .

وورد ذكره أيضاً في زاد المسير (٤٤٤/٨) تفسير ابن كثير (٤٥٩/٤) .

(7) أخرجه عبدالرزاق بإسناده في تفسيره (٣٤٠/٢) ، وكذا الطبري في تفسيره بإسناده (٢٢٩/٢٩) .

وورد ذكره في : معالم التنزيل (٣٠٣/٨) ، زاد المسير (٤٤٤/٨) وعزاه في الدر المنثور (٣٨٢/٨) إلى عبد بن حميد .

(8) لم أجد من ذكره .

(9) ذكر هذا القول القرطبي في تفسيره (١٩٤/١٩) وأبو حيان في البحر المحيط (٤٠٣/٨) ، وذكره أيضاً : ابن الجوزي في زاد المسير (٤٤٤/٨) ونسبه إلى أبي صالح ، وذكره أيضاً من غير نسبه الزجاج في معاني القرآن وإعرابه (٢٦٥/٥) .

(10) رجح الطبري في تفسيره عموم الآية حيث يقول :

٢- وإرسال كون وهو نوعان :

نوع يحبه ويرضاه كإرسال ملائكته في تدبير أمر خلقه

ونوع لايحبه بل يسخطه ويبغضه كإرسال الشياطين[١]على الكفار .

فالإرسال[٢] المقسم به هنا : مقيد بالعرف ،

أ) فإما أن يكون ضد المنكر[٣]فهو إرسال رسله من الملائكة ، ولا يدخل في ذلك إرسال الرياح ولا الصواعق ولا الشياطين ، وأما إرسال الأنبياء فلو أريد لقال " والمرسلين " وليس بالفصيح تسمية الأنبياء مرسلات ، وتكلف الجماعات المرسلات خلاف المعهود من استعمال اللفظ فلم يطلق في القرآن جمع ذلك إلا جمع تذكير ، لا جمع تأنيث ، وأيضاً فاقتران اللفظة بما بعدها من الأقسام لا يناسب تفسيرها بالأنبياء ، وأيضاً فإن الرسل مقسم عليهم في القرآن لا مقسم بهم كقوله (تعالى) ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ ﴾[٤] وقوله (تعالى) ﴿ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ(٢٥٢) ﴾[٥] .

ب- وإن كان العرف من الشايع[٦]كعرف الفرس وعرف الديك ، والناس إلى فلان عرف واحد[٧]، أي : سابقون في قصده والتوجه إليه جاز أن تكون المرسلات الرياح ، ويؤيده عطف العاصفات عليه والناشرات / . [٥٠/ب]

وجاز أن تكون الملائكة ، وجاز أن تعم النوعين لوقع الإرسال عرفاً عليهما ، ويؤيده أن الرياح موكل بها الملائكة[٨] تسوقها وتصرفها ويؤيد كونها الرياح عطف العاصفات عليها بفاء التعقيب والتسبيب فكأنها أرسلت فعصفت .

والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال : إن الله تعالى ذكره أقسم بالمرسلات عرفاً ، وقد ترسل عرفاً الملائكة ، وترسل كذلك الرياح ، ولا دلالة تدل على أن المعنى بذلك أحد الحزبين دون الآخر ، وقد عم جل ثناؤه بإقسامه بكل ما كانت صفته ما وصف ، فكل من كان في صفته كذلك ، فداخل في قسمه ذلك ملكاً أو ريحاً ، أو رسولاً من بني آدم مرسلاً .
انظر : جامع البيان (٢٢٩/٢٩) .

(1) في المطبوع : (الشيطان) .

(2) في (ق) : (فارسال) .

(3) كما هو مروي عن مقاتل والكلبي .
انظر : تفسير مقاتل (٢٢٣/أ) ، والبسيط للواحدي (٤٤٦/١) .

(4) سورة النحل الآية (٦٣) .

(5) سورة البقرة الآية (٢٥٢) .

(6) في غير الأصل و (ب) : (التابع) .

(7) انظر : معاني القرآن للفراء (٤٤٥/١) .

(8) في غير الأصل : (ملائكة) .

ومن جعل المرسلات الملائكة[١]قال : هي تعصف في مضيها مسرعة كما تعصف الرياح ، والأكثرون على أنها الرياح[٢].

وفيها قول ثالث: أنها تعصف بروح الكافر ، يقال : عصف بالشئ إذا أباده وأهلكه قال الأعشى:

تعصف بالذراع[٣]والحاسر[٤].

حكاه أبو إسحاق[٥]وهو قول متكلف فإن المقسم به لابد أن يكون آية ظاهرة تدل على الربوبية ، وأما الأمور الغائبة التي يؤمن بها فإنها يقسم عليها ، وإنما يقسم سبحانه بملائكته وكتابه لظهور شأنهما ولقيام الأدلة والأعلام الظاهرة الدالة على ثبوتهما[٦].

وأما الناشرات نشراً : فهو استئناف قسم آخر ولهذا أتى به بالواو وما قبله معطوف على القسم الأول بالفاء .

قال ابن مسعود[٧]والحسن[٨]ومجاهد[٩]وقتادة[١٠] : هي الرياح تأتي بالمطر ويدل على صحة قولهم قوله تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾[١١] يعني : أنها تنشر السحاب نشراً وهو ضد الطي .

---

[1] كما هو قول ابن عباس في رواية الكلبي ، وأبي هريرة وأبي صالح كما تقدم .

[2] كما هو قول علي بن أبي طالب وابن مسعود ومجاهد وأبي صالح وقتادة .
انظر : جامع البيان (٢٩/ ٢٣٠) ، معالم التنزيل (٨/ ٣٠٣) ، زاد المسير (٨/ ٤٤٤) ، وغيرها .

[3] هكذا في الأصل ، وفي غيره : (بالدارع) .

[4] ديوان الأعشى .

[5] انظر معاني القرآن وإعرابه (٥/ ٢٦٥) .

[6] في غير الأصل : (ثبوتهما) .

[7] قول ابن مسعود أخرجه الطبري في تفسيره بإسناده (٢٩/ ٢٣٠) .
وقد ورد ذكره أيضاً في : النكت والعيون (٦/ ١٧٦) ، زاد المسير (٨/ ٤٤٥) ، البحر المحيط (٨/ ٤٠٤) ، الدر المنثور (٨/ ٣٨١) وعزاه إلى عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم .

[8] أورده البغوي في معالم التنزيل (٨/ ٣٠٣) . ، وكذا ابو حبان في البحر المحيط (٨/ ٤٠٤) ،

[9] قول مجاهد أخرجه الطبري في تفسيره بإسناده (٢٩/ ٢٣٠) .
وقد ورد ذكره أيضاً في : الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ١٥٥) ، البحر المحيط (٨/ ٤٠٤) . وعزاه في الدر المنثور إلى ابن جرير (٨/ ٣٨٢) .

[10] قول قتادة أخرجه عبدالرزاق في تفسيره بإسناده (٢/ ٣٤٠) وكذلك الطبري في تفسيره (٢٩/ ٢٣٠) ، وعزاه في الدر المنثور (٨/ ٣٨٢) إلى عبدالرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر .

[11] سورة الأعراف الآية (٥٧) . (ونشراً) فيها عدة قراءات :
قرأ عاصم " بشراً " بالباء وضمها وسكون الشين .

وقال مقاتل : وهي الملائكة تنشر كتب بني آدم وصحائف أعمالهم[١]. وقاله مسروق[٢]وعطاء عن ابن عباس[٣].

وقالت طائفة : هي الملائكة تنشر أجنحتها في الجو عند صعودها ونزولها[٤].

وقيل : تنشر أوامر الله في السماء والأرض[٥].

وقيل : تنشر النفوس فتحييها بالإيمان[٦].

وقال أبو صالح. هي الأمطار تنشر الأرض أي تحييها[٧].

قلت : ويجوز أن تكون الناشرات لا زماً لا مفعول له ولا يكون المراد الهن ينشرن[٨]كذا فإنه يقال : نشر الميت (أي)[٩]حيي وأنشره الله إذا أحياه فيكون المراد بها : الأنفس التي حييت بالعرف الذي أرسلت به المرسلة : والأشباح والأرواح[١٠]/ والبقاع التي حييت بالرياح المرسلات [٥١/أ] فإن الرياح سبب لنشور الأبدان والنبات ، والوحي سبب لنشور الأرواح وحياتها.

لكن هنا أمر ينبغي التفطن له وهو أنه سبحانه جعل الاقسام في هذه السورة نوعين وفصل أحدهما من الآخر وجعل العاصفات معطوفاً على المرسلات بفاء التعقيب فصارا كأنهما نوع واحد ثم جعل الناشرات كأنه قسم مبتدأ فأتى فيه بالواو ثم عطف عليه الفارقات والملقيات (بالفاء فأوهم هذا أن الفارقات والملقيات)[١١]مرتبط بالناشرات وأن العاصفات مرتبط بالمرسلات .

وقرأ حمزة والكسائي وخلف " نشراً " بنون مفتوحة وسكون الشين .

وقرأ الباقون بالنون وضمها وضم الشين وهم أهل الحجاز والبصرة : انظر : إرشاد المبتدي للقلانسي ص (٣٣٠) والتذكرة لأبي الحسن (٣٤٢/٢) .

(1) ورد في تفسير مقاتل (٢٢٣/أ) قوله : " وأما قوله : (والناشرات نشراً) وهي أعمال بني آدم تنشر يوم القيامة " .

وانظر : معالم التنزيل للبغوي (٣٠٣/٨) .

(2) ذكره الواحدي في البسيط (٤٤٨/١) .

(3) ذكره الواحدي في البسيط (٤٤٨/١) .

(4) انظر : التفسير الكبير (٢٣٤/٣٠) ، وفتح القدير (٤١٢/٥) .

(5) انظر : التفسير الكبير (٢٣٤/٣٠) .

(6) لم أجد من ذكره سوى ابن القيم رحمه الله .

(7) أخرجه الطبري في تفسيره بإسناده (٢٣١/٢٩) ، وورد ذكره أيضاً في النكت والعيون (١٧٦/٦) ، الجامع لأحكام القرآن (١٥٥/١٩) الدر المنثور (٣٨٢/٨) وعزا تخريجه إلى عبد بن حميد وأبي الشيخ في العظمة ـــ ولم أجده ـــ وابن المنذر .

(8) في غير الأصل و (ب) : (نشرن) .

(9) سقط من المطبوع .

(10) في غير الأصل : (أو الأشباح أو الأرواح) .

(11) سقط من الأصل .

وقد اختلف في الفارقات : فالأكثرون[١]على أنها الملائكة[٢]، ويدل عليه عطف الملقيات ذكراً عليها بالفاء وهي الملائكة بالاتفاق . وعلى هذا فيكون القسم بالملائكة التي نشرت اجنحتها عند النزول ففرقت بين الحق والباطل فألقت الذكر على الرسل إعذاراً وإنذارا .

ومن جعل الناشرات الرياح جعل الفارقات صفة لها وقال : هي تفرق السحاب ههنا وههنا[٣]، ولكن يأبى ذلك عطف الملقيات بالفاء عليها .

ومن قال : الفارقات أي القرآن يفرق بين الحق والباطل[٤]، فقوله يلتئم مع كون الناشرات الملائكة أكثر من التئامه إذا قيل إنها الرياح .

ومن قال : هي جماعات الرسل[٥]فإن أراد الرسل من الملائكة فظاهر ، وان أراد الرسل من البشر فقد تقدم بيان ضعف هذا القول .

ويظهر والله أعلم بما أراد من كلامه : أن القسم في هذه السورة[٦]وقع على النوعين : الرياح والملائكة ، ووجه المناسبة : أن حياة الأرض والنبات وأبدان الحيوان بالرياح ، فإنها من روح الله وقد جعلها الله نشوراً ، وحياة القلوب والأرواح بالملائكة ، فبهذين النوعين يحصل نوعا الحياة ، ولهذا والله أعلم فصل أحد النوعين [من الآخر][٧]بالواو ، وجعل ما هو تابع لكل نوع بعده بالفاء[٨].

---

(1) في (م) و (ق) : (والأكثرون) .

(2) وهذا قول ابن عباس وابن مسعود ومجاهد والضحاك وأبي صالح انظر : جامع البيان (٢٣٢/٢٩) ، النكت والعيون (١٧٦/٦) ، معالم التنزيل (٣٠٣/٨) وغيرها .

(3) كما هو مروي عن مجاهد .

انظر : النكت والعيون (١٧٦/٦) ، معالم التنزيل (٣٠٣/٨) ، زاد المسير (٤٤٥/٨) الجامع لأحكام القرآن (١٥٥/١٩) وغيرها .

(4) كما هو قول قتادة والحسن .

انظر : جامع البيان (٢٣٢/٢٩) ، معالم التنزيل (٣٠٣/٨) ، المحرر الوجيز (١٩٩/١٦) زاد المسير (٤٤٦/٨) ، تفسير الحسن البصري (٣٨٦/٢) وغيرها .

(5) كما حكاه الزجاج في معانية (٢٦٥/٥) .

(6) في المطبوع : (الآية) .

(7) سقط من الأصل و (ب) .

(8) قال الطبري رحمه الله تعالى : " وأولى الأقوال بالصواب أن يقال : إن الله تعالى ذكره أقسم بالناشرات نشراً ، ولم يخصص شيئاً من ذلك دون شيء ، فالريح تنشر السحاب ، والمطر ينشر الأرض ، والملائكة تنشر الكتب ، ولا دلالة من وجه يجب التسليم له على أن المراد من ذلك بعض دون بعض ، فذلك على كل ما كان ناشراً " . (٢٣١/٢٩).

وتأمل كيف وقع القسم في هذه السورة على المعاد والحياة الدائمة الباقية وحال السعداء والأشقياء فيها ، وقررها بالحياة الأولى في قوله (تعالى) ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٢٠) ﴾[١] فذكر فيها المبدأ والمعاد / وأخلص السورة لذلك ، فحسن الإقسام بما يحصل به نوع الحياة [٥١/ب] المشاهدة ، وهو الرياح والملائكة ، فكان في القسم بذلك أبين دليل ، وأظهر أنه على صحة ما أقسم عليه وتضمنته السورة ولهذا كان المكذب بعد ذلك في غاية الجحود والعناد والكفر والتكذيب فاستحق الويل بعد الويل فتضاعف عليه الويل كما تضاعف منه الكفر والتكذيب[٢] فلا أحسن من هذا التكرار في هذا الموضع ، ولا أعظم[٣] موقعاً ، فإنه تكرر عشر مرات ، ولم يذكر إلا في اثر دليل أو مدلول عليه عقيب ما يوجب التصديق ، ومايجب التصديق به ، فتأمله[٤] .



---

(1) سورة المرسلات الآية (٢٠) .
(2) سقط من (ق) . قوله (والتكذيب) .
(3) في المطبوع : (أعظم منه موقعاً) .
(4) جواب القسم قوله تعالى : (إنما توعدون لواقع) .
انظر : معالم التنزيل (٣٠٤/٨) ، زاد المسير (٤٤٦/٨-٤٤٧) ، الجامع لأحكام القرآن (١٥٦/١٩) تفسير بن كثير (٤٥٩/٤) .

فصل

{ الكلام على سورة القيامة }

ومن ذلك قوله تعالى ﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ(١)وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ(٢) ﴾[١] .

وقد تقدم ذكر هذين القسمين[٢]ومناسبة الجمع بينهما في الذكر ، وكون الجواب غير مذكور وأنه يجوز أن يكون مما حذف لدلالة السياق عليه والعلم به ويجوز أن يكون من القسم المقصود به (التنبيه على دلالة المقسم به ، وكونه آية ، ولم يقصد)[٣]مقسماً عليه معنياً . فكأنه يقول : أذكر يوم القيامة والنفس اللوامة مقسماً بهما لكونهما[٤]من آياتنا وأدلة ربوبيتنا.

ثم انكر على الأنسان بعد هذه الآية حسبانه وظنه أن الله لا يجمع عظامه بعد ما فرقها البلى ثم أخبر سبحانه عن قدرته على (جمع بنانه وهي العظام الصغار ونبه بقدرته على جمع هذه العظام مع صغرها ودقتها على قدرته على[٥]جمع غيرها من عظامه وعلى هذا فيكون سبحانه قد أحتج على فعله لما انكره اعداؤه بقدرته عليه فأخبر[٦]عن فعله فإنه[٧]لايلزم من القدرة وقوع المقدور .

والمعنى : بل نجمعها قادرين على تسوية بنانه[٨]، ودل على هذا الفعل[٩]المحذوف قوله " بلى " فإنها حرف إيجاب لما تقدم من النفي فلهذا استغنى[١٠]عن ذكر الفعل بذكر الحرف الدال عليه[١١]فدلت الآية على الفعل وذكرت القدرة لابطال قول المكذبين .

---

(1) سورة القيامة الآيتان (١-٢) .

(2) انظر ص .

(3) سقط من الأصل .

(4) في الأصل : (لكونها).

(5) سقط من المطبوع .

(6) في غير الأصل و (ب) : (وأخبر) .

(7) في (م) و (ق) و (المطبوع) : (بأنه) .

(8) انظر : البسيط للواحدي (٣٤٦/١) .

(9) في المطبوع : (المعنى) .

(10) في (م) و (ق) والمطبوع : (يستغني) .

(11) انظر : الدر المصون (٥٦٥/١٠) .

وفي ذكر البنان لطيفة أخرى وهي أنها أطرافه ، وآخر ما يتم به خلقه فمن قدر على جمع اطرافه وآخر ما يتم به خلقه مع دقتها وصغرها / ولطافتها فهو على مادون ذلك أقدر . فالقوم لما [٥٢/أ] استبعدوا جمع العظام بعد الفناء والارمام ، قيل : إنا نجمع ونسوي اكثر منها تفرقاً وأدقها اجزاء ، وآخر أطراف البدن وهي (عظام)[١]الأنامل ومفاصلها .

وقالت طائفة : المعنى نحن قادرين[٢]على أن نسوى اصابع يديه ورجليه ونجعلها مستوية[٣]شيئاً واحداً كخف البعير وحافر الحمار لا نفرق بينهما[٤]، ولا يمكنه أن يعمل بها شيئاً مما يعمل بأصابعه المفرقة ذات المفاصل والأنامل من فنون الأعمال والبسط والقبض والتأتي لما يريد من الحوائج وهذا قول ابن عباس[٥]وكثير من المفسرين[٦]والمعنى على هذا القول : إنا في الدنيا قادرون على أن نجعل عظام بنانه مجموعة دون تفرق ، فكيف لا تقدر على جمعها بعد تفرقها .

فهذا وجه من الاستدلال غير الأول وهو استدلال بقدرته سبحانه على جمع العظام التي فرقها ولم يجمعها ، والأول استدلال بقدرته على جمع عظامه بعد تفريقها وهما وجهان حسنان وكل منهما له الترجيح من وجه فيرجح الأول أنه هو المقصود ، وهو الذي انكره الكفار ، وهو أجري على نسق الكلام واطرد[٧]ولان الكلام لم يسبق لجمع العظام وتفريقها في الدنيا وانما سبق لجمعها في الآخرة بعد تفرقها بالموت ، ويرجع القول الثاني ولعله قول جمهور المفسرين[٨]حتى فهم[٩]من لم يذكر غيره أنه استدلال بآية ظاهرة مشهورة[١]وهي تفريق البنان مع انتظامها في كف

---

(1) سقط من الأصل .

(2) هكذا في الأصل وفي غيرها : (قادرون) .

(3) في (ق) : (متساوية) .

(4) في (م) و (ق) : (بينها) .

(5) قول ابن عباس أخرجه الطبري في تفسيره بإسناده (٢٩/١٧٥) ، وعبدالرزاق في تفسيره أيضاً بإسناده (٣/٣٣٣) .

(6) من هؤلاء : قتادة وعكرمة والحسن ومقاتل .

انظر تفسير مقاتل (٢١٧/ب) ، جامع البيان (٢٩/١٧٥) ، تفسير عبدالرزاق (٢/٣٣٣) ، النكت والعيون (٦/١٥٢) الجامع لأحكام القرآن (١٩/٩٤) ، تفسير الحسن البصري (٢/٣٧٨) .

(7) في المطبوع : (وأطرده) .

(8) انظر : البسيط (١/٣٤٧) ، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٩/٩٤) .

(9) في المطبوع : (حتى إن فيهم) .

كف واحد وارتباط بعضها ببعض فهي متفرقة في عضو واحد يقبض منها واحدة ويبسط اخرى ، ويحرك واحدة والآخري ساكنة ويعمل بواحدة والأخرى معطلة وكلها في كف واحد قد جمعها ساعد واحد فلو شاء سبحانه لسواها فجعلها صفحة[٢] واحدة كباطن الكف ففاتت[٣] هذه المنافع والمصالح التي حصلت بتفريقها ففي هذا أعظم الأدلة على قدرته سبحانه على جمع عظامه بعد الموت .

ثم أخبر سبحانه عن سوء حال الإنسان وإصراره على المعصية والفجور وأنه لايرعوى ولا يخاف يوماً يجمع الله فيه / عظامه ويبعثه حياً ، بل هو مريد للفجور ما عاش فيفجر في الحال [٥٢/ب] ويريد الفجور في غد وما بعده وهذا ضد الذي يخاف الله والدار الآخرة فهذا لا يندم على ما مضي منه ولا يقلع في الحال ولا يعزم في المستقبل على الترك بل هو عازم على الاستمرار وهذا ضد حال[٤] التائب المنيب.

ثم نبه سبحانه على الحامل له على ذلك وهو استبعاده ليوم القيامة وليس هذا إستبعاداً لزمنه مع إقراره بوقوعه ، بل هو استبعاد لوقوعه كما حكى عنه في موضع آخر قوله (تعالى) ﴿ **ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ(٣)** ﴾[٥] أي بعيد وقوعه ليس المراد أنه واقع بعيد زمنه .

هذا قول جماعة من المفسرين منهم ابن عباس وأصحابه .

قال ابن عباس : يقدم الذنب ويؤخر التوبة[٦] .

وقال قتادة ، وعكرمة : قدماً قدما في معاصي الله لا يترع عن فجوره[٧] .

وفي الآية قول آخر ، وهو أن المعنى بل يريد (الإنسان)[١] ليكذب بما أمامه من البعث ويوم القيامة .

---

(1) في (ب) و (ق) : (مشهودة) .
(2) في المطبوع : (صفة) .
(3) في المطبوع : (ففاته) .
(4) كلمة (حال) سقط من (ق) والمطبوع .
(5) سورة ق آية (٣) .
(6) ذكره في البسيط (٣٤٩/١) ، تأويل مشكل القرآن (٣٤٦) ، بحر العلوم (٤٢٥/٣) .
(7) أخرج قوله الطبري في تفسيره بإسناده (١٧٧/٢٩) .
وورد ذكره أيضاً في البسيط (٣٤٩/١) ، معالم التنزيل (٢٨١/٨) ، المحرر الوجيز (١٧٣/١٦) .

وهذا قول ابن زيد[٢]، واختيار ابن قتيبة[٣]وأبي اسحق[٤]قال هؤلاء : ودليل ذلك قوله (تعالى) ﴿ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ(٦) ﴾[٥] .

ويرجح هذا القول لفظه "بل " فإنها تعطي أن الأنسان لم يؤمن بيوم القيامة مع هذا البيان والحجة بل هو مريد للتكذيب به .

ويرجحه[٦]أيضاً أن السياق كله في ذم المكذب بيوم القيامة لا في ذم العاصي والفاجر ، وأيضاً فإن ما قبل الآية وما بعدها يدل على المراد ، فإنه (تعالى) قال : ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ(٣)بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ(٤) ﴾ . فأنكر سبحانه على[٧]حسبانه أن الله لا يجمع عظامه ، ثم قرر قدرته على ذلك ثم أنكر عليه إرداته[٨]التكذيب بيوم القيامة ، [فالأول :][٩]حسباناً منه أن الله[١٠]لا يحييه بعد موته والثاني : تكذيب منه بيوم القيامة[١١]وأنه يريد أن يكذب بما وضع وبأن دليل وقوعه وثبوته فهو مزيد للتكذيب به .

ثم أخبر عن تصريحه بالتكذيب فقال (عز وجل) : ﴿ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴾ فالأول : إرادة التكذيب ، والثاني : نطق بالتكذيب وتكلم به وهذا قول / قوي كما ترى لكن ينبغي [٥٣/أ] إفراغ هذه الألفاظ في قوالب هذا المعنى فإن لفظة " يفجر أمامه " تدل على عمل الفجور لا على

---

(1) سقط من الأصل .

(2) أخرج قوله الطبري في تفسيره بإسناده (١٧٨/٢٩) .
وورد ذكره أيضاً في البسيط (٣٥٠/١) ، النكت والعيون (١٥٢/٦) .
معالم التنزيل (٢٨١/٨) ، الجامع لأحكام القرآن (٩٤/١٩) .

(3) انظر : تأويل مشكل القرآن ص : (٣٤٧) .

(4) انظر : معاني القرآن وإعرابه (٢٥٢/٥) .

(5) سورة القيامة الآية (٦) .

(6) سقط من (ق) .

(7) في (ق) والمطبوع : (عليه) .

(8) في المطبوع (إرادة) .

(9) سقط من الأصل و (ب) .

(10) سقط من المطبوع .

(11) في (م) و (ق) والمطبوع : (البعث) بدلاً من (القيامة).

التكذيب وحذف الموصول مع ما جره وإبقاء الصلة خلاف الأصل فإن أصحاب هذا القول قالوا تقديره ليكفر بما أمامه ، وهذا المعنى صحيح لكن دلالة هذا اللفظ عليه ليست بالبينة .

والجواب [١]: أن الأمر كذلك [لكن] [٢]الفعل إذا ضمن معنى آخر لم يلزم إعطاء حكمه من جميع الوجوه بل من جلالة هذه اللغة العظيمة الشأن وجزالتها أن يذكر المتكلم فعلاً وتضمنه[٣]معنى (فعل) [٤]آخر ويجرى على المضمن أحكامه لفظاً وأحكام الفعل الآخر معنى فيكون في قوة ذكر الفعلين مع غاية الاختصار . ومن تدبر هذا وجده كثيراً في كلام الله تعالى .

فلفظة[٥]" يفجر " اقتضت " أمامه " بلا واسطة حرف ولا اسم موصول فأعطت[٦]ما اقتضته لفظاً واقتضى ما تضمنته من الفعل[٧]ذكر الحرف والموصول فأعطيته معنى . فهذا وجه هذا القول لفظاً ومعنى والله أعلم .

ثم أخبر سبحانه عن حال هذا الإنسان إذا شاهد اليوم الذي كذب به فقال (تعالى) : ﴿ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ(٧)وَخَسَفَ الْقَمَرُ(٨)وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ(٩)يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ(١٠) ﴾[٨] . فيبرق[٩]بصره أي يشخص لما يشاهده من العجائب التي كان يكذب بها وخسف القمر ذهب ضوؤه وانمحى .

وجمع الشمس والقمر ولم يجتمعا قبل ذلك بل يجمعهما الذي يجمع عظام الإنسان بعد ما فرقها البلى ومزقها .

ويجمع للإنسان يومئذ جميع عمله الذي قدمه وآخره من خير أو شر . ويجمع ذلك من جمع القرآن في صدر رسول الله ﷺ .

---

(1) في المطبوع : (فالجواب) .
(2) سقط من الأصل .
(3) في المطبوع : (وما يضمنه) ، وفي الباقي : (تضمنه) .
(4) سقط من الأصل .
(5) في المطبوع : (فلفظ) .
(6) في (م) و (ق) والمطبوع : (فأعطيت) .
(7) في المطبوع : (ما تضمنه الفعل من ذكر) .
(8) سورة القيامة الآيات (٧-١٠) .
(9) في المطبوع : (فبرق) .

ويجمع المؤمنين في دار الكرامة فيكرم وجوههم بالنظر إليه ويجمع المكذبين في دار الهوان وهو قادر على ذلك كله كما جمع خلق الإنسان من نطفة من مني يمنى ثم جعله علقة مجتمعة الأجزاء بعد ما كانت نطفة متفرقة في جميع بدن الإنسان .

وكما يجمع بين الإنسان / وبين ملك الموت ويجمع بين الساق والساق إما ساقا الميت [٥٣/ب] وإما[1] ساقا[2] من يجهز بدنه من البشر ومن يجهز روحه من الملائكة .

أو يجمع عليه شدائد الدنيا والآخرة .

فكيف ينكر[3] هذا الإنسان أن يجمع بينه وبين عمله وجزائه ، وأن يجمع مع بني جنسه ليوم الجمع وأن يجمع عليه بين أمر الله ونهيه وعبوديته فلا يترك سدىً مهملاً معطلاً لا يؤمر ولا ينهى ولا يثاب ولا يعاقب فلا يجمع عليه ذلك .

فما أجمع هذه السورة لمعاني الجمع ، والضم . وقد افتتحت بالقسم بيوم القيامة الذي يجمع الله فيه بين الأولين والآخرين . وبالنفس اللوامة التي اجتمع فيها همومها وعزومها[4] وإراداتها واعتقاداتها .

وتضمنت ذكر المبدأ والمعاد ، والقيامة الصغرى والكبرى وأحوال الناس في المعاد وانقسام وجوههم إلى ناظرة منعمة وباسرة معذبة وتضمنت وصف الروح بأنها جسم تنتقل من مكان إلى مكان .

فتجمع من تفاريق البدن حتى تبلغ " التراقي " ويقول الحاضرون ﴿ مَنْ رَاقٍ﴾[5] أي من يرقى من هذه العلة التي أعيت على الحاضرين أي التمسوا له من يرقيه ، والرقية أخر الطب[6]. أو

---

(1) في غير الأصل : (أو) .

(2) في (المطبوع) : (ساق في الموضعين) .

(3) في المطبوع : (أنكر) .

(4) في المطبوع : (وغمومها) .

(5) سورة القيامة الآية (٢٧) .

(6) كما هو مروي عن عكرمة والضحاك وابن زيد وقتادة وغيرهم .

انظر : جامع البيان (١٩٤/٢٩-١٩٥) ، البسيط (٣٨٠/١) ، التفسير الكبير (٢٠٤/٣٠) ، الجامع لأحكام القرآن (١١١/١٩) وغيرها .

قيل[١]: من يرقي بها ويصعد ، أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب[٢]؟ فعلى الأول تكون من رقي يرقى كرمى يرمي وعلى الثاني من رقي يرقى كشقي يشقى ومصدره الرقي ومصدر الأول الرقية .

والقول الأول أظهر لوجوه أحدها : أنه ليس كل ميت يقول حاضروه : من يرقى بروحه ؟ وهذا إنما يقوله من يؤمن برقي الملائكة بروح الميت وأنهم ملائكة رحمة وملائكة عذاب بخلاف التماس الرقية وهي الدعاء فإنه قلما يخلو منه المحتضر .

الثاني : أن الروح إنما يرقى بها الملك بعد مفارقتها وحينئذ يقال من يرقى بها . وأما قبل المفارقة فطلب الرقية للمريض من الحاضرين أنسب من طلب علم من يرقى به إلى الله عز وجل .

الثالث : أن فاعل الرقية يمكن العلم به فيحسن السؤال عنه ويفيد السامع وأما الراقي إلى الله (تعالى) / فلا يمكن العلم بتعيينه حتى يسأل عنه ، و " من " إنما يسأل بها عن تعيين ما يمكن السائل أن يصل إلى العلم بتعيينه . [٥٤/أ]

الرابع : إن مثل هذا السؤال إنما يراد به تحضيض وإثارة هممهم إلى فعل ما يقع بعد " من " كقوله (تعالى) : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾[٣] ، أو يراد به إنكار فعل ما يذكر بعدها كقوله (تعالى) : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾[٤] . وفعل الراقي إلى الله لا يحسن فيه واحد من الأمرين هنا بخلاف فاعل الرقية فإنه يحسن فيه الأول .

الخامس : أن هذا خرج على عادة العرب وغيرهم في طلب الرقية لمن وصل إلى[٥] تلك الحال فحكى الله سبحانه ما جرت (به)[٦] عادتهم بقوله وحذف فاعل القول لأنه ليس الغرض

---

(1) في المطبوع : (وقيل) .
(2) كما هو مروي عن ابن عباس وأبي الجوزاء وأبي العالية .
انظر المراجع السابقة إضافة إلى الدر المنثور (٨/٣٦١-٣٦٢) .
(3) سورة البقرة الآية (٢٤٥) .
(4) سورة البقرة الآية (٢٥٥) .
(5) في غير الأصل : (إلى مثل تلك) .
(6) سقط من غير الأصل و (ب) .

متعلقاً بالقائل بل بالقول و لم تجر عادة المخاطبين بأن يقولوا من يرقى بروحه فكان حمل الكـــلام على ما ألف وجرت العادة بقوله أولى ، إذ هو تذكير لهم بما يشاهدونه ويسمعونه .

السادس : أنه لو أراد[١] هذا المعنى لكان وجه الكلام أن يقال من هو الراقي ومن الراقي ؟ لا وجه للكلام غير ذلك كما يقال من هو القائل منكما كذا وكذا وفي[٢] الحديث " **من القائـــل (كلمة[٣]) كذا** "[٤] .

السابع : أن كلمة " من " إنما يسأل بها عن التعيين كما يقال من ذا الذي فعل كذا ، ومن ذا الذي قاله فيعلم أن فاعلاً وقائلاً فعل وقال ولا يعلم تعيينه فيسأل عن تعيينه بمن تارة وبأي تارة وهم لم يسألوا عن تعيين الملك الراقي بالروح إلى الله .

فإن قيل بل علموا أن ملك الرحمة والعذاب صاعد بروحه و لم يعلموا تعيينه فسألوا عـــن تعيين أحدهما . قيل هم يعلمون أن تعيينه غير ممكن فكيف يسألون عن تعيين ما لا سبيل للسامع إلى تعيينه ولا إلى الكلمة بالعلم به .

الثامن : أن الآية إنما سيقت لبيان يأسه من نفسه ويأس الحاضرين معه وتحقق أسباب الموت ، وأنه قد حضر و لم يبق شيء ينجح فيه ولا مخلص منه بل هو /قد ظن أنـــه مفـــارق لا محالـــة [٥٤/ب] والحاضرون[٥] قد علموا أنه لم يبق لأسباب الحياة المعتادة تأثير في بقائه فطلبوا أسباباً خارجة عـــن المقدور تستجلب الرقى[٦] والدعوات فقالوا من راق أي من يرقي هذا العليل من أسباب الهـــلاك والرقية عندهم كانت مستعملة حيث لا يجدي الدواء .

التاسع : أن مثل هذا إنما يراد به النفي والاستبعاد ، وهو أحد التقديرين في الآية ، أي : لا أحد يرقى من هذه العلة بعدما وصل صاحبها إلى هذا الحال ، فهو استبعاد لنفع[٧] الرقية لا طلـــب

---

(1) في غير الأصل : (أريد) .

(2) سقطعت الواو من (م) و (ب) .

(3) سقط من الأصل .

(4) الحديث أخرجه مسلم في (٥) كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، (٢٧) باب ما يقال بين تكبيرة الإحرام والقراءة ح (٦٠١) من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما .

(5) في المطبوع : (فالحاضرون) .

(6) في المطبوع : (تستجلب بالرقى) .

(7) في المطبوع : (لنفي) .

لوجود الراقي كقوله (تعالى) : ﴿ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ(٧٨) ﴾[١] أي : لا أحد يحييها وقد صارت إلى هذه الحال : فإن أريد بها هذا[٢] المعنى استحال أن يكون من الرقي[٣]، وإن أريد بها الطلب استحال أيضاً أن يكون منه ، وقد بينا أنها في مثل هذا إنما تستعمل للطلب والإنكار[٤]. وحينئذ فنقول في الوجه العاشر أنها : إما (أن)[٥] يراد بها[٦] الطلب ، أو الاستبعاد ، والطلب إما أن يراد به طلب الفعل أو طلب التعيين ، ولا سبيل إلى حمل واحدة من هذه المعاني على الرقي لما بيناه . والله أعلم .



(1) سورة يس الآية (٧٨) .
(2) في (م) : (بهذا) .
(3) في الأصل : (الراقي) ولعله تصحيف .
(4) في غير الأصل : (أو للإنكار) .
(5) بياض في الأصل ، وفي (ب) والبقية (أن) .
(6) سقط من (م) .

فصل

ومن أسرار هذه السورة أنه سبحانه جمع فيها لأوليائه بين جمال الظاهر والباطن : فـزين وجوههم بالنظرة ، وبواطنهم بالنظر إليه ، فلا أجمل لبواطنهم ، ولا أنعم ولا أحلى من النظر إليه ، ولا أجمل لظواهرهم من نضرة الوجه ، وهي إشراقه وتحسينه وبهجته . وهذا كما قال في موضع آخر : ﴿ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا(١١) ﴾[١] .

ونظيره قوله (تعالى) : ﴿ يَابَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ ﴾[٢] فهذا جمال الظاهر وزينته ثم قال : ﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾[٣] فهذا جمال الباطن وزينته ونظيره قوله (عز وجل) : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ(٦) ﴾[٤] فهذا جمال ظاهرها ثم قال : ﴿ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ(٧) ﴾[٥] فهذا جمال باطنها ونظيره قوله عن امرأة العزيز بعـد أن قالت ليوسف : ﴿ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَـذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ(٣١)قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ﴾[٦] (فهذا جمال الظاهر ، ثم [٥٥/أ] وصفته بجمال باطنه وعفته)[٧] ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ / عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾[٨] ، فـذكرها لهـا هو[٩] تمام وصفها لمحاسنه ، وأنه في غاية المحاسن ظاهرا وباطنا .

وينظر إلى هذا المعنى ويناسبه قولـه (تعـالى) ﴿ إِنَّ لَـكَ أَلَّـا تَجُـوعَ فِيهَـا وَلَـا تَعْرَى(١١٨)وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى(١١٩) ﴾[١٠] فقابل بين الجـوع والعـرى ، لأن الجوع ذل الباطن ، والعرى ذل الظاهر ، وقابل بين الظمأ وهو حر الباطن والضحى وهو حـر الظاهر بالبروز للشمس .

---

(1) سورة الإنسان الآية (١١) .

(2) سورة الأعراف الآية (٢٦) وفي غير الأصل (وريشاً) .

(3) سورة الأعراف الآية (٢٦) .

(4) سورة الصافات الآية (٦) .

(5) سورة الصافات الآية (٧) . وقد تحرفت في الأصل إلى (وحفظناها) .

(6) سورة يوسف الآيتان (٣١-٣٢) .

(7) ما بين القوسين سقط من المطبوع .

(8) سورة يوسف الآية (٣٢) .

(9) في (م) و (ق) والمطبوع : زيادة (من) .

(10) سورة طه الآيتان (١١٨-١١٩) .

وقريب من هذا قوله (عز وجل) : ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾[١] ذكر الزاد الظاهر الحسي ، والزاد الباطن المعنوي فهذا زاد سفر الدنيا ، وهذا زاد[٢]سفر الآخرة .

ويلم به قول هود : ﴿ وَيَاقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلْ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ ﴾[٣] فالأول : قوة الظاهر[٤]المنفصلة عنهم ، والثاني : الباطنة المتصلة بهم .

ويشبهه قوله تعالى : ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ(١٠) ﴾[٥] فنفى عنهم الدافعين : الدافع من نفسه وقواه ، والدافع من خارج وهو الناصر .



---

(1) سورة البقرة الآية (١٩٧) .
(2) في الأصل و (ب) : (أراد) وفي البقية (زاد) .
(3) سورة هود الآية (٥٢) .
(4) في (م) و (ق) والمطبوع : (الظاهرة) .
(5) سورة الطارق الآية (١٠) .

فصل

ومن أسرارها : أنها تضمنت إثبات قدرة الرب (تعالى)[1] على ما علم أنه لا يكون ولا يفعله وهذا على أحد القولين في قوله (تعالى) : ﴿ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ(٤) ﴾ فأخبر أنه (تعالى) قادر عليه و لم يفعله و لم يرده .

وأصرح من هذا قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ(١٨) ﴾[2] وهذا أيضا على أحد القولين أي : تغور العيون في الأرض فلا يقدر على الماء وقال ابن عباس : يريد أنه يستغيض[3] فيذهب[4]. فلا يكون من هذا الباب بل يكون من باب القدرة على ما سيفعله .

وأصرح من هذين الموضعين قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾[5] وقد ثبت عن النبي ﷺ انه قال عند نزول هذه الآية : " **أعوذ بوجهك** "[6] ، ولكن قد ثبت عنه عليه السلام[7] أنه لابد ان يقع في أمته خسف[8]. ولكن لا يكون عاما وهذا عذاب من تحت الأرجل .

وروي عنه[9] انه كائن في الأمة قذف أيضاً[10] وهو عذاب من فوق . فيكون هذا من باب الإخبار بقدرته على ما سيفعله ، وإن أريد به القدرة / على عذاب الاستئصال فهو من القدرة على ما لا يريده . [٥٥/ب]

---

(1) سقط من المطبوع .

(2) سورة المؤمنون الآية (١٨) .

(3) في (م) و (ق) و (والمطبوع : (سيغيض) .

(4) لم أهتد إلى مصدره .

(5) سورة الأنعام الآية (٦٥) .

(6) أخرجه البخاري في (٦٥) كتاب التفسير (٦) سورة الأنعام ، باب ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم ﴾ الآية ح (٤٦٢٨) من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما .

(7) في (م) و (ق) والمطبوع : (صلى الله عليه وسلم) .

(8) أخرج ذلك مسلم في (٥٢) كتاب الفتن وأشراط الساعة ، (١٣) باب في الآيات التي تكون قبل الساعة ح (٢٩٠١) من حديث حذيفة بن أسيد الغفاري ، عند ذكر علامات الساعة ومنها : (خسف بالمشرق وآخر بالمغرب ، وثالث بجزيرة العرب) .

(9) كما أخرج ذلك أبو داود في سننه في (٣٥) كتاب السنة ، (٦) باب في لزوم السنة ح (٤٥٩٥) ، والترمذيفي (٣٣) كتاب القدر (١٦) باب . ح (٢١٥٢) ، وابن ماجة في (٣٦) كتاب الفتن . (٢٩) باب الخسوف . ح (٤٠٦٠-٤٠٦١-٤٠٦٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

(10) سقط من (م) و (ق) والمطبوع .

وقد صرح سبحانه بأنه لو شاء لفعل ما لم يفعله في غير موضع من كتابه كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾[1] وقال (تعالى) : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾[2] ونظائره .

وهذا مما لا خلاف[3] فيه بين أهل السنة ، وبه يتبين فساد قول من قال : إن القدرة لا تكون إلا مع الفعل لا قبله وان الصواب التفصيل بين القدرة الموجبة والمصححة فنفي القدرة عن الفاعل قبل الملابسة مطلقا خطأ والله أعلم .



(1) سورة يونس الآية (٩٩) .
(2) سورة السجدة الآية (١٣).
(3) في المطبوع : (خفاء) .

فصل

ومن أسرارها : أنها تضمنت التأني والتثبيت[1] في تلقي العلم ، وأن لا يحمل السامع شدة محبته وحرصه وطلبه على مبادرة المعلم ، بالأخذ قبل فراغه من كلامه ، بل من آداب الرب التي أدب بها نبيه ﷺ أمره بترك الاستعجال على تلقي الوحي ، بل يصبر إلى أن يفرغ جبريل من قراءته ، ثم يقرأه بعد فراغه عليه فهكذا ينبغي لطالب العلم ولسامعه أن يصبر على معلمه حتى يقضي كلامه ، ثم يعيده عليه أو يسأله عما أشكل عليه منه ، ولا يبادره قبل فراغه .

وقد ذكر الله تعالى هذا المعنى في ثلاثة مواضع من كتابه هذا أحدها .

والثاني : قوله : ﴿ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنْ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ . ﴿فتعالى الله الملك الحق ﴾ ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾[2] ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ .

والثالث : قوله (تعالى) : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى(٦)إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى(٧) ﴾[3] فضمن لرسوله أنه لا ينسى ما أقرأه إياه وهذا يتناول حال القراءة وما بعدها .

وقد ذم الله سبحانه في هذه السورة من يؤثر العاجلة (على الآجلة)[4]، وهذا لاستعجاله بما يفنى وإيثاره على ما يبقى ، ورتب كل ذم ووعيده في هذه السورة على هذا الاستعجال ومحبة العاجلة على الآجلة ، فإرادته أن يفجر أمامه هو من استعجاله وحب العاجلة ، وتكذيبه ، وتكذيبه بيوم القيامة من فرط حبه العاجلة وإيثاره لها واستعجاله نصيبه وتمتعه به قبل أوانه ولولا/ [٥٦/أ] حب العاجلة وطلب الاستعجال لتمتع به في الآجلة أكمل ما يكون .

وكذلك تكذيبه وتوليه وتركه الصلاة هو من استعجاله ومحبته العاجلة .

والرب سبحانه وصف نفسه بضد ذلك فلم يعجل على عبده بل أمهله إلى أن بلغت الروح التراقي وأيقن بالموت وهو إلى هذه الحال مستمر على التكذيب والتولي ، فالرب تعالى لا يعاجله بل يمهله ويحدث له الذكر شيئاً بعد شيء ، ويصرف له الآيات ويضرب له الأمثال وينبهه على

---

(1) هكذا في الأصل ، وفي غيره : (التثبت) .
(2) سورة طه الآية (١١٤) .
(3) سورة الأعلى الآيتان (٦-٧) .
(4) سقط من (ق) .

مبدئه من كونه نطفة من مني يمنى ثم علقة ثم خلقاً سوياً فلم يعجل عليه بالخلق وهلة واحدة ، ولا بالعقوبة إذ كذب خبره وعصى أمره ، بل كان خلقه وأمره وجزاؤه بعد تمهل وتـدريج وأنـاة ، ولهذا ذم الإنسان بالعجلة بقوله (تعالى) : ﴿ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا(١١) ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُون(٣٧) ﴾[2] .



(1) سورة الإسراء الآية (١١) .

(2) سورة الأنبياء الآية (٣٧) .

فصل

ومن أسرارها[١]: إثبات النبوة والمعاد يعلم بالعقل ، وهذا أحد القولين لأصحابنا وغيرهم وهو الصواب . فإن الله سبحانه أنكر على من حسب أنه يترك سدى فلا يؤمر ولا ينهى ، ولا يثاب ولا يعاقب ، ولم ينف سبحانه ذلك بطريق الخبر المجرد بل نفاه نفي ما لا يليق نسبته إليه ، ونفي منكر على من حكمه به وظنه .

ثم استدل سبحانه على فساد ذلك وبين أن خلقة الإنسان في هذه الأطوار وتنقله فيها طوراً بعد طور حتى يبلغ نهايته يأبى أن يتركه سدىً ، وأنه تنزه[٢]عن ذلك كما تنزه[٢]عن العبث والعيب والنقص .

وهذه طريقة القرآن في غير موضع ، كما قال تعالى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ(١١٥)فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾[٣] فجعل كمال ملكه ، وكونه سبحانه الحق وكونه لا إله إلا هو وكونه رب العرش المستلزم لربوبيته لكل ما دونه مبطلاً لذلك الظن الباطل (والحكم)[٤]الكاذب وإنكار هذا الحسبان عليهم مثل إنكاره عليهم حسبانهم أنه لا يسمع سرهم ونجواهم / وحسبان أنه لا يراهم ولا يقدر عليهم [٥٦/ب] ، وحسبان أنه يسوي بين أوليائه وبين أعدائه في محياهم ومماتهم وغير ذلك مما هو منزه عن تنزهه[٥]عن سائر العيوب والنقائص وأن نسبة ذلك إليه[٦]كنسبة ما يتعالى عنه مما لا يليق به من اتخاذ الولد والشريك ونحو ذلك مما ينكره سبحانه على من حسبه أشد الإنكار فدل على أن ذلك قبيح ممتنع نسبته إليه كما يمتنع أن ينسب إليه سائر ما ينافي كماله المقدس ، ولو كان نفي تركه سدى إنما بعلم بالسمع المجرد لم يقل بعد ذلك ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً ﴾ إلى آخره ، مما[٧]يدل على أن تعطيل أسمائه وصفاته ممتنع ، وكذلك تعطيل موجبها ومقتضاها فإن ملكه الحق يستلزم أمره ونهيه

---

(1) في غير الأصل و (ب) زيادة (أن) .
(2) في (م) و (ق) والمطبوع : (ينزهه) .
(3) سورة المؤمنون الآيتان (١١٥-١١٦) .
(4) سقط من الأصل .
(5) في غير الأصل : (تنزيهه) .
(6) سقط من (ق) والمطبوع .
(7) في (م) و (ق) والمطبوع : (ومما) .

وثوابه وعقابه ، وكذلك يستلزم إرسال رسله وإنزال كتبه وبعث العباد ليوم يجزي فيه المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ، فمن أنكر ذلك فقد أنكر حقيقة ملكه و لم يثبت له الملك الحق ، ولذلك كان منكر البعث كافراً بربه وإن زعم أنه يقر بصانع[١]، فلم يؤمن بالملك الحق الموصوف بصفات الجلال المستحق[٢]لنعوت الكمال ، كما أن المعطل لكلامه وعلوه على (خلقه)[٣] لم يؤمن به سبحانه ، فإنه آمن برب لا يتكلم ولا يأمر ولا ينهى ولا يصعد إليه قول ولا عمل ولا يترل من عنده (أمر)[٤]ولا نهي ، ولا ترفع إليه الأيدي . ومعلوم أن هذا الذي أقر به[٥]رب مقدر في ذهنه ليس هو رب العالمين وإله المرسلين .

وكذلك إذا اعتبرت اسمه الحي وجدته مقتضياً لصفات كماله من علمه وسمعه وبصره وقدرته وإرادته ورحمته وفعله ما يشاء واسمه القيوم ، ومقتض لتدبيره أمر العالم العلوي والسفلي وقيامه بمصالحه وحفظه له .

فمن أنكر صفات كماله لم يؤمن بأنه الحي القيوم ، وإن أقر بذلك ألحد في أسمائه وعطل حقائقها حيث لم يمكنه تعطيل ألفاظها وبالله التوفيق .



(1) في غير الأصل : زيادة (العالم) .

(2) في المطبوع : (والمستحق) .

(3) في الأصل : (على عرشه) وفوق كلمة (عرشه ، (خلقه) وفي باقي النسخ (خلقه) .

(4) تحرفت في الأصل إلى (ملك) والتصويب من البقية .

(5) في (م) و (ق) والمطبوع : (آمن به) بدل : (أقر به) .

فصل

{ القسم في سورة المدثر }

ومن ذلك قوله (تعالى)[١]: ﴿ كَلَّا وَالْقَمَرِ(٣٢)وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ(٣٣)وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ(٣٤)إِنَّهَا لَإِحْدَى / الْكُبَرِ(٣٥)نَذِيرًا لِلْبَشَرِ(٣٦)لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾[٢]. [٥٧/أ]

أقسم سبحانه بالقمر الذي هو آية الليل وفيه من الآيات الباهرة الدالة على ربوبية خالقه وبارئه ، وحكمته وعلمه وعنايته بخلقه ما هو معلوم بالمشاهدة . وهو سبحانه أقسم بالسماء وما فيها مما لا تراه من الملائكة وما فيها مما تراه من الشمس والقمر والنجوم ، وما يحدث بسبب حركات الشمس والقمر من الليل والنهار ، وكل من ذلك آية من آياته الدالة على ربوبيته[٣].

ومن تدبر أمر هذين النيرين العظيمين وجدهما من أعظم الآيات في خلقهما وجرمهما ونورهما ، وحركتهما على نهج واحد لا ينيان ولا يفتران دائبين . ولا يقع في حركاتهما اختلاف بالبطء[٤]والسرعة ، والرجوع والاستقامة ، والانخفاض والارتفاع ، ولا يجري أحدهما في تلك صاحبه ولا يدخل عليه في سلطانه ، ولا تدرك الشمس والقمر ، ولا يجيء الليل قبل انقضاء النهار ، بل لكل حركة مقدرة ، ونهج معين لا يشركه فيه الآخر كما أن له تأثيراً ومنفعة لا يشركه فيها الآخر .

وذلك مما يدل من له أدنى عقل على أنه بتسخير مسخر ، وأمر آمر ، وتدبير مدبر ، بهرت حكمته العقول ، وأحاط علمه بكل دقيق وجليل ، وفوق[٥]ما علمه الناس من الحكم الذي فيه خلقهما ما لا تصل إليه عقولهم ولا تنتهي إلى مبادئها أوهامهم ، فغايتنا الاعتراف بجلال خالقهما وكمال حكمته ولطف تدبيره ، وأن نقول ما قاله أولوا الألباب قبلنا : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ(١٩١) ﴾[٦] .

---

(1) زيادة من (ب) والمطبوع ، وفي (م) و (ق) (سبحانه) .
(2) سورة المدثر الآيات (٣٢-٣٧) .
(3) في غير الأصل : (ودلالته من دلائل ربوبيته) .
(4) في (ق) : (وبالبطء) .
(5) في المطبوع : (وفرق) بدل : (وفوق) .
(6) سورة آل عمران الآية (١٩٠) .

ولو أن العبد وصف له جرم أسود مستدير عظيم الخلق ، يبدو فيه النور كخيط متسخن ، ثم يتزايد كل ليلة حتى يتكامل نوره فيصير أضوأ (شيء)[1] وأحسنه وأجمله ، ثم يأخذ في النقصان حتى يعود إلى حاله الأول ، فيحصل بسبب ذلك معرفة الأشهر والسنين ، وحساب / آجال العالم [٥٧/ب] من مواقيت حجهم وصلاتهم ، ومواقيت أجاراتهم[2] ومداياناتهم التي لا تقوم مصالحهم ومعاملاتهم إلا بها . فمصالح الدنيا والدين متعلقة بالأهلة .

وقد ذكر سبحانه ذلك في ثلاث آيات من كتابه :

أحدها : قوله (عز وجل) : ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ** ﴾[3] .

والثانية : قوله (عز وجل) : ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ** ﴾[4] . الآية[5] .

والثالثة : قوله (تعالى) : ﴿ **وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً** ﴾[6] الآية[7] .

فلولا ما يحدثه الله سبحانه في آية الليل من زيادة ضوئها ونقصانه لم يعلم ميقات الحج والصوم والعدد ومدة الرضاع ومدة الحمل ، والإجارة[8] ، ومدة آجال المعاملات[9] .

فإن قيل : كان يمكن علم[10] هذا بحركة الشمس وبالأيام[11] التي تحفظ بطلوع الشمس وغروبها ، كما يعرف أهل الكتابين مواقيت صيامهم ، وأعيادهم بحساب الشمس .

---

(1) سقط من الأصل .
(2) في (م) و (ق) والمطبوع : (أجائرهم) .
(3) سورة البقرة الآية (١٨٩) .
(4) سورة يونس الآية (٥) .
(5) في (م) و (ق) والمطبوع : تكملة الآية .
(6) سورة الإسراء الآية (١٢) .
(7) في (م) و (ق) والمطبوع : تكملة الآية .
(8) في غير الأصل : (ومدة الإجارة) .
(9) تحرفت في المطبوع إلى (الحاملات) .
(10) سقط من المطبوع .
(11) في المطبوع : (والأيام) .

قيل : هذا وإن كان ممكنا إلا أنه يعسر ضبطه ولا يقف عليه إلا الآحاد من الناس . ولا ريب أن معرفة أوائل الشهور وأوساطها وأواخرها بالقمر أمر يشترك فيه الناس وهو أسهل من معرفة ذلك بحساب الشمس وأقل اضطراباً واختلافاً ، ولا يحتاج إلى تكلف حساب ، وتقليد من لا يعرفه من الناس لمن يعرفه ، فالحكمة الباهرة التي في تقدير السنين والشهور بسير القمر أظهر وأبلغ[1] وأصلح اختلافاً من تقديرها بسير الشمس فالرب جل جلاله دبر الأهلة بهذا التدبير العجيب لمنافع خلقه في مصالح دينهم ودنياهم ، مع ما يتصل بذلك[2] من الاستدلال به على وحدانيته[3] وكمال علمه وحكمته[4] وتدبيره ، فشهادة الخلق بتغيير الأجرام الفلكية ، وقيام أدلة الحدوث والخلق عليها . فهي آيات ناطقة بلسان الحال على تكذيب الدهرية[5] وزنادقة / [٥٨/أ] الفلاسفة[6] والملاحدة[7] والقائلين بأنها أزلية أبدية لا يتطرق إليها التغيير ولا يمكن عدمها .

فإذا تأمل البصير القمر مثلاً وافتقاره إلى محل يقوم به ، وسيره دائباً لا يتغير[8] ، مسير ، مسخر ، (مدبر)[9] ، وهبوطه تارة وارتفاعه تارة ، وأفوله تارة ، وظهوره تارة ، وذهاب نوره

---

(1) في غير الأصل : (وأنفع) .

(2) في المطبوع : (به) بدل (بذلك) .

(3) في المطبوع : (على وحدانية الرب) .

(4) في (م) و (ق) والمطبوع : (كمال حكمته وعلمه .) .

(5) الدهرية : هم الذين ينكرون الربوبية ، ويحيلون الأمر والنهي والرسالة من الله تعالى ، ويقولون : هذا مستحيل في العقول ، ويقولون بقدم العالم ، وينكرون الثواب والعقاب ، ولا يفرقون بين الحلال والحرام ، وينفون أن يكون في العالم دليل على صانع ومصنوع ، وخالق ومخلوق ، وينسبون النوازل التي تنزل بهم إلى الدهر ، وينكرون المعاد والجزاء والحساب .

انظر : الفصل في الملل والنحل (٤٧/١) ، الملل والنحل للشهرستاني (٦١/٢) .

(6) الزنادقة : جمع زنديق وهو القائل ببقاء الدهر ، فارسي معرب ، والزنديق لا يؤمن بالآخرة ووحدانية الخالق ، وقد ذكر شيخ الإسلام أن لفظ الزنادقة لا يوجد في كلام النبي صلى الله عليه وسلم ولا في القرآن وهو لفظ أعجمي معرب أخذ من كلام الفرس بعد ظهور الإسلام وعرب ، وقد تكلم به السلف والأئمة في توبة الزنديق ونحو ذلك .

انظر : بغية المرتاد ص (٣٣٨) .

أما الفلسفة : فهي كلمة يونانية تعني (محبة الحكماء) ، والفيلسوف هو (فيلا) و (سوفا) وفيلا هو المحب و (سوفا) هو الحكمة أي (محبة الحكمة) .

انظر : الملل والنحل للشهرستاني (١٢٢/٢) .

(7) الملاحدة : جمع ملحد ، والإلحاد في اللغة الميل والعدول ، والإلحاد مذهب من ينكر وجود الله ، وقد يطلق على المتشكك الذي يتظاهر بالامتناع دون عقيدة . انظر : المعجم الفلسفي ص (٢٠) .

(8) في المطبوع : (لا يغير) .

(9) سقط من الأصل .

شيئاً فشيئاً ثم عوده إليه كذلك ، وذهاب ضوءه جملة واحدة حتى يعود قطعة مظلمة بالكسوف علم قطعاً أنه مخلوق ومربوب مسخر تحت أمر خالق قاهر مسخر له كما يشاء .

وعلم أن الرب سبحانه لم يخلق هذا باطلاً ، وأن هذه الحركة فيه لا بد أن تنتهي إلى الانقطاع والسكون ، وأن هذا الضوء والنور لا بد أن ينتهي إلى ضده ، وأن هذا السلطان لا بد أن ينتهي إلى العزل . وسيجمع بينهما جامع المتفرقان بعد أن يكونا (مجتمعين)[١] ويذهب بهما حيث شاء ، ويرى المشركون[٢] من عبدهما حال آلهتهم التي عبدوها من دونه ، كما يرى عباد الكواكب انتثارها ، وعباد السماء انفطارها ، وعباد الشمس تكويرها ، وعباد الأصنام إهانتها وإلقاءها في النار أحقر شيء وأذله وأصغره ، كما أرى عباد العجل في الدنيا حاله ، ومبارد عباده تسحقه وتمحقه ، والريح تمزقه وتذروه وتنسفه في اليم ، وكما أرى عباد[٣] الأصنام في الدنيا صورها مكسرة مخردلة ملقاة بالأمكنة القذرة ومعاول الموحدين قد هشمت منها تلك الوجوه وكسرت تلك الرؤوس وقطعت تلك الأيدي والأرجل التي كانت لا يوصل إليها بغير التقبيل والاستلام .

وهذه سنته[٤] التي لا تبدل ، وعادته التي لا تحول : أنه يُرى عابد غيره حال معبوده في الدنيا والآخرة ، وإن كان المعبود غير راض بعبادته[٥] أراه تبريه منه ، ومعاداته له أحوج ما يكون إليه ، ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾[٦] ، (ويعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين)[٧] / . [٥٨/ب]

تأمل سطور الكائنات فإنها … من الملك الأعلى إليك رسائل
وقد خط فيها لو تأملت خطها … ألا كل شيء ما خلا الله باطل

ولو شاء تعالى لأبقى القمر على حالة واحدة لا تتغير وجعل التغير[٨] في الشمس ولو شاء لغيرهما معاً ، ولو شاء لأبقاهما معاً على حالة واحدة . ولكن يرى عباده آياته في أنواع تصاريفها

---

(1) بياض بالأصل ، وفي باقي النسخ : (مجتمعين) .
(2) في غير الأصل : (ويري المشركين) .
(3) سقط من المطبوع .
(4) في المطبوع : (سنة الله) .
(5) في غير الأصل و (ب) : (بعبادته غيره) .
(6) سورة الأنفال الآية (٤٢) .
(7) كما في سورة النحل الآية (٣٩) في قوله : ﴿ وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين ﴾ .
(8) في (م) و (ق) والمطبوع : (التغيير) .

ليدلهم على أنه الله الذي لا إله إلا هو الملك الحق المبين الفعال لما يريد ، ﴿ **أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْـأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ(٥٤)** ﴾[١] .

وأما تأثير القمر في ترطيب أبدان الحيوان والنبات وفي المياه وجزر البحر ومده ، وبحرانات الأمراض ، وتنقلها من حال إلى حال وغير ذلك من المنافع ، فأمر ظاهر .



(١) سورة الأعراف الآية (٥٤) .

فصل

وأما إقسامه سبحانه بالليل ﴿ إِذْ أَدْبَرَ ﴾ ، فلما في إدباره وإقبال النهار من أبين الدلالات الظاهرة على المبدأ أو المعاد ، فإنه مبدأ ومعاد يومي مشهود بالعيان ، بينا[١]الحيوان في سكون الليل وقد هدأت حركاتهم ، وسكنت أصواتهم ، ونامت عيونهم ، وصاروا إخوان الأموات ، إذ أقبل من النهار داعيه ، وأسمع الخلائق مناديه ، فانتشرت منهم الحركات ، وارتفعت منهم الأصوات حتى كأنهم قاموا أحياء من القبور يقول قائلهم : " **الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور** "[٢] فهو معاد جديد ، أبدأه وأعاده الذي يبدئ ويعيد ، فمن ذهب بالليل وجاء بالنهار سوى الواحد القهار ؟ .

فمن تأمل حال الليل إذا عسعس وأدبر ، والصبح إذا أسفر وتنفس[٣]فهزم جيوش الظلام بنفسه ، وأضاء أفق العالم بقبسه ، وفل كتائب المواكب بعساكره ، وأضحك نواحي الأرض بتباشيره وبشائره فيالهما آيتان شاهدتان بوحدانية منشئهما وكمال ربوبيته ، وعظيم[٤]قدرته وحكمته ، فتبارك الذي جعل طلوع الشمس وغروبها مقيماً لسلطان الليل والنهار / فلولا [٥٩/أ] طلوعها لبطل أمر العالم كله فكيف كان الناس يسعون في معائشهم[٥]، ويتصرفون في أمورهم والدنيا مظلمة عليهم ، وكيف كانت تهنيهم الحياة مع فقد لذة النور وروحه ؟ وأي ثمار ونبات وحيوان كان يوجد ؟ وكيف كانت تتم مصالح أبدان الحيوان والنبات ؟ .

ولولا غروبها لم يكن للناس هدوء ولا قرار مع عظم حاجتهم إلى الهدوء لراحة أبدانهم ، وجموم[٦]حواسهم ، فلولا[٧]جثوم هذا الليل عليهم بظلمته لما[٨]هدأوا ولا قروا ولا سكنوا ، بل جعله أحكم الحاكمين سكناً ولباساً ، كما جعل النهار ضياء ، ومعاشاً .

---

(1) في (م) والمطبوع : (بينما) .

(2) كما أخرج ذلك البخاري في صحيحه في (٨٠) كتاب الدعوات ، (٧) باب ما يقول إذا نام ح (٦٣١٢) من حديث حذيفة رضي الله عنه ، وكذا اخرجه مسلم من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه في (٤٨) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (١٧) باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع ح (٢٧١١) .

(3) في غير الأصل : (إذا تنفس وأسفر) .

(4) في (م) و ق) والمطبوع : (وعظم) .

(5) في (م) و (ق) والمطبوع : (معاشهم) .

(6) في الأصل و (ب) : (حموم) من غير واو

(7) في الأصل : (لولا) .

(8) في غير الأصل و (ب) : (ما هدأوا) .

ولولا الليل وبرده لاحترقت أبدان النبات والحيوان من (دوام)[١]شروق الشمس عليها ، وكان يحترق ما عليها من نبات وحيوان فاقتضت حكمة أحكم الحاكمين أن جعلها سراجاً يطلع على العالم في وقت حاجتهم إليه ، ويغيب في وقت استغنائهم عنه ، فطلوعه لمصلحتهم ، وغيبته لمصلحتهم ، وصار النور والظلمة على تضادهما متعاونين متظاهرين على مصلحة هذا العالم وقوامه . فلو جعل الله سبحانه النهار سرمداً إلى يوم القيامة والليل[٢]سرمداً إلى يوم القيامة لفاتت مصالح العالم ، واشتدت الضرورة إلى تغيير ذلك وإزالته بضده .

وتأمل حكمته سبحانه في ارتفاع الشمس وانخفاضها لإقامة هذه الأزمنة الأربعة من السنة ، وما في ذلك من مصالح الخلق . ففي الشتاء تغور الحرارة في الشجر والنبات فيتولد منها مواد الثمار ويكف[٣]الهواء فينشأ منه السحاب وينعقد[٤]فيحدث المطر الذي به حياة الأرض ، ونماء أبدان الحيوان والنبات ، وحصول الأفعال والقوى ، وحركات الطبائع .

وفي الصيف يخرم[٥]الهواء فتنضج الثمار وتشتد الحبوب ويجف وجه الأرض فيتهيأ للعمل .

وفي الخريف : يصفو الهواء ، وتبرد الحرارة ، ويمتد الليل ، وتستريح الأرض والشجر للحمل والنبات مرة ثانية ، بمنزلة راحة الحامل بين الحملين ففي هذه الأزمنة مبدأ ومعاد مشهود وشاهد بالمبدأ والمعاد الغيبي .

والمقصود أن / بحركة هذين النيرين تتم مصالح العالم ، وبذلك يظهر الزمان ، فإن الزمان [٥٩/ب] مقدار الحركة فالسنة الشمسية مقدار سير[٦]الشمس من نقطة الحمل إلى مثلها ، والسنة القمرية مقدرة بسير القمر وهو أقرب إلى الضبط ، واشتراك الناس في العلم به وقدر أحكم الحاكمين تنقلهما في منازلهما لما في ذلك من تمام الحكمة ولطف التدبير .

فإن الشمس لو كانت تطلع وتغرب في موضع واحد لا تتعداه ، لما وصل ضوءها وشعاعها إلى كثير من الجهات ، فكان نفعها يفقد هناك فجعل الله سبحانه طلوعها دولاً بين الأرض لينال

---

(1) سقط من الأصل .

(2) في (م) و (ق) : (أو الليل) .

(3) في المطبوع : (ويكثف) .

(4) في غير الأصل والمطبوع : (ويتعقد).

(5) في (م) و (ب) و (ق) : (يحدم) .

(6) في (م) و (ق) : (مسير) .

نفعها وتأثيرها البقاع فلا يبقى[١]من المواضع التي يمكن أن يطلع عليها إلا آخذ بقسطه من نفعها . واقتضى هذا التدبير المحكم أن وقع مقدار الليل والنهار على أربعة وعشرين ساعة ، ويأخذ كل واحد من صاحبه[٢]، ومنتهى كل منها إذا امتد خمس عشرة ساعة فلو زاد مقدار (النهار) [٣]على ذلك إلى خمسين ساعة مثلاً أو أكثر لاختل نظام العالم وفسد أكثر الحيوان والنبات ، ولو نقص مقداره عن ذلك لاختل النظام أيضاً ، وتعطلت المصالح . ولو استويا دائماً لما اختلفت فصول السنة التي باختلافها مصالح العباد والحيوان ، فكان في هذا التقدير والتدبير المحكم من الآيات والمصالح والمنافع ما يشهد بأن ذلك من تقدير العزيز العليم . ولهذا يذكر سبحانه هذا التقدير ويضيفه إلى عزته وعلمه كما قال (تعالى) : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ(٣٧)وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ(٣٨) ﴾[٤] .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ﴾ إلى قوله : ﴿ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ(١٢) ﴾[٥] .

وقال تعالى : ﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ(٩٦) ﴾[٦] .

فهذه ثلاثة مواضع يذكر فيها أن تقدير حركات الشمس والقمر والأجرام العلوية وما نشأ[٧]عنها كان من مقتضى عزته وعلمه ، وأنه قدره بهاتين الصفتين . وفي هذا تكذيب لأعداء الله الملاحدة الذين / ينفون قدرته واختياره وعلمه بالمغيبات . [٦٠/أ]



(1) في غير الأصل : (فلا يبقى موضع من المواضع) .
(2) في غير الأصل : (كل منهما من صاحبه) .
(3) في الأصل (الليل) وفي البقية (النهار) .
(4) سورة يس الآيتان (٣٧-٣٨) .
(5) سورة فصلت الآيات (٩-١٢) . وفي غير الأصل ذكر الآيات كاملة .
(6) سورة الأنعام الآية (٩٦) .
(7) في (ق) والمطبوع : (ينشأ) .

فصل

وأقسم سبحانه بهذه الأشياء الثلاثة وهي القمر والليل إذا أدبر والصبح إذا أسفر على المعاد لما في المقسم[١] به من الدلالة على ثبوت المقسم عليه ، فإنه يتضمن كمال قدرته وحكمته وعنايته بخلقه ، وإبداء الخلق وإعادته كما هو مشهود في إبداء النهار والليل وإعادتهما وفي إبداء النور وإعادته في القمر ، وفي إبداء الزمان وإعادته الذي هو حاصل بسير الشمس والقمر ، وإبداء الحيوان والنبات وإعادتهما ، وإبداء فصول السنة وإعادتها ، وإبداء ما يحدث في تلك الفصول وإعادته ، فكل ذلك دليل ظاهر على المبدأ والمعاد الذي أخبرت به رسله[٢]كلهم عنه ، فصرف سبحانه الآياتالدالة على صدقه ، وصدق رسله ونوعها ، وجعلها للفطر تارة ، (وللعقول تارة)[٣] ، وللسمع تارة ، وللمشاهدة تارة ، فجعلها آفاقية ونفسية ، ومنقولة ومعقولة ، ومشهودة بالعيان ومذكورة بالجنان ، فأبى الظالمون إلا كفوراً[٤]﴿ **وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا(٣)** ﴾[٥] .

ولما أقام الحجة ، وبين المحجة ، ارتهن كل نفس بكسبها ، وواخذها[٦] بذنبها ، واستثنى من أولئك من قبل هداه ، واتبع رضاه ن وهم أصحاب اليمين الذين أمنوا بالله وصدقوا المرسلين ، وسلكوا غير سبيل المجرمين ، الذين ليسوا من المصلين ولا من مطعمي المساكين ، وهم / من أهل [٦٠/ب] الخوض مع الخائضين المكذبين بيوم الدين ، فهذه أربع صفات أخرجتهم من زمرة المفلحين وأدخلتهم في جملة الهالكين :

الأولى : ترك الصلاة ، وهي عمود الإخلاص للمعبود .

---

[١]في (ق) والمطبوع : (القسم) .
[٢]في المطبوع : (الرسل) .
[٣]سقط من المطبوع .
[٤]كما في قوله تعالى (فأبى أكثر الناس إلا كفوراً) سورة الإسراء الآية (٨٩) .
[٥]سورة الفرقان الآية (٣) .
[٦]في المطبوع : (وأخذها).

الثانية : ترك إطعام المسكين الذي هو أهمُّ مراتب الإحسان للعبيد .

فلا إخلاص للخالق ، ولا إحسان للمخلوق كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦)وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ(٧) ﴾[1] ، وقال (تعالى) : ﴿ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ(٥٤) ﴾[2] ، وهذا ضد ما وصف به أصحاب اليمين بقوله (عز وجل) : ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ(٣) ﴾[3] وقال (تعالى) : ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ(١٦) ﴾[4] . وقرن سبحانه بين هذين الأصلين في غير موضع من كتابه :

فأمر بهما تارة [5]، وأثنى على فاعلهما تارة[6]، وتوعد بالويل والعقاب تاركهما تارة [7]، فإن مدار النجاة عليهما ولا فلاح لمن أخل بهما .

الصفة الثالثة والرابعة : الخوض بالباطل ، والتكذيب بالحق (فاجتمع لهم عدم الإخلاص والإحسان ، والخوض بالباطل والتكذيب بالحق)[8] ، واجتمع لأصحاب اليمين الإخلاص ، والإحسان ، والتصديق بالحق ، والتكلم به ، فاستقام إخلاصهم وإحسانهم ، ويقينهم وكلامهم .

واستبدل أصحاب الشمال بالإخلاص شركاً ، وبالإحسان إساءة ، وباليقين شكاً وتكذيباً ، وبالكلام النافع خوضاً في الباطل ، فلذلك لم تنفعهم شفاعة الشافعين ، أي : لم يكن [9]من يشفع فيهم ، لا أن شفاعة تقع فيهم ولا تنفع ، وهذا لما أعرضوا عن التذكرة و لم يرفعوا بها رأساً وجفلوا عند[10] سماعها / كما تجفل حُمُرُ الوحش من الأسد ، أو الرماة . [٦١/أ]

---

[1] سورة الماعون الآيتان (٦-٧) .

[2] سورة التوبة الآية (٥٤) .

[3] سورة الأنفال الآية (٣) .

[4] سورة السجدة (الآية (١٦)

[5] في قوله تعالى : (ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ، وادعوه خوفاً وطمعاً) سورة الأعراف الآية (٥٦) .

[6] كما في قوله تعالى : (أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة يورجو رحمة ربه) سورة الزمر (٩) .

[7]

[8] سقط من (ق) .

[9] في غير الأصل : (لم يكن لهم) .

[10] في غير الأصل و (ب) : (عن) .

ثم ختم السورة بأنه جمع فيها بين شرعه وقدره ، وإقامة الحجة عليهم بإثبات المشيئة لهم وبيان مقتضى التوحيد والربوبية ، أن [١]ذلك إليه لا إليهم ، فالأول: عدله ، والثاني : فضله ، فالأول: يوجب السعي والطلب والحرص على ما ينجيهم ، كما يفعلون ذلك في مصالح دنياهم بل أشد ، والثاني : يوجب الاستعانة والتوكل والتفويض والرغبة إلى من ذلك بيده ليسهله[٢] ويوفقهم له ، والله المستعان وعليه التكلان .



[١] في المطبوع : (وأن) .

[٢] في المطبوع : (ليسهل لهم) .

فصل

{ القسم في سورة الحاقة }

ومن ذلك قوله (تعالى)(١): ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ(٣٨)وَمَا لَا تُبْصِرُونَ(٣٩)إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ(٤٠) ﴾(٢) إلى آخرها .

قال مقاتل : (بما تبصرون من الخلق وما لاتبصرون منه)(٣) .

قال قتادة : " أقسم بالأشياء كلها ما(٤)يبصر منها وما لا يبصر (٥).

وقال الكلبي : ما يبصرون من شيء وما لا يبصرون من(٦)شيء .

وهذا أعم قسم وقع في القرآن ، فإنه يعم العلويات والسفليات ، والدنيا والآخرة ، وما يرى وما لا يرى ، ويدخل في ذلك الملائكة كلهم والجن والأنس ، والعرش والكرسي ، وكل مخلوق ، وذلك كلّه(٧)من آيات قدرته وربوبيته ، وهو سبحانه يصرف الأقسام كما يصرف الآيات، ففي ضمن هذا القسم أن كل ما يرى وما لا يرى آية ودليل على صدق رسوله ، وإن ما جاء به هومن عند الله ، وهو كلامه لا كلام شاعر ولا مجنون ولا كاهن . ومن تأمل المخلوقات ما يراه منها وما لا يراه ،واعتبر ما جاء به الرسول بها ، ونقل فكرته في مجاري / الخلق والأمر ظهر [٦١/ب] له أن هذا القرآن من عند الله ، وأنه كلام الله (٨)، وهو أصدق الكلام ، وأنه حق ثابت .

كما أن سائر المخلوقات (٩)ما يرى منها وما لا يرى حق (١٠). كما قال تعالى : ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ(٢٣) ﴾(١١) أي أن كان نطقكم حقيقة وهو أمر

---

(١) سقط من المطبوع .

(٢)سورة الحاقة الآيات(٣٨- ٤٠) .

(٣)أنظر : البسيط (١/ ١٠٩) .

(٤)في غير الأصل و (ب) : (بما) .

(٥)أنظر : معالم التنزيل (٨ /٢١٤) .

(٦)في (م) و (ق) : (ما تبصرون – ما لا تبصرون) . وفي المطبوع : (تبصرون من شيء ، وما لا تبصرون). وأنظر : البسيط (١ / ١٠٩) .

(٧)في المطبوع : (وكل ذلك) .

(٨)في غير الأصل : (وأنه كلامه) .

(٩)في غير الأصل : (الموجودات) .

(١٠)في (ق) : زيادة : (ثابت) .

(١١)سور الذاريات الآية (٢٣) .

موجود لا تمارون فيه ولا تشكون فهكذا ما أخبرتكم به من التوحيد والمعاد والنبوة حق ، كما في الحديث : " **إنه لحق كما أنك ههنا** "[١] فكأنه سبحانه يقول : إن القرآن حق كما أن ما شاهدوه من الخلق وما لا يشاهدونه حق موجود ، بل لو فكرتم فيما تبصرون وفيما لا تبصرون لدلكم ذلك على أن القرآن حق ، ويكفي[٢]الإنسان من جميع ما يبصره وما لا يبصره[٣]نفسه[٤]، ومبدأ خلقه ونشأته ، وما يشاهده من أحواله ظاهراً وباطناً ، ففي ذلك أبين دلالة على وحدانية الرب ، وثبوت صفاته ، وصدق ما أخبر به رسوله ﷺ ، ومن لم يباشر قلبه ذلك حقيقة لم يخالط بشاشة الإيمان قلبه[٥].

ثم ذكر سبحانه المقسم عليه فقال : ﴿ **إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ** ﴾ وهذا رسوله البشري محمد ﷺ ، وفي إضافته إليه باسم الرسالة أبين دلالة[٦]أنه كلام المرسل (له حقيقة ، وكلام رسوله تبليغاً ، إذ حقيقة الرسول من يبلغ كلام المرسل)[٧] فمن أنكر أن يكون الله قد تكلم بالقرآن فقد

---

[١]في غير الأصل : (أنه لحق مثل ما أنك ههنا) وهذه جزء العبارة من حديث أخرجه أبو داود في سننه (٣٢) كتاب الملاحم ، (٣) باب أمارات الملاحم ح (٤٢٩٤) ، وابن أبي شيبة في مصنفه في كتاب الفتن ، (٢) ما ذكر في فتنة الدجال ح (٣٧٤٧٧) ، والخطيب البغدادي في تاريخه (٢٢٣/١٠) في ترجمة عبدالرحمن بن ثابت الشامي ، من حديث معاذ بن جبل ري الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (عمران بيت المقدس خراب يثرب ، وخراب يثرب خروج الملحمة ، وخروج الملحمة فتح القسطنطينية ، وفتح القسطنطينية خروج الدجال) ثم ضرب بيده على فخذ الذي حدثه أو منكبه ثم قال : (إن هذا لحق كما أنت ههنا ، أو : كما أنك قاعد) يعني معاذ بن جبل . وقد حسنه الألباني رحمه الله كما في صحيح أبي داود (٨١٠/٣) ، وفي تخريجه للمشكاة (١٤٩٤/٣) .

[٢]في (ق) : (يلقي) .

[٣]في (م) و (ق) : (تبصره – لا تبصره)

[٤]في المطبوع : (بعينه) .

[٥]إشارة إلى حديث أبي سفيان مع هرقل عندما سأله هرقل عن المسلمين هل يرتد أحدهم عن دينه ؟ فقال : لا ، فقال له : (وكذلك الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب).

أنظر ما أخرجه البخاري في صحيحه في (١) كتاب بدء الخلق (٦) باب .ح(٧) من حديث عبدالله بن عباس رضي الله عنهما .

[٦]في (ب) والمطبوع : (أبين دليل) ، ، وفي (م) و (ق) : (أبين ذلك) .

[٧]سقط من المطبوع

أنكر حقيقة الرسالة ، ولو كانت إضافته إليه إضافة إنشاء وابتداء لم يكن رسولاً ، ولناقض ذلك إضافته إلى رسوله الملكي في سورة التكوير[١].

ثم بيّن سبحانه كذب أعدائه وبهتهم في نسبة كلام رب العالمين[٢]إلى غيره ، وأنه لم يتكلم به بل قاله من تلقاء نفسه ، كما بين كذب من قال : ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ(٢٥) ﴾[٣] . فمن زعم أنه قول البشر فقد كفر وسيصليه[٤]سقر /. [٦٢/أ]

ثم أخبر سبحانه أنه تنزيل من رب العالمين ، وذلك يتضمن أموراً :

أحدهما : أن الله تعالى[٥]فوق خلقه كلهم ، وأن القرآن نزل من عنده .

الثاني : أنه كلامه تكلم به حقيقة ، لقوله : ﴿ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ(٨٠) ﴾[٦] ولو كان غيره هو المتكلّم به لكان من ذلك الغير ونظير هذا قوله (تعالى) : ﴿ وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي ﴾[٧] ، ونظيره قوله : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾[٨] .

ونظيره قوله (تعالى) : ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ[٩]الْحَكِيمِ ﴾[١٠] ، وقوله :

﴿ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[١١] وما كان من الله فليس بمخلوق ، ولا ينتقض هذا بأن الرزق والمطر وما في السماوات والأرض جميعاً منه وهو مخلوق ؟ لأن ذلك كله أعيان قائمة بأنفسها ، وصفات وأفعال لتلك الأعيان ، فإضافتها إلى الله سبحانه وأنها منه إضافة خلق ، كإضافة بيته وعبده وناقته وروحه وبابه إليه ، بخلاف كلامه فإنه لا بد أن يقوم بمتكلم ؟ إذ كلام

---

(١) كما في قوله تعالى : (إنه لقول رسول كريم . ذي قوة عند ذي العرش مكين . مطاع ثم أمين) التكوير الآيات (١٩-٢١) انظر : تفسير ابن كثير (٤/٤١٧) .

(٢) في غير الأصل : (في نسبة كلامه تعالى إلى غيره) .

(٣) سور المدثر الآية (٢٥) .

(٤) في غير الأصل : (وسيصليه الله سقر) .

(٥) في غير الأصل : (أنه تعالى) .

(٦) سورة الواقعة الآية (٨٠) .

(٧) سورة السجدة الآية (١٣) .

(٨) سورة النحل الآية (١٠٢)

(٩) سورة الزمر الآية (١)

(١٠) سقط من (م) و (ق) و (ب) .

(١١) سورة فصلت الآية (٤٢) .

من غير متكلم كسمع من غير سامع ، وبصر من غير مبصر ، وذلك عين المحال ، فإذا أضيف إلى الرب كان بمنزلة إضافة سمعه وبصره وحياته وقدرته وعلمه ومشيئته إليه .

ومن زعم أن هذه إضافة مخلوق إلى خالق فقد زعم أن الله (تعالى)[١] لا سمع له ولا بصر ولا حياة ولا قدرة ولا مشيئة تقوم به ، وهذا هو التعطيل الذي هو شر من الإشراك .

وإن زعم أن إضافة السمع والبصر[٢] والحياة والقدرة إضافة صفة إلى موصوف وإضافة الكلام إليه إضافة[٣] مخلوق إلى خالق فقد تناقض وخرج عن موجب العقل والفطرة والشرع ولغات الأمم بين متماثلين حقيقة وعقلاً وشرعاً وفطرة ولغة .

وتأمّل كيف أضافه سبحانه إلى الرسول[٤] ﷺ بلفظ القول وأضافه إلى نفسه بلفظ الكلام في قوله (عز وجل) : ﴿ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾[٥] / فإن الرسول يقول للمرسل إليه ما أمر [٦٢/ب] بقوله ، فيقول : قلت له كذا وكذا ، وقلت له : ما أمرتني أن أقوله ، كما قال المسيح : ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ ﴾[٦] والمرسل يقول للرسول : قل لهم كذا وكذا ، كما قاله سبحانه وتعالى[٧]: ﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾[٨] ، ﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[٩] و[١٠]﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾[١١] ونظائره .

فإذا بلّغ الرسول ذلك صح أن يقال : قال الرسول كذا (وكذا)[١٢]، وهذا قول الرسول أي قاله مبلغاً ، وهذا قوله مبلغاً عن مرسله .

---

[١] سقط من غير الأصل .
[٢] في غير الأصل : زيادة (والعلم) .
[٣] في المطبوع : (فإضافة) .
[٤] سقط من غير الأصل و (ب) .
[٥] سورة التوبة الآية (٦) .
[٦] سورة المائدة الآية (١١٧) .
[٧] في غير الأصل : (كما قال تعالى) .
[٨] سورة إبراهيم الآية (٣١) .
[٩] سورة الإسراء الآية (٥٣) .
[١٠] سقط من غير الأصل و (ب)
[١١] سورة النور الآية (٣٠) .
[١٢] سقط من المطبوع

ولم[1] يجيء في شيء من ذلك تكلم لهم بكذا بكذا ، ولا تكلم الرسول بكذا وكـــذا ، ولا أنه لكلام رسول كريم ، ولا في موضع واحد ، بل قيل للصديق وقد تلى آية هذا كلامك وكلام صاحبك . فقال : ليس بكلامي ولا كلام صاحبي هذا كلام الله .



---

[1] في المطبوع : (ولا) .

فصل

الأمر الثالث : مما[1] تضمنه قوله : ﴿ تَنزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أن ربوبيته الكاملة لخلقه تأبى أن يتركهم سدى لا يأمرهم ولا ينهاهم ولا يرشدهم إلى ما ينفعهم ، ويحذرهم مما[2] يضرهم ، بل يتركهم هملاً بمنزلة الأنعام السائمة ، فمن زعم ذلك فلم يقدر رب العالمين حقَّ[3] قـدره ، ونسبه إلى ما لا يليق به[4] ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾[5] .

ثم أقام سبحانه البرهان القاطع على صدق رسوله ﷺ[6] وأنه لم يتقوّل عليه فيما قالـه ، وأنه لو تقوَّل عليه لما أقره ولعاجله بالإهلاك ، فإن كمال علمه وقدرته وحكمته تأبى أن يقر مـن تقول عليه وافترى عليه وأضل عباده واستباح دماء من كذبه وحريمهم وأموالهم وأظهر في الأرض الفساد والجور والكذب ، وخلاف الحق ، فكيف يليق بأحكم الحاكمين / وأرحم الراحمين وأقدر [٦٣/أ] القادرين أن يقره على ذلك ؟ .

بل كيف يليق به أن يؤيده ، وينصره ، ويعليه ، ويظهره ، ويظفره بأهل الحـق يسـفك دماءهم ويستبيح أموالهم وأولادهم ونساءهم قائلاً : إن الله أمرني بذلك وأباحه لي ؟!.

بل كيف يليق به أن يصدقه بأنواع التصديق كلها ، فيصدقه بـإقراره وبالآياتالمسـتلزمة لصدقه التي دلالتها على التصديق كدلالة التصديق بالقول وأظهر ، ثم يصدقه بأنواعها كلها علـى اختلافها ، فكل آية على انفرادها مصدقة له ثم يحصل باجتماع تلك الآياتتصديق فوق تصديق كل آية بمفردها ، ثم يعجز الخلق عن معارضته ثم يصدقه بكلامه وقوله ، ثم يقيم الدلالة القاطعة علـى أن هذا قوله وكلامه ، فيشهد له بإقراره وفعله وقوله ، فمن أعظم المحال وأبطل الباطـل وأبـين البهتان أن يجوز على أحكم الحاكمين ورب العالمين أن يفعل ذلك بالكاذب المفتري عليه الذي هو شر الخلق على الإطلاق ، فمن جوز على الله أن يفعل هذا بشر خلقه وأكذبهم (على الإطلاق)[7]

---

[1] في غير الأصل (وب) : (ما) .
[2] في المطبوع : (ما يضرهم) .
[3] سقط من المطبوع .
[4] في المطبوع : زيادة (تعالى) .
[5] سورة المؤمنون الآية (١١٦) .
[6] سقط من (م) و (ق) والمطبوع .
[7] سقط من غير الأصل .

فما آمن بالله قط[١]، ولا عرف الله ، ولا علم أنه رب العالمين[٢]، ولا يجوز[٣]نسبة ذلك إلى من له مسكة من عقل وحكمة وحجي ، ومن فعل ذلك فقد أزرى بنفسه ونادى على جهله .

وأذكر في هذا مناظرة جرت لي مع بعض علماء اليهود ، قلت له بعد أن أفضى[٤]في نبوة النبي ﷺ إلى أن قلت له : إنكار نبوته يتضمن القدح في رب العالمين ، وتنقصه أقبح[٥]التنقص فكان الكلام معكم في الرسول والكلام الآن في / تتريه الرب تعالى ، فقال : كيف يقول مثلك[٦]هذا الكلام ؟ .

فقلت له : بيانه علي ، فاسمع الآن ، أنتم تزعمون أنه لم يكن رسولاً ، وإنما كان ملكاً قاهراً قهر الناس بسيفه حتى دانوا له ، ومكث ثلاثاً وعشرين سنة يكذب على الله ، ويقول : أوحي إلي . ولم يوح إليه شيء ، وأمرني ولم يأمره بشيء [٧]، ونهاني ولم ينهه ، وقال الله كذا ، ولم يقل ذلك ، وأحلَّ كذا وحرَّم كذا وأوجب كذا وكره كذا ولم يحل ذلك ولا حرمه ولا أوجبه ، بل[٨]فعل ذلك من تلقاء نفسه كاذباً مفترياً على الله وعلى أنبيائه وعلى رسله وعلى ملائكته[٩]، ثم مكث من ذلك ثلاث عشرة سنة يستعرض[١٠]عباده يسفك دمائهم ، ويأخذ أموالهم ، ويسترق نساءهم وأبناءهم ، ولا ذنب لهم إلا الرد عليه ومخالفته ، وهو في ذلك كله يقول : الله أمرني بذلك ، ولم يأمره ، ومع ذلك فهو ساع في تبديل أديان الرسل ونسخ شرائعهم ، وحل نواميسهم ، فهذه حاله عندكم فلا يخلوا إما أن يكون الرب تعالى عالماً بذلك مطلعاً عليه من حاله يراه ويشاهده ، أم لا .

---

[١] في غير الأصل و (ب) : (قطعاً) .
[٢] في غير الأصل : (ولا هذا هو رب العالمين).
[٣] في غير الأصل : (ولا يحسن) .
[٤] في المطبوع : (أقضى) .
[٥] في غير الأصل : (بأقبح) .
[٦] في (ق) والمطبوع : (كيف تقول مثل هذا الكلام ؟) .
[٧] سقط من غير الأصل .
[٨] زيادة (هو) في المطبوع .
[٩] في غير الأصل : (وملائكته) .
[١٠] في (ق) : (يتعرض) .

فإن قلتم إن ذلك جميع غائب عن الله لم يعلم به قدحتم في الرب تعالى ، ونسبتموه إلى الجهل المفرط ، إذ لم يعلم [1]ويطلع على هذا الحادث العظيم [2]، ولا رآه .

وإن قلتم : بل كان ذلك كله بعلمه وإطلاعه ومشاهدته ، قيل لكم : فهل كان قادراً على أن يغير ذلك ويأخذ على يده ويحول بينه وبينه ، أم لا ؟ .

فإن قلتم ليس قادراً على ذلك نسبتموه إلى العجز المنافي للربوبية ، وكان هذا الإنسان هو وأتباعه أقدر منه على تنفيذ إراداتهم .

وإن قلتم : بل كان قادراً ولكن مكنه ونصره وسلطه على الخلق ولم ينصر أولياءه وأتباع رسله نسبتموه إلى أعظم السفه والظلم والإخلال بالحكمة ، وهذا لو كان مخلياً بينه وبين ما فعله / [٦٤/أ] فكيف وهو في ذلك كله ناصره ومؤيده ، ومجيب دعواته ، ومهلك من خالفه وكذبه ، ومصدقه بأنواع التصديق ومظهر الآيات على يديه التي لو اجتمع أهل الأرض كلهم على أن يأتوا بواحدة منها لما أمكنهم ، ولعجزوا عن ذلك ، وكل وقت من الأوقات يحدث له من أسباب النصر والتمكين والظهور والعلو وكثرة الأتباع أمراً خارجاً عن العادة ، فظهر أن من أنكر كونه رسولاً نبياً فقد سب الله (تعالى) وقدح فيه ونسبه إلى الجهل أو العجز أو السفه[3].

قلت له : ولا ينتقض هذا بالملوك الظلمة الذين مكنهم في[4]الأرض وقتاً ما ثم قطع دابرهم ، وأبطل سنتهم ، ومحى آثارهم وجورهم ، فإن أولئك لم يبدو شيئاً من ذلك ، ولم يعيدوا[5]، ولا ظهرت على أيديهم الآيات، ولا صدقهم الرب تعالى بإقراره ولا بفعله ولا بقوله ، بل أمرهم كان بالضد من أمر الرسول ، كفرعون ونمرود وأضرابهما .

ولا ينتقض هذا بمن ادعى النبوة من الكذّابين ؛ فإن حالة ضدّ حال الرسول من كل وجه ، بل حالهم من أظهر الأدلة على صدق الرسول . ومن حكمة الله سبحانه أن أخرج مثل هؤلاء إلى

---

(١) سقط من (م) .

(٢) في غير الأصل : زيادة (ولا علمه) .

(٣) في غير الأصل و (ب) : (والعجز والسفه) .

(٤) في المطبوع : زيادة (الله) .

(٥) في (ب) : (فإن أولئك لم يعيدوا شيئاً من هذا ولا أيدوا ونصروا) وفي (ق) والمطبوع : (فإن أولئك لم يعيدوا شيئاً من هـذا و لا أيدوا ونصروا) .

الوجود ليعلم حال الكذابين وحال الصادقين ، وكان ظهورهم من أبين الأدلة على صدق الرسل ، والفرق بين هؤلاء وبينهم ، فبضدها تتبين الأشياء ، والضدُّ يظهر حسنه الضد ، فمعرفة أدلة الباطل وشبهه من أنواع أدلة الحق وبراهينه .

فلما سمع ذلك قال : معاذ الله لا نقول إنه ملك ظالم ، بل نبي كريم من اتبعه فهو من السعداء ، وكذلك من اتبع موسى فهو كمن اتبع محمداً .

قلت له : بطل كل ما تموهون به[1]، فإنكم إذا قررتم أنه نبي صادق فلا بد من تصديقه في جميع ما أخبر به ، وقد علم أتباعه وأعداؤه بالضرورة / أنه دعا الناس كلهم إلى الإيمان به ، [٦٤/ب] وأخبر أن من لم يؤمن به فهو كافر مخلد في النار ، وقاتل من لم يؤمن به من أهل الكتاب ، وأسجل عليهم بالكفر ، واستباح أموالهم ودماءهم ونساءهم وأبناءهم . فإن كان ذلك عدواناً منه وجوراً لم يكن نبياً ، وعاد الأمر إلى القدح في الرب تعالى ، وإن كان ذلك بأمر الله ووحيه لم تسع مخالفته وترك أتباعه ، ولزم تصديقه فيما أخبر به ، وطاعته فيما أمر .

وقد أرشد سبحانه إلى هذا المسلك في غير موضع من كتابه فقال[2]: ﴿ **وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ(٤٤)لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ(٤٥)ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ(٤٦)فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ(٤٧)** ﴾[3] .

يقول سبحانه لو تقول علينا قولاً واحداً من تلقاء نفسه لم نقله ، ولم نوحه إليه لما أقررناه ، ولأخذنا بيمينه ثم أهلكناه هذا أحد القولين .

قال ابن قتيبة في هذا قولان :

أحدهما : أن اليمين ههنا[4]القوة والقدرة . وأقام اليمين مقام القوة ؟ لأن قوة كل شيء في ميامنه[5].

قلت : وعلى هذا تكون اليمين من صفة الأخذ . قال وهذا قول ابن عباس في اليمين[6]، قال : ولأهل اللغة في هذا مذهب آخر وهو أن الكلام ورد على ما اعتاده الناس من الأخذ بيد من

---

[1] في (م) و (ق) والمطبوع : زيادة (بعد هذا) .

[2] في (ب) : زيادة (تعالى) .

[3] سورة الحاقة الآيات(٤٤ – ٤٧) .

[4] سقط من المطبوع .

[5] تأويل مشكل القرآن ص (١٥٤) .

[6] ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز (١٦/١٠٤) والبغوي في معالم التنزيل (٨/٢١٤) والقرطبي في تفسيره (١٨/٢٧٥) ونسبه في الدر المنثور إلى عبد بن حميد وابن المنذر (٨/ ٢٧٦).

يعاقب ، وهو قولهم : إذا أرادوا عقوبة رجل خذ بيده ، وأكثر ما يقوله السلطان والحاكم بعد وجوب الحكم : خذ بيده ، واسفع بيده فكأنه قال : لو كذب علينا في شيء مما يلقيه[١] إليكم عنا لأخذنا بيده ، ثم عاقبناه بقطع الوتين ، وإلى هذا المعنى ذهب الحسن[٢]. انتهى[٣].

فقد أخبر سبحانه أنه لو تقول عليه شيئاً من الأقاويل لما أقره ولعاجله بالأخذ والعقوبة ، فإن كذبا على الله ليس ككذب على غيره ؟ ولا يليق به أن يقر الكاذب عليه فضلاً عن أن ينصره ويؤيده ويصدقه .

وقوله (تعالى) ﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ(٤٦)﴾[٤] [الوتين][٥]: نياط القلب ، وهو عرق يجري في الظهر حتى يتصل بالقلب ، إذا انقطع بطلت القوى ومات / صاحبه[٦]، هذا قول [٦٥/أ] جميع أهل اللغة .

قال ابن قتيبة : ولم يرد أنا نقطع ذلك العرق بعينه ولكنه أراد لو كذب علينا لامتناه أو قتلناه فكان كمن قطع وتينه قال ومثله قوله ﷺ " **مازالت أكلة خيبر تُعادُني وهذا أوان انقطاع أبهري** "[٧] .

والأبهر عرق يتصل بالقلب فإذا انقطع مات صاحبه فكأنه قال : فهذا أوان قتلني السم ، فكنت كمن انقطع ابهره[٨] ثم قال سبحانه[٩]: ﴿ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ(٤٧) ﴾[١٠] أي لايحجزه مني أحد ولايمنعه مني .

---

[١] في المطبوع : (مما بنغ) ، وفي (ق) بياض .
[٢] تفسير الحسن هو قوله : (لقطعنا يده اليمنى) كما في النكت والعيون (٨٦/٦) والتفسير الكبير (٣٠ /١٠٥) والجامع لأحكام القرآن (٢٧٦/١٨).
[٣] أنظر : تأويل المشكل من (١٥٤ ـ ١٥٥) .
[٤] سورة الحاقة الآية (٤٦) .
[٥] سقط من الأصل .
[٦] أنظر : تفسير غريب القرآن ص (٤١٧) . وأنظر أيضاً : تهذيب اللغة للأزهري (٣٢٤/١٤) مادة (وتن) ، الصحاح (٢٢١١/٦) النهاية في غريب الحديث والأثر (١٤٩/٥) .
[٧] أخرجه البخاري معلقاً في (٦٤) كتاب المغازي (٨٣) باب مرض النبي صلى الله عليه وسلم ووفاته ح (٤٤٢٨) . ولفظه : كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في مرضه الذي مات فيه : (يا عائشة ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من ذلك السم). قال الحافظ أبن حجر رحمه الله : (قد وصله البزار والحاكم والإسماعيلي من طريق عنبسة بن خالد عن يونس بهذا الإسناد : وقال البزار : تفر به عنبسة عن يونس أي : بوصله ، وإلا فقد رواه موسى بن عقبة في المغازي عن الزهري لكنه أرسله . أنظر تغليق التعليق (٤/ ١٦٢ و ما بعدها) .
[٨] تأويل مشكل القرآن ص (١٥٥- ١٥٦) .
[٩] في غير الأصل : (تعالى) .
[١٠] سورة الحاقة الآية (٤٧) .

الموضع الثاني : قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ(٢٤) ﴾[١] وفي معنى الآية قولان للناس[٢] .

أحدهما قول مجاهد[٣]ومقاتل[٤] : " إن يشأ الله يربط على قلبك " بالصبر على أذاهم حتى لا يشق عليك .

والثاني قول قتادة : إن يشأ الله ينسيك القرآن ونقطع عنك الوحي[٥].

وهذا هو القول دون الأول لوجوه :

أحدها : أن هذا خرج جواباً لهم وتكذيباً لقولهم : أن محمدا كذب على الله وافترى عليه هذا القرآن.

فأجابهم بأحسن جواب وهو أن الله سبحانه[٦]قادر لايعجزه شئ فلو كان كما تقولون لختم على قلبه فلا يمكنه أن يأتي بشيء منه بل يصير القلب كالشئ المختوم عليه فلا يوصل إلى ما فيه فيعود المعنى إلى انه لو افتراه عليّ لم امكنه و لم اقره[٧]ومعلوم أن مثل هذا الكلام لايصدر من قلب مختوم عليه فإن فيه من علوم الاولين والاخرين وعلم المبدأ والمعاد والدنيا والآخرة والعلم الذي لايعلمه إلا الله والبيان التام والجزالة والفصاحة والجلالة والأخبار بالغيوب مالا[٨] يمكن من ختم على قلبه أن يأتي بمثله [٩]ولا ببعضه فلولا أني انزلته على قلبه ويسرته بلسانه لما امكنه أن يأتيكم بشئ منه فإين / هذا من[١٠] المعنى إلى المعنى الذي ذكره الآخرون ؟ [٦٥/ب]

---

[١]سورة الشورى الآية (٢٤) .
[٢]في غير الأصل : (للناس قولا ن) .
[٣]قول مجاهد ذكره البغوي في معالم التنزيل (٧ /١٩٢) وابن عطية في المحرر الوجيز (١٤/ ٢٢٠) والرازي في تفسيره (٢٧/ ١٤٤) والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن (١٨/١٦) دار الكتب .
[٤]قول مقاتل ذكره الماوردي في النكت والعيون (٥/ ٢٠٢) ، وابن الجوزي في زاد المسير (٧ / ٢٨٦) والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن (١٨/١٦) .
[٥]قول قتادة أخرجه الطبري في تفسيره بإسناده (٢٥ / ٢٧) والمحرر الوجيز (١٤/ ٢١٩) وورد ذكره أيضاً في : النكت والعيون (٥/ ٢٠٢) ، ومعالم التنزيل (٧/ ١٩٢) والجامع لأحكام القرآن (١٨/١٦) ، ونسبه في الدر المنثور (٨ / ٣٥٠) : إلي عبد بن حميد وابن المنذر وابن جرير.
[٦]في (م) و (ق) والمطبوع : (تعالى) .
[٧]في الأصل : (يقره) وفي غيره (أقره) ولعله هو الصواب .
[٨]في غير الأصل و (ب) : (ما لم) .
[٩]في غير الأصل و (ب) : (أن يأتي به و لا ببعضه) .
[١٠]سقط من غير الأصل .

وكيف يلتئم معنا حكاية قولهم ؟ وكيف يتضمن الرد عليهم ؟

الوجه الثاني :إن مجرد الربط على قلبه بالصبر على أذاهم يصدر من المحق والمبطل فلا يدل ذلك على التمييز بينهما ولا يكون فيه رد لقولهم فإن الصبر على أذى المكذب لا يدل بمجرده على صدق المخبر

الثالث : أن الربط على قلب العبد بالصبر لايقال له ختم على قلبه ، ولا يعرف هـذا في عرف المخاطب ولا لغة العرب .ولا هو المعهود في القرآن ، بل المعهود استعمال الختم على القلب في شأن الكفار في جميع موارد اللفظة[1]في القرآن كقوله (تعالى) : ﴿ **وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً** ﴾[2] ونظائره وما ربطه على قلب العبد بالصبر فكقولـه (تعـالى) : ﴿ **وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** ﴾[3] وقولـه (تعـالى) : ﴿ **وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا** ﴾[4] والانسـان يسوغ له في الدعاء أن يقول : " اللهم أربط على قلبي " ولا يحسن أن يقـول " اللـهم اختـم على قلبي " .

الرابع : أنه سبحانه حيث يحكي قولهم[5] " أنه افتراه " لايجيبهم على هذا الجـواب بـل يجيبهم بأنه لو افتراه لم يملكوا له من الله شئيا ، بل كان يأخذه ولا يقدرون على تخليصه كقولـه (تعالى) ﴿ **أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا** ﴾[6] وتـارة يجيبـهم بالمطالبة بمعارضته بمثله ، أو شئ منه ، وتارة بإقامة الادلة القاطعة على أنه الحـق ، وأنهـم هـم الكاذبون المفترون ، وهذا هو الذي يحسن في جواب[7] السؤال لا مجرد الصبر .

الخامس : إن هذه الاية نظير ما نحن فيه ، وأنه لو شاء لما أقرَّه ولا مكَّنه وتفسير القـرآن بالقرآن من أبلغ التفاسير .

---

[1] في المطبوع : (اللفظ) .
[2] سورة الجاثية الآية (٢٣).
[3] سورة الكهف الآية (١٤)
[4] سورة القصص الآية (١٠)
[5] في المطبوع : (أقوالهم) .
[6] سورة الأحقاف الآية (٨) .
[7] في غير الأصل زيادة : (هذا) بعد (جواب) .

السادس : أنه لا دلالة في سياق الاية على الصبر / بوجه ما: لا بالمطابقة و لا التضمن ، [٦٦/أ] ولا اللزوم . فمن أين يعلم أنه أراد ذلك ؟

و لم يتمّ [١]هذا المعنى في غير هذا الموضع فيحمل عليه ، بخلاف كونه يحول بينه وبينه ولا يمكنه من الافتراء علي فقد ذكره في مواضع .

السابع : أنه سبحانه أخبر أنّه لو شاء لما تلاه عليهم ولا أدراهم به وإن ذلك إنما هو بمشيئته وإذنه وعلمه ، كما قال تعالى : ﴿ **قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ**[٢]....﴾[٣] . فهذا من أبلغ الحجج وأظهرها أي هذا الكلام ليس من قبلي ولا من عندي ولا أقدر أن افتريه على الله . ولو كان ذلك مقدور إلي لكان مقدروا لمن هو من أهل العلم و الكتابة ومخالطة الناس والتعلم منهم ، ولكن الله بعثني به ، ولو شاء سبحانه لم يترله و لم ييسره بلساني ، فلم يدعني أتلوه عليكم ولا اعلمكم به البتة لا على لساني ولا لسان غيري ، ولكنه أوحاه إليّ وأذن لي في تلاوته عليكم وأدراكم به بعد أن لم تكونوا دارين به فلو كان كذباً وافتراء على الله كما تقولون لأمكن غيري أن يتلوه عليكم وتدرون به من جهته ، لان الكذب لايعجز عنه البشر ، وانتم لم تدروا بهذا و لم تسمعوه إلا مني ، و لم تسمعوه من بشر غيري .

ثم أجاب عن سؤال مقدر[٤]وهو أنه تعلمه من غيره أو افتراه من تلقاء نفسه فقال : ﴿**فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ** ﴾[٥] تعلمون حالي ولا يخفى عليكم سيري ومدخلي ومخرجي وصدقي وأمانتي ، ومن هذا لم اتمكن من قول شئ منه البتة ، ولا كان لي علم به ولا ببعضه ، ثم أتيتكم به وهلة من غير تعمّل[٦]ولا تعلم ولا معاناة للاسباب التي اتمكن بها منه ولا من بعضه وهذا من أظهر الادلة وابين البراهين أنه من عند الله أوحاه / إلىّ وانزله عليّ ولو شاء[٧]ما فعل فلم يمكني من

---

[١] في (م) و (ق) والمطبوع : (ولم يستمر) .

[٢] سورة يونس الآية (١٦) .

[٣] هكذا في الأصل ، وفي غيره لم يذكر (فقد لبث فيكم) .

[٤] في (ب) و (م) : (مقرَّر)

[٥] سورة يونس الآية (١٦) .

[٦] تعمل بمعنى : تعني من غير تعمل أي : من غير تعني . اللسان (٤٠١/٩) .

[٧] في (م) و (ق) والمطبوع : (فلو)

[٦٦/ب]

تلاوته(ولا مكنكم من العلم به)[١]، بل مكنني من تلاوته ومكنكم من العلم به ، فلم تكونوا عالمين به ولا ببعضه ، ولم أكن قبل أن يوحى إليّ تالياً له ولا لبعضه فتأمل صحة هذا الدليل وحسن تأليفه وظهور دلالته .

ومن هذا قوله سبحانه : ﴿ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾[٢] وهذا هو المناسب لقوله (تعالى) ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾[٣] ولقوله تعالى ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ(٤٤)لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ(٤٥) ﴾[٤] فهو[٥]برهان مستقل مذكور في القرآن على وجوه متعددة . والله أعلم .

الثامن : أن مثل هذا التركيب إنما جاء في القرآن للنفي لا للإثبات ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾[٦] وقوله(عزَّ وجلَّ) ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ﴾[٧] وقوله (تعالى) ﴿ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ ... ﴾[٨] الآية [٩] .

وقوله تعالى ﴿ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ ﴾[١٠] ونظائره لم يأتِ إلا فيما كان ما بعد فعل المشيئة منفياً .

التاسع : أن الختم على القلب لايستلزم الصبر ، بل قد يختم على قلب العبد ويسلبه صبره ، بل إذا ختم على القلب زال الصبر وضعف بخلاف الربط على القلب فإنه يستلزم الصبر كما قال تعالى : ﴿ وَيُنَزِّلُ[١١]عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ

[١٦٧/أ]

[١] سقط من (ق)

[٢] سورة الإسراء الآية (٨٦) .

[٣] سورة الشورى الآية (٢٤) . و(م) والمطبوع) : تكملة الآية .

[٤] سورة الحاقة (٤٤- ٤٥) .

[٥] في المطبوع : (وبرهان) .

[٦] سورة لإسراء الآية (٨٦) .

[٧] سورة النساء الآية (١٣٣) .

[٨] سورة الشورى الآية (٣٣) .

[٩] في (م) و (ق) والمطبوع زيادة (فيظللن رواكدا على ظهره).

[١٠] سورة سبأ الآية (٩) .

[١١] في الأصل : (وتنزل) .

عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ(١١)﴾[١] ومعنى الربط في اللغة الشدُّ . ولهذا يُقال لكل من صبر على أمر ربط قلبه ، كأنه حبس قلبه عن الاضطراب ، ومنه يقال : هو رابط الجأش ، وقد ظن الواحدي[٢] أن على زائد ، والمعنى يربط قلوبكم ، وليس كما ظن ، بل بين ربط الشئ والربط عليه فرق ظاهر فإنه يقال : ربط الفرس والدابة ، ولا يقال : / ربط عليها .

فإذا أحاط الرباط بالشئ وعمَّه (كلّه)[٣] قيل : ربط عليه ، كأنه أحاط عليه بالرباط ، فلهذا قيل : ربط على قلبه ، وكان أحسن من أن يقال ربط قلبه[٤].

والمقصود أن هذا الربط معه يكون الصبر أشد واثبت بخلاف الختم .

العاشر : أن الختم هو شد القلب حتى لايشعر ولا يفهم ، فهو مانع يمنع العلم والتصديق ، والنبي ﷺ . كان يعلم قول أعدائه أنه افترى القرآن . ويشعر به ، فلم يجعل الله على قلبه مانعاً من شعوره بذلك وعلمه به .

فإن[٥]قيل : الأمر كذلك ، ولكن جعل الله على قلبه مانعاً من التأذي بقولهم . قيل : هذا أولى أن لا يسمي ختماً ، وقد[٦]يؤذيه قولهم ويحزنه كما قال تعالى : ﴿ **قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ** ﴾[٧] وكان وصول هذا الأذى إليه من كرامة الله له ، فإنه لم يؤذ نبي ما أوذي فالقول في الاية هو قول قتادة ، والله أعلم .

ثم أخبر سبحانه أن القرآن تذكرة للمتقين ، يتذكر به المتقي فيصبر ما ينفعه فياتيه ، وما يضره فيجتنبه ، ويتذكر به اسماء الرب تعالى وصفاته وافعاله فيؤمن ، ويتذكر به ثوابه وعقابه ووعده[٨]ووعيده وامره ونهيه وآياته في اوليائه واعدائه ، ونفسه وما يزكيها ويطهرها ويعليها ، وما يدسيها ويخفيها ويحقرها ويتذكر[٩]به علم المبدأ والمعاد ، والجنة والنار ، وعلم الخير والشر . فهو التذكرة على الحقيقة ، تذكرة حجة للعالمين ، ومنفعة وهداية للمتعلمين .

---

[١]سورة الأنفال الآية (١١) .

[٢]حيث يقول في تفسيره : ((ويشبه أن يكون (على) ههنا صلة ، والمعنى : وليربط قلوبكم بالصبر ، وما أوقع فيها من اليقين فتثبت ولا تضطرب)). أنظر البسيط (١/١٥٤) . ت / إبراهيم الحسن . رسالة غير منشورة .

[٣]سقط من (م) و (ق) والمطبوع .

[٤]انظر : زاد المسير (٣/٣٢٨) ، التفسير الكبير (١٥/١٠٨-١٠٩) ، روح المعاني (٥/١٧٦-١٧٧) .

[٥]في المطبوع : (فإذا) .

[٦]فني غير الأصل : (وقد كان يؤذيه).

[٧]سورة الأنعام الآية (٣٣).

[٨]في (م) و (ق) المطبوع ساقطة .

[٩]في (م) و (ق) المطبوع : (يذكر).

ثم قال سبحانه : ﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ(٤٩) ﴾[(١)] لايخفون[(٢)] علينا فنجـــازيهم بتكذيبهم .

ثم أخبر سبحانه أن رسوله وكلامه حسرة على الكافرين .

إذا عاينوا حقيقة ما اخبر[(٣)]كان تكذيبهم عليهم من أعظم الحسرات ، حـــين لايـــنفعهم التحسر .

وهكذا كل من كذب بحق وصدق بباطل ، فإنه إذا انكشف له حقيقة / ما كـــذب بـــه [٦٧/ب] وصدق به كان تكذيبه وتصديقه حسرة عليه ، كمن فرط فيما ينفعه وقـــت تحصـــيله حـــتى إذا اشـــتدت حاجتـــه إليـــه وعـــاين فـــوز المحصـــلين صـــار تفريطـــه حســـرة عليـــه .

ثم أخبر سبحانه أن القرآن والرسول حق اليقين .فقيل : هو من باب اضافة الموصوف إلى صفته ، أي الحق اليقين نحو مسجد الجامع ، وصلاة الاولى ، وهذا موضع يحتاج إلى تحقيق ، فنقول وبالله التوفيق ذكر الله سبحانه في كتابه مراتب اليقين وهي ثلاثة : حق اليقين ، وعلم اليقين ، وعـــين اليقين كما قال تعالى : ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ(٥)لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ(٦)ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَـــا عَـــيْنَ الْيَقِينِ(٧)﴾[(٤)]

فهذه ثلاث مراتب لليقين ،

أولها : علمه وهو التصديق التام به بحيث لايعرض له شك ولا شبهة تقدح في تصـــديقه ، كعلم اليقين بالجنة مثلاً ، وتيقنهم أنها دار المتقين ، ومقر المؤمنين . فهذه مرتبة العلم كتيقنـــهم أن الرسل أخبروا بها عن الله ، وتيقنهم صدق المخبر .

المرتبة الثانية : عين اليقين وهي مرتبة الرؤية والمشاهدة ، كما قال تعالى : " **ثم لترونهـــا عين اليقين** " وبين هذه المرتبة والتي قبلها فرق ما بين العلم والمشاهدة ، فاليقين للسمع ، وعـــين اليقين للبصر ، وفي المسند للإمام أحمد مرفوعاً " **ليس المخبر[(٥)] كالمعاين**"[(٦)] وهذه المرتبة هي التي

[(١)]سورة الحاقة الآية (٤٩) .
[(٢)]في المطبوع : زيادة (أي :) .
[(٣)]في غير الأصل : زيادة (به) .
[(٤)]سورة التكاثر الآيات(٧-٥).
[(٥)]في (ق) والمطبوع : (الخبر) .
[(٦)]أخرجه أحمد في مسنده (١ / ٢١٥).

سألها إبراهيم الخليل أن يريه الله كيف يحيي الموتى ليحصل له مع علم اليقين عين اليقين ، فكأن سؤاله زيادة لنفسه ، وطمأنينة لقلبه ، فيسكن القلب عند المعاينة ويطمئن لقطع المسافة التي بين الخبر والعيان . وعلى هذه المسافة اطلق النبي ﷺ لفظ الشك حيث قال : " **نحن أحق بالشك من إبراهيم** "[١] ومعاذ الله أن يكون هناك شك منه ولا من إبراهيم وإنما هو عين بعد علم ، وشهود بعد خبر ، ومعاينة بعد سماع

المرتبة الثالثة / : مرتبة حق اليقين ، وهي مباشرة الشئ بالاحساس به كما إذا دخلوا [٦٨/أ] الجنة وتمتعوا بما فيها فهم في الدنيا في مرتبة علم اليقين ، وفي الموقف حين تزلف وتقرب منهم حتى يعاينوها في مرتبة عين اليقين ، وإذا دخلوها وباشروا نعيمها في مرتبة حق اليقين ، ومباشرة المعلوم تارة يكون بالحواس الظاهرة ، وتارة يكون بالقلب ، فلهذا قال : ﴿ **وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِيْنِ** ﴾ فإن القلب يباشر الإيمان به ويخالطه كما يباشر بالحواس الظاهرة[٢] ما يتعلق بها ، فحينئذ تخالط بشاشته[٣] القلوب ويبقى لها حق اليقين[٤] ، وهذه أعلى مراتب الإيمان ، وهي الصديقية التي تتفاوت فيها مراتب المؤمنين .

وقد ضرب بعض العلماء للمراتب الثلاث[٥] مثالاً فقال : " إذا قال لك من تجزم بصدقه : عندي عسل أريد أن أطعمك منه فصدقته كان ذلك علم اليقين ، فإذا أحضره بين يديك صار ذلك عين اليقين ، فإذا ذقته صار ذلك حق اليقين .

وعلى هذا فليست هذه الإضافة من باب إضافة الموصوف إلى صفته ، بل من باب[٦] إضافة الجنس إلى نوعه ، فإ العلم والعين والحق أعم من كونها يقيناً فأضيف العام إلى الخاص ، مثل بعض المتاع ، وكل الدراهم ، ولما كان المضاف والمضاف إليه في هذا الباب يصدقان على ذات واحدة بخلاف قولك : دار عمر ، وثوب زيد ظن من ظن أنها من إضافة الموصوف إلى صفته ، وليس

---

(١) أخرجه البخاري في (٦٠) كتاب أحاديث الأنبياء ، (١١) باب قول الله عز وجل (ونبئهم عن ضيف إبراهيم ..) (وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحي الموتى) ح (٣٣٧٢) ، ومسلم في (١ ٩ كتاب الإيمان ، (٦٩) باب زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة ح (١٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) سقط من غير الأصل

(٣) في (م) : (بشاشة) .

(٤) في (م) و (ق) و (ب) : (يقين) .

(٥) في (م) و (ق) والمطبوع : (الثلاثة) .

(٦) سقط من (م) و (ق) والمطبوع .

كذلك بل هي من باب إضافة الجنس إلى نوعه ، كثوب خز ، وخاتم فضة ، فالمضاف إليه قد يكون مغايراً لمضاف ، ولا يصدقان على ذات واحدة .

وقد يجانسه فيصدقان على مسمى واحد ، والله أعلم .

ثم ختم السورة بقوله (تعالى) : ﴿ **فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ(٥٢)** ﴾[1] وهي جديرة بهذه الخاتمة لما تضمنته من الاخبار عن عظمة الرب / تعالى وجلاله ، وذكر عظمة ملكه وجريان [٦٨/ب] حكمه بالعدل على عباده في الدنيا والآخرة ، وذكر عظمته تعالى في ارسال رسوله ، و إنزال كتابه ، وأنه تعالى أعظم وأجلّ واكبر عند أهل سمواته والمؤمنين من عباده من أن يقر كذباً منقولاً عنه مفترياً عليه يبدل دينه ، وينسخ شرائعه ، ويقتل عباده ، ويخبر عنه بما لاحقيقه له ، وهو سبحانه مع ذلك يؤيده وينصره ، ويجيب دعواته ، ويأخذ أعداءه ، ويرفع قدره ، ويعلي ذكره .

فهو سبحانه العظيم الذي تأبى عظمته أن يفعل ذلك بمن أتى بأقبح أنواع الكذب والظلم فسبحان ربنا العظيم وتعالى عما ينسبه إليه الجاهلون علواً كبيراً .



---

[1] سورة الحاقة الآية (٥٢) .

فصل

{ القسم في سورة المعارج }

ومن ذلك قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ(٤٠) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ (خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ)[١] (٤١) ﴾[٢].

أقسم سبحانه برب المشارق والمغارب ، وهي إمّا مشارق النجوم ومغاربها ، أو مشارق الشمس ومغاربها .، وإن كل موضع من الجهة مشرق ومغرب ، فلذلك[٣] جمع في موضع وأفرد في موضع وثنى في موضع آخر ، فقال (تعالى) : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ(١٧) ﴾[٤] فقيل : هما مشرقا الصيف والشتاء .

وجاء في كل موضع ما يناسبه ، فجاء في سورة الرحمن ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ(١٧) ﴾ ، لانها سورة ذكرت فيها المزدوجات فذكر فيها الخلق والتعليم ، والشمس والقمر ، والنجم ، والشجر ، والسماء والأرض ، والحب والثمر ، والجن والأنس ، ومادة أبي البشر ، ومادة أبي الجن ، والبحرين ، والجنة ، والنار ،وقسم الجنة إلى جنتين عاليتين ، وجنتين دونهما ، وأخبر أن في كل جنة عينين ، فناسب كل المناسبة أن يذكر المشرقين والمغربين .

[٦٩/أ] وأما سورة (سأل / سائل) فإنه أقسم سبحانه على عموم قدرته وكمالها ، وصحة تعلقها بإعادتهم بعد العدم ، فذكر المشارق والمغارب بلفظ الجمع ، إذ هو أدلّ على المقسم عليه سواء أريد مشارق النجوم ومغاربها ، أو مشارق الشمس ومغاربها ، أو كل جزء ومن جهتي المشرق والمغرب ، فكل ذلك آية ودلالة على قدرته تعالى على أن يبدل أمثال هؤلاء المكبين وينشئهم فيما لايعلمون ، فيأتي بهم في نشأة أخرى ، كما تأتي الشمس كل يوم من مطلع ، وتذهب في مغرب[٥].

---

[١] سقط من (ب) .

[٢] سورة المعارج الآيتان (٤٠ – ٤١) .

[٣] في المطبوع : (فكذلك) .

[٤] سورة الرحمن الآية (١٧) .

[٥] في المطبوع : (ويذهب في المغرب) .

وأما في سورة المزمل فذكر المشرق والمغرب بلفظ الإفراد[١] لما كان المقصود ذكر ربوبيته ووحدانيته ، وأنه كما[٢] تفرد بربوبية المشرق والمغرب وحده فكذلك يجب أن يفرد بالربوبية والتوكل عليه وحده ، فليس للمشرق والمغرب ربٌّ سواه ، فكذلك ينبغي ألا يتخذ إله ولا وكيل سواه ، وكذلك قال موسى لفرعون حين سأله : ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ(٢٣) ﴾[٣] فقال : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾[٤] وفي ربوبيته سبحانه للمشارق والمغارب تنبيه على ربوبية السموات وما حوته من الشمس والقمر والنجوم ، وربوبيته ما بين الجهتين ، وربوبية الليل والنهار وما تضمَّناه .

ثم قال : ﴿ إِنَّا لَقَادِرُونَ(٤٠)عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي القادرون[٥] على أن نذهب بهم ، ونأتي بأطوع لنا منهم وخيراً منهم ، كما قال (تعالى) : ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ إي لايفوتني ذلك إذا أردت ولا يمتنع مني[٦]، وعبر عن هذا المعنى بقوله : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ لان المغلوب يسبقه الغالب إلى ما يريده فيفوز عليه ، ولهذا عدّى (بعلي) دون (إلى) كما في قوله : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ(٦٠)عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ ﴾[٧] فإنه لما ضمنه معنى مغلوبين / ومقهورين عداه بعلي بخلاف سبقته إليه ، فإنه فرق بين سبقته عليه وسبقته إليه [٦٩/ب] فالأول : بمعنى غلبته وقهرته عليه ، والثاني : بمعنى وصلت إليه قبله .



[١] في قوله تعالى : (رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا).

[٢] في المطبوع : (كما أنه) .

[٣] سورة الشعراء الآية (٢٣) .

[٤] سور الشعراء الآية (٢٨) .

[٥] في غير الأصل : (لقادرون).

[٦] أنظر : البسيط (١ / ٣٩٢) . ت / فاضل الحموي . رسالة غير منشورة .

[٧] سورة الواقعة الآيتان (٦٠ – ٦١) .

فصل

{ قدرته سبحانه على تبديل الخلق }

وقد وقع الاخبار عن قدرته سبحانه على تبديل غيره في مواضع من القرآن ففي قدرته على تبديلهم بخير منهم وفي بعضها تبديل امثالهم وفي بعضها استبداله قوماً غيرهم ثم لا يكونوا أمثالهم[1] ، فهذه ثلاثة أمور يجب معرفة ما بينها من الجمع والفرق ، فحيث وقع التبديل بخير منهم فهو اخبار عن قدرته على أن يذهب بهم ، ويأتي بأطوع وأتقى له منهم في الدنيا ، وكذلك قوله : ﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾[2] يعني : بل يكونوا خيراً منكم .

قال مجاهد : يستبدل بهم من شاء من عباده فيجعلهم خيراً من هؤلاء فلم يتولوا بحمد الله ، و لم يستبدل بهم[3].

وأما ذكره تبديل امثالهم ففي سورة الواقعة وسورة الانسان فقال في سورة[4] الواقعة: ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ(٦٠)عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ(٦١) ﴾[5] وقال في سورة الانسان : ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا(٢٨) ﴾[6]

قال كثير من المفسرين : المعنى أنا إذا إردنا أن نخلق خلقاً غيركم لم يسبقنا سابق ، و لم يفتنا ذلك .

وفي قوله : ﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا(٢٨) ﴾ إذا شئنا أهلكناهم وأتينا بأشباههم فجعلناهم بدلاً منهم[7]. قال المهدوي : قوماً موافقين لهم في ا لخلق مخالفين لهم في العمل[8]. و لم يذكر الواحدي ولا ابن الجوزي غير هذا القول[9].

---

(1) في (ب) : (أمثالكم) .

(2) سورة محمد الآية (٣٨) .

(3) أنظر : تفسير مجاهد (٢ / ٦٠٠) . وورد ذكره أيضا في : زاد المسير (٧ / ٤١٦) ، الجامع لأحكام القرآن (١٦ / ١٧٠) . وعزاه في الدر المنثور (٧ / ٥٠٦) إلى عبد بن حميد .

(4) سقط من غير الأصل .

(5) سورة الواقعة الآيتان (٦٠ – ٦١) .

(6) سورة الإنسان الآية (٢٨) .

(7) الوسيط (٤ / ٤٠٦) .

(8) لم أهتد إلى مصدره .

(9) أنظر : الوسيط (٤ / ٤٠٦) ، البسيط (١ ، ٤٤٢) ، زاد المسير (٨ / ٤٤١).

وعلى هذا فتكون هذه الآيات نظير قوله تعالى : ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ﴾[١] فيكون استدلاله بقدرته[٢]على إذهابهم / والاتيان بأمثالهم على اتيانه بهم أنفسهم إذا ماتوا . [٧٠/أ]

ثم استدل سبحانه بالنشأة الأولى ، فذكرهم بها فقال (تعالى) : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ(٦٢) ﴾[٣] فنبَّههم بما علموه وعاينوه على صدق ما أخبرهم به رسله من النشأة الثانية .

والذي عندي في معنى هاتين الايتين وهما آية الواقعة والانسان أن المراد بتبديل أمثالهم الخلق الجديد والنشأة الآخرة التي وعدوا بها به .

وقد وفّق الزمخشري[٤]بفهم هذا من سورة الانسان فقال : وبدلنا أمثالهم في شدة الاسر يعني : النشأة الآخرة ثم قال : وقيل : بدلنا غيرهم ممن يطيع ، وحقه أن يأتي بأن لا بإذا ، كقوله : ﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾[٥]

قلت : وإتيانه بإذا التي لاتكون إلا للمحقق الوقوع يدل على تحقيق وقوع هذا التبديل ، وإنه واقع لامحالة وذلك هو النشأة الاخرى التي استدل على امكانها بقوله : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى ﴾ واستدل على المثل بالمثل[٦]، وعلى ما أنكروه بما عاينوه وشاهدوه ، وكونهم أمثالهم هو أنشاؤهم خلقاً جديداً بعينه فهم هم بأعيانهم ، وهم أمثالهم فهم أنفسهم يعادون فإذا قلت للمعاد : هذا هو الأول بعينه صدقت ، وإن قلت : هو مثله صدقت ، فهو معاد وهو مثل الأول.

---

[١] سورة النساء الآية (١٣٣) .

[٢] في (م) و (ق) والمطبوع : (استدلالاً بقدرته) .

[٣] سورة الواقعة الآية (٦٢) .

[٤] الزمخشري : هو محمود بن عمر بن محمد ، الخوارزمي الزمخشري الملقب ب : (جار الله) ، الإمام الكبير في التفسير والحديث والأدب والنحو وعلم البيان وهو أحد رؤوس المعتزلة ، له مؤلفات منها : (الكشاف) ، و (أساس البلاغة) و (المفصل في النحو) وغيرها ولد سنة ٤٦٧هـ وتوفي سنة ٥٣٨هـ . أنظر : طبقات المفسرين للسيوطي ص / (١٢٠) ، لسان الميزان (٦ / ٤) .

[٥] سورة محمد الآية (٣٨) وقد اعترض الرازي على الزمخشري حيث يقول : " واعلم أن هذا الكلام كأنه طعن في لفظ القرآن وهو ضعيف ، لأن كل واحد من إن وإذا حرف شرط ، إلا أن حرف (إن) لا يستعمل فيما يكون معلوم الوقوع ، أما حرف إذا فإنه يستعمل فيما كان معلوم الوقوع . . " الخ ، أنظر : التفسير الكبير (٣٠ / ٢٣١) .

[٦] في المطبوع : (استدل بالمثل على المثل) .

وقد أوضح سبحانه هذا بقوله : ﴿ **بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ(١٥)** ﴾[١] .

فهذا الخلق الجديد هو المتضمن لكونهم أمثالهم ، وقد سماه الله سبحانه وتعالى إعادة ، والمعاد مثل المبتدأ ، وسماه نشأة أخرى وهي مثل الأولى وسماه خلقاً جديداً وهو مثل الخلق الأول، كما قال (تعالى) : ﴿ **أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ(١٥)** ﴾ .

وسماهم أمثالاً وهم هم . فتطابقت ألفاظ القرآن وصدق بعضها بعضاً [٢]، وبهذا تزول إشكالات أوردها من لم يفهم المعاد الذي / أخبرت به الرسل عن الله ــ عز وجل ــ . [٧٠/ب]

ولا يفهم من هذا القول ما قاله بعض المتأخرين : أنهم غيرهم من كل وجه ، فهذا خطأ قطعاً ــ معاذ الله من اعتقاده ــ بل هم أمثالهم وهم أعيانهم ، وإذا فهمت الحقائق فلا يناقش في العبارة إلا ضيق العطن ، صغير العقل ، ضعيف العلم .

وتأمّل قوله (سبحانه)[٣] في الواقعة : ﴿ **أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ(٥٨)أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ(٥٩)نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ** ﴾[٤] كيف ذكر مبدأ النشأة وآخرها مستدلاً بها على النشأة الثانية (الأولى)[٥] بقوله : ﴿ **وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ(٦٠)عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ(٦١)** ﴾[٦] .

فإنكم إذا علمتم النشأة الأولى في بطون أمهاتكم ، ومبدأها مما تمنون ، ولن نغلب على ان ننشئكم نشأة ثانية فيما لاتعلمونه ، فإذا أنتم إما[٧]أمثال ما كنتم في الدنيا في صوركم وهيئاتكم ، وهذا من كمال قدرة الرب [تعالى][٨] ومشيئته ، لو تذكرتم أحوال النشأة الاولى لدلّكم ذلك على قدرة منشئها على النشأة التي كذبتم بها ، فأي استدلال وإرشاد أحسن من هذا ، وأقرب إلى العقل والفهم ، وأبعد من كل شبهة وشك ؟

---

[١] سورة (ق) الآية (١٥) .

[٢] في (ب) و (م) (وبين بعضها بعضاً) ، وفي المطبوع (فصدق بعضها بعضاً ، وبين بعضها بعضاً).

[٣] في (ب) : (عز وجل) ، وفي (م) و (ق) : بدون ، وفي المطبوع : (تعالى).

[٤] سورة الواقعة الآيات(٥٨ — ٦٠) .

[٥] سقط من المطبوع .

[٦] سورة الواقعة الآيتان (٦٠ — ٦١) .

[٧] سقط من غير الأصل و (ب) .

[٨] زيادة من غير الأصل .

وليس بعد هذا البيان والاستدلال إلا الكفر بالله وما جاءت به رسله أو الايمان .

وقال (تعالى) في سورة الانسان : ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ﴾ فهذه النشأة الاولى ، ثم قال : ﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ فهذه النشأة الاخرى ، ونظير هذا : ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى(٤٥)مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى(٤٦)وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى(٤٧) ﴾[١] ، وهذا في القرآن كثير جداً ، يقرن بين النشأتين مذكراً للفطرة والعقول بأحدهما على الاخرى . والله أعلم[٢].



[١] سورة النجم الآيات(٤٥ –٤٧) .

[٢] في (م) و (ق)والمطبوع : (وبالله التوفيق) بدل : (والله أعلم) .

﴿ فصل ﴾

فلما أقام عليهم الحجة وقطع المعذرة قال (تعالى) : ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي / يُوعَدُونَ(٤٢) ﴾[١] وهذا تهديد شديد يتضمن اترك هؤلاء الذين قامت [٧١/أ] عليهم حجتي فلم يقبلوها ولم يخافوا بأسي ولا صدقوا رسالاتي في خوضهم بالباطل ولعبهم ، فالخوض بالباطل ضدُّ التكلّم بالحق ، واللعب ضد السعي الذي يعود نفعه على ساعيه ، فالأولضد العلم النافع ، والثاني ضد العمل الصالح ، فلا تكلم بالحق ولا عمل بالصواب ، وهذا شأن كل من أعرض عما جاء به الرسول لا بد له من هذيه الأمرين .

ثم ذكر ــ سبحانه ــ حالهم عند خروجهم من القبور فقال : ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ(٤٣) ﴾[٢] أي يسرعون ، والنصب العلم والاية التيتنصب فيؤمونها ، فهذا من ألطف التشبيه وأحسنه فإن الناس يقومون من قبورهم مهطعين إلى الداعي يؤمون الصوت ، لا يعرجون عنه يمنه ولا يسرة . كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ﴾[٣] أي يقبلون من كل أوب إلى صوته وناحيته ، لا يعوجون عنه .

قال الفَّراء : وهذا كما تقول : دعوتني[٤] دعوة لا عوج لك عنها[٥].

وقال الزجاج : المعنى لاعوج لهم عن دعائه ، أي لايقدرون إلا على اتباعه وقصده[٦].

فإن قلت : إذا كان المعنى لاعوج له عن دعوته فكيف قال : لاعوج له ؟

قيل : قال طائفة اللام بمعنى عن أي لاعوج عنه ، وقالت طائفة : المعنى : لا عوج لهم عن دعائه ، كما قال الزجاج . وفي القولين تكلف ظاهر .

ولما كانت الدعوة تسمع الجميع لا تعوج عنه ، وكلهم يؤم الصوت الداعي ، ويتبعه لايعوج عنه ، كان مجئ اللام منتظماً للمعنين ودالاً عليهما ، والمعنى / لاعوج لدعائه لا في [٧١/ب]

---

[١] سورة المعارج الآية (٤٢) .
[2] سورة المعارج الآية (٤٣).
[٣] سورة طه الآية (١٠٨)
[٤] في المطبوع : (دعوتك) .
[٥] معاني القرآن للفراء (٢/ ١٩٢) .
[٦] معاني القرآن وإعرابه (٣ / ٣٧٧) .

اسماعهم إياه ولا في اجابتهم له ثم قال تعالى : ﴿ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾[١] فوصفهم بذل الظاهر وهو خشوع الأبصار وذل الباطن وهوما يرهقهم من الذل الذي خشعت عنه ابصارهم .

وقريب من هذا قوله عز وجل : ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ(٢٤)تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ(٢٥) ﴾[٢] ونظيره قوله (تعالى) : ﴿ وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ﴾[٣].

وضد هذا قوله تعالى ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى(١١٨)﴾[٤]. فنفى الجوع الذي هو ذل الباطن ، والعرى الذي هو ذل الظاهر ، وضده أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا(١١) ﴾[٥] فالنظرةعز الظاهر وجماله ، والسرور عز الباطن وجماله ،ومثله ايضا قوله (تعالى) : ﴿ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا(٢١) ﴾[٦] فجمع بين زينة الظاهر والباطن ، ومثله قوله (تعالى) ﴿ يَابَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾[٧] فجمع بين زينة الظاهر والباطن .

ومثله ايضاً قوله (تعالى) : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ(٦)وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ(٧) ﴾[٨] فزيَّن ظاهرها بالنجوم ، وباطنها بالحفظ من كل شيطان رجيم ، ومثله أيضاً قوله (تعالى) : ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾[٩] وقريب منه قوله

---

[١] سورة المعارج الآية (٤٤) .
[٢] سورة القيامة الآيتان (٢٤- ٢٥).
[٣] سورة يونس الآية (٢٧) .
[٤] سورة طه الآية (١١٨) .
[٥] سورة الإنسان الآية (١١) .
[٦] سورة الإنسان الآية (٢١).
[٧] سورة الأعراف الآية (٢٦) .
[٨] سورة الصافات الآيتان (٦-٧) وفي الأصل : (ولقد زينا ... وحفظناها) وهو خطأ
[٩] سورة غافر الآية (٦٤) .

تعالى : ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾[١] (فجمع لهم بين الزادين)[٢] ، ومنه : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ(١٠٦)وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[٣] فجمع لهؤلاء بين جمال الظاهر والباطن ، ولاولئك بين تسويد الظاهر والباطن .

[٧٢/أ] ومنه / قول امرأة العزيز : ﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾[٤] فوصفت ظاهره بالجمال وباطنه بالعفة ، فوصفته بجمال الظاهر والباطن ، فكأنها قالت : هذا ظاهره وباطنه أحسن من ظاهره ، وهذا كله يدلك على ارتباط الظاهر بالباطن قدراً وشرعاً .والله أعلم بالصواب .



---

[١] سورة البقرة الآية (١٩٧) .

[٢] سقط من المطبوع .

[٣] سورة آل عمران الآيتان (١٠٦ – ١٠٧) .

[٤] سورة يوسف الآية (٣٢) .

فصل

{ القسم في سورة القلم }

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ(١)مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ(٢) ﴾[1] والصحيح أن (ن و ق و ص) من حروف الهجاء التي يفتتح الرب (تعالى)[2] بها بعض السور وهي أحادية وثنائية وثلاثية ، ورباعية ، وخماسية ، ولم تجاوز الخمسة ، ولم يذكر قط في أول سورة إلا وعقبها بذكر القرآن إما مقسماً به ، وإما مخبراً عنه ، خلا[3] سورة أو سورتين ، سورة كهيعص و (ن)، كقوله تعالى : ﴿ الم(١)ذَلِكَ الْكِتَابُ ﴾[4] ﴿ الم(١)اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ(٢)نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾[5] ﴿ المص(١)كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾[6] ﴿ المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾[7] ، وهكذا إلى آخرها[8].

ففي هذا تنبيه على شرف هذه الحروف ، وعظم قدرها ، وجلالتها . إذ هي مباني كلامه وكتبه التي تكلم سبحانه بها وانزلها على رسله ، وهدى بها عباده ، وعرَّفهم نفسه واسماءه وصفاته وافعاله وامره ونهيه ووعده ووعيده وعرفهم بها الخير والشر والحسن والقبيح وقدرهم على التكلم بها بحيث يبلغون بها أقصى ما في انفسهم بأسهل طريق واقله كلفة ومشقة وأوصله إلى المقصود وأدله عليه .

وهذا من أعظم نعمه عليه كما هو من أعظم آياته . ولهذا عاب سبحانه على من عبد إلهاً لايتكلم ، وامتن على عباده بأن قدرهم على البيان بها بالكلام ، فكان في ذكر هذه الحروف التنبيه على كمال ربوبيته ، وكمال / إحسانه وإنعامه ، فهي أولى أن يقسم بها من الليل والنهار، [٧٢/ب]

---

[1] سورة القلم الآيتان (١-٢) .

[2] في (م) و (ق) والمطبوع : (سبحانه) بدل (تعالى) .

[3] في غير الأصل : (ما خلا) .

[4] سورة البقرة الآيتان (١-٢)

[5] سورة آل عمران الآيات(١-٣) .

[6] سورة الأعراف الآيتان (١-٢)

[7] سورة الرعد الآية (١) .

[8] في (م) و (ق) والمطبوع : (إلى آخره).

والشمس والقمر ، والسماء والنجوم ، وغيرها من المخلوقات فهي دالة أظهر دلالة على وحدانيته وقدرته وحكمته وكماله وكلامه وصدق رسله .

وقد جمع سبحانه بين الأمرين ، أعني القرآن ونطق الإنسان ، وجعل تعليمها من تمام نعمته وامتنانه . كما قال تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ(١)عَلَّمَ الْقُرْآنَ(٢)خَلَقَ الْإِنسَانَ(٣)عَلَّمَهُ الْبَيَانَ(٤) ﴾[1] فبهذه الحروف علم القرآن ، وبها علم البيان وبها فضل الانسان على سائر أنواع الحيوان ، وبها أنزل كتبه ، وبها أرسل رسله ، وبها جمعت العلوم وحفظت ، وبها انتظمت مصالح العباد في المعاش والمعاد وبها تميز[2] الحق من الباطل ، والصحيح من الفاسد ، وبها جمعت أسباب[3] العلوم ، وبها أمكن تنقلها في الاذهان ، وكم جلب بها من نعمة ، ودفع بها من نقمة ، واقيلت بها من عثرة ، وأقيمت بها من حرمة ، وهدى بها من ضلال ، واقيم بها من حق ، وهدم بها من باطل ؟ فآياته سبحانه في تعليم البيان كآياته في خلق الانسان

لولا عجائب صنع الله ما ثبتت　　تلك الفضائل في لحم ولا عصب

فسبحان من هذا صنعه في هواه يخرج من قصبة الرئة ، فينضم في الحلقوم ثم ينفرش في اقصى الحلق ووسطة وآخره وأعلاه واسفله وعلى وسط اللسان واطرافه ، وبين الثنايا وفي الشفتين والخيشوم ، فيسمع له عند كل مقطع من تلك المقاطع صوت غير صوت المقطع المجاور له فإذا هو حروف فالهم سبحانه الانسان نظم بعضها إلى بعض فإذا هي كلمات قائمة بأنفسها ثم ألهمهم تأليف تلك الكلمات بعضها إلى بعض ، فإذا هي كلام دالٌّ على انواع المعاني أمراً ونهياً وخبراً واستخباراً ونفياً واثباتاً واقراراً وانكاراً وتكذيباً وايجاباً واستحباباً وسؤالاً وجواباً ، إلى غير/ذلك [٧٣/أ] من أنواع الخطاب : نظمه ، ونشره ، ووجيزه ومطوله ، على اختلاف لغات الخلائق .

كلُّ ذلك صنعته تبارك وتعالى في هواء مجرد خارج من باطن الانسان إلى ظاهره ، وجارٍ[4] في مجار قد هيئت وأُعدَّت لتقطيعه وتفصيله ، ثم تأليفه وتوصيله فتبارك الله رب العالمين واحسن الخالقين فهذا شأن الحرف المخلوق .

---

[1] سورة الرحمن الآيات(١-٤)

[2] في (م) و (ق) والمطبوع : (يتميز) .

[3] في (م) و (ق) والمطبوع : (أشتات).

[4] سقط من المطبوع .

وأما الحرف الذي تكون به المخلوقات فشأنه أعلى وأجلّ ، وإذا كان هذا شأن الحـــروف فحقيق أن تفتتح بها السور ، كما افتتحت بالاقسام ، لما فيها من آيات الربوبية وأدلة الوحدانية . فهي دالة على كمال قدرته سبحانه وكمال علمه ، وكمال حكمته وكمال رحمته وعنايته بخلقـــه ولطفه واحسانه .

وإذا أعطيت الاستدلال بها حقه استدللت بها على المبدأ والمعـــاد ، والخلـــق والأمـــر ، والتوحيد والرسالة ، فهي من أظهر [أدلة][1] شهادة أن لا إله إلا الله ، وان محمدا عبده ورسوله ، وأن القرآن كلام الله تكلم به حقاً وأنزله على رسوله وحياً ، وبلغه كما أوحى إليه صـــدقاً ، ولا تهمل الفكرة في كل صورة افتتحت بهذه الحروف ، واشتمالها على آيات هذه المطالب ، وتقريرها . وبالله التوفيق .



---

[1] سقط من الأصل .

فصل

{ السر في الإقسام بالقلم }

ثم أقسم سبحانه بالقلم وما يسطرون ، فأقسم بالكتاب وآلته ، وهو القلم الذي هو احدى آياته وأول مخلوقاته الذي جرى بها قدره وشرعه وكتب به الوحي ، وقِيل[1] به الدين ، وأُثبتت به الشريعة ، وحُفظت به العلوم ، وقامت به مصالح العباد في المعاش والمعاد ، خاطرت به الممالك وأمنت به السبل والمسالك .

وأقام في الناس أبلغ خطيب ، وأفصحه ، وأنفعه لهم ، وأنصحه ، وواعظاً فتشفي مواعظه القلوب من السقم، وطبيباً يبري بإذى بارئه من أنواع الألم ، يكسر العساكر العظيمة على أنه الضعيف الوحيد ، ويخاف سطوته/ وبأسه ذو البأس الشديد . [٧٣/ب]

وبالأقلام تدبَّر الأقاليم ، وتساس الممالك ، والقلم لسان الضمير يناجيه بما استتر عن الأسماع ، فينسج حلل المعاني في الطرفين ، فتعود أحسن من الوشي المرقوم ، ويودعها[2] حكمه فتصير موارد الفهوم ، والأقلام نظام للأفهام .

وكما أن اللسان بريد القلب ، فالقلم بريد اللسان ، ويولّد الحروف المسموعة عن اللسان ، كتولّد الحروف المكتوبة عن القلم .

والقلم بريد القلب ورسوله وترجمانه ولسانه الصامت .



---

(١) في غير الأصل : (وقيد) .

(٢) في الأصل و (ب) : ويدعها).

فصل

{ قلم القدر }

والأقلام متفاوتة في الرُّتب فأعلاها وأجلّها قدراً قلم القدر السابق ، الذي كتب الله به مقادير الخلائق ، كما في سنن أبي داود عن عبادة بن الصامت قال : سمعت رسول الله ﷺ : يقول : " **إن أول ما خلق الله القلم . فقال له : اكتب . فقال : رب**[1]**. وما أكتب ؟ قال : اكتب مقادير كل شئ حتى تقوم الساعة** "[2] .

واختلف العلماء هل القلم أول المخلوقات أو العرش ؟ على قولين ذكرها الحافظ أبو العلاء الهمذاني[3] أصحها أن العرش قبل القلم ، لما ثبت في الصحيح من حديث عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : " **قدَّر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنه وعرشه على الماء**[4] " فهذا صريح في أن التقدير وقع بعد خلق العرش ، والتقدير وقع عند أول خلق القلم ، لحديث عبادة هذا .

---

[1] في غير الأصل : (قال : يارب) .

[2] أخرجه أبو داود في (٣٥) كتاب السنة ، (١٧) باب في القدر ، ح (٤٦٦٨) ، والترمذي في (٣٣) كتاب القدر (١٧) باب ح (٢١٥٥) وقال: حديث غريب من هذا الوجه ، والفريابي كتاب القدر ح (٤٢٥) ، والأجري في الشريعة في (٣٧) باب الإيمان بما جري به القلم مما يكون أبداً ح (٣٤٦ – ٣٤٧) واللالكائي في شرح أصول اعتقا د أهل السنة ، في سياق ما فسر من الآيات في كتاب الله عز وجل ((وما روي في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في إثبات القدر ، وابن بطة في الإبانة الكبرى في (٨) باب الإيمان بأن الله عز وجل خلق القلم . ح (١٣٦٢) وابن أبي عاصم في السنة ح ( ) جميعهم من حديث عبادة بن المصامت . والحديث صحيح بمجموع طرقه كما قال الشيخ الألباني رحمه الله : الحديث صحيح بلا ريب . انظر تخريجه للمشكاة (١/ ٣٤) .

[3] أبو العلاء الهمذاني : هو الحافظ العلامة المقرئ شيخ الإسلام الحسن بن أحمد بن محمد بن سهل العطار تقي الدين شيخ همذان ، حافظ متقن ، ومقرئ فاضل ، يعرف القراءات والحديث . . من شيوخه : ابن البناء الخليلي ، وابن عساكر وأبو العز القلانسي ومحمد بن أبي يعلى الفراء وغيرهم ، من مؤلفاته : غاية الاختصار ، فتيا وجوابها في الاعتقاد وذم الاختلاف ، زاد المسير وغيرها ، توفي سنة (٥٦٩هـ) . انظر : السير (٢١/ ٤٠-٤٧) ، طبقات المفسرين (١/ ١٣٢-١٣٥) .

[4] أخرجه مسلم في (٤٦) كتاب القدر ، (٢) باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام ح (٢٦٥٣) وغيره من أصحاب السنن والمسانيد .

ولا يخلوا قوله : " **إن أول ما خلق الله القلم ...** " الى آخره إما أن يكـون جملـة أو جملتين :

* فإن كان جملة " وهو الصحيح " كان معناه أن عند أول خلقه قال له : اكتب ، كما في اللفظ " أول ما خلق الله القلمَ ، قال له : اكتب " بنصب أول ، والقلم .

* وإن كان جملتين وهو مروي برفع أول والقلم ، فيتعين حمله على أنه أول مخلوقات من هذا العالم ، ليتفق الحديثان إذ حديث عبد الله بن عمرو صريح في أن العرش سابق على التقدير ، والتقدير مقارن لخلق القلم ، وفي اللفظ الاخر " **لما خلق الله القلم قال له أكتب** " فهذا / القلم [٧٤/أ] أول الاقلام وافضلها واجلها وقد قال اكثر من واحد من أهل التفسير انه القلم الذي أقسم الله تعالى به [1].



[1] اختلف العلماء رحمهم الله في مسألة : هل القلم أول المخلوقات أم العرش على قولين :

الأول: قالوا أول المخلوقات هو القلم . وذهب إليه ابن جرير رحمه الله (تاريخ الأمم والملوك ١/ ٣٥) ، وابن الجوزي كما في البداية والنهاية (١/ ٨) ومن المعاصرين الشيخ الألباني (السلسلة الصحيحة ح : ١٣٣) . واستدلوا بحديث أبي هريرة : (أول شيء خلق الله القلم) . وحديث ابن عباس ، وعبادة ابن الصامت : (أول ما خلق الله القلم).

الثاني : قالوا أول المخلوقات هو العرش :

وهو قول جمهور العلماء ، حيث اختاره شيخ الإسلام (مجموع الفتاوى ١٨/ ٢١٣) وابن القيم كما هنا ، وابن كثير كما في البداية والنهاية (١/ ٩) ، وابن أبي العز الحنفي كما في شرح الطحاوية (٢/٣٤٥) ، وقال الحافظ ابن حجر : (والأكثر على سبق خلق العرش) الفتح (٦ / ٢٨٩) وحملوا حديث القلم على أنه أول المخلوقات من هذا العالم البداية والنهاية (١ / ٩) .

فصل

{ قلم الوحي }

القلم الثاني : قلم الوحي ، وهو الذي يكتب به وحي الله (عزّوجلّ) إلى انبيائه ورسله واصحاب هذا القلم هم الحكام على العالم ، والعالم خدم لهم ، وإليهم الحل والعقد ، والأقلام كلها خدم لاقلامهم ، **وقد رفع النبي ﷺ ليلة أسري به إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام**[١]

فهذه الاقلام هي التي تكتب ما يوحيه الله تبارك وتعالى من الامور التي يدبر بها أمر العالم العلوي والسُّفلي(٢) .



---

[١] أخرج البخاري في (٨) كتاب الصلاة . (١) باب كيف فرضت الصلوات في الإسراء ح (٣٤٩) ، مسلم في (١) كتاب الإيمان (٧٤) باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السموات ، وفرض الصلوات ح (١٦٣) . من حديث أبي ذر رضي الله عنه وفيه (ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام).

[2] من قوله (اختلف العلماء . . إلى هنا) موجود في شرح الطحاوية (٢/٣٤٥-٣٤٦) .

﴿ فصل ﴾

{ قلم الفقهاء والمفتين }

والقلم الثالث : قلم التوقيع عن الله ورسوله وهو قلم الفقهاء والمفتين .

وهذا القلم أيضاً حاكم غير محكوم عليه فإليه التحاكم في الدماء والاموال والفروج والحقوق ، وأصحابه مخبرون عن الله بحكمه الذي حكم به بين عباده واصحابه حكّام وملوك على أرباب الأقلام ، وأقلام العالم خدم لهذا القلم .



فصل

{ قلم الطب }

القلم الرابع : قلم طبّ الأبدان التي تحفظ بها صحتها الموجودة وترد إليها به صحتها المفقودة وتدفع به عنها آفاتها وعوارضها المضادّة لصحتها .

وهذا القلم انفع الأقلام بعد قلم طبّ الأديان وحاجة الناس إلى اهله تلتحق بالضرورة .



فصل

{ قلم التوقيع عن الملوك }

القلم الخامس : قلم التوقيع عن الملوك ونوابهم ، وبه تساس الممالك .

ولهذا كان أصحابه أعز اصحاب الاقلام المشاركون للملوك في تدبير الدول فإن صلحت أقلامهم صلحت المملكة ، وإن فسدت أقلامهم فسدت المملكة ، وهم وسائط بين الملوك ورعاياهم .



﴿ فصل ﴾

{ قلم الحساب }

القلم السادس : قلم الحساب.

وهو القلم الذي تضبط به الأموال مستخرجها ومصروفها ومقاديرها ، وهو قلم الأرزاق ، وهو قلم الكم المتصل والمنفصل الذي تضبط به المقادير . وما بينهما من التفاوت/ والتناسب ، [٧٤/ب] ومبناه على الصدق والعدل ، فإذا كذب هذا القلم وظلم فسد أمر المملكة .



﴿ فصل ﴾

{ قلم الحكم }

القلم السابع : قلم الحكم الذي تثبت به الحقوق ، وتنفذ به القضايا ، وتراق به الدماء ، وتُؤخذ به الأموال والحقوق من اليد العادية فترد إلى[1] اليد المحقة ، وتثبت به الأنساب ، وتنقطع به الخصومات .

وبين هذا القلم وقلم التوقيع عن الله عموم وخصوص ، فهذا له النفود واللزوم وذاك لـــه العموم والشمول ، وهو قلم قائم بالصدق فيما يثبته ، وبالعدل فيما يمضيه وينفّذه .



---

[1] في (ق) : (فترده) .

﴿ فصل ﴾

{ قلم الشهادة }

القلم الثامن : قلم الشهادة .

وهو القلم الذي تحفظ به الحقوق ، وتُصان عن الإضاعة وتحول بين الفاجر وإنكاره ، ويصدق الصادق ، ويكذب الكاذب ، ويشهد للمحق بحقه ، وعلى المبطل بباطله ، وهو الأمين على الدماء والفروج والأموال والأنساب والحقوق ، ومتى خان هذا القلم فسد أمر العالم أعظم فساد ، وباستقامته يستقيم أمر العالم . ومبناه على العلم وعدم الكتمان .



فصل
{ قلم التعبير }

القلم التاسع : قلم التعبير .

وهو كاتبٌ وحي المنام وتفسيره وتعبيره وما أُريد به[1]، وهو قلم شريف جليل متـــرجم للوحي المنامي كاشفٌ له وهو من الأقلام التي تصلح للدنيا والدين ، وهو يعتمد طهارة صـــاحبه ونزاهته وامانته وتحرّيه للصدق ، وللطرائق الحميدة والمناهج السديدة ، مع علمٍ راسخٍ وصفاءِ باطن ، وحسٍ مُؤَيَّد بالنور الإلهي ، ومعرفة بأحوال الخلق وهيئاتهم وسيرهم .

وهو من ألطف الأقلام وأعمِّها جولاناً وأوسعها تصرفاً ، واشدها تشبثاً بسائر الموجودات علويها وسُفليِّها وبالماضي والحال والمستقبل ، فتصرّف هذا القلم في المنام هو محلُّ ولايتهِ وكرسي مملكته وسلطانه .



[1] في المطبوع : (منه).

فصل

{ قلم تواريخ العالم }

القلم العاشر : قلم تواريخ العالم ووقائعه .

وهو القلم الذي تضبط به الحوادث وتُنقل من أمة إلى أمة ، ومن قرن إلى قرن فيحصر ما مضى من العالم وحوادثه في الخيال وينقشه في النفس ، حتى كأن السامع يرى ذلك ويشهده ، فهو قلم المعاد الروحاني .

وهذا القلم قلم / العجائب ، فإنه يعيد لك العالم في صورة الخيال فتراه بقلبك وتشـاهده بصيرتك . [٧٥/أ]



﴿ فصل ﴾

{ قلم اللغة }

القلم الحادي عشر : قلم اللغة وتفاصيلها من شرح معاني ألفاظها المفردة ونحوها وتصريفها وأسرار تراكيبها ، وما يتبع ذلك من أحوالها ووجوهها وأنواع دلالتها على المعاني وكيفية الدلالة وهو قلم التعبير عن المعاني باختيار[1] أحسن الألفاظ وأعذبها وأسهلها وأوضحها .

وهذا القلم واسع التصرُّف جداً بحسب سعة الألفاظ وكثرة مجاريها وتنوعها .



---

[1] في الأصل والنسخ الأخرى : (بأحبار) ، وما أثبته من المطبوع .

﴿ فصل ﴾

{ قلم الرد على المبطلين }

القلم الثاني عشر : القلم الجامع ، وهو قلم الردِّ على المبطلين ورفع سنة المحققين وكشف أباطيل المبطلين على اختلاف أنواعها وأجناسها وبيان تناقضهم وتهافتهم وخروجهم عن الحق ودخولهم في الباطل .

وهذا القلم في الأقلام نظير الملوك في الأنام[1]، واصحابه أهل الحجَّة و النَّاصرون لما جاءت به الرسل المحاربون لأعدائهم وهم الدَّاعون إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، المجادلون لمن خرج عن سبيله بأنواع الجدال . وأصحاب هذا القلم حربٌ لكل مبطل عدوٌ لكل مخالف للرسل فهم في شأن وغيرهم من أصحاب الأقلام في شأن .

فهذه الأقلام التي بها انتظام مصالح العالم ويكفي في جلالة القلم أنه لم تكتب كتب الله إلا به ، وان الله سبحانه أقسم به في كتابه وتعرف إلى غيره بأن علم بالقلم . وإنما وصل إلينا ما بعث به نبينا ﷺ بواسطة القلم .

---

[1] في (ب) : (الأيام) .

ولقد أبدع أبو تمام[1] إذ يقول في وصفه :

لـك القلـم الماضـي الـذي بثباتـه يصـاب مـن الأمـر الكلـى والمفاصـل
لـه ريقـة طـل ولكـن وقعهـا بآثـاره فـي الغـرب والشـرق وابـل
لعـاب الأفـاعي القـاتلات لعابـه وارش الجنـا اشـتارته ايـد عواسـل
لـه الخلـوات الـلاء لـولا نحيبهـا لمـا احتفلـت للملـك تلـك المحافـل
فصـيح إذا اسـتنطقته وهـو راكـب وأعجـم ان خاطبتـه وهـو راجـل
إذا مـا متطـي الخمـس اللطـاف وافرغـت عليـه شـعاب الفكـر وهـي حوافـل
اطاعتـه أطـراف القنـا وتقوضـت لنجـواه تقـويض الخيـام الجحافـل
إذا اسـتغزر الـذهن الـذكي واقبلـت أعاليـه فـي القرطـاس وهـي أسـافل
وقـد رفدتـه الخنصـران وسـددت ثـلاث نواحيـه الـثلاث الأنامـل
رأيـت جليـلاً شـأنه وهـو مرهـق ضـنا وسـمينا خطبـه وهـو هـازل[2]



---

[1] أبو تمام هو : حبيب بن أوس بن الحارث الطائي ، الشاعر الأديب ولد في جاسم من قرى حوران بسـورية ثم انتقـل إلى مصـر ، واستقدمه المعتصم إلى بغداد ، فأجازه وقدمه على شعراء وقته ، ثم ولي بريد الموصل فلم يتم سنتين حـتى تـوفى بهـا مـن مؤلفاتـه (فحول الشعراء – ديوان الحماسة – نقائض جرير والأخطل) وغيرها توفى سنة ٢٣٢هـ أنظر الأعلام للزركلي (٢/ ١٦٥) .

[2] في المطبوع : (وهو ناحل) .

فصل
{ بيان المقسم عليه }

والمقسم عليه بالقلم والكتابة في هذه السورة تتريه نبيه ورسوله ﷺ[(١)] عما يقول فيه اعداؤه وهو قوله تعالى : ﴿ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ(٢) ﴾[(٢)] وأنت أذا طابقت بين هذا القسم والمقسم به وجدته دالاً عليه أظهر دلالة وابينها ، فإن ما سطر الكتاب[(٣)] بالقلم من أنواع العلوم التي يتلقاها البشر بعضهم عن بعض لاتصدر من مجنون ، ولا تصدر إلا ممن له عقل[(٤)] وافر فكيف يصدر ما جاء به الرسول من هذا الكتاب الذي هو[(٥)] في أعلى درجات العلوم ؟

بل العلوم التي تضمَّنها ليس في قوى البشر الاتيان بها ، ولا سيما من أمي لايقرأ كتاباً ولا يخطه بيمينه مع كونه في أعلا أنواع الفصاحة سليماً من الاختلاف بريأً من التناقض يستحيل من العقلاء كلهم لو اجتمعوا في صعيد واحد أن يأتوا بمثله ولو كانوا على[(٦)] عقل رجل واحد منهم . فكيف يأتي ذلك من مجنون لا عقل له يميز به ما عسى كثير من الحيوان أن يميزه ؟ وهل هذا إلا من أقبح الهيئات وأظهر الافك .

فتأمل شهادة هذا المقسم به للمقسم به عليه ودلالته عليه أتم دلالة ولو أن رجلاً أنشأ رسالة واحدة بديعة منتظمة الأولوالاخر متساوية الاجزاء يصدق بعضها بعضاً أو قال قصيدة [٧٦/أ] كذلك أو صنف كتاباً كذلك لشهد له/ العقلاء بالعقل ولما استجاز أحد رميه بالجنون مع إمكان[(٧)] وقوع معارضتها ومشاكلتها والاتيان بمثلها أو احسن منها . فكيف يرمى بالجنون من أتى بما عجزت العقلاء كلهم قاطبة عن معارضته ومماثلته ؟! ، وعرّفهم من الحق ما لا تهتدي إليه

---

(١) سقط من غير أصل و (ب) .

(٢) سورة القلم الآية (٢) .

(٣) في المطبوع : (الكاتب) .

(٤) في (م) و (ق) والمطبوع : (إلا من عقلٍ وافرٍ) وفي (ب) : (من له عقل) .

(٥) سقط من (م) و (ق) .

(٦) في (م) و (ق) والمطبوع : (في) بدل (على) .

(٧) في غير الأصل : (مع إمكان بل وقوع) .

عقولهم ؟ ، بحيث اذعنت له عقول العقلاء ، وخضعت له ألباب الألباء[1]، وتلاشت في جنب ما جاء به بحيث لم يسعها إلا التسليم له والانقياد والاذعان طائعة مختارة وهي ترى عقولها أشد فقراً وحاجة إلى ما جاء به ولا كمال لها إ لا بما جاء به .

فهو الذي كمل عقولها كما يكمل الطفل برضاع الثدي ولهذا[2]اتباعه أعقل الخلق على الإطلاق وهذه مؤلفاتهم وكتبهم في جميع[3] الفنون إذا قارنت[4]بينها وبين مؤلفات مخالفيهم ظهر لك التفاوت بينها ويكفي في عقولهم أنهم عمروا الدنيا بالعلم والعدل ، والقلوب بالايمان والتقوى فيكف يكون متبوعهم مجنوناً ؟ وهذا حال كتابه وهديه وسيرته ، وحال اتباعه ، وهذا إنما حصل له ولاتباعه بنعمة الله عليه وعليهم فنفى عنه الجنون بنعمته عليه .

وقد اختلف في تقدير الآية فقالت فرقة : الباء في بنعمة ربك باء القسم ، فهو قسم آخر اعترض بين المحكوم به والمحكوم عليه ، كما تقول : ما أنت بالله بكاذب وهذا التقدير ضعيف جداً ، لأنه قد تقدم القسم الأول فكيف يقع القسم الثاني في جوابه ؟ ولا يحسن أن تقول : والله ما أنت بالله بقائم ، وليس هذا من فصيح الكلام ، ولا عهد به في كلامهم.

وقالت فرقة : العامل في بنعمة ربك أداة معنى النفي أو معنى انفي عنك الجنون بنعمة ربك وردَّ أبو عمرو بن الحاجب[5]وغيره هذا القول بأن الحروف لاتعمل معانيها ، وإنما تعمل الفاظها . وقال الزمخشري : (يتعلق بنعمة ربك بمجنون منفياً كما يتعلق / بعاقل مثبتاً في قولك : [٧٦/ب] أنت بنعمة الله عاقل ، يستوي[6]في ذلك الإثبات والنفي استوائهما في قولك : ضرب زيد عمراً

---

(1) في المطبوع : (الأولياء).

(2) في المطبوع : زيادة (فإن) .

(3) سقط من المطبوع .

(4) في غير الأصل : (وازنت) بدل : (قارنت) .

(5) أبو عمرو بن الحاجب : هو عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس الكردي الدويني الأصل ، الأسنائي المالكي المعروف بابن الحاجب (أبو عمرو ، جمال الدين) فقيه مقرئ أصولي نحوي صرفي عروضي ، من تصانيفه : (الإيضاح شرح المفصل – الكافية في النحو – جامع الأمهات في فروع الفقه المالكي ، توفى سنة (٦٤٦هـ) ، انظر : شذرات الذهب (٥/٢٣٤-٢٣٥) . معجم المؤلفين (٢/٣٦٦) .

(6) في (ب) و (م) و (ق) : (يستويا) وفي المطبوع : (يستويان) .

[وما ضرب زيد عمراً][١] . تعمل الفعل مثبتاً ومنفيا اعمالا واحداً ومحله النصب على الحـــال ، أي ما أنت بمجنون منعماً عليك بذلك ، ولم يمنع الباء أن يعمل مجنون فيما قبله لأنها زائدة لتأكيد النفي)[٢] ، واعترض عليه بأن النفي إذا تسلط على محكوم به وله معمول فإنه يجوز فيه وجهان :

أحدهما نفي ذلك المعمول فقط ، نحو قولك : ما زيد بذاهب مسرعاً ، فإنه ينتقي الاسراع دون القيام ولا يمتنع ان تثبت له ذهاب في غير اسراع .

والثاني : نفي المحكوم به فينتفي معموله بانتفائه ، فينتفي الذهاب في هذا الحـــال فينتفـــي الاسراع بانتفائه فإذا جعل بنعمة ربك معمولاً لمجنون لزم أحد الأمرين وكلاهما منتفي جزمـــاً[٣]، وهذا الاعتراض هنا فاسد ، لان المعنى إذا جعل[٤]ما أنت بمجنون منعماً عليك لزم من صدق هذا الخبر نفيهما قطعاً ، ولا يصحّ نفي المعمول وثبوت العامل في هذا الكلام ، ولا يفهمه منه من لـــه آلة الفهم ، وإنما يفهم الآدمي من هذا الكلام أن الجنون انتفى عنك بنعمة الله عليك وانتفى عنا ما فهمه هذا المعترض بنعمة الله علينا .

ثم اخبر سبحانه عن كمال حالتي نبيه في دنياه واخراه ، فقال (تعالى) : ﴿ **وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ(٣)** ﴾[٥] أي غير مقطوع ، بل هو دائم مستمر ، ونكّر الاجر تنكير تعظيم ، كمـــا قال (تعالى) : ﴿ **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً**﴾ ﴿ **وإن في ذلك لاية** ﴾ و ﴿ **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ** ﴾[٦] و ﴿ **إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا** ﴾[٧] و ﴿ **وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ**﴾[٨] وهو كثير ، وإنما كـــان التنكير للتعظيم [لأنه] صور[٩] للسامع بمنزلة امر عظيم لا يدركه الوصف ولا يناله التعبير . ثم قال (تعالى) : ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ(٤)**﴾[١٠] وهذه من أعظم آيات نبوته ورسالته لمن منحه الله [٧٧/أ]

---

[١] سقط من الأصل .
[٢] الكشاف : (٤/ ٥٨٤ – ٥٨٥) .
[٣] الذي اعترض عليه هو أبو حيان ، أنظر البحر المحيط (٨ / ٣٠٨) .
[٤] في غير الأصل : (حصل) .
[٥] سورة القلم الآية (٣) .
[٦] كما في أيات كثيرة في كتاب الله .
[٧] سورة النبأ الآية (٣١) .
[٨] سورة ص الآية (٢٥) وقد سقطت هذه الآية من المطبوع .
[٩] في الأصل : (لا صور) .
[١٠] سورة القلم الآية (٤) .

فهمها ، ولقد سئلت أم المؤمنين عن خلقه ﷺ / فأجابت بما شفى وكفى ، فقالت : **كان خلقه القرآن** . فهم[١] سائلها أن يقوم ولا يسئلها شيئا بعد ذلك .

وقال[٢] ابن عباس وغيره : أي على دين عظيم[٣]، وسمي الدين خلقاً : لان الخلق هيئة مركّبة من علوم صادقة وإرادات زاكية ، وأعمال ظاهرة وباطنة موافقة للعدل والحكمة والمصلحة ، وأقوال متطابقة[٤] للحق تصدر تلك الأقوال والأعمال عن تلك العلوم والإرادات فتكتسب النفس بها أخلاقاً هي أزكى الأخلاق وأشرفها وأفضلها ، وهذه كانت أخلاق رسول الله ﷺ المقتبسة من مشكاة القرآن ، فكان كلامه مطابقاً للقرآن تفصيلاً له وتبيينا ، وعلومه علوم القرآن ، وإرادته وأعماله ما اوجبه وندب إليه القرآن ، وإعراضه وتركه لما منع منه القرآن ، ورغبته في مارغب فيه وزهده فيما زهد فيه ، وكراهته لما كرهه ، ومحبته لما أحبه ، وسعيه في تنفيذ اوامره وتبليغه ، والجهاد في إقامته ، فترجمت ام المؤمنين لكمال معرفتها بالقرآن وبالرسول[٥] وحسن تعبيرها عن هذا كلّه : بقولها : **كان خلقه القرآن** ، وفهم السائل عنها هذا المعنى ، فاكتفى به واشتفى .

وإذا[٦] كانت أخلاق العباد وعلومهم وارادهم وأعمالهم مستفادة من القلم وما يسطرون وكان في خلق القلم والكتابة إنعاما عليهم واحساناً إليهم ، إذ[٧] وصلوا به إلى ذلك ، فكيف ينكرون إنعامه وإحسانه على عبده ورسوله الذي أعطاه أعلى الأخلاق ، وأفضل العلوم والأعمال والإردات التي لاهتدي العقول إلى تفاصيلها من غير قلم ولا كتابة ، فهل هذا إ لا من أعظم آيات

---

[١] أخرجه مسلم في (٦) كتاب صلاة المسافرين ، (١٨) باب جامع صلاة الليل ، ومن نام عنه أو مرض ح (٧٤٦) من حديث قتادة عن زرارة أن سعد بن هاشم بن عامر أراد أن يغزو ... (إلى أن قالت أم المؤمنين عائشة :) فإن خلق نبي الله صلى الله عليه وسلم كان القرآن . الحديث .

[٢] في المطبوع : (ومن هذا قال..) .

[٣] قول أبن عباس أخرجه الطبري في تفسيره (٢٩/ ١٨) .وورد ذكره أيضاً في : البسيط (٢/ ٦٦٨) . ت . فاضل المحوي ، معالم التنزيل (٨ / ١٨٧) ، زاد المسير (٨ / ٣٢٨).

[٤] في غير الأصل : (مطابقة).

[٥] في المطبوع : زيادة (صلى الله عليه وسلم).

[٦] في (م) و (ق) والمطبوع : (فإذا)

[٧] في (ب) : (إذا) .

نبوته وشواهد صدق رسالته ، وسيعلم أعدؤه المكذبون له أيهم المفتون هو أو[١]هم ، وقد علموا هم والعقلاء ذلك في الدنيا / ويزداد علمهم في البرزخ ، وينكشف ويظهر كل الظهور في [٧٧/ب] الآخرة بحيث تتساوى اقدام الخلائق في العلم به .

وقد اختلف في تقدير قوله : { بأيكم المفتون} :

فقال أبو عثمان المازني[٢]: هو كلام مستأنف . والمفتون عنده مصدر أي بأيكم الفتنة ، والاستفهام عن أمر دائر بين اثنين قد علم انتفاؤه عن أحدهما قطعاً فتعين حصوله للاخر .

والجمهور على خلاف هذا التقدير وهو عندهم متصل بما قبله ، ثم لهم فيه أربعة أوجه :

أحدها : أن الباء زائدة ، والمعنى أيكم المفتون ، وزيدت في المبدأ كما زيدت في قولك بحسبك أن تفعل ، قاله أبو عبيدة[٣].

الثاني : أن المفتون بمعنى الفتنة أي ستبصر ويبصرون بأيكم الفتنة ، والباء على هذا ليست بزائدة ، قاله الأخفش[٤].

الثالث : أن المفتون مفعول على بابه ، ولكن هنا مضاف محذوف تقديره بأيكم فتون المفتون ، وليست الباء زائدة ، قاله الاخفش أيضاً .

الرابع : إن الباء بمعنى (في)، والتقدير في أي فريق منكم النوع المفتون ، والباء على هذا ظرفية[٥]. وهذه الاقوال كلّها تكلّف ظاهر لاحاجة إلى شئ منه ، و(ستبصر) مضمن[٦]معنى: تشعر وتعلم ، فعدى بالباء كما تقول : ستشعر بكذا ، وتعلّم به ، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ وإذا دعاك اللفظ إلى المعنى من مكان قريب فلا تجب من دعاك إليه من مكان بعيد .



---

[١] في (م) و (ق) والمطبوع : (أم) .

[٢] أبو عثمان المازني : هو بكر بن محمد بن بقية المازني البصري ، أبو عثمان ، نحوي ، أديب ، لغوي ، روى أبي عبيدة والأصمعي وأبي زيد الأنصاري وغيرهم ، وأخذ عنه : المبرد وتوفي بالبصرة : من تصانيفه : علل النحو ، كتاب التصريف كتاب العروض . توفي سنة (٢٤٨هـ) .انظر : تاريخ بغداد (٧/٩٣-٩٤) ، إنباه الرواة ١/(٢٤٦-٢٥٦) .

[٣] في المطبوع : (أبو عبيد) وهو تحريف ، وانظر : مجاز القرآن (٢/ ٢٦٤).

[٤] مذهب الأخفش في معانيه : (أنها زائدة) . أنظر : معاني القرآ ن للأخفش . (٢ / ٥٤٧) .

[٥] وإليه ذهب الفراء . انظر : معاني القرآن (٣ / ١٧٣).

[٦] في (ب)و (ق) : (مضمر) .